

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، وواقعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء الخامس

دار المرتضى


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



٥

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري
E-mail: mortada14@hotmail.com

■ الحقوق جميعها محفوظة ■
ولا يحق لأي شخص، أو مؤسسة، أو جهة، إعادة طبع الموسوعة أو ترجمتها إلا بترخيص من المؤلف والناشر

Printed in Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة

الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

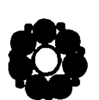
أحاديث عن أنصارها ومنا وئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الإسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

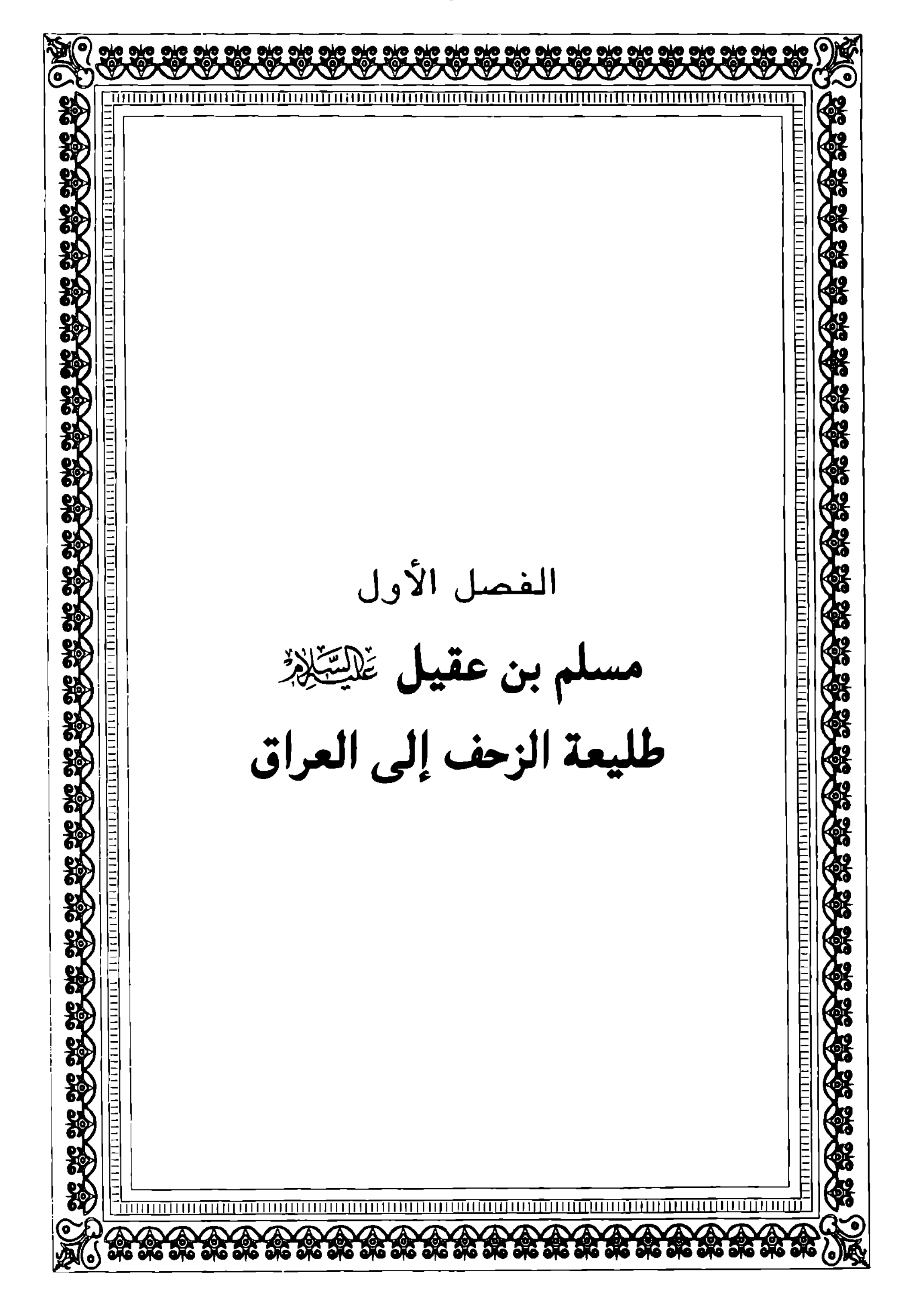
محمد نعمة السماوي

الجزء الخامس


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه





الفصل الأول

مسلم بن عقيل عليه السلام

طليعة الزحف إلى العراق

مسلم بن عقيل عليه السلام
طليعة الزحف إلى العراق

تمهيد

يكاد يكون خروج مسلم بن عقيل بن ابي طالب وابن عم الامام الحسين عليه السلام [1]، إلى العراق ملحمة لوحدها، تكوّن مع اختها ملحمة الطف، أهم حدث أثّر على حياة المسلمين ومصيرهم، مع أن العديد من المؤرّخين المسلمين وغيرهم لم يلتفتوا إليها ولم يدرسوها على هذا الأساس ونظر كثيرون منهم اليها كحدثين مأساويين لم تُعدّ لهما عدّتهما، وقد نجم عنهما موت العديدين ميتة بشعة، وكان لهم أن يحفظوا أرواحهم دون اللجوء إلى مواجهة الدولة الأموية القوية!

ولو أن الثورة حققت هدفها على المدى القصير وانتصرت عسكرياً وانتزعت السلطة من يزيد، لرأينا منطق هؤلاء يختلف عن منطقهم الحالي، ولرأينا حينذاك كيف سيعمد هؤلاء إلى اعتبار خروج الحسين عليه السلام وقبله مسلم بن عقيل إلى العراق الحدث الطبيعي الذي كان ينبغي أن يتم في ظل تلك الظروف

لكنهم عندما ينظرون إلى النتائج المباشرة التي تمخضت عنها الثورة، وهي

---

(١) هو مسلم بن عقيل بن ابي طالب بن عبد المطلب ابن عم الامام الحسين عليه السلام بن علي بن ابي طالب عليه السلام ولد مسلم في المدينة واستشهد في الكوفة عام ستين وروي أن عمره كان ٣٤ أو ٣٨ سنة وربما كان أكثر من ذلك وقد نشأ في بيت عمه امير المؤمنين عليه السلام وحضر معه وقائع الجمل وصفين والنهروان، وكان لنشأته مع ابني عمه الحسن والحسين عليهما السلام أثره البالغ في سلوكه وتربيته الرسالية، وتحمّله مسؤولية السفارة بين الحسين عليه السلام وأهل الكوفة وأدائه الرائع لرصّ الصفوف حوله ورفضه التخلي عنه ومواجهته الشجاعة للطاغية ابن زياد ودولة الظلم الأموية. . وقد كانت زوجته رقية الصغرى بنت أمير المؤمنين عليه السلام مع الحسين عليه السلام في ركبه مع بنتها وأولادها الذين استشهدوا في واقعة الطف وبعدها. . . ولعلّ مميزاته الشخصية الفريدة جعلت الامام عليه السلام يرى فيه الشخص المؤهّل الوحيد القادر على القيام بالمهمة التي قام بها، كما سنرى في غضون هذه الدراسة بعون الله تعالى.

مقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام وسبي نسائه وأطفاله، وخلو الجو ليزيد وأعوانه ليتمادوا في عبثهم وطغيانهم، راحوا يصبون اللوم عليهم، ويعتبرون أن خروجهم كان مجازفة خطيرة وأمراً من شأنه أن يزعزع أمن المسلمين ووحدتهم وألفتهم وجماعتهم؛ ويعمدون إلى نفس المبررات التي عمد إليها أركان السلطة الغاشمة، ليقمعوا الثورة بذلك الشكل الدموي العنيف

ولا شك أننا سنلمس من خلال مسيرة مسلم إلى العراق، وما وقع له من حوادث في الكوفة وحواره مع ابن زياد وصلابته حتى آخر لحظة من حياته رغم التهديد والمعاملة العنيفة التي أخذ بها، ورغم إصابته بالعديد من الجروح البليغة، قناعته التامة بسلامة موقفه المؤيد لامام الأمة، وحرصه الشديد على أن تتمثل طاعته له في حسن الأداء، والمضي بمهمته التي انتدبه إليها إلى النهاية، حتى وهو يقف وحيداً مخذولاً جريحاً أمام ابن زياد وجنده وحرسه وحاشيته ويذهب به ليرمى من أعلى شرفات القصر لتتهشم أعضاؤه وجسمه ..

وقد أخذ العديدون على مسلم عدم لجوئه إلى نفس الأساليب الأموية الغادرة ، التي كان ينبغي ـ بنظرهم ـ أن يلجأ اليها، وهو يواجه قوتهم ويسعى إلى إزالة دولتهم (إن رسول الحسين إلى أهل العراق، لم يكن على قدر المهمة المطلوبة، فقد جاءته فرصة تمكن فيها من عدوّه عبيدالله بن زياد، فلم يقتله، تديّناً أو تجبّناً، فكيف يخرج على يزيد ويقاتله، ولا يقتل عبيدالله، وكلهم سواء؟)[1].

إن هذا القول ـ وقد اخترته هنا ـ لأنه معاد ومكرر، وهو يطرح غالباً عند تناول عمل مسلم في الكوفة، يدل على جهل مطبق بطبيعة هذا الرجل الذي ينتمي إلى عائلة الرسول صلى الله عليه وآله نفسها، ونشأ مع نفس الجيل الذي تلقى الاسلام نقياً واضحاً دون تزييف أو تغيير، عن أهل الاسلام أنفسهم وعن مصدره الثاني بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ أمير المؤمنين عليه السلام ، كما أن هذا القول يدل على جهل بالمهمة الرسالية الكبيرة التي انتدب لها من قبل ابن عمه عليه السلام ، فكان لا بد أن ينظر إلى الأمور بغير النظرة النفعية التي ينظر بها غيره من طلاب الحكم والجاه والثروة والذين يوالونهم ويزينون لهم أعمالهم من الشعراء والمؤرخين ورواة السير و(المحدّثين) وأشباههم، وأولئك الذين

(١) محمد سليمان العبده، حركة النفس الزكية، دار الأرقم ـ الكويت ط١، ١٩٨٣، المقدمة.

يعالجون الأحداث والأوضاع الاسلامية بتصورات وأساليب وأدوات غير إسلامية، وكان لا بد أن يرى هؤلاء في مواقف الحسين عليه السلام أو مسلم غير ما كانوا يتوقعونه لو كان يزيد أو ابن زياد في تلك المواقف مثلًا، عندما يكون هناك خلاف أو منافسة على السلطة وحسب، دون أخذ المبادىء بنظر الاعتبار...

لم يفهم أحد من هؤلاء المؤرخين إقدام الحسين عليه السلام على الإيعاز لفتيانه وأصحابه لتزويد الحر وجماعته بالماء وقد أتوا لمحاصرتهم، وقد منعوهم الماء بعد ذلك مع بقية جيش ابن زياد، كما لم يفهم أحد منهم سبب سماح امير المؤمنين عليه السلام لجيش معاوية ورود الماء الذي منعوهم عنه قبل ذلك، كما أخذوا عليه العديد من المواقف الأخرى التي حاولوا بها أن يدللوا على (قصوره) في مجال السياسة والحكم، ومنها عدم السماح بإقرار معاوية أو ولاة عثمان السابقين على مناصبهم لحين استتباب الأمور لصالحه، وهو ما تحدثنا عنه في هذه الدراسة وأوضحنا أسبابه الحقيقية.

إنهم لم ينظروا إلى هذه المعارك إلّا من جانبها العسكري البحت، وحتى هذا الجانب لم ينظروا إليه من خلال النظرة الاسلامية الصحيحة، وكأن هذه المعارك والمواقف تدور حول مغانم شخصية، لا علاقة لها بدين أو مبادىء وفي عصور أو مجتمعات جاهلية، وأن لا مقاييس فيها تتبع إلا مقاييس الغلبة على الطريقة الاسبارطية ومعارك القياصرة والأباطرة فيما مضى من الزمن، أما مقاييس الاسلام ووصايا رسوله صلى الله عليه وآله بهذا الشأن ومختلف الأمور المتعلقة به، فلا أثر له على الاطلاق.

إنهم يريدون من الحسين ورجاله أن يقاتلوا دفاعاً عن الاسلام بعقلية غير إسلامية وتوجه غير إسلامي وأدوات غير إسلامية، ومن هنا جاءت حيرة بعض المؤرخين والدارسين بشأن بعض المواقف المبدئية للحسين وأصحابه عليهم السلام، ومنهم مسلم بن عقيل

٥

لقد عرف مسلم وراء مَن كان يسير، بل كان أعرف الناس بإمامه وقائده وريث رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ووارث رسالات الأنبياء والرسل عبر مسيرة البشرية الطويلة، ولم يكن في أي موقف من مواقفه أثراً لخوف أو شك أو تردد، كما لم يكن لأي من أصحابه مثل ذلك الموقف المتردد، فقد مضوا معه إلى نهاية الشوط

واستشهدوا بين يديه، مسجلين بذلك موقفاً لن ينسى من الأمة مهما امتد الزمن، ومهما تباعد عن وقت ذلك الحدث الكبير.

إن هذه المعرفة الأكيدة، وذلك العزم الشديد، الذي لم تشبه شائبة التردد أو الخوف أو الطمع هو الذي جعل من مسلم واحداً من تلك الصفوة التي تتطلع إليها الأمة في كل وقت، وترى في مواقفها الباسلة، ما تشحذ به عزمها، وتجدد به إصرارها على انتهاج طريق الحق الذي انتهجته وعدم الحيدة عنه مهما بلغت الصعوبات ومهما واجهت من الشدائد، وهل أشد من الصعوبات والشدائد التي واجهها مسلم وهو يقف وحيداً أعزل بوجه السلطة الأموية الجائرة المتسلطة؟

إن في كل موقف من المواقف التي اتخذها مسلم منذ وصوله إلى الكوفة وحتى استشهاده، موضعاً لتأمل عميق ودروس كبيرة، لا بد أن نخرج منها بحصيلة واسعة لكي نضيفها إلى مجمل حصيلتنا عن رجال هذه الثورة، وعن كل من وقف مع الاسلام في كل مراحل وجوده، حينما وجدوا فيه سعادتهم وراحتهم وخلاصهم ومستقبلهم في ظل العناية الإلهية والتسديد الرباني المبين.

مسلم.. على مستوى المهمة الموكلة إليه

وعندما وردت كتب أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام تستدعيه، وتعلن ولاء العراقيين له، واستعدادهم ليكونوا خلفه جنداً مجنَّدة (دعا مسلم بن عقيل فسرحه مع قيس بن مسهر الصيداوي وعمارة بن عبيد السلولي وعبدالرحمن بن عبدالله بن الكدن الارحبي فأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف، فإن رأى الناس مجتمعين، مستوثقين عجّل إليه بذلك)[1].

لقد بعثه إلى الكوفة (ليكشف له حقيقة هذا الأمر والاتفاق، فإن كان متحتماً وأمراً حازماً محكماً بعث له ليركب في أهله وذويه ويأتي الكوفة)[2].

---

(١) الطبري ٦/ ١٠٨ وابن الأثير ٣/ ٣٨٦ وقال له: (سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إليّ، فإن كان حقاً خرجنا اليهم..) الطبري ٣/ ٢٧٥.

(٢) ابن كثير ٨/ ١٥٤ وقد أوصاه قائلاً: (إني موجّهك إلى أهل الكوفة، وسيقضي الله من أمرك ما يحب ويرضى، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء، فامضِ ببركة الله وعونه حتى تدخل الكوفة، فإذا دخلتها فانزل عند أوثق أهلها، وادع الناس إلى طاعتي، فإن رأيتهم=

إن دراسة واعية لسيرة مسلم بن عقيل والجو الذي تربى فيه مع الامامين الحسن والحسين عليهما السلام في ظل أمير المؤمنين والأحداث والمتغيرات التي عاصرها وكان مشاركاً في بعضها كوقائع الجمل وصفين والنهروان، قد تتيح لنا الاطلاع على سبب اختيار الامام الحسين عليه السلام له لأداء هذه المهمة الدقيقة بين أهل الكوفة الذين تتقاذفهم التيارات والقوى المختلفة ومنها التيار الأموي المتنفذ.

ومحصلة سيرته ترينا أنه كان من نمط الرساليين الذين لا يرون أمامهم سوى الاسلام وسوى المبادىء العظيمة التي جاء بها، والذين يقدمون إلى هدفهم دون تردد خوفاً من سيف الظالم، ما داموا على الحق، وما داموا يرون أن مستقبل الاسلام وحياته يتعرضان للخطر، ويتوقفان على سلوكهم في المواقف الحاسمة والظروف الدقيقة كتلك التي كانت تمرّ بها الأمة في ظل قيادة يزيد.

ولعلّ وقفته الباسلة في الكوفة بكل ما حملته من صور بدا فيها الالتزام التام بمنهج أمير المؤمنين عليه السلام في التعامل مع العدو ووضوح التوجه والتصور والفعل والشجاعة الفائقة عند النزال وعدم التخاذل والتنازل عن مواقف الحق، لفتت الأنظار إليها بشكل خاص وجعلت الباحثين يهملون جوانب عديدة من حياته قبل الثورة، ولعلّ للاعلام الأموي فعله الكبير للتغطية على الشخصيات المناوئة للحكم، والتي قامت بأدوار فعّالة للتصدي لانحرافه وظلمه، ومنها شخصية مسلم بن عقيل، وهو أمر جدير بالانتباه إليه عند التعرض إلى أمثال هذه الدراسات.

وقد علم الامام الحسين عليه السلام أن مسلم سيكون على مستوى المهمة التي أوفد اليها، كما دلّت النصوص التي بين ايدينا ورسالة الحسين إلى أهل الكوفة أنه عليه السلام كان حريصاً على استطلاع الموقف بشكل دقيق قبل القدوم إليهم، وهو أمر يزيل الشك الذي حاول زرعه أعداء الامام بأنه كان متلهفاً على الذهاب دون دراسة الموقف أو النظر إلى العواقب.

=مجتمعين على بيعتي فعجّل عليّ بالخبر حتى أعمل على حسب ذلك إن شاء الله تعالى) أنساب الأشراف للبلاذري، ج٣ ص١٥٩ ط بيروت، وتذكرة الخواص لابن الجوزي ص٢٤٤ ط النجف، وروضة الواعظين ص١٧٣ ط النجف، والبحار للمجلسي م١٠ ج٤٤ ص٣٣٥ ط طهران، مع اختلافات بسيطة في النص.

فالامام لم يكن ليذهب إلى أناسٍ ناصبوه العداء وأبدوا عدم استعدادهم لاستقباله، بل ذهب إلى أناسٍ أبدوا رغبة شديدة في قدومه، ولعلّ موقفهم الأخير من مسلم لو كان قد وصله وهو في مكة أو في الطريق قبل أن يحاصره الحر، واطّلعت عليه الأمة، ورأت أن أهل العراق كانوا غير صادقين وغير ثابتين على مواقفهم منذ البداية، قد رتَّب على الحسين عليه السلام اتخاذ موقف آخر بدوره، وهو ما لم يستطع فعله أمام موقفهم المعلن لدعمه وتأييده، ولم يستطع إلّا السير اليهم والاستجابة لهم رغم معرفته واحتماله الأكيد لانقلابهم عليه، لأنه لو لم يسر اليهم بعد تلك الدعوة الملحّة لكان قد تحمَّل مسؤولية تاريخية كبرى أمام أجيال المسلمين كلها، ولوجدنا من يحمّله مسؤولية السقوط والهزيمة أمام يزيد ودولة الظلم الأموية.

ومعرفته الأكيدة بهم، والإخبار المسبق باستشهاده لم يمنعانه أمام موقفهم المعلن لتأييده، من السير إليهم، فهو أدى دوره أمام الأمة واستجاب لمن دعاه للثورة على دولة الظلم وتحمل مسؤوليته كاملة وسار الى نهاية الشوط، فلم تبق حجة لمعتذر أو متكاسل أو محتج، أما من سقط وتراجع وتخاذل واستسلم (وهم أهل الكوفة)، فقد تحملوا مسؤولية سقوطهم وتراجعهم وتخاذلهم واستسلامهم، وموقفهم لا يرتب على الأمة كلها أن تستسلم، لأنهم ليسوا كالحسين عليه السلام في مسؤوليته وموقعه، وقد ندموا على ذلك فعلًا بعد إقدام الامام عليه السلام على إتمام مهمته إلى النهاية وأدركوا خطأهم القاتل الذي راح ضحيته إمام الأمة عليه السلام نفسه.

كما تدل رسائل الامام عليه السلام إلى أهل الكوفة على حرصه لحثهم على الثبات والصمود وتجعل من ذلك شرطاً لقدومه عليهم.

ففي هذه الرسائل وفي وصيته لمسلم لفتة مهمة من جانب الامام الى واقع أهل الكوفة ومحاولة منه لجعلهم بمستوى المهمة التي كانوا يتصدون لها وبمستوى وعودهم التي بذلوها، كتب الامام عليه السلام إلى أهل الكوفة:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من الحسين بن علي إلى الملإ من المؤمنين والمسلمين؛ أما بعد، فإن هانئاً وسعيداً قدِما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر من قدِمَ عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالةُ جُلكم: إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنه قد أجمع رأي ملئِكم وذوي الفضل والحجى منكم، على مثل ما قدمت عليَّ به

رسلكم، وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله؛ فلعمري ما الامام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله)[1].

ولم يكن مسلم يجهل صعوبة المهمة التي انتدبه لها الامام عليه السلام، ولم يكن يجهل طبيعة المجتمع الكوفي المستهدَف بالظلم من قِبَل الدولة باعتباره مجتمعاً معادياً لها، والذي كان يتذبذب ويتقلّب بفعل سياسة الغشم الأموية ويجعل أفراده من ذلك وسيلة لحفظ أرواحهم وممتلكاتهم، وهو أمر طبيعي في كل مجتمع تهدر كرامته وتشدد القبضة عليه ويستهدف بالجور والعدوان، وكان يعلم أنه سيلاقي صعوبات جمة وقد يكلفه الأمر حياته، ولعلّه اطّلع على طرف مما ورد بخصوص استشهاد

---

(١) وقد روى الطبري أن الامام أرسل هذه الرسالة مع هانيء بن هانيء السَّبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفي (الطبري ٣/ ٢٧٨) وذكر ذلك مؤرخون آخرون، ابن الأثير ٣/ ٢٦٧ وروضة الواعظين النجف ١٧٣، وبحار الأنوار ج٤٤ ص٣٣٤، والارشاد ١٨٦ وأعيان الشيعة للأمين ق١ ج٤ ـ ١٦٠، والأخبار الطوال لإبن قتيبة ٢١٠، والمناقب لابن شهر اشوب ط قم ـ ٩٠، ونهاية الارب للنويري ط القاهرة ٢ ـ ٣٨٧، وروى الخوارزمي في مقتله ج١ ف١٠، وابن الجوزي في تذكرة الخواص ط النجف ص٢٤٤ ان الامام عليه السلام أرسل هذه الرسالة مع مسلم نفسه، كما قد يدل مضمون الرسالة على ذلك، وربما كتب الامام رسالة أخرى قريبة الموضوع من هذه، وربما أرسل نسختين من الرسالة.

فقد ذكر أن الامام كتب إلى أهل الكوفة (أما بعد فقد وصلتني كتبكم، وفهمت ما اقتضته آراؤكم، وقد بعثت إليكم ثقتي وابن عمي مسلم بن عقيل، وسأقدم عليكم وشيكاً في أثره إن شاء الله). وسيلة المآل (ص١٨٦)، وردت في حياة الامام الحسين بن علي القرشي ٢ ٣٣٩ ويبدو أن هذه كانت اختصاراً للرسالة السابقة، إذ لماذا يبعث الامام عليه السلام مبعوثه وابن عمه مسلماً إن لم يكن يريد التمهيد لمقدمه وحثّ أهل الكوفة على الصمود وعدم التراجع.

وقد وردت الرسالة بصيغة مشابهة (الاخبار الطوال ص٢١٠ (من الحسين بن علي إلى من بلغه كتابي هذا من أوليائه وشيعته بالكوفة، سلام عليكم، أما بعد فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم، وأنا باعث إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل ليعلم لي كنه أمركم ويكتب إليَّ بما يتبيّن له من اجتماعكم، فإن كان أمركم على ما أتتني به كتبكم وأخبرتني به رسلكم أسرعت القدوم اليكم إن شاء الله، والسلام)..

ومهما يكن، فإننا نلمس اهتمام الحسين عليه السلام بتشجيع أهل الكوفة على الثبات وعدم التراجع وفيه يشير من طرف خفي إلى مواقفهم السابقة وعدم اطمئنانه إلى عودهم ولعله بذلك يثير هممهم ويستنهضهم ويؤكد على أهمية قيامهم بوجه السلطة المنحرفة

محتمل مع الامام الحسين عليه السلام، وقد يكون الامام عليه السلام قد ألمح إلى ذلك[١]، مع ذلك فإنه قام بمهمته الصعبة خير قيام دون تردد أو خوف، واضعاً أمامه هدفه الكبير وهو الانتصار للاسلام، وهو ما سنراه في غضون هذا البحث بعون الله.

لا طيرة ولا جبن.. إلى الأمام لتنفيذ مهمة الامام

ترك مسلم أهله وأطفاله مع الحسين وعياله في مكة وانطلق في مهمته الشاقة نحو العراق بمعية أصحابه الذين أرسلهم الحسين عليه السلام معه وهم: قيس بن مسهر الصيداوي، وعمارة بن عبيدالله السلولي، وعبدالرحمن بن عبدالله الأرحبي الأزدي (وعبدالله وعبدالرحمن ابني شداد الارحبي)، (وأمره بالتقوى وكتمان أمره واللطف، فإن رأى الناس مجتمعين مستوسقين عجّل إليه بذلك)[٢].

وقد عرج مسلم ـ في طريقه من مكة إلى الكوفة ـ على المدينة، متسللًا إليها في أغلب الظن لأنه ربما كان مرصوداً من قِبَل أعوان السلطة، وربما أُلقي القبض عليه واحتجز أو قتل، فخروجه من المدينة مع الحسين عليه السلام ورفضه مبايعة يزيد لم يكن من الأمور التي تغض السلطة أبصارها عنه (فصلّى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، وودَّع من أحب من أهله)[٣].

كان إنطلاق مسيرته من بيت الله وإلى مسجد رسوله صلى الله عليه وآله ثم إليه جلَّ وعلا وفي سبيله يجدد العهد في كل موقف وقفه مع الله ورسوله صلى الله عليه وآله ويسعى لتجارة رابحة يبذل فيها نفسه ودمه لانجاز المهمة التي عهد بها إليه ابن عمه وإمامه وقائده.

وربما لم يمضِ في المدينة إلّا الفترة القصيرة التي زار فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وجدد العهد فيها على نصرة ابنه وخليفته على امته، وودع مَن أحب من أهله وأصحابه،

---

(١) روى الصدوق في الأمالي م٢٧ بسنده عن ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، إنك لتحب عقيلًا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أي والله إني لأحبه حبين، حباً له، وحباً لحب أبي طالب له، وإن ولده لمقتول في محبة ولدك فتدمع عليه عيون المؤمنين وتصلي عليه الملائكة المقربون قال ثم بكى رسول الله صلى الله عليه وآله حتى جرت دموعه على صدره، ثم قال: إلى الله أشكو ما تلقى عترتي من بعدي).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ٣ - ١٥٩، والطبري ٦/ ١٩٨، وابن الحديد ٣/ ٣٨٦، وتذكرة الخواص ٢٤٤، والبحار م١٠ ج٤٤/ ٣٣٥، والارشاد ١٨٦.

(٣) الطبري ٦/ ١٩٨ وابن الاثير ٣/ ٢٦٧ وراجع المصادر السابقة.

وربما لم يستغرق ذلك سواد ليلة واحدة، انطلق بعدها إلى مهمته (ثم استأجر دليلين من قيس، فأقبلا به، فضلَّا الطريق وحارا، وأصابهم عطش شديد، وقال الدليلان : هذا الطريق حتى تنتهي الى الماء. وقد كادوا أن يموتوا عطشاً)[1] .

وقد مضى مسلم في مهمته بعد ذلك دون أن يتردد أو يجبن، كما زعم من ذكر أنه أرسل رسالة اعتذار إلى الامام عن إنجاز المهمة، وأنه طلب اليه أن يكلف شخصاً آخر بها، كما ورد في الهامش أدناه وأن الامام عليه السلام عنىٰ ذلك ربما إلى خوف مسلم وجبنه وأنه أمره بمواصلة مسيرته.

وفي أغلب الظن أن رسالتي مسلم والامام المتبادلتين لم تنقلا بشكل صحيح، فمسلم قد يكون أرسل رسالته ليشرح ويبيّن آخرأخباره، وربما لم يكن ينتظر جواباً من الامام، وتهمة الجبن هذه المزعومة ربما لُفِّقت لمسلم على لسان الحسين عليه السلام للغض من تلك الشخصية الرسالية العظيمة والتقليل من شأنها، كما هو الحال مع العديد ممن نصروا الحسين عليه السلام أو انتصروا له بعد ذلك، كالمختار بن عبيد الثقفي مثلًا.

إن ما ورد بهذا الخبر يتناقض وما عرف عن مسلم وصلابته في الحق وما عرف عن مواقفه القوية، وليس أدلّ من ذلك تصديه بمفرده لأعداد كبيرة من أعدائه وعدم استطاعتهم التغلّب عليه إلّا بمكيدة غادرة ثم وقوفه الشجاع بوجه ابن زياد وهو أعزل كما سنرى بعون الله.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٨، وابن الأثير ٣/ ٢٦٧، والاخبار الطوال: ص٢٣٢ وذكر أن السبب في أنهم ضلّوا الطريق هو أن الدليلين كانا يتنكبان به الطريق، وربما كان ذلك خوفاً من متابعتهم من قِبَل أعوان السلطة، وقد روي أن مسلم بعد ذلك كتب إلى الحسين عليه السلام قائلًا (أما بعد فإني أقبلت من المدينة معي دليلان لي، فجارا عن الطريق وضلّا، واشتد علينا العطش، فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء، فلم ننج إلّا بحشاشة أنفسنا وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخُبيت؛ وقد تطيرت من وجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه وبعثت غيري والسلام.

فكتب إليه الحسين عليه السلام: أما بعد، فقد خشيت ألاّ يكون حملك على الكتاب إليَّ في الاستعفاء من الوجه الذي وجهتك له إلاّ الجبن، فامض لوجهك الذي وجهتك له والسلام عليك.

فقال مسلم لمن قرأ الكتاب: هذا ما لست أتخوفه على نفسي).

كما أنه يتناقض مع ما عُرف من استعداداته الخلقية والنفسية التي جعلت الامام عليه السلام يختاره من بين كل أصحابه وأهله لهذه المهمة الشاقة، كما أن دلائل الحال وطبيعة المسيرة من مكة إلى الكوفة التي روي أنه أكملها في عشرين يوم (من الخامس عشر من رمضان وحتى الخامس من شوال) تناقض هذا الخبر، فهذه الفترة تكاد تكفي بالكاد للوصول إلى الكوفة، فكيف يتسنى له ارسال مبعوثه من (المضيق من بطن الخبت) إلى الامام وانتظار جوابها، وهو أمر يستغرق عشرة أيام بالقليل، ثم يذهب بعد ذلك قاطعاً المسافة كلها في عشرين يوماً، إنه في هذه الحال سيحتاج إلى شهر بالقليل لقطع المسافة وانتظار جواب الامام، علماً أنه لم يرد في معاجم البلدان ما يشير إلى وجود مثل هذا الموقع.

ولو كان مسلم ممن يتطيرون من أمثال هذه الأمور وقد جبن عن المضي بمهمته، لكان قد بقي في المدينة أو رجع إلى الامام بنفسه، ولما استجاب له عندما أمره بالمضي.

وغاية ما في الأمر أن مسلم بعد اجتيازه المدينة (وهي منطقة خطر محتمل) أرسل يعلم الامام بذلك وبما لاقاه من مصاعب عندما تنكب الطريق خوفاً من ملاحقة السلطة له.

في دار المختار الثقفي.. خطب ووعود بالنصرة

(ثم أقبل مسلم حتى دخل الكوفة، فنزل دار المختار بن عبيد ـ وهي التي تدعىٰ اليوم دار مسلم بن المسيب ـ وأقبلت الشيعة تختلف إليه)[1].

وكان اختيار مسلم لدار المختار صائباً وموفقاً، فالمختار من الشخصيات النادرة القوية التي التزمت خط آل البيت، كما أنه من الشخصيات القيادية المؤثرة والمحبوبة، كما أنه كان صهر النعمان بن بشير حاكم الكوفة (زوج ابنته عمره) وهذا ما قد يجعله يغض النظر عن وفود الناس الى بيته الذي جعل منه مركزاً للقيادة والبيعة.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٩، وابن الأثير ٣/ ٢٦٧، والارشاد ٢٢٦، وقد روي أنه نزل في بيت مسلم بن عوسجة أو هانىء بن عروة (الاصابة ١/ ٣٣٢) غير أن الخبر الأول هو الأصح فيما يبدو لتوارده وانتشاره في معظم كتب التاريخ المعتبرة وأن ورد في مكان آخر من تاريخ الطبري ٣/ ٢٧٥.

وكانت الدلائل تشير إلى إقبال جماهير الكوفة على مبايعة مسلم للامام عليه السلام واغتباطها بمقدمه، وقد شهدت دار المختار مواقف عاطفية كبيرة، حتى لقد اتخذ الفرح صورة البكاء والناس تتذكر الأيام الخوالي من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، عندما اتخذ الكوفة مقراً له.

(وأقبلت الشيعة تختلف اليه، فكلما اجتمعت اليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين فيبكون، ويعدونه من انفسهم القتال والنصرة)[1].

وقد ألقيت خطب حماسية أمام الوفود التي جاءت لتقديم البيعة، وكان الخطباء بمستوى أقوالهم، وقد استشهد بعضهم مع الامام عليه السلام فعلاً:

قال عابس بن ابي شبيب الشاكري موجهاً الخطاب لمسلم: (فإني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرك منهم، والله لأحدثنك عمّا أنا موطّن نفسي عليه، والله لأجيبنكم إذا دعوتم، ولأقاتلَنَّ معكم عدوكم، ولأضربنَّ بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك إلّا ما عند الله.

فقام حبيب بن مظاهر؛ فقال: (رحمك الله! قد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك، ثم قال: وأنا واللهِ الذي لا إله إلّا هو على مثل ما هذا عليه، ثم قال سعيد الحنفي مثل ذلك)[2].

ويبدو من قول عابس، وتأييد حبيب له، أن جماعات من أهل الكوفة كانت مترددة بشأن بيعة الحسين عليه السلام وإن جماعات أخرى كانت متذبذبة تنتظر لمن تكون الغلبة في النهاية فتنضمّ إليه، وكان خطاب عابس يمثّل نقداً لهؤلاء المترددين، وكأنه كان يريد استنهاض الهمم بموقفه الشخصي وبما هو عازم على فعله.

ويدل على وجود أمثال هؤلاء، موقفهم الأخير عندما تخلوا عن مسلم لصالح ابن زياد، والمواقف المشابهة لموقف محمد بن بشر الذي سأله الحجاج بن علي بعيد القاء عابس وحبيب والحنفي خطبهم قائلًا له: (فهل كان منك أنت قولٌ؟ فقال: إن كنت لأحبّ أن يعزّ الله أصحابي بالظفر، وما كنت لأحب أن أقتل، وكرهت أن أكذب)[3].

---

(١) ابن الأثير ٣/ ٣٨٦ والطبري ٣/ ٢٧٩.
(٢) الطبري ٣/ ٢٧٩.
(٣) الطبري ٣/ ٢٧٩.

فابن بشر كان يحب النصر للامام وأصحابه، غير أنه كان يريده نصراً جاهزاً يتمتع بثماره فيما بعد لا يشارك في صنعه بقطرة من دمائه أو عرقه، وهو موقف يلوح أمامنا على الدوام، إذ غالباً ما نرى من يتوقع معجزة تحقق أمانيه العاجزة، أما حين يدعى لمشاركة ايجابية في أي عمل اجتماعي من شأنه رفع الظلم أو تحفيفه، فإنه ينهزم ويتراجع، وسنرى العديد من أمثال هذه المواقف عند اطلاعنا على بقية تفاصيل هذه الثورة العظيمة.

الرائد لا يكذب أهله.. الناس كلهم معك

وقد اختلف المؤرخون حول عدد الذين بايعوا مسلم للامام الحسين عليه السلام، فذكر أغلبهم أنهم كانوا ثمانية عشر ألفاً[1]، وذكر غيرهم أنهم كانوا ثلاثين ألفاً[2]، وأنهم كانوا أربعين ألفاً[3]، أو ثمانية وعشرين ألفاً[4]، أو اثني عشر ألفاً[5]. . . الخ.

وهي أعداد تبدو كبيرة ولعلَّ أقلها يشكل جيشاً قوي الشكيمة لو أنهم استمروا على مواقفهم خلف مسلم، ولا شك أن أياً منهم لم يكن العدد النهائي وأن الناس كانت مستمرة على المبايعة في تلك الفترة القياسية القصيرة، وأن معنى استمرارها بذلك الشكل وعدم وجود معارضة حقيقية من عامل يزيد وأعوانه بوجهها يدل على نجاح مسعى مسلم لأبعد حد، وقد شجَّع ذلك مسلم على الكتابة إلى الامام ودعوته للقدوم إلى الكوفة، فلم تكن هناك أية مصاعب قائمة، بل كان هناك. كما يبدو إجماع على الاستجابة للحسين عليه السلام والوقوف معه في أي مسعى يقوم به لتقويض الدولة الأموية والإطاحة بها، ويبدو أن أهل الكوفة كانوا يعيشون حياةً احتفالية سعيدة

---

(١) الارشاد، ٢٠٥ وتذكرة الخواص ٢٤١، والطبري ٣/ ٢٩٠ وذكر رسالة مسلم إلى الامام عليه السلام وفيها (وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي).

(٢) حياة الامام الحسين/ القرشي ٢ - ٣٤٧ عن حقائق الاخبار وروضة الأعيان ومناقب الامام علي ص٣٣، الذي جاء فيه أن النعمان كان من جملة المبايعين وأنه قال (يا أهل الكوفة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله من ابن بنت بجدل) والعقد الفريد ٥/ ١١٩.

(٣) المصدر السابق عن مثير الأحزان لابن نما وشرح شافية ابي فراس ١/ ٩٠ (مخطوط).

(٤) تاريخ ابي الفداء ١ - ٣٠٠.

(٥) مروج الذهب ٣/ ٤ وتهذيب التهذيب ٢/ ٣٥٠، الاصابة ١/ ٣٣٢ والحدائق الوردية ١/ ١١٧.

يتباشرون فيها بقدوم الحسين عليه السلام لإعادة دولة الحق الأولى التي أرسى دعائمها رسول الله صلى الله عليه وآله منذ البداية، وعاش أهل الكوفة في ظلها في عهد أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد ذلك، وقد جاء في رسالة مسلم إلى الامام عليه السلام :

(أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإن الناس كلهم معك، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى، والسلام)[1].

وقد أرسل هذه الرسالة إلى الامام عليه السلام مع عابس بن ابي شبيب الشاكري وذلك قبل انقلاب أهل الكوفة عليه واستشهاده بعشرين يوماً[2] وقيل قبل استشهاده بسبع وعشرين ليلة[3].

موقف النعمان: بين اللين الظاهري والكيد

وقد ظهر أمر مسلم، رغم أن الامام عليه السلام أراد لدعوته أن تكون سرّية ليتاح له استقطاب الناس وتنظيم أمورهم، ولعلّ السبب في ذلك هو كثرة الأعداد التي استجابت له وبايعته، ولم يكن من المتوقع أن يكتم سره مع هذه الأعداد الغفيرة

وكان ذلك أيام ولاية النعمان بن بشير عامل الدولة على الكوفة منذ أيام معاوية، ومع أن النعمان اشتهر بكرهه لأمير المؤمنين عليه السلام وقيامه بالغارات على أطراف دولة الاسلام التي حكمها وبذل أقصى جهوده لتوطيد حكم معاوية، إلّا أنه فيما يبدو، وكما أشارت إلى ذلك بعض وقائع التاريخ، لم يكن يرى في يزيد الحاكم الجدير بخلافة معاوية، ولعله كان يرى نفسه أكثر إمكانات وكفاءات منه، وقد بايع لابن الزبير بعد هلاك يزيد ثم دعا إلى نفسه إلى أن أوقَعَ به مروان فقتله عام ٦٥هـ.

ومع أن النعمان كان ممن يوالي الدولة الأموية في الظاهر، وقد وثقت به إلى الحد الذي جعلت منه ممثلًا وعاملًا لها على العراق، إلّا أنه كان ـ كما يبدو ـ لم يتقن سياسة الغشم الأموية القائمة على الحيلة والمكيدة والتعسف والأخذ على الظنة

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٠.

(٢) أنساب الأشراف ق١، ج١.

(٣) وفي أنساب الأشراف ٣/ ١٦٧ (لعل مقتله ببضع وعشرين ليلة) وراجع الطبري.

والتهمة ومعاقبة الأبعدين بالأدنين إلى غير ذلك من الأمور التي بدأها الأمويون واعتمدوها أساساً لحكمهم وسياستهم وأصبحت بعد ذلك نهجاً وسنَّةً سار عليها من جاء بعدهم من العباسيين وغيرهم[1].

ولعلَّ النعمان كان ينقم على يزيد ويودّ زوال ملكه ومساعدة أعدائه، ليس حباً بهم وإنما لإضعاف الطرفين (المتنافسين).

وقد ألقى النعمان خطبة في أهل الكوفة، بعد أن قوي أمر مسلم وانتشر بينهم قال فيها: (أما بعد، فاتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيهما يهلك الرجال، وتُسفك الدماء وتُغصَب الأموال، إني لم أقاتل من لم يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليَّ، ولا أشاتمكم ولا أتحرَّش بكم، ولا آخذ بالقرْف ولا الظِّنة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره، لأضربنَّكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر. أما اني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل)[2].

ويبدو من ظاهر خطبة النعمان التي لا تشابه خطب العمال الأمويين المتّسمة بالشدة، أنه كان يحتمل نجاح حملة مسلم بالكوفة لأخذ البيعة للامام عليه السلام، فأراد بتسامحه المعلن أن تكون له يدٌ عند الثوار، وربما كان يأمل أن يكون له دور في الدولة الجديدة خصوصاً وأن وجوهاً مرموقة مع مسلم كانت تمت إليه بصلة وثيقة مثل المختار بن عبيد الثقفي، إضافة للأسباب الشخصية التي قد تدعوه لمنابذة يزيد، كانت خطبته رخوة وكلماته ليّنة متسامحة تشير إلى نهج اسلامي مثالي لم يعد مألوفاً. في ظل قيادة معاوية ـ ولم يعتد أهل الكوفة سماع مثله من العمال الأمويين، ولا شكَّ أنه كان يعد فيه بالسكوت عن الثوار الذين بايعوا مسلم طالما أن الأمر لم يصل إلى سمع السلطة في الشام.

ولا نستطيع من مجمل ما نعرفه عن سلوك النعمان في السابق أن نعتقد أن ما دعاه إلى السكوت وغض النظر هو حلمه ونسكه وحبه للعافية على حد تعبير الطبري ولا انتصاره للأنصار الذين هجاهم الأخطل الشاعر المسيحي بايعاز من يزيد، إنما

---

(١) ابن كثير ٨/ ١٥٤ - ١٥٥ وابن الأثير ٣/ ٣٠٨.

(٢) الطبري ٣/ ٢٧٩، وابن الأثير ٣/ ٢٦٧، والارشاد ١٨٧، والبحار م١٠ ج٤٤ ـ ٣٣٦.

الذي دعاه إلى ذلك قد يكون أحد الدوافع التي أشرنا إليها، وقد تكشف دراسة جادة حقيقة دوافعه للسكوت.

رسائل المخبرين.. (الحضرمي وعمر بن سعد)

وقد استفز موقف النعمان المميّع والمتساهل أعوان الدولة الأموية وأنصارها وحثوا النعمان على اتخاذ موقف هجومي من مسلم واللجوء إلى الأساليب التي تلجأ اليها الدولة عادة في أمثال هذه المواقف (فقام اليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية فقال: انه لا يصلح ما ترى إلّا الغَشَم، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأي المستضعفين)[1].

ولم يكتفِ الحضرمي بتقديم النصح للنعمان وإنما أرسل رسالة يستفزّ فيها يزيد ويدعوه لاستبداله بعامل آخر (أما بعد فإن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة فبايعته الشيعة للحسين بن علي، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلًا قوياً ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوك، فان النعمان بن بشير رجل ضعيف، أو هو يتضعّف)، فكان أول من كتب اليه.

ثم كتب اليه عمارة بن عقبة بنحو من كتابه. ثم كتب اليه عمر بن سعد بن ابي وقاص بمثل ذلك[2].

ولعل رسالة الحضرمي هي التي دفعت الآخرين للاتصال بيزيد بعد ذلك حتى لا يتهموا بسكوتهم وغض النظر عما كان يدبر للدولة، ولعلهم أرادوا تسجيل مواقف تضاف إلى ارصدتهم لديها، وقد لعب بعض هؤلاء ـ مثل مر بن سعد ـ دوراً واضحاً في تنفيذ مخططاتها للقضاء على ثورة الحسين عليه السلام وقتله وأصحابه في مجزرة دموية مروعة في الطف، ليتمكنوا من الحصول على بعض المغانم الشخصية وحسب، ولم يدفعهم لذلك موقف عقائدي أو حرص على وحدة المسلمين أو ما شابه ذلك من التبريرات المعلنة بعد ذلك، وقد أدركوا خطأهم فيما بعد فراحوا يتبادلون الاتهامات بشأن القائمين الحقيقيين بالمجزرة وحاول كل منهم التنصل منها.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٩، وابن الاثير ٣/ ٢٦٧.

(٢) نفس المصدرين السابقين.

نصائح سرجون النصراني.. مستشار الدولة (الاسلامية): أرأيت معاوية لو نشر لك، أكنت آخذاً برأيه؟

وقد قلق يزيد لتطورات الأمور في الكوفة واتخاذها مجرى مؤيداً للامام عليه السلام ورأى احتمال الثورة المسلَّحة عليه قائماً لا في الكوفة وحدها وإنما في أماكن أخرى من مملكته إذا ما نهض الثوار على أقدامهم في الكوفة، وقد استدعى سرجون الرومي مولى أبيه معاوية الذي كان من نصارى الشام والذي (استخدمه معاوية في مصالح الدولة، وكان أبوه منصور على المال في الشام من عهد هرقل قبل الفتح)[1]: والذي كان بلا شك يضمر العداوة والكره للاسلام وقادته الحقيقيين، وربما كان له دور تحريضي على الحسين عليه السلام

وقد سارع سرجون عندما أطلعه يزيد على وضع الكوفة قائلًا له: (ما رأيك؟ فإن حسيناً قد توجه نحو الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين، وقد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيء - واقرأه كتبهم ـ فما ترى؟ من استعمل على الكوفة؟)[2] سارع إلى الاشارة على يزيد بعزل النعمان وتنصيب عبيدالله بن زياد مكانه، وقال له:

(أرأيت معاوية لو نشر لك، أكنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم؛ فأخرج عهد عبيدالله على الكوفة، فقال: هذا رأي معاوية، مات وقد أمر بهذا الكتاب)[3].

ويدل قوله هذا على أن معاوية كان يتوقع ثورة ضد يزيد، فقد كان أعلم الناس بعيوبه وعدم صلاحيته لخلافته، وقد أراد أن يدعم عرشه بولاة قساة يرتبط مصيرهم بمصيره من أمثال عبيدالله بن زياد، وقد حسب معاوية حساب هذا الأمر المتوقع منذ البداية وأعدَّ له عدته، فربما كان يزيد على صلات سيئة ببعض من قد يستفيد منهم، وربما منعه ذلك من تقريبهم أو استعمالهم ولاة على الأمصار التي يحكمها، وكان غاضباً على ابن زياد فعلًا، وربما كان موقف زياد منه عندما أشار على معاوية أن يتريث في تعيينه خلفاً له، السبب الأول لذلك[4].

---

(١) محمد كرد علي، الاسلام والحضارة العربية ج٢ - ١٥٨.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٠، وابن الأير ٣/ ٢٦٨.

(٣) نفس المصدرين السابقين والعقد الفريد ٥/ ١١٩.

(٤) ذكر الطبري أن يزيداً كان عاتباً على عبيدالله بن زياد ٣/ ٢٨٠ كما ذكر ذلك ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ١٥٢.

وقد سارع يزيد للاستجابة لوصية والده عندما وجد فيها الحل المناسب لمشكلته خصوصاً وأن سرجون الرومي مستشار والده قد دعاه لتولية ابن زياد الرومي الأصل ايضاً، إذ أن ابن زياد قد استشهر بقسوته واستهتاره وربما فاق في ذلك أباه، وربما كانت سمعته في هذا المجال قد سبقته إلى الكوفة واشتهر بذلك فيها.

ودعا يزيد (مسلم بن عمرو الباهلي - فبعثه إلى عبيدالله بعهده الى البصرة[1] وكتب اليه معه: أما بعد فإن كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين، فسِر حين تقرأ كتابي هذا، حتى تأتيَ أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل حتى تثقفَه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه)[2].

وأسرع مسلم بن عمرو الباهلي، الذي كان له دور واضح بعد ذلك في التحريض على مسلم والقضاء على دعوته، بحمل الرسالة إلى ابن زياد في البصرة، ثم رافقه بعد ذلك الى الكوفة مع مجموعة من شيوخ البصرة وأشرافها بلغوا خمسمائة كما ذكر بعض المؤرخين[3].

إياكم والخلاف.. لآخذنّ الأدنى بالأقصى.. أنا ابن زياد

وكانت تلك فرصة ذهبية يستطيع فيها ابن زياد اثبات ولائه ليزيد وحرصه على تثبيت عرشه، واستعد حال وصول رسالة يزيد إليه للسفر إلى الكوفة محاولاً قطع المسافة بسرعة قياسية جعلت بعض أصحابه يتساقطون في الطريق بعد أن لم يستطيعوا

(١) لعله يقصد الى الكوفة، لأنه كان والياً على البصرة فعلاً.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٠، وابن كثير ٨/ ١٥٢، وروى عن ابن شهر اشوب في المناقب ط قم (ج٤ - ٩١) والخوارزمي في مقتل الحسين ج١ ف١٠ ان يزيد كتب الى ابن زياد (وقد ابتلى بالحسين زمانك من بين الأزمان، وابتلى به بلدك من بين البلدان، وابتليت به من بين العمال، وفي هذه تعتق أو تكون عبداً كما تعبد العبيد. وقد اخبرني شيعتي من أهل الكوفة أن مسلم بن عقيل بالكوفة يجمع الجموع ويشق عصا المسلمين، وقد اجتمع اليه خلق كثير من شيعة ابي تراب. فإذا أتاك كتابي هذا فسر حين تقرأه حتى تقدم الكوفة فتكفيني أمرها، فقد ضممتها اليك، وجعلتها زيادة في عملك، وانظر أن تطلب مسلم بن عقيل كطلب الحرد، فاذا ظفرت به فخذ بيعته أو اقتله إن لم يبايع، واعلم أنه لا عذر لك عندي، وما أمرتك به، فالعجل العجل، والوحى الوحى).

(٣) الطبري ٣/ ٢٨١، ونهاية الارب - النويري، ٢٠، ٣٨٩ ط القاهرة.

متابعته واللحاق به، وكان يقصد بذلك أن يسبق الامام الحسين عليه السلام في دخول الكوفة، بعد أن ورده الخبر بتوجهه إليها.

وقد ذكرنا أن الامام عليه السلام قد أرسل رسالة إلى أهل البصرة وإلى زعمائها من رؤوس الأخماس وإلى الأشراف يدعوهم فيها إلى نصرته ودعوته إلى كتاب الله وسنَّة نبيه صلى الله عليه وآله، وقد كان رد فعلهم ايجابياً تجاه الرسالة، غير أن أحدهم وهو المنذر بن الجارود حبس رسول الحسين وقاده إلى ابن زياد من العشية التي كان يريد صبيحتها أن يذهب الى الكوفة.. واقرأه كتابه، فقدم الرسول فضرب عنقه، وصعد عبيدالله منبر البصرة، وقال في خطبة نارية له مهدداً ومتوعداً (أما بعد، فوالله ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقع لي بالشِّنان، وإني لنكل لمن عاداني، وسمٌ لمن حاربني، أنصف القارة من راماها. يا أهل البصرة، إن أمير المؤمنين ولّاني الكوفة وأنا غادٍ إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن ابي سفيان، وإياكم والخلاف والارجاف، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق، أنا ابن زياد، اشبهته من بين وطيء الحصى، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم)[1].

إن هذه الخطبة وأمثالها تكشف القناع عن الوجه الأموي الدموي الذي سعى بكل طريقة لتثبيت سلطانه وتعزيز مصالحه، حتى أن أشد المدافعين عن معاوية قالوا، صحيح أن الأمويين انحرفوا في مجال السياسة والحكم لكنهم في المجالات الأخرى لم ينحرفوا إلّا بشكل بسيط، وعزوا ذلك بعد أن لم يجدوا سبباً معقولًا إلى حرصهم على وحدة الأمة وتماسك المسلمين إلى غير ذلك من الأمور التي برروا بها خروجهم المعلن عن الصيغ الواضحة والصحيحة للحكم والسياسة الاسلاميتين.

ليس في منطق الاسلام أن يؤاخذ ولي بولي والأدنى بالأقصى والمطيع بالمخالف، وإنما كان هذا منطق أوجدته سياسة الغشم الأموي لوضعه مقابل القانون الاسلامي الصحيح المنسجم مع الحياة وخطوة الانسان الصحيحة،

إن سماع تصريح كهذا من ممثل للدولة، مخوّل بفعل ما يشاء، ومزود بقوة

(١) الطبري ٣ - ٢٨٠ - ٢٨١ وورد (وعرينه بدل عريفه والعرين الجماعة) وراجع ابن كثير ٨/ ١٦٠، وابن الأثير ٣/ ٣٨٨.

السلاح يجعل كل فرد يعتقد أنه أمام وحش ضارٍ مطلق السراح غير مقيد بقانون أو نظام، وأن مجرد التعرّض له يشكّل خطراً كبيراً.

ما الأمر مع من يحكم بقانونه وهواه ورغباته وينبذ القانون الإلهي الواضح المبين متعمداً، مع أنه يدعي أنه الممثل الحقيقي للإرادة الإلهية وخليفة الله على الأرض؟

إن الأمر مثير للرعب حقاً، فلا يمكن تطبيق مثل هذا القانون إلّا في مجتمع ميت تخلى عن كل قيمه ومبادئه ولم يعد يستجيب إلّا لإلهه المحلي الذي يشخص أمامه حاكماً يمتلك مقومات الجاه والمال والسلطان وغالباً ما يختفي النقد والرأي الحر والارادة الواعية، أمام منطق الذي لا يرى أمامه إلّا سلطانه ومصالحه وهواه، ويظهر أمام الناس بمظهر الوحش المفترس.

سباق مع الزمن.. (افتح لا فتحت)

كان مسير ابن زياد محموماً وكان متلهفاً على قطع المسافة بين البصرة والكوفة بأقصى فترة زمنية ليصل قبل الامام عليه السلام، ليفوّت على أهل الكوفة فرصة الانضمام اليه، وقد تساقط العديد من أصحابه في الطريق وكان منهم شريك بن الأعور الحارثي الذي كان يكنّ الولاء لآل البيت عليهم السلام، وقد ألحَّ عليه ابن زياد بالذهاب معه والذي ربما تساقط أملًا بعرقلة مسيرة ابن زياد إلّا أن الأخير لم يعر ذلك أهمية (فكان أول من سقط بالناس شريك، فيقال: انه تساقط غمرةً ومعه ناس، ثم سقط عبدالله بن الحارث وسقط معه ناس، ورجوا أن يلوي عليهم عبيدالله ويسبقه الحسين إلى الكوفة، فجعل لا يلتفت إلى من سقط)[1].

ونستدل من ذلك أن شريك لم يكن وحده مَنْ أراد عرقلة مسيرة ابن زياد وإنما سعى آخرون لذلك، وكان هواهم مع الحسين عليه السلام، غير أن ذلك كان أقصى ما يمكن أن يفعلوه لنصرته، فإرادتهم وسيوفهم كانت رهن القوة الأموية الغاشمة.

وعندما رأى ابن زياد أنه كان يسبق ركبه وأن العديدين قد تساقطوا حتى مولاه مهران، نزل (فأخرج ثياباً مقطعة من مقطّعات اليمن، ثم اعتجر بمعجرة يمانية، فركب بغلته، ثم انحدر راجلًا وحده، فجعل يمر بالمحارس فكلما نظروا إليه لم

(١) الطبري ٣/ ٢٨١، وابن الأثير ٣/ ٣٨٨.

يشكّوا أنه الحسين، فيقولون: مرحباً بك يا ابن رسول الله، وجعل لا يكلمهم، وخرج إليه الناس من دورهم وبيوتهم، وسمع بهم النعمان بن بشير فغلّق عليه وعلى خاصته، وانتهى اليه عبيدالله وهو لا يشك أنه الحسين، ومعه الخلق يضجّون. فكلّمه النعمان، فقال: انشدك الله إلا تنحَّيت عني! ما أنا بمسلم إليك أمانتي، ومالي في قتلك من ارب، فجعل لا يكلمه. ثم انه دنا وتدلى الآخر بين شرفتين، فجعل يكلمه فقال: افتح لا فتحت، فقد طال ليلك فسمعها انسان خلفه، فتكفى الى القوم. فقال: أي قوم ابن مرجانه، والذي لا إله غيره، فقالوا ويحك إنما هو الحسين)[1].

وكانت مجازفة خطيرة من جانب ابن زياد أن يدخل بمفرده متنكراً ليظن الناس أنه شخص آخر، وربما ليعتقدوا أنه الحسين عليه السلام، لكي تسهل مهمته ويستطيع الوصول الى القصر المحصن[2] غير أن ابن زياد ربما كان يعتقد أنه كان يحمل قضية بمواجهة قضية الامام الحسين عليه السلام، وربما كانت المسألة تتعلق بوجوده ومصيره شخصياً، وهذا ما دعاه للمجازفة أكثر من مرة وابداء المزيد من القسوة والعنف، ولعلَّ أعوانه في الكوفة وسلطان الدولة في الشام وراءه جعله يقدم على المزيد من الخطوات العنيفة للقضاء على الثورة، عزز ذلك من مزاجه الشخصي الدموي واعتياده العيش في ظل سلطة مطلقة لا تحسب حساباً لأرواح الناس وكرامتهم وحريتهم، ولعل شبح أبيه وقسوته لا تزال تلوح أمام أنظار أهل الكوفة المستهدفين بظلم الدولة الأموية وسطوتها والتي جعلت منهم مجتمعاً مشتتاً موزعاً متناقضاً.

وسنتحدث بعون الله ـ عند التطرُّق إلى مجتمع الكوفة ـ عن الأسباب التي جعلت ابن زياد واثقاً من نجاح مهمته ومطمئناً بذلك الشكل الذي بدا فيه والذي ربما أثار

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٨١ - ٢٨٢، وابن الأثير ٣/ ٣٨٨، وابن كثير ٨/ ١٥٥، ومروج الذهب ٧/ ٧١.

(٢) وهو قصر الامارة الذي بناه سعد بن ابي وقاص (ويتألف من سور خارجي يضم أربعة جدران طولها ١٧٠ متراً ومعدل سمكها أربعة أمتار، وتدعم كل ضلع من الخارج ستة أبراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالي حيث يدعم برجان فقط والمسافة بين برج وآخر ٢٤ متر و٦٠ سم وارتفاع السور بأبراجه يصل الى ما يقرب من ٢٠ متراً، وقد بني القصر بناءً محكماً وصممت هندسته ليكون في حماية آمنة من كل غزو). مقتل الامام الحسين/ القرشي، نقلًا عن (تخطيط مدينة الكوفة، للدكتور كاظم الجنابي ١٣٥ - ١٥٥).

الاستغراب وجعل البعض يعتقد أنه كان يتمتع بشجاعة فائقة، وهو أمر دقيق لا بدّ من دراسته بإسهاب ومعرفة أسبابه الحقيقية.

ونستطيع أن نستنتج من سعي ابن زياد المحموم للوصول إلى الكوفة بسرعة قياسية تاركاً أصحابه يتساقطون في الطريق نتيجة مواصل المسير، أنه ما كان ليفرط في وقته، وأنه عمل منذ أن وصل هناك على وضع الخطط الكفيلة بإفشال مهمة مسلم، ولا بد أنه جمع حوله مؤيدي الدولة وأعوانها في الكوفة في ليلته الأولى والذين لا بد أن يكونوا قد أسرعوا لاستقباله والتطوع للاشارة عليه فيما سوف يفعله والذين أبدوا استعدادهم لتنفيذ خططه ومشاريعه.

وهكذا بدا أن برنامجه في أول يوم قضاه في الكوفة بعد ليلته الأولى فيها، كان حافلًا ومزدحماً بالأعمال. وقد دعا الناس منذ الصباح الباكر للاجتماع في المسجد وألقى فيهم خطبة مهددة متوعدة قال فيها[1]: (أما بعد فإن أمير المؤمنين ولّاني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بانصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالاحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متبع فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشقيق، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه)[2].

وقد اتسمت خطبته هذه بالشدة المعروفة عنه، كما أنه لوَّح فيها، اضافة للسيف والسوط بالرشوة والمال، وهو أمر من شأنه أن يفتح أمامه المزيد من الحصون.

بين خطاب.. وخطاب

على أنه كان من بعد النظر بحيث أدرك أنه إذا ما قام بمحاسبة الناس وفق مواقفهم السابقة، فإن ذلك ربما يثيرهم ويجعلهم في ريبة من أمره وشك، وربما عمدوا إلى الوقوف ضده مع اعدائه الى النهاية إذا ما وجدوا أنفسهم متهمين عنده.

وقد قام بخطوة كان من شأنها تخفيف الضغط النفسي على أولئك الذين وقفوا ضد الدولة الأموية، وكانت بمثابة خط رجعة لهم للعودة إلى صفوف أعوان الدولة. وهي خطوة ماكرة ذكية جديرة بمعاوية نفسه أو زياد أو المغيرة.

---

(١) ذكر ابن الأثير انه قيل انه خطبهم من يومه ٣/ ٣٨٨.

(٢) ابن الأثير ٣/ ٣٨٩، ونهاية الارب للنويري ٢٠ ـ ٣٩، وفي مقاتل الطالبيين ٦٩ ط النجف (فلا يتق امرؤ إلا على نفسه الصدق ينبىء عنك لا الوعيد) والطبري ٣/ ٢٨١.

فقد صرح بعيد خطابه، لطمأنة من يكون الخوف قد تسرَّب إلى قلبه.

(إني لأعلم أنه قد سار معي، وأظهر الطاعة لي، من هو عدو للحسين حين ظنَّ أن الحسين قد دخل البلد وغلب عليه. والله ما عرفت منكم أحداً)[1].

وعلى أثر خطابه وتهديداته وتطميناته أصدر تعليماته المشددة إلى أعوان الدولة وموظفيها من العرفاء والشرطة والجنود ورؤساء القبائل والأشراف وغيرهم.

(فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً، فقال: اكتبوا إليَّ الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا فبريء، ومن لم يكتب لنا أحداً، فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة، وحلالٌ لنا ماله وسفك دمه، وأيما عريف وجد في عرافته من بغية امير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا، صلب على باب داره، وألقِيت تلك العرافة من العطاء، وسُيِّر إلى موضع بعمان الزارة)[2].

ومع أنه لم يقل للناس هنا ما قاله صراحة في البصرة بأنه سيأخذ على الظنة والقريب بالبعيد، إذ أنه لو صرَّح بذلك من أول وهلة لاستنفر الناس وجعلهم يعمدون الى اخراجه أو قتله وهم متهيؤون لذلك خصوصاً وأن مسلم قد سبقه الى الكوفة وأخذ ببيعة أهلها للحسين عليه السلام، كما لم يشر في خطابه إلى مسلم أو الحسين عليه السلام وربما آثر أن يفعل ذلك في مرة قادمة.

أما مع موظفي الدولة من العرفاء وأشباههم، فلم يرَ أن ينهج النهج نفسه، فهؤلاء قد وظفتهم الدولة وأعطتهم رواتبهم وامتيازاتهم وربما جعلت منهم قوة مقابل قوة رؤساء القبائل لايجاد موازنة بينهم لصالحها، فهم محسوبون عليها، وينتظرون نوال الحاكم وعطائه ويخافون غضبه وسطوته ومنعه، فلم يكن ابن زياد يتحرج منذ البداية من كشف نفسه أمامهم.

وكانت الاجراءات التي طلبها ابن زياد مألوفة في ظل النظام الأموي الذي أوجد

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٢.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨١، وابن الأثير ٣/ ٣٨٩، والارشاد للمفيد ١٨٨، ونهاية الارب للنويري ٢٠ ـ ٣٩١.

سلسلة اخطبوطية من الأعوان والأزلام لكتم أنفاس الناس والحدّ من حرياتهم وتحركاتهم، وموضع عمان الزارة هذا الذي أشار اليه بتعليماته يبدو وكأنه أحد الأماكن النائية التي لا تتوفر فيها أي وسائل للراحة، وربما كان منفى للجنود والناس المغضوب عليهم من قِبَل الدولة.

وقد استنفر ابن زياد موظفي الدولة الخانعين هؤلاء، وأرسلهم في أضخم حملة تفتيشية تجرى في الكوفة للتعرف على قوة مسلم ونفوذه وأماكن تجمع انصاره ومريديه، وكان يسر هؤلاء حتماً أن يستجيبوا لهذا المسؤول الكبير الذي يرجون نواله ويخشون بأسه وسطوته وهم قد سمعوا عنه الكثير وعرفوا أباه من قبل، ذلك الذي صلب آباءهم واخوتهم على جذوع النخل وسلب أموالهم لأنهم كانوا من الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام، ويعلمون أنه ـ كأبيه ـ جريء في سفك الدماء لأدنى سبب حتى ولو كان لا يستوجب أدنى عقوبة.

وكدليل على صرامته وشدته، عمد ابن زياد إلى قتل جماعة من أهل الكوفة ربما اتهمهم بأنهم من أعوان مسلم أو أنهم من الخوارج أو دبّر لهم تهماً مختلفة بقصد إشاعة الارهاب والخوف هناك[1].

ويبدو أن ابن زياد قد فعل الكثير لمواجهة المعارضة التي كان يتزعمها مسلم، وقام بالعديد من المهام التي ساعدته على رصد تحركات الثوار ومراقبتها وبث عناصره وأعوانه بينها لتخذيلهم وإشاعة الخوف بين صفوفهم، وقد شجعه ذلك على القاء خطبة نارية مشابهة لتلك التي القاها في البصرة، وقد جاء فيها:

(أما بعد: فإنه لا يصلح هذا الأمر إلّا في شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وأن آخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، والولي بالولي)[2].

وهو أسلوب الغشم الأموي الذي لا يشابه الأسلوب الاسلامي بأي حال من الأحوال والذي غالباً ما يلجأ إليه الطغاة لتبرير ظلمهم واستهتارهم وشدتهم.

وقد أثار هذا الأسلوب مشاعر الناس، فانبرى له أحد أهالي الكوفة، أسد بن عبدالله المري قائلًا:

---

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ ص١٩٧، ووسيلة المآل ١٨٦.
(٢) الفتوح ٥/ ٦٧.

(. إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، إنما المرء بجده والسيف بحده، والفرس بشدّه. وعليك أن تقول وعلينا أن نسمع، فلا تقدم فينا السيئة قبل الحسنة)[1].

ومع أن هذا الرجل يعد بالسمع والطاعة، إلّا أنه ربما قد رأى أن هذه الخطبة غير جديرة بالسامعين المطيعين، وانها جديرة بمن أعلن عداوته وحربه، وربما رأى أن له دالة على (اميره) بسمعه وطاعته وربما محبته، غير أنه لم يملك إلّا أن يذكّر هذا الأمير بالقانون الإلهي المبين، فهو وحده الكفيل بردع الانسان عن السيئة، السيئة الحقيقية، لا التي يراها الظالمون وأتباعهم.

وسواء صرّح ابن زياد أم لم يصرح بقانونه الجائر، الذي هو قانون دولة الظلم الأموية كلها، فان ممارسات هذه الدولة دلّت على أن هذا القانون كان هو النافذ والبديل للقانون الاسلامي الصحيح.

كان الشك والأخذ على التهمة والظنة هو القاعدة السائدة في ظل دول الجور وكان العدل والاستقامة وقوانين الاسلام هي الاستثناء وتطبيق أي منها مرهون بمزاج الحاكم ومصالحه وأهوائه.

مسلم: بين السرّية والعمل العلني في أجواء دولة الظلم

وكان على مسلم كقائد للمعارضة القائمة ضد الحكم الأموي وممثل للامام الحسين عليه السلام لدى أهل الكوفة أن لا يدع مركز القيادة مكشوفاً أمام عدوّه، خصوصاً وأن الامام أوصاه بالكتمان ريثما يستكمل عمله ويعد للأمر عدته. وكان مركزه الأول في دار المختار الثقفي قد أصبح عرضة للانظار وربما استهدفه ابن زياد بعمل عسكري مباشر واستطاع تصفية وجوه المعارضة قبل أن يتم مسلم مهمته.

وهكذا اصبح الانتقال إلى مركز آخر بديل، ضرورياً بنظره، بل أمراً لا يحتمل التأجيل، خصوصاً وأن نشاط ابن زياد لمواجهته كان واضحاً وقوياً، وكانت تلك خطوة جديرة بأي قائد بارع كمسلم يجد نفسه في ذلك الموقف الدقيق، ولم يكن سبب ذلك هو فشل مسلم في مسعاه وهربه الى مكان آخر كبيت هانىء أو شريك كما حاول بعض الكتّاب تصوير ذلك بعد أن فهموه كذلك وأن مسلم ذهب مستنجداً خائفاً

---

(١) نفس المصدر السابق.

في جنح الظلام، وان هانىء كان متذمراً من ايوائه وخائفاً مثله ايضاً وانه آواه استجابة للنخوة العربية.

فلو كان مسلم في مثل ذلك الموقف الدقيق ورأى أنه معرض للخطر وأن لا أمل باكمال مهمته لكتب الى الامام بذلك وأخبره حالًا ولغادر الكوفة، غير أنه كان يبدو من مجريات الأمور ـ وكما سنرى بعون الله ـ انها كانت تجري لصالحه ولصالح حركته لأخذ البيعة للامام، وان تغيير مقر قيادته وتحركاته كان من الضرورات التي لا بد منها لمنع السلطة من اتخاذ اجراء لمهاجمته أو مراقبته وإفشال مخططه، خصوصاً وأن ابن زياد كان في حال لا يتورع معها من القيام بذلك.

من دار المختار الى دار هانىء

لجأ مسلم الى دار هانىء بن عروة المرادي الصحابي الجليل الذي شارك مع أمير المؤمنين عليه السلام في معاركه والذي أثارت مواقفه معاوية فكان يود الانتقام والنيل منه لولا قوة شكيمته وموقعه في قومه فقد كان (إذا ركب يركب معه اربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، فاذا أجابتها أحلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين الف دارع)[1].

وقد دلَّت مواقف هانىء اللاحقة أنه كان يتبنى نفس موقف مسلم وأنه كان من أشد أنصاره، وقد ذهب في تأييده وكسب الناس له إلى حد الاستشهاد.

وقد أصبحت دار هانىء مقراً لمسلم (وأخذت الشيعة تختلف اليه في دار هانىء بن عروة)[2] وقد بايعه فيها ثمانية عشر الفاً[3].

فمسلم كما يبدو هنا ليس لاجئاً أو مستجيراً بهانىء، لجأ إليه نتيجة خوفه من ابن زياد، وإلَّا كيف يقوم من كان خائفاً باستقطاب هذه الأعداد الغفيرة من الناس وأخذ بيعتها للامام، اللهم إلَّا إذا كان مطمئناً إلى قوة موقفه ومركزه وإلى قناعة مضيفه بعمله بل ومشاركته إياه.

أما ما ذكر حول خروج مسلم من دار المختار بعد سماعه تهديدات عبيدالله بن

(١) مروج الذهب ٢/ ٨٩.
(٢) الطبري ٣/ ٢٨٣، وابن الأثير ٣/ ٣٨٩.
(٣) الأخبار الطوال ٢١٤.

زياد وما أخذ به العرفاء والناس (حتى انتهى إلى دار هانيء بن عروة المرادي فدخل بابه، وأرسل إليه أن اخرج، فخرج اليه هانيء، فكره هانيء مكانه حين رآه، فقال له مسلم: أتيتك لتجيرني وتضيفني؛ فقال: رحمك الله، لقد كلفتني شططاً، ولولا دخولك داري وثقتَكَ لأحببت ولسألتك أن تخرج عني، غير أنه يأخذني من ذلك ذمام، وليس مردود مثلي على مثلك عن جهل؛ ادخل. فآواه. وأخذت الشيعة تختلف اليه في دار هانيء بن عروة)[1].

(. ويبايعون الحسين سراً، ومسلم بن عقيل يكتب اسماءهم ويأخذ عليهم العهود، انهم لا ينكثون ولا يغدرون، حتى بايعه ما ينيف على عشرين الفاً)[2].

إن ما ذكر عن كره هانيء لنزول مسلم في داره، وأنه استجاب لذلك مرغماً فأمرٌ لا يكاد أن يصدق على ضوء مواقف هانيء السابقة واللاحقة وما قام به في سبيل نصرته، وإلّا فهل يستطيع ضيف غير مرغوب فيه وثقيل على مضيفه أن يستقبل هذه الأعداد الغفيرة التي بايعته للحسين عليه السلام؟

«إن الايمان قيد الفتك.. ولا يفتك مؤمن»

وفي دار هانيء، اتيحت لمسلم فرصة اغتيال ابن زياد، إلّا أنه امتنع عن ذلك، وقد رويت عن ذلك قصتان نرويهما فيما يأتي؛ كما روي أن الفرصة قد أتيحت لهانيء فرفضها ايضاً ولذلك قصة ثالثة سنرويها ايضاً:

١ - (نزل شريك بن الأعور على هانيء بن عروة المرادي، وكان شريك شيعياً، وقد شهد صفين مع عمار، وقدم شريك بن الأعور شاكياً فقال لهانيء: مر مسلماً يكن عندي، فان عبيدالله يعودني.

وقال شريك لمسلم: أرأيتك إن أمكنتك من عبيدالله أضاربه أنت بالسيف؟ قال: نعم والله.

وجاء عبيدالله شريكاً يعوده في منزل هانيء. وقد قال شريك لمسلم: إذا سمعتني أقول: اسقوني ماء، فاخرج عليه فاضربه.

وجلس عبيدالله على فراش شريك، وقام على رأسه مهران، فقال: اسقوني

---

(١) الطبري ٣/٢٨٣ وابن الأثير ٣/٣٨٩، ونهاية الارب ٢٠ ـ ٣٩١.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ج١ ف١٠.

ماء، فخرجت جارية بقدح، فرأت مسلماً فزالت، فقال شريك اسقوني ماء؛ ثم قال الثالثة: ويلكم تحموني الماء! اسقونيه ولو كانت فيه نفسي، ففطن مهران فغمز عبيدالله، فوثب، فقال شريك: أيها الأمير، إني أريد أن أوصي اليك؛ قال: أعود إليك، فجعل مهران يطرد به، وقال: أراد والله قتلك)[1].

ولم يذكر في هذه الرواية سبب احجام مسلم عن قتل ابن زياد.

٢ - (مرض شريك بن الأعور. وكان كريماً على ابن زياد وعلى غيره من الأمراء، وكان شديد التشيع، فأرسل اليه عبيدالله: إني رائح إليك العشية، فقال لمسلم: إن هذا الفاجر عائدي العشية، فإذا جلس فاخرج اليه فاقتله، ثم اقعد في القصر، ليس أحد يحول بينك وبينه، فان برئت من وجعي هذا أيامي هذه سرت الى البصرة وكفيتك أمرها.

فلما كان من العشي أقبل عبيدالله لعيادة شريك. فقام مسلم بن عقيل ليدخل. وقال له شريك: لا يفوتنك إذا جلس.

فقام هانيء بن عروه إليه فقال: إني لا أحب أن يقتل في داري. كأنه استقبح ذلك. فجاء عبيدالله بن زياد فدخل، فجلس، فسأل شريكاً عن وجعه، وقال: ما الذي تجد؟ ومتى اشتكيت؟

فلما طال سؤاله إياه، ورأى أن الآخر لا يخرج، خشي أن يفوته فأخذ يقول: ما تنظرون بسلمى أن تحيّوها[2].

اسقنيها وإن كانت فيها نفسي. فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً؛ فقال عبيدالله، ولا يفطن ما شأنه: أترونه يهجر؟ فقال له هانيء: نعم أصلحك الله، ثم انه قام فانصرف. فخرج مسلم، فقال له شريك: ما منعك من قتله؟ فقال: خصلتان: أما إحداهما فكراهة هانيء أن يقتل في داره.

وأما الأخرى، فحديث حدثه الناس عن النبي ﷺ: «إن الايمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن».

---

(١) الطبري ٣ - ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) وتكملتها في بعض المصادر مثل مناقب ابن شهر آشوب ٤ - ٩١:

حيّوا سليمى وحيّوا من يحيّيها كأس المنية بالتعجيل فاسقوها

فقال هانيء: أما والله لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً، ولكن كرهتُ أن يقتل في داري)[1].

وفيها أن الذي رغب بقتل عبيدالله هو شريك. وان مسلم رفض قتله لحديث سمعه عن رسول الله ﷺ أو من عمه أمير المؤمنين عليه السلام ولأن هانيءكره قتله في بيته. وفي القصتين أن المريض كان هو شريك.

٣ - (. فمرض هانيء بن عروة، فجاء عبيدالله عائداً له، فقال له عمارة بن عبيد السلولي: انما جماعتنا وكيدنا قتل هذا الطاغية، فقد أمكنك الله منه فاقتله.

قال هانيء: ما أحب أن يقتل في داري، فخرج)[2].

وفيها أن الذي مرض هو هانيء وليس شريكاً، وانه كره قتل ابن زياد في داره.

ونعود لاكمال تعليقنا الذي بدأناه في بداية هذا البحث، فنقول: إن مسلم لم يرد الانتصار لقضية إسلامية بأداة غير إسلامية؛ فقد رفض اللجوء إلى اغتيال ابن زياد في دار هانيء لأن الاسلام يرفض هذا الأسلوب، إذ أن المسألة ستخرج ـ بنظر المسلمين في هذه الحالة ـ من قضية إسلامية بحتة كان مسلم يسعى فيها لنصرة الاسلام إلى قضية شخصية قوامها التنافس على السلطان.

ولو أن مسلماً نجح في مسعاه وقتل ابن زياد وجعل الكوفة تلتفت حوله، ليقل له بعد ذلك: كان بامكانك أن تنجح دون اللجوء إلى نفس الأساليب الأموية وكان يمكنك منازلة ابن زياد في مكان آخر دون اللجوء إلى هذا الأسلوب، وكان كل من سيعمد الى اسلوب مماثل سيحمل مسلم مسؤولية ذلك، كسنّة سنَّها وسيتحمل وزرها ووزر من عمل بها.

أترى أن مسلم الذي نشأ في رعاية عمه أمير المؤمنين عليه السلام مع ابنيه عليهما السلام وهانيء الذي صحب الرسول ﷺ وقاتل مع أمير المؤمنين عليه السلام وهو بين أهل وعشيرته صاحب شوكة وشكيمة يرضيان قتل أحد آمن غيلة وغدراً، حتى ولو كان عدوهما اللدود؟

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤ وابن الأثير ٣/ ٣٩٠ مع اختلاف بسيط، ومقتل الحسين للخوارزمي ج١، ف١٠ وفيه (حديث سمعته من عمي علي بن ابي طالب)، وابن كثير ٨/ ١٥٣.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٣.

هل يقبل الاسلام بذلك، حتى يقبلا؟

وإذا ما قيل انهما أو أن أحدهما جبن عن ذلك، فإن واقع حالهما وصمودهما أمام أشرس نظام شهدته الأمة الاسلامية في تاريخها، لا يجعل أحداً يقتنع بذلك.

إنه منطق الاسلام المستقيم، حملاه وسارا على أساسه، ولن يفهم دوافعهما للامتناع عن قتل ابن زياد في بيت مسلم غيلةً إلّا من حمل هذا المنطق وفهمه ووعاه.

التجسس في مواجهة خطط مسلم

ولم يكن من المتوقع أن يسكت ابن زياد عما أريد له في منزل هانيء، غير أنه لم يكن متيقناً أن المنزل كان مركزاً لتجمع الثوار ورافضي الدولة الأموية.

وإذا ما أخذت بيعة أكثر من ثمانية عشر الف منهم في هذا المنزل، ومع ذلك فان هذا الأمر خفي على أعوان الدولة وعيونها أدركنا إلى أي حد كانت خطة مسلم محكمة ومحاطة بجوٍ من السرية والكتمان وناجحة.

وكان لا بد من تحرك سريع من النوع الذي ألفه الأمويون، فلا بد من اكتشاف مقر مسلم، وابن زياد لم يقدم الكوفة إلا لهذا الغرض.

إن أسلوب التجسس كان هو الذي يمكن أن ينجح لكشف تحركات مسلم ومقره وحجم قوته، فهو أسلوب يخفي نوايا أصحابه وتحركاتهم، وينفذ بالمقابل إلى عمق العدو والزوايا التي يكمن فيها، وقد وجدت الدولة الأموية في غمرة سعيها المحموم للبقاء ضرورة استخدام ذلك الأسلوب دائماً، كما وجدت من يتطوع أو يبيع لها نفسه للقيام بمهمة التجسس على القوى المناوئة لها.

ولم يفت ابن زياد اللجوء إلى هذه الطريقة التقليدية التي تلجأ اليها الدول عادة لرصد تحركات أعدائها ومناوئيها، ويبدو أنه كان يعلم عن أحد أعوانه مهارة في فن التجسس وهو مولى له يقال له معقل، واتفق معه على خطة يصل بها إلى مسلم. وقد أصدر اليه توجيهاته قائلًا:

(خذ ثلاثة آلاف درهم، ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم اعطهم هذه الثلاثة آلاف، ثم قل لهم: استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم، فانك لو قد اعطيتهم إياها اطمأنوا اليك ووثقوا بك، ولم يكتموك شيئاً من

اخبارهم، ثم اغدُ عليهم ورُحْ)[1] وهي توجيهات مفصّلة من رجل دولة متمرّس جعل همه طلب أعدائه والنيل منهم، ولا يهمه بأية وسيلة يصل إلى ذلك.

وقد كان جاسوسه بمستوى المهمة التي عهد بها إليه، ولم تكن تنقصه مهارة الابداع فيما كلفه به سيده، ففعل كل ما أمره به (فجاء حتى أتى إلى مسلم بن عوسجة الأسدي، في المسجد الأعظم وهو يصلي، وسمع الناس يقولون: إن هذا يبايع للحسين، فجاء فجلس حتى فرغ من صلاته ثم قال: يا عبدالله، إني امرؤ من أهل الشام، مولىً لذي الكَلاع، أنعم الله عليَّ بحب أهل هذا البيت وحب من أحبَّهم، فهذه ثلاثة آلاف درهم، أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ، وكنت أريد لقاءه فلم أجد أحداً يدلني عليه ولا يعرف مكانه، فإني لجالس آنفاً في المسجد، إني سمعت نفراً من المسلمين يقولون: هذا رجل له علم بأهل هذا البيت؛ وإني أتيتك لتقبض هذا المال وتدخلني على صاحبك فأبايعه، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه.

فقال: أحمد الله على لقائك إيَّاي، فقد سرَّني ذلك لتنال ما تحب، ولينصر الله بك أهل بيت نبيّه ﷺ، ولقد ساءَني معرفتك إياي بهذا الأمر من قبل أن ينمى مخافة هذا الطاغية وسطوته، فأخذ بيعته قبل أن يبرح، وأخذ عليه المواثيق المغلّظة ليناصحن وليكتُمنَّ، فأعطاه من ذلك ما رضي به، ثم قال له: اختلف إليَّ أياماً في منزلي، فأنا طالب لك الإذن على صاحبك، فأخذ يختلف مع الناس، فأقبل به حتى أدخله عليه بعد موت شريك بن الأعور، فأخبره خبره كله، فأخذ ابن عقيل بيعته، وأمر أبو ثمامة الصائدي، فقبض ماله الذي جاء به، وأقبل ذلك الرجل يختلف اليهم، فهو أول داخل وآخر خارج، يسمع أخبارهم، ويعلم أسرارهم، ثم ينطلق بها حتى يقرّها في أذن ابن زياد)[2].

استدراج هانيء للقصر

ويبدو أن ابن زياد استطاع معرفة تحركات مسلم ورؤوس أصحابه من خلال

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٣، وابن الأثير ٣/ ٣٨٩.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤ وابن الأثير ٣/ ٣٨٩ والأخبار الطوال ٢١٥ ومقتل الخوارزمي ج١ ص ٢٠١ - ٢٠٢، والارشاد للمفيد ١٩٠، والبحار م١٠ ج٤٤ - ٢٤٢، ٣٩١، ومقاتل الطالبيين ص٧١، ونهاية الارب ٢٠ - ٣٩٣.

مولاه معقل الذي كان يوافقه بأخبارهم وأسرارهم وأماكن تجمعاتهم وحجم قوتهم، وهو ما أتاح له مرونة التحرك وتحديد الخطوات القادمة.

على أن أهم ما استفاده ابن زياد هو وجود شاهد عاش بين الثوار ورصد تحركاتهم واستطاع بالتالي أن يواجههم أمامه كما فعل مع هانىء، ولو أن معقل لم ينجح في مهمته لما استطاع ابن زياد- على الأغلب ـ أن يكشفهم وينجح في مهمته أمام يزيد.

وعلى أي حال فان الموقف أصبح واضحاً الآن لابن زياد.

هانىء، الذي يعيش بين قومه وأهله، يستضيف مسلم ويتبنى دعوته، واجتماعهما سوية يشكل قوة كبيرة قد لا يستطيع مواجهتها.

وما عليه إلّا أن يستدرج هانىء إلى القصر ويحتجزه أو يقتله على ضوء ما يستجد من أحداث، بالتعاون مع وجوه معروفة من الكوفة، وحينذاك سيظل مسلم دون هانىء ضعيفاً وستكون هناك ثغرات عديدة يمكن النفاذ منها لضرب حركته.

وهذا ما فعله ابن زياد بالضبط مع هانىء الذي قيل أنه كان يتردد عليه ثم انقطع عن زيارته، وكان ذلك بدايةً لإحكام خطته ضد الثوار.

وقد (دعا محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجه وبعث معهما عمرو بن الحجاج، وكانت أخته تحت هانىء بن عروة، فقال لهم: ما يمنع هانىء بن عروة من إتياننا؟ وهو يجلس على باب داره، فألقوه، فمروه ألّا يدع ما عليه في ذلك من الحق، فإني لا أحب أن يفسد عندي مثله من أشراف العَرب.

فأتوه، فقالوا له: ما يمنعك من لقاء الأمير، ويبلغه أنك تجلس كل عشية على باب دارك، وقد استبطأك، والابطاء والجفاء لا يحتمله السلطان أقسمنا عليك لما ركبت معنا! فدعا بثيابه فلبسها، ثم دعا ببغلة فركبها، حتى إذا دنا من القصر؛ كأن نفسه أحست ببعض الذي كان، فقال لحسان بن أسماء بن خارجه: يا ابن أخي، إني والله لهذا الرجل لخائف، فما ترى؟ قال: اي عم، والله ما أتخوف عليك شيئاً، ولم تجعل على نفسك سبيلًا وأنت بريء؟

وزعموا أن اسماء لم يعلم في أي شيء بعث اليه عبيدالله؛

فأما محمد [بن الأشعث] فقد علم به..

فدخل القوم على ابن زياد، ودخل معهم[1].

وهنا انتهى الفصل الأول من هذه المؤامرة، ونجح ابن زياد في استدراج هانىء الى القصر، واستخدم لغرضه بعض الأشراف، وأحدهم يمتّ إليه بصلة قربىٰ وثيقة، وكان رغم ذلك يعلم بخطة ابن زياد، ولم يأنف مع ذلك من استدراج قريبه اليه، وربما نفس عليه مركزه في قومه، وربما كان أحدهم، اسماء بن خارجة مطية لغرض ابن زياد، إلّا أنه ساهم باستدراج هانىء اليه.

وكان أحد نماذج (الأشراف) محمد بن الأشعث، قد ابدى ولاءه المطلق لابن زياد ولم يجرؤ على تحذير هانىء منه، وربما كان متواطئاً، وهو متواطىء بالفعل كما دلّت عليه أحواله في كل فصول المؤامرة، إرضاءً لسيده واستجلاباً لعطفه وخوفاً من غضبه.

إن نموذج السيد الشريف، إذا ما استعرض هؤلاء، تجعل الدارس يستبعد أول ما يستبعد كلمة الشرف ومفهوم الشرف وكل شيء يمت إلى الشرف، فقد تخلّى هؤلاء عنه، ولم يعد لهم منه إلّا الاسم، وإلا فمن هو السيد الشريف في قومه عند العرب، في جاهليتهم وإسلامهم؟

صمود هانىء بمواجهة تخاذل (الأشراف) وتهديدات ابن زياد

وكعادة الطغاة الذين يرون أن الناس مدينين لهم دائماً وأنهم ينبغي أن يتوجهوا اليهم بالولاء والتقدير بل والعبادة، والذين تثيرهم إلى حد الجنون أية همسة أو تساؤل أو عمل من شأنه أن يقوّم أو يصحح مسيرة شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، تميز ابن زياد غضباً بوجه هانىء وأرعد وتهدد، فهو لم يفهم كيف أن فرداً من الأمة المستعبدة يتصدى لازالة مركز الاستعباد ورمز الظلم والاستبداد، ألم تنحني الأمة كلها أمامه وتسكت عن كل ممارساته وأخطائه، فلم يكلف نفر من هذه الأمة أنفسهم للقيام بهذه المهمة؟ ومن كلفهم بذلك؟ هذا ما لم يستطع أحد من الطغاة أن يفهمه يوماً من الأيام، طالما أنه لم يفهم أنه مقيد بشريعة وقانون إلهي نافذ عليه وعلى غيره، وطالما أنه لم يرَ سوى نفسه وهواه ومصالحه.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٤ - ٢٨٥، وابن الأثير ٣/ ٣٩١.

واستقبله استقبالًا فظاً آملًا أن يروعه ويخيفه، غير أن هانئاً لم ينحن لزوبعة ابن زياد التي أثارها بوجهه عند دخوله.

دخل الأشراف على ابن زياد، ودخل هانيء معهم (فلما طلع قال عبيدالله: أتتكَ بخائن رجلاه! فلما دنا من ابن زياد وعنده شريح القاضي، التفت نحوه، فقال:

اريد حياته ويريد قتلي   عذيركَ من خليلك من مرادِ

ايهٍ يا هانيء بن عروة! ما هذه الأمور التي تربَّص في دورك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك، وظننت أن ذلك يخفى عليَّ لك![1]).

وحاول هانيء إنكار ذلك، فما كان يصح كشف حركة مسلم ولما تستكمل أمورها بعد، إلَّا أن ابن زياد دعا (معقلًا ذلك العين، فجاء حتى وقف بين يديه، فقال: أتعرف هذا؟ قال: نعم، وعلم هانيء عند ذلك أنه كان عيناً عليهم، وأنه قد أتاه بأخبارهم، فسقط في خلده ساعة)[2] ثم أقرَّ بوجود مسلم لديه، إلَّا أنه امتنع عن تسليمه لابن زياد عندما طلب منه ذلك وقال: (لا والله، لا اجيئك أبداً، أنا أجيئك بضيفي تقتله؟! قال: والله لتأتيني به. قال: والله لا آتيك به)[3].

وقد تطوع أحد الحاضرين، وهو مسلم بن عمرو الباهلي، مبعوث يزيد الى ابن زياد ومرافقه بعد ذلك، بأن يقوم باقناع هانيء لكي يستجيب لمطلب ابن زياد وحاول اخافته وطمأنته إلى أن مسلم لن يقتل إذا ما دفع اليه، وجاء في أقواله: فادفعه إليه، فإنه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة، إنما تدفعه إلى السلطان!

قال: بلى، والله إن عليَّ في ذلك للخزي والعار، أنا أدفع جاري وضيفي وأنا حي صحيح أسمع وأرى، شديد الساعد، كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلَّا واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه، فأخذ يناشده وهو يقول: والله لا أدفعه إليه أبداً، فسمع ابن زياد ذلك فقال: ادنوه مني، فأدنوه منه، فقال: والله لتأتيني به أو

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٥، وابن الأثير ٣/ ٣٩١.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.

لأضربنَّ عنقك، قال : إذا تكثر البارقة حول دارك: فقال: والهفاً عليك، أبالبارقة تخوفني! وهو يظن أن عشيرته سيمنعونه[1].

وتكشف هذه المحادثة عن تضارب المفاهيم بين هانيء وخصومه، فما يراه هانيء غدراً وخيانة قد يلحق الخزي والعار به إلى الأبد، يراه خصومه أمراً طبيعياً، فهم يستجيبون للسلطان ليأمنوا بذلك شره وسطوته ويحظون بنواله وعطفه وهو منطق غريب عن قيم الاسلام غير أنه قريب من منطق الطواغيت، ما دام هو الذي يحقق رغباتهم ويدعم مصالحهم.

وإذا لم يتحمل ابن زياد هذا المنطق الرسالي الواضح من هانيء عمد إلى ما يعمد اليه أمثاله عادةً في مثل هذه المواقف، وهو التلويح بسيفه، وقد هدد هانئاً بالقتل، إلّا أنه قابل تهديده بتهديد مماثل ولم يخفِ امامه أو يستجيب لطلبه.

وكان ابن زياد من البراعة بحيث أشرك عمرو بن الحجاج بمهمة استدراج هانيء، وجعل الأمر يبدو وكأن قبيلته أو رؤوساً معروفة منها هي التي أسلمته، ولعله تواطأ مع ابن الحجاج وجماعة آخرين من قبيلته للتنكيل بشيخهم وزعيمهم الثائر ضد السلطة حتى لا يلحقهم ضيم أو بطش إذا ما ساروا وراءه، إن إيجاد مراكز قوى داخل القبيلة الواحدة بايجاد رؤساء محتملين وتقريبهم ودعمهم وايجاد سلطات أخرى مثل العرفاء وأمثالهم من شأنه أن يجعل ولاء القبيلة للسلطة لا لرئيسها وحده ولا للاسلام الذي دانت به ومع ذلك فإن قربها أو بعدها منه أو فهمها له رهين بالكيفية التي يريدها السلطان الجائر.

ولعلَّ الأمر لم يغب عن فطنة هانيء، غير أنه لم يعدم أعواناً وأنصاراً كانوا حتى لحظة التقائه بابن زياد يعدون العدة للانقضاض عليه، وقد ساروا لهذه المهمة فعلًا كما سنرى بعون الله، لولا أنهم جوبهوا بحملة مركّزة لتخذيلهم وجعلهم يتخلون

---

(١) الطبري ٧/ ٢٨٥ وابن الاثير ٣/ ٣٩٢ وذكر المسعودي في مروج الذهب ٣ - ٦٧ أن هانئاً قال لابن زياد (ان لزياد أبيك عندي بلاءً حسناً، وأنا أحب مكافأته به، فهل لك في خير؟ قال ابن زياد: ما هو؟ قال: تشخص إلى أهل الشام أنت وابنيك سالمين باموالكم، فانه قد جاء من هو أحق من صاحبك)، وراجع ابن كثير ٨/١٥٦ وقيل ان هانيء قال له: (والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه) ابن كثير ٨/ ١٥٦.

عنها، وهكذا فلم يكن هانيء مخطئاً حين تصور أن قومه سينصرونه.. غير أن الأمر اتخذ في غيابه مجرى آخر بوجود زعماء متخاذلين أمثال عمرو بن الحجاج.

وقد تجلت دموية ابن زياد وحقده على الحركة المناوئة للدولة الأموية التي كان يعدّ نفسه أحد أقطابها بإقدامه على ضرب هانيء بنفسه وأمره باعتقاله ثم قتله بعد مسلم قتلة لم يقم أحد بها من قبل وكأنه أراد بذلك أن يمتاز ويشتهر وتكون له يد عند سيده يزيد إذا ما أبدى ذلك الانحياز المطلق له والدعم التام لحكمه، وقد استفزه جواب هانيء وعدَّه إهانه شخصية له فقال: (ادنوه مني، فأدني، فاستعرض وجهه بالقضيب، فلم يزل يضرب انفه وجبينه وخدَّه حتى كسر أنفه، وسيَّل الدماء على ثيابه، ونثر لحم خدّيه على لحيته حتى كسر القضيب.

وضرب هانيء بيده إلى قائم سيف شرطي من هؤلاء الرجال، وجابذه الرجل ومنع، فقال عبيدالله: أحروري سائر اليوم؟ أحللتَ بنفسك، قد حلَّ لنا قتلك، خذوه فألقوه في بيت من بيوت الدار، وأغلقوا عليه بابه، واجعلوا عليه حرساً. ففعل ذلك به)[1].

أما موقف الأشراف الذين جاءوا به إلى ابن زياد، فكان متبايناً ولعلَّهم لعبوا أدواراً متباينة ايضاً، فعمرو بن الحجاج لم يدخل معهم ـ فيما يبدو ـ إلى القصر، أما أسماء فقد احتجَّ، وقد أُهين وحجز أما ابن الأشعث فأبدى استكانة ذليلة ورآى أن من حق ابن زياد أن يقوم بأي اجراء ضد معارضيه وغيرهم.

قال أسماء بن خارجة (أرسُل غدر سائر اليوم! أمرتنا أن نجيئك بالرجل، حتى إذا جئناك به، وأدخلناه عليك، هشَّمت وجهه، وسيّلت دمه على لحيته وزعمت أنك تقتله! فقال له عبيدالله: وإنك لهاهنا! فأمر به فلهز وتعتع به، ثم ترك فحبس.

وأما محمد بن الأشعث فقال: قد رضينا بما رأى الأمير؛ لنا كان أم علينا، إنما الأمير مؤدب)[2].

لم يشم ابن زياد أي خطر منهما، بل لم يشعر بوجودهما، ولعلَّ عمله بأسماء

(١) المصادر السابقة، وراجع العقد الفريد ٥/ ١٢٠، وابن كثير ٨/ ١٥٦.
(٢) نفس المرجع السابق.

كان من شأنه أن يغيضه إن كانت له كرامة، غير أن أسماء تحمّل عبث أعوان ابن زياد به وسكت بعد أن رأى أنه قد قام بواجبه لاستنكار فعله ضد هانيء.

أما ذلة ابن الأشعث فربما كانت حافزاً لابن زياد لاستخدامه إلى أبعد غاية ممكنة وتكليفه بكل المهمات القذرة التي قام بها بعد ذلك، كما سنرى في غضون هذا الفصل بعون الله.

عمرو بن الحجاج يخذّل قومه

ولعلّ مهمة عمرو بن الحجاج كانت أدق من مهمة صاحبيه، فقد كان عليه أن يخذّل أصحابه وقبيله عن نصرة هانيء، ولو أنه كان يريد حقاً الانتصار له وإخراجه من سجن ابن زياد لما احتاج حتى إلى العدد الكبير الذي جلبه معه، ولكفاه عشرة منهم. على حد تعبير هانيء، غير أن مهمته كانت عزل هانيء وإظهار عمله كأنه تصرف شخصي ينبغي له تحمل نتائجه شخصياً أما قبيلته وقومه، فحسبهم السلامة.

ولم يكن إقدام ابن زياد على قتله جهاراً وفي وضح النهار وأمام أنظار قومه وتمثيله بجثته إلّا دلالة على تيقّنه من تخاذل قومه و انهيارهم وخوفهم، فهو ما كان ليجازف لو أنهم وقفوا وقفة مبدئية صلبة منه وأظهروا نصرتهم له.

وقد أقبل عمرو بن الحجاج في مذحج ـ قوم هانيء ـ وقد بلغهم قتله من قبل ابن زياد، وكان عمرو فيما يبدو مثلهم والناطق باسمهم، ولعلّه جاء بضغط منهم، وكانت كلماته إعلان ولاء أكثر مما هي كلمات تهديد لابن زياد.

أعلن عمرو عن هويته والغرض من مهمته، وبدا كأنه يتحدث عن قوم لا علاقة له بهم ولا ينتمي اليهم:

(أنا عمرو بن الحجاج. هذه فرسان مذحج ووجوهها، لم تخلع طاعة، ولم تفارق جماعة، وقد بلغهم أن صاحبهم يقتل، فأعظموا ذلك؛ فقيل لعبيدالله: هذه مذحج بالباب، فقال لشريح القاضي: ادخل على صاحبهم فانظر اليه، ثم اخرج فأعلمهم أنه حي لم يُقتل، وأنك قد رأيته، فدخل إليه شريح فنظر اليه)[1].

ويبدو كأن هذا بيان ولاء وطاعة أكثر مما هو بيان استنكار وغضب، وكان رد

(١) المصادر السابقة (والنص المذكور مأخوذ عن الطبري).

فعل ابن زياد البارد يدلل على استهانته بهم، وكان يبدو أنه قد أعدَّ للأمر عدته وشهوده أيضاً.

عندما يشهد القاضي زوراً: شريح مثالًا

وقد روى شريح، مشاهد الزور الذي استخدمه ابن زياد لاطفاء غضب مذحج بشهادته الكاذبة امامهم.. قال:

(دخلت على هانيء، فلما رآني قال: يالله يا للمسلمين! أهلكت عشيرتي، فأين أهل الدين، وأين أهل المصر؟ تفاقدوا، يخلّوني، وعدوَّهم وابن عدوهم، والدماء تسيل على لحيته، إذ سمع الرجّة على باب القصر. وخرجت وأتبعني، فقال: يا شريح، إني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، إن دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني[1]: قال: فخرجت اليهم ومعي حُميد بن بكير الأحمري ـ ارسله معي ابن زياد، وكان من شرطه ممن يقوم على رأسه ـ وأيم الله لولا مكانه معي لكنت أبلغت أصحابه ما أمرني به؛ فلما خرجت إليهم قلت: إن الأمير لما بلغه مكانكم ومقالتكم في صاحبكم أمرني بالدخول إليه، فأتيته فنظرت إليه، فأمرني أن ألقاكم، وأن أُعلمكم أنه حي، وأن الذي بلغكم من قتله، كان باطلًا.

فقال عمرو وأصحابه: فأما إذ لم يقتل فالحمد لله؛ ثم انصرفوا)[2].

شهد شريح على نفسه بالحق، بعد أن كان قد تقدم بشهادة الباطل لحساب ابن زياد، وربما كانت شهادته المزورة قد قلبت مجرى الحوادث كلها.

وقد تذرع بوجود رقيب عليه من قبل ابن زياد، منعه وجوده من الادلاء بشهادة الحق.

وهو عذر يتقدم به كل متخاذل مصلحي لا يرى أمامه إلا حياته ومصلحته، ولو كان ذلك على حساب حياة الآخرين ومصالحهم، ولنلاحظ كلماته.

---

(١) وورد أن هانئاً قال لشريح الذي كان ينتمي الى إحدى بطون كندة «يا شريح اتق الله فانه قاتلي»، تهذيب التهذيب ٢/ ٣٥١.

(٢) المصادر السابقة - والنص عن للطبري ٣/ ٢٨٦، ويراجع ابن كثير ٨/ ١٥٦ - ١٥٧ وقد ذكر الطبري في ٦/ ٢٠٣ ان شريح قال لمذحج: (ما هذه الرعة السيئة، الرجل حي، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه فانصرفوا ولا تحلوا بأنفسكم ولا بصاحبكم فانصرفوا).

الأمير. أمرني بالدخول.. وأمرني أن ألقاكم وأمرني أن أُعلمكم أنه حي وأن الذي بلغكم من قتله كان باطلًا فهي شهادة مفصَّلة حسب رغبة الأمير ولها ما يبررها بنظر شريح ما دام الأمير قد أراد ذلك.

إن شهادة شريح الشريف وفقيه الدولة المقرَّب موضوع لتأمل عميق، فأمثاله لا يهمهم سوى التقرُّب من الدولة ومجاملتها عسى أن يحضوا بمركز أو ثروة. وإذ يبررون للدولة أعمالها وانحرافها، فإنهم بذلك يبررون أعمالهم وسعيهم المحموم وراء مالكي السلطة والمال.

قنعت مذحج بالسلامة، ورجعت بغير زعيمها، واكتفت بأن تحمد الله على أنه لم يقتل وإن ظلَّ في سجن ابن زياد، فقد كانت ضعيفة متخاذلة يقودها قادة مهزومون أمثال ابن الحجاج.

استدراج الثوار لإعلان ثورتهم والاستعداد لقمعها

ومع ذلك فإن الخطر لا يزال يلوح لابن زياد، فمسلم لا يزال حياً لم يمس ومن بايعوه لا يزالون على بيعتهم.. وهو مصدر للخشية بدا جديراً بالاهتمام بنظره، وما أقدم عليه لم يكن بالأمر الهين، والثورة المحتملة قد تكون في أية لحظة، وهكذا صعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطته وجيشه، وقال:

(أما بعد، أيها الناس، فاعتصموا بطاعة الله ثم طاعة أئمتكم، ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا وتجفوا وتحرموا، إن أخاك من صدقك، وقد أعذرَ من أنذر.

فما نزل عن المنبر، حتى دخلت النظارة المسجد من قبل التَّمارين يشتدون ويقولون: قد جاء ابن عقيل، قد جاء ابن عقيل.

فدخل عبيدالله القصر مسرعاً، وأغلق أبوابه)[1].

فقد بدا أن سعيه مع ابن الحجاج لاسكات مذحج ومراد على الخصوص لم يأت بنتائج طيبة وبدا أنه كان في غاية الاحراج في تلك اللحظات.

---

(١) المصادر السابقة مع بعض التفاوت في النصوص، والنص الحالي لطبري ٣/٢٨٦.

على أن الأمر الذي نجح فيه ابن زياد هو أنه جعل الثورة تعلن قبل أوانها ويسفر الثائرون بقيادة مسلم عن وجوههم وقوتهم قبل استكمال مقومات نجاحهم، وهو ما أتاح له النفاذ اليهم وتفتيتهم وتفريقهم عن مسلم الذي كان قد بدأ يشعر بوجود قوة حقيقية إلى جانبه مقابل قوة ابن زياد حتى أنه أرسل كتاباً يستدعي الامام الحسين عليه السلام للقدوم إلى الكوفة متيقناً أن كل شيء كان يسير على ما يرام، وكان ذلك قبل سبع وعشرين ليلة من هذه الحادثة[1] التي حاصر فيها ابن زياد بعد أن عبَّأ أصحابه لقتاله.

ويحدثنا شاهد عيان عن السبب الذي دعا مسلماً لإعلان ثورته قبل الأوان وإقدامه على محاصرة ابن زياد، وهذا الشاهد هو عبدالله بن خازم الذي استشهد في ثورة التوابين بعد ذلك، قال: (أنا والله رسول ابن عقيل إلى القصر لأنظر إلى ما صار أمرُ هانىء، فلما ضرب وحبس ركبت فرسي وكنت أول أهل الدار دخل على مسلم بن عقيل بالخبر، وإذا نسوة لمراد مجتمعات ينادين: يا عثرتاه، يا ثكلاه.. فدخلت على مسلم بن عقيل بالخبر، فأمرني أن أنادي في أصحابه وقد ملأ منهم الدور حوله، وقد بايعه ثمانية عشر ألفاً، وفي الدور أربعة آلاف رجل، فقال لي: نادِ: يا منصور أمِت؛ فناديت: يا منصور أمِت؛ وتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا اليه، فعقد مسلم لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي على ربع كنده وربيعه، وقال: سر أمامي في الخيل، ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على رُبع مَذحَج وأسد، وقال: انزل في الرجال فأنت عليهم، وعقد لأبي ثمامة الصائدي على رُبع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جعده الجدلي على ربع المدينة، ثم أقبل نحو القصر، فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرَّز في القصر وغلق الأبواب)[2].

ويبدو أن عمل مسلم لم يكن مجرّد ردّ فعل على احتجاز هانىء من قبل ابن زياد، وأنه كان يبدو مستعداً لبعض المواقف الطارئة، وأنه كان ينظّم قواته ويعيّن قادته، وحتى شعار البدء بالمعركة ـ يا منصور أمت ـ وهو شعار المسلمين في بدر، كان يبدو معداً، وقد سار لقتال ابن زياد وحصاره في فترة قياسية قصيرة بعد أن أعدّ قواته لذلك.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٠١.

(٢) المصادر السابقة، والنص منقول عن الطبري ٣/ ٢٨٦ - ٢٨٧.

حملة (أشراف الكوفة) لتخذيل الناس وتخويفهم..

وهنا شُنّت أكبر حملة نفسية مضادة من قِبل أعوان ابن زياد من أشراف الكوفة، سبَّبَ نجاحها معرفتهم بواقع أهل الكوفة المستهدفين لظلم الدولة الأموية وإرهابها، والذين كانوا مشتتين موزعين طوائف وشيعَ وراء زعمائهم المنقادين لأوامر الدولة ورغباتها، واستهدفت تلك الحملة المحمومة تخذيل أعوان مسلم وإخافتهم وبثّ الإشاعات بينهم حول قدوم جيش الشام وتحذيرهم من قطع أعطياتهم وإرسالهم إلى محاربة أعداء الدولة دون مقابل، وقد زجّ الأشراف بكل ثقلهم في معركة الإشاعات والتخذيل، معتقدين أنها معركة بقاء وحياة حاسمة بالنسبة لهم.

وروى أحد أتباع مسلم، قال: (. خرجنا مع ابن عقيل أربعة آلاف، فما بلغنا القصر إلّا ونحن ثلثمائة، ثم إن الناس تداعوا إلينا واجتمعوا، فوالله ما لبثنا إلّا قليلًا حتى امتلأ المسجد من الناس والسوق، وما زالوا يثوّبون حتى المساء. فضاق بعبيدالله ذرعه، وكان كبر أمره أن يتمسك بباب القصر[1]، وليس معه إلّا ثلاثون رجلًا من الشرط وعشرون رجلًا من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه، وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد من قِبل الباب الذي يلي دار الروميّين، وجعل من بالقصر مع ابن زّياد يشرفون عليهم، فينظرون إليهم، فيتقون أن يرموهم بالحجارة، وأن يشتموهم، وهم لا يفترون على عبيدالله وعلى أبيه.

ودعا عبيدالله كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي، فأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مِذحج فيسير بالكوفة، ويخذّل الناس عن ابن عقيل ويخوّفهم الحرب، ويحذّرهم عقوبة السلطان، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كنده وحضرموت، فيرفع راية الأمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي، وشَبَثْ بن ربعي التميمي، وحجار بن أبجر العجلي، وشمر بن ذي الجوشن العامري، وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشاً اليهم لقلّة عدد من معه من الناس، وخرج كثير بن شهاب يخذل الناس عن ابن عقيل)[2].

---

(١) وورد في اللهوف لابن طاووس ص٢٢ ومقتل الخوارزمي ١ - ٢٠٦ (وما زال الناس يتواثبون حتى المساء وأقبلوا نحو القصر، فضاق بعبيدالله بن زياد أمره، وتحصّن في القصر، وغلّق الأبواب واقتتل أصحابه وأصحاب مسلم ساعة).

(٢) نفس المصادر، والنص عن الطبري ٣/ ٢٨٧.

وقد لعب كثير دور الشرطي لابن زياد، فقد ألقى القبض على رجل كان يريد نصرة مسلم وسلّمه لابن زياد، وفعل محمد بن الأشعث مثل فعله.

ويبدو أنَّ محمد بن الأشعث الذي كان يدافع عن القصر قد تراجع أمام أحد قوّاد مسلم إلّا أن القعقاع الذهلي سانده، وقد طلبوا من ابن زياد الخروج لمناجزة مسلم، إلّا أنه رفض، وعقد لشَبَث بن رِبعي لواء، فأخرجه[1].

(وأقام الناس مع ابن عقيل يكبّرون ويثوبون حتى المساء، وأمرهم شديد، فبعث عبيدالله إلى الأشراف فجمعهم اليه، ثم قال: اشرفوا على الناس، فمنّوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة وخوّفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجنود من الشام إليهم، فتكلّم كثير بن شهاب أول الناس حتى كادت الشمس أن تحجب، فقال: أيّها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا بالشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهداً: لئن أتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيّتكم أن يحرِم ذريتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جرّت أيديها، وتكلّم الأشراف بنحو من كلام هذا، فلما سمع مقالتهم الناس أخذوا يتفرقون)[2].

كان الوالي الأموي مطمئناً إلى أن وراءه دولة غاشمة تحميه وتمدّه بالرجال والسلاح، وكان واثقاً أنه بمجرد التلويح بجيش الشام وقوة الشام، يستطيع امتصاص فورة الغضب التي ظهرت من أهالي الكوفة، وإذا ما لوَّح للمستجيبين المتخاذلين بالمال والثروة ولأعدائه الثائرين بالحرمان والعقوبة والقتل وحرمان ذرّيتهم العطاء وإرسالهم للحرب دون مقابل، وإذا ما لوَّح بسلّ سيف التهمة والظن وقتل البريء بالسقيم والشاهد بالغائب، حتى يقضي على كل من يشم عنده نفس معارضة أو تمرد، فإن هذه الأمور التي لوَّح بها تبدو أموراً جديرة بالخوف من جانب أهل الكوفة، فهم

(١) نفس المصادر السابقة.

(٢) نفس المصادر السابقة، والنص عن الطبري ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨.

قد خبروا بطش الدولة وسطوتها وغشمها، وكان قائدها الأول معاوية وأعوانه كزياد جديرين بكل ذلك في غياب قانون الاسلام وتحكيم قانون معاوية وحده كما أن قادتها الجدد كيزيد وابن زياد جديرين باللجوء إلى سياسة الغشم بشكل أكثر وضوحاً مما كان في السابق لأنهم ليسوا بمستوى الكفاءة التي أبداها معاوية ورهطه والتي أظهرته بدور الحليم المتسامح اللين، مع أن الأمة لم تعرف الإرهاب من حكامها إلّا عندما أصبح حاكماً عليها، وكان إرهاب الدولة الغنية القوية المسلّحة يقوم ويستفز لأدنى مبادرة يقدم فيها أحد على النقد أو الاحتجاج أو مدّ إصبع أو يد بوجه أيّ من أعوانها.

وكان الأمر مدعاة لخوف أكبر إذا ما كان ناقلوا التهديد من زعماء الكوفة نفسها. . فلو أن هؤلاء كانوا مع الجماهير وفي مقدمتهم ولم يبالوا بأقوال الدولة الظالمة، لوجدت الجماهير نفسها في موقف قوي ولاستهانت بالتهديدات التي أصدرها ابن زياد، غير أن من صدر إليهم التهديد، أنفسهم، ومن بين الأشراف والزعماء قالوا: لا طاقة لنا بجيش الشام وقوة الشام ولا نستطيع حرمان أنفسنا من عطاء الشام ودنانير الشام، وما دمنا كذلك فأولى بكم أن تكونوا أنتم كذلك.

كانت خطورة التهديد أنه كان صادراً من زعماء الكوفة عن لسان ابن زياد، أي أنه كان صادراً من قبل المهدَّدين أنفسهم ومن قبل شريحة قائدة مؤثّرة منهم، أنهم يقولون لهم صراحة: انظروا إلينا، ها نحن قد تخلّينا عن القضية بأكملها، وأصبحنا إلى جانب عدوكم لنتجنب شرّه وبطشه لأننا لا نستطيع مواجهته، وما عليكم إلّا أن تلحقوا بنا، الآن وفوراً، قبل هذه العشية، وإلّا فلا شأن لنا بكم. . وها أنتم ترون أننا قد تخلّينا عنكم فعلاً.

وقد فعل تحذير الأشراف فعله في نفوس الثوار وعوائلهم وعامة أهل الكوفة، حتى، (ان المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف؛ الناس يكفونك؛ ويجيء الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر! إنصرف. فيذهب به؛ فما زالوا يتفرقون ويتصدعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه إلّا ثلاثون نفساً في المسجد، حتى صلّيت المغرب، فما صلّى مع ابن عقيل إلّا ثلاثون نفساً، فلما رأى أنه قد أمسى وليس معه إلّا أولئك النفر خرج متوجهاً نحو أبواب كنده، وبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة. . ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان،

والتفت فإذا هو لا يحس أحداً يدلّه على الطريق، ولا يدله على منزل ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو . .)[1] [2].

أصبح من يريد الهزيمة، يبرر هزيمته بأن ما كان يجري إنما هو خلاف بين أناس لهم نفس الدوافع والأهداف، وربما كانوا كلهم من الساعين للسلطان، وهو منطق يلجأ إليه المهزومون دائماً، يبحثون عن أية حجة لتبرير انسحابهم من موقف مبدئي كانوا قد تبنّوه، ثم أدركوا أن دون ما يريدون مصاعب ومتاعب، فكأنَّ فورة أهل الكوفة كانت فورة عاطفية فقلوبهم مع الحسين وأمير المؤمنين والحسن عليهما السلام، غير أنهم عندما جوبهوا بالشر وتخاذل زعماؤهم سرعان ما غيَّروا رأيهم، ولم يكتفوا بالوقوف موقف الحياد والخروج من ساحة المعركة، وإنما انضموا إلى الطرف الذي حسبوا أنه الأقوى والأغنى، وقاتلوا من كانوا الى جانبه من قبل. كانوا يقولون لبعضهم:

(ما نصنع بتعجيل الفتنة، وغداً تأتينا جموع أهل الشام، ينبغي لنا أن نقيم في منازلنا، وندع هؤلاء القوم حتى يصلح الله ذات بينهم، ما لنا والدخول بين السلاطين)[3].

---

(١) المصادر السابقة، والنص عن الطبري ٣/ ٢٨٨ وذكر شاهد عيان يصف جيش مسلم وهو يتوجه لحصار ابن زياد، ثم تفرقه فيما بعد، قال: (لقيتهم تلك الليلة في الطريق عند مسجد الأنصار، فلم يكونوا يمرُّون في طريق يميناً ولا شمالاً، إلّا وذهبت منهم طائفة؛ الثلاثون والأربعون، ونحو ذلك فلما بلغ السوق وهي ليلة مظلمة، ودخلوا المسجد، قيل لابن زياد: والله ما نرى كثير أحد، ولا نسمع أصوات كثير أحد، فأمر بسقف المسجد فقلع، ثم أمر بحرادي فيها النيران، فجعلوا ينظرون، فإذا قريب خمسين رجلًا . . فنزل، فصعد المنبر، وقال للناس: تميّزوا أرباعاً أرباعاً فانطلق كل قوم الى رأس ربّعهم، فنهض اليهم قوم يقاتلونهم، فجرح مسلم جراحة ثقيلة، وقتل ناس من أصحابه وانهزموا، فخرج مسلم، فدخل داراً من دور كندة) الطبري ٣/ ٢٩٩ وروي في الفتوح ٥/ ٨٧ أن مسلم قد أثخن بالجراح كما روى ذلك الطبري.

(٢) وروى الطبري ان (ابن الأشعث والقعقاع بن شود وشبث بن ربعي قاتلوا مسلماً وأصحابه عشية مسار مسلم الى قصر ابن زياد قتالًا شديداً، وأن شبثاً جعل يقول: انتظروا بهم الليل يتفرقوا؛ فقال له القعقاع: إنك قد سددت على الناس وجه مصيرهم، فافرج لهم ينسربوا) ٣/ ٢٩٤.

(٣) تاريخ ابي الفداء ٨/ ٣٠٠ وابن الاثير ٣/ ٢٧٢ والدر المسلوك ١/ ١٠٨.

اغتنام الفرصة قبل أن يصبح الصباح

ونفض ابن زياد الخوف عن نفسه بعدما أيقن بخلاصه من الموت المحقق الذي كان يتعرض له، عندما أوشكت ثورة مسلم أن تنجح لو لم يتخلَّ عنه أصحابه ولم تقتل وتجرح القلة القليلة المتبقية معه.

واستغلّ تلك اللحظات الحاسمة حالًا وقبل أن يسفر الصباح، فقد يعيد مسلم الكرة ثانية وقد يتجمع الناس حوله، وكانت لحظات ثمينة بالنسبة له، ولم يكن ابن زياد من النوع الذي يقنع من الإياب بالسلامة، وكان يرى في تصدي مسلم ثم الحسين عليه السلام بعد ذلك لدولة يزيد حرباً شخصية له، وكان نجاحهما قضاءً محققاً عليه شخصياً، وإذا كان يدافع عن مصالحه وحياته، فإنه كان يلجأ إلى أشد الأساليب دموية وعنفاً للتصدي للثورة، وبالشكل الذي كان يراه بعيداً عن كل قيم الاسلام وتعاليمه.

وقد استنفر أعوانه وعرفاءه وشرطه وعيونه ومناكبه ومقاتلته وقال في خطبة من خطبه المهددة المتوعدة التي كان غالباً ما يطالع الناس بها، بعد أن فتش المسجد ولم يرَ أثراً لأعوان مسلم، وبعد أن أمر مناديه فنادى: (ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء أو المناكب أو المقاتلة صلى العتمة إلا في المسجد.

فلم يكن إلّا ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس [وقال للحصين بن تميم]: مُرْ حرسي فليقوموا ورائي كما كانوا يقفون، ودر فيهم، قال، بعدما بدأ خطبته بشتيمة مسلم.

« إنه قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره، ومن جاء به فله ديته، الزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلًا. يا حصين بن تميم[1]، ثكلتك أمك إن صاح باب سكةٍ من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلَّطتُك على دور أهل الكوفة، فابعث مراصدة على أفواه السكك، وأصبح غداً واستبر الدور وجُس خلالها، حتى تأتيني بهذا الرجل.

(١) كان على شرطه وهو من بني تميم (الطبري ٣/ ٢٨٩).

ثم نزل ابن زياد فدخل وقد عقد لعمرو بن حريث رايةً وأمَّره على الناس)[1].

وكان جماعة من أشراف الكوفة ورؤسائها الموالين له مثل كثير بن شهاب ومحمد بن الأشعث قد قبضوا على جماعة من أعوان مسلم مثل عبد الأعلى الكلبي وعمارة بن صلخب الأزدي والمختار الثقفي والحارث الأعور الهمداني والأصبغ بن نباتة وعبدالله بن نوفل بن الحارث وغيرهم[2].

خوّف الشرطة ليخوّفوا الناس

وكان تهديد ابن زياد لشرطه وأعوانه أبلغ تأثيراً فيهم من سائر الناس، إذ أن هؤلاء وهم شريحة لا تزال غريبة مقتطعة من جسم المجتمع يستأثر بولائها السلطان وحده، وهي شريحة مرتزقة تدين بوجودها لهذا السلطان، تستجيب بشكل أعمى للأوامر وترى في الطاعة أمراً واجباً لا يحتمل النقاش، وغالباً ما تكون من أشد الناس خوفاً من ولي نعمتها.

ولا ندري من أباح لابن زياد العبث بالناس وتفتيش دورهم، اللهم إلّا رغبته الشخصيَّة واستهانته المطلقة بمن عاشوا في ظل حكمه وسلطانه.

وأساليب من تخلّوا عن المبادىء هي الأساليب التي غالباً ما كانت تنجح مع من تخلّوا عن المبادىء أيضاً وفي أجواء أفرغت من محتواها العقيدي والمبدئي، فحينما زال سلطان الله والخوف منه من نفوس الناس حلَّ بدله الخوف من سلطان عدوه وقوته.

مسلم على باب زوجة الحضرمي

استنفر أعوان الدولة إذاً للبحث عن مسلم ورصدت جائزة كبيرة لمن يدلّ عليه، وقد رأينا أن مسلم تُرك وحيداً على أبواب كنده (فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها طوعة، أم ولد، كانت للأشعث بن قيس، فأعتقها، فتزوجها الحضرمي، فولدت

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٨ - ٢٨٩ وراجع المصادر السابقة، وقد ورد في الفتوح ٤/ ٩٠ أنه قال: (ان مسلماً بن عقيل أتى هذه البلاد، وأظهر العناد، وشق العصا، وقد برئت الذمة من رجل أصبناه في داره، ومن جاء به فله ديته، اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلًا. ومن أتاني بمسلم بن عقيل فله عشرة آلاف درهم، والمنزلة الرفيعة من يزيد بن معاوية وله في كل يوم حاجة مقضيّة).

(٢) أنساب الأشراف ٥/ ٣١٤.

له بلالًا، وكان بلال قد خرج مع الناس وأمه قائمة تنتظره، فسلَّم عليها ابن عقيل، فردّت عليه، فقال لها: يا أمة الله، اسقيني ماء، فدخلت فسقته. فجلس وأدخلت الإناء، ثم خرجت فقال: يا عبدالله ألم تشرب؟! قال: بلى، قالت: فاذهب إلى أهلك. فسكت. ثم عادت فقالت مثل ذلك، فسكت، ثم قالت له: اتَّقِ فيَّ الله، سبحان الله يا عبدالله، فمر إلى أهلك عافاك الله، فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابي ولا أُحل لك، فقام فقال: يا أمةَ الله مالي في هذا المصر منزل ولا عشيرة، فهل لك إلى أجرٍ ومعروف؟ ولعلّي مكافئك به بعد اليوم.

فقالت: يا عبدالله، وما ذاك؟

قال: أنا مسلم بن عقيل، كذّبني هؤلاء القوم وغروني.

قالت: أنت مسلم؟

قال: نعم.

قالت: أدخل.

فأدخلته بيتاً في دارها غير البيت الذي تكون فيه، وفرشت له، وعرضت عليه العشاء فلم يتعشَّ.

ولم يكن بأسرع من أن جاء ابنها فرآها تُكثر الدخول في البيت والخروج منه، فقال: والله إنه ليريبني كثرة دخولك هذا البيت منذ الليلة وخروجك منه، إن لكِ لشأناً، فقالت: يا بني الْهُ عن هذا.

قال لها: والله لتخبرنّي.

قالت: أقبل على شأنك ولا تسألني عن شيء. فألحَّ عليها. فقالت: يا بني، لا تحدّثن أحداً من الناس بما أُخبرك به. أخذت عليه الأيمان، فحلف لها، فأخبرته، فاضطجع وسكت.

وزعموا أنه قد كان شريداً من الناس، وقال بعضهم: كان يشرب مع أصحاب له)[1].

---

(١) الطبري ٣/٢٨٨ وأنساب الأشراف ٢ - ٨١ ومقاتل الطالبيين ٧٤ وابن الاثير ٣/ ٢٧٢، وروضة الواعظين ١٧٥ ط النجف، ومقتل الحسين للخوارزمي ١ ـ ٢٠٨، وبحار الأنوار م١٠ ج٤٤ ـ ٣٥١، والارشاد للمفيد ١٤٥، والفتوح لابن الأعثم ٤ ـ ٨٧، ونهاية الارب للنويري ٢٠ ـ ٣٩٩، وابن كثير ٨/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

بين الأم الرسالية والإبن السكّير

وتتجلى لنا هنا مواقف ومشاعر متضاربة، موقف مسلم المخذول الجريح الغريب الذي تجيش عواطف الأسى في نفسه على ابن عمه وأهله وهم يوشكون على الوقوع بين أيدي أعدائهم، ومن كانوا أعوانهم حتى مساء ذلك اليوم الذي وقعوا فيه ضحية رؤسائهم ووجوه قومهم، الذين جعلوهم يتقلبون عليهم ذلك الانقلاب السريع رغم قوتهم وكثرة عدوهم، وموقف طوعة المرأة الشجاعة التي آوت مسلماً رغم علمها بقسوة الجلاد، وقد اهتمت به وأفردت له غرفة في منزلها وحاولت أن تكتم على وجوده لديها، ولعلَّ عواطف الرحمة والحب لآل الرسول ﷺ قد أظهر تلك المرأة بذلك المظهر الفريد لتتميز علماً بين قريناتها عندما سجَّلت ذلك الموقف الشجاع باستضافة مسلم رغم كل الأخطار المحتملة.

وموقف ابنها بلال الشريد السكِّير الذي تنازعته مشاعر الفضول والطمع والغدر والعقوق والتنكّر لوالدته المحبة التي كانت تنتظر رجوعه بفارغ الصبر عند قدوم مسلم.

ولنتصور موقف الكوفة وما مرَّ بها من أحداث هائلة ذلك اليوم والانقلاب الذي رجح كفة ابن زياد بعدما كاد أن يطيح به مسلم.

موقف الفرحين المستبشرين من أعوان ابن زياد وقد تكلَّلت مساعيهم بالنجاح وموقف المحزونين المكروبين من أعوان مسلم الذين تراجعوا بفعل القوة الغاشمة والرؤساء المهزومين.

كانت عوامل الخوف والقلق والحزن والرجاء تجيش في نفوس هؤلاء مقابل عوامل الفرح والسعادة والشماتة التي تجيش في نفوس أعدائهم، من إخوانهم وأقربائهم وعشيرتهم، كان يوم مسلم يوماً حافلًا، انقلبت فيه مقاييس القوى كليةً لصالح ابن زياد، وعاد الناس ينتظرون اللحظات التي ينبئهم فيها أعوان السلطة بالقبض عليه، فابن زياد قد أعدَّ حملة كبيرة لذلك، استنفر فيها أعوان الدولة من الشرطة والعرفاء والمقاتلة والأشراف وغيرهم، ولعلَّ حملته تلك كانت أكبر حملة من نوعها تستنفر فيها طاقات الدولة للقبض على شخص واحد.

كان سعي ابن زياد محموماً، ولعله لم ينم ليلته تلك وهو يضع الخطط ويدبرها للقبض على مسلم أو القضاء عليه وقتله، والذي لم ينم هو الآخر كما ذكر

المؤرّخون، وكان يتوجه إلى ربه بالصلاة والدعاء والعبادة بعد أن أدى مهمته وواجه خصومه، وكان يعرف شراستهم وحرصهم على الملك والتسلط، وكان يتوقع أن يقوموا بالتصدي له ومنعه من انجاز مهمته، ولعلهم امتلكوا من عوامل القوة والسيطرة أكثر مما امتلك هو، ومع ذلك فإنه لم يحجم عن المهمة التي كلفه بها ابن عمه الحسين عليه السلام رغم معرفته بالمخاطر الحقيقية التي كان يمكن أن يستهدف لها، وقد استهدف لها فعلاً،

و بالتأكيد فإن طرفاً مما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله بشأن مقتل الحسين عليه السلام هنا، وربما مقتله هو قد وصل إليه، فهو يعيش في كنف عمه أمير المؤمنين عليه السلام ومع ابناءه حيث علوم آل محمد صلى الله عليه وآله وأخبارهم ورواياتهم تنتقل من جيل إلى جيل من أئمتهم الأطهار.

ولعلّ نفس الدوافع التي جعلت الإمام الحسين عليه السلام لا يتراجع وهو يواجه مهمته الصعبة جعلت مسلم لا يتراجع كذلك وهو يواجه مجتمع الكوفة وحيداً بعيداً عن ابن عمه الذي أرسل اليه يدعوه للقدوم بعد أن حسب أن الكوفة قد أصبحت بيده، وتبين له بعد ذلك أنها قد أصبحت بيد عدوه.

لعلّ الحسين عليه السلام سيُدرك الأسباب التي جعلت مسلم يكتب إليه ويستدعيه، وسيقدّر الموقف ويفهمه، إلّا أن مسلم لن يعذر نفسه وهو يرى أنه كان السبب لقدومهم على أناس أصبحوا أعداء بعد أن كانوا موالين.

كان الأمر محزناً حقاً ومقلقاً والكوفة قد انقلبت على مسلم الذي أصبح وحيداً مطارداً بعد أن كان عزيز الجانب كثير الأعوان، ولعلّ وحدته وحزنه لم يبددها إلّا صوته وهمسه وهو يردد كلمات الصلاة والدعاء والعبادة في تلك الليلة التي كان يرى انها ليلته الأخيرة، ولعلّ تلك الكلمات كانت هي وحدها الكفيلة بتخفيف حزنه وآلام جراحاته ومخاوفه.

الوشاية..

كان ابن زياد ينتظر نتيجة سعي أعوانه الذين أطلقهم للبحث عن مسلم بعد أن أحكم مراقبة سكك الكوفة ومنافذها، وجلس يدبّر المزيد من الخطط ويرصد ويراقب ويتسمع، وقد استقبل محمد بن الأشعث عندما أصبح وجلس مجلسه استقبالّا ودياً لمواقفه من الثورة، وأقعده الى جنبه وقال: (مرحباً بمن لا يُستغش ولا يُتَّهم، وأصبح

ابن تلك العجوز وهو بلال ابن أسيد الذي آوت أمه ابن عقيل، فغدا إلى عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان ابن عقيل عند أمه.

فأقبل عبد الرحمن حتى أتى أباه وهو عند ابن زياد، فسارّه، فقال له ابن زياد: ما قال لك؟

قال: أخبرني أن ابن عقيل في دار من دورنا، فنخس بالقضيب في جنبه ثم قال: قم فأتني به الساعة.

وبعث معه عمرو بن عبيدالله بن عباس السلمي في ستّين أو سبعين من قيس)[1].

ولعلّنا نرى هنا مفارقة طريفة في معاملة ابن زياد لابن الأشعث؛ فبينما هو يستقبله استقبالاً حافلاً ويجلسه إلى جنبه، وفي هذا ما فيه من تكريم لهذا الشريف المتخاذل، إذا به ينخسه بالقضيب في جنبه ويأمره بالقبض على مسلم حالما سمع أنه في دار من دوره، وهو أمر لا يليق فعله بالأشراف وكبار القوم، فقد كان باستطاعته أن يأمره بذلك دون نخسه بالقضيب، غير أنه لم يتحرج منه وقد عرف من هو وإلى أي حضيض قد هوت به الذلة، كما أن ابن الأشعث لم يتحرج أو ينزعج، وإنما أسرع لتلبية أمر سيده على الفور دون مناقشة، كما فعل في السابق، وكما سيفعل بعد ذلك ايضاً.

حصار الدار

وذهب ابن الأشعث مع مقاتلة قيس للقاء مسلم (حتى أتوا الدار التي فيها ابن عقيل، فلما سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرفَ أنه قد أتيَ[2]، فخرج اليهم بسيفه، واقتحموا عليه الدار، فشدَّ عليهم يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ثم عادوا إليه، فشدَّ عليهم كذلك، فاختلف هو وبكير بن حُمران الأحمري ضربتين،

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٩، وتراجع المصادر السابقة مع اختلاف في بعض النصوص (وإنما كره أن يبعث معه قومه لأنه علم أن كل قومه يكرهون أن يصادم فيهم مثل ابن عقيل).

(٢) وقال لطوعة (رحمك الله وجزاك خيراً) الخوارزمي ١ - ف١٠ (.. اعلمي انما أتيت من قبل ابنك..) الفتوح ٥ - ٩٢ - ٩٣ وقد ورد فيه أيضاً أن ابن زياد ندب لقتاله ثلاثمائة من رجال الكوفة.

فضرب بكير فم مسلم فقطع شفه العليا، وأشرع السيف في السفلى، ونصلت له ثنيّتاه، فضربه مسلم ضربةً في رأسه منكرة، وثنى بأخرى على حبل العاتق كادت تطلع على جوفه. فلما رأوا ذلك أشرفوا عليه من فوق ظهر البيت، فأخذوا يرمونه بالحجارة، ويلهبون النار في أطنان القصب، ثم يقلبونها عليه من فوق البيت، فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتاً بسيفه في السكة فقاتلهم، فأقبل عليه محمد بن الأشعث، فقال: يا فتى، لا تقتل نفسك، فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتلُ إلّا حرّاً ... وإن رأيت الموت شيئاً نكرا

كلّ امرىءٍ يوماً ملاقٍ شرّاً ... ويخلط البارد سُخناً مرّا

رُد شُعاع الشمس فاستقرّا ... أخاف أن أكذب أو أغرّا

فقال له محمد بن الأشعث: إنك لا تكذب ولا تخدع ولا تغر، إنّ القوم بنو عمك، وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك، وقد أثخن بالحجارة، وعجزَ عن القتال وانبهرَ، فأسند ظهره إلى جنب تلك الدار؛ فدنا منه محمد بن الأشعث، فقال: آمنٌ أنا؟ قال: نعم؛ وقال القوم: أنت آمن؛ غير عمرو بن عبيدالله بن العباس السلمي، فانه قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل، وتنحّى.

وقال ابن عقيل: أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم، وأتيَ ببغلةٍ فحمل عليها، واجتمعوا حوله وانتزعوا سيفه من عنقه، فكأنه عند ذلك آيسَ من نفسه)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٩ وراجع المصادر السابقة، مع بعض الاختلافات في النصوص، وقد قيل أنه شدّ عليهم وكان يردد:

هو الموت فاصنع ويكَ ما انت صانع ... فأنت بكأس الموت لا شك جارع

وصبراً لأمر الله جل جلاله ... فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

فجعل يحصد فيهم. وقد ازدحموا علي ـ حتى ضجَّت الجموع من كثرة من قتل منهم، فقد قيل أنه قتل واحداً وأربعين غير المجروحين، مقتل الحسين، السيد محمد تقي آل بحر العلوم عن مناقب بن شهر اشوب ج٤ ص٩٣، المطبعة العلمية بقم، (وكان من قوته أن يأخذ الرجل بيده، ويرمي به من فوق البيت) نفس المهموم للقمي ٥٧، والدر النضيد للامين، ص١٦٤، وروي في مقتل الخوارزمي ١ ـ ف١٠ ومناقب ابن شهر اشوب ٤ ـ ٩٣ أن مسلم قال لهم: (ويلكم مالكم ترموني بالحجارة كما تُرمى الكفار، وأنا من أهل بيت=

الغدر، ثم الغدر

ويبدو من موقف مسلم، عند منازلته لأصحاب ابن الأشعث، وعند تمثله بالرجز الذي تمثل به، أنه كان مصمماً على القتال إلى النهاية، ومع أنه كان يتمتع بقوة بدنية فائقة إلّا أنه لم يكن بوسعه التغلب على كل جنود الكوفة الذين أُرسلوا اليه، ولعلّه أعطي الأمان ولم يطلبه.

لم يبد بموقف الضعيف أو الذليل أبداً، وقد نازلهم وقاتلهم وقتل منهم مقتلةً عظيمة حتى أنهم أرسلوا امداداً لمقاتليهم الأوائل،

ولعلّ الكثرة قد تغلبت، واستنفذت قوة مسلم وأثخنت الجراحات وأعياه نزف الدم، كما ورد في بعض الروايات، وحتى وهو في تلك الحال لم يستسلم، وربما طعن وسقط حتى أخذ أسيراً.

فعندما دنا منه ابن الأشعث وقال له: (لك الأمان لا تقتل نفسك وأنت في ذمتي. فقال مسلم: أؤسر وبي طاقة؟ لا والله لا يكون ذلك أبداً، وأي أمانٍ للغدرة الفجرة، ثم حمل على ابن الأشعث، فهرب منه، ثم رجع إلى موضعه وهو يقول: «اللهم إن العطش قد بلغ مني» فلم يجترىء أحد أن يسقيه الماء ويدنو منه.

فصاح ابن الأشعث بأصحابه: إنَّ هذا لهو العار والشنار أن تجزعوا من رجل واحد هذا الجزع؟ إحملوا عليه بأجمعكم حملةً واحدة.

فحملوا عليه من كل جانب ـ وقد أثخنت الجراحات وأعياه نزف الدم ـ واشتدَّ

=النبي المختار، ويلكم أما ترعون حق رسول الله ﷺ ولا حق قرباه . .) وقد ورد أن الرجز الذي تمثل به مسلم هو لحمران بن مالك الخثعمي عندما أمر أن يستأسر فامتنع جاء ذلك في (رسالة المغتابين) تحقيق عبد السلام محمد هارون ص٢٤٣.

وورد أن ابن الأشعث طلب امداده بالخيل والرجال، فأمده بذلك وعاتبه على أنه عجز عن رجل واحد، وقد أجاب ابن الأشعث بأنه لم يبعث الى بقّال من بقالي الكوفة أو جرمقاني من جرامقة الحيرة، وانه بعث الى اسد ضرغام وسيف حسام الخ فأرسل اليه ابن زياد: (اعطه الأمان فانك لا تقدر عليه إلاّ به) مقتل الخوارزمي ج١ ف١٠ والبحار م١٠ ج٤٤ ـ ٣٥٤، ومنتخب الطريحي ص٢٨٩ والفتوح لابن اعثم ٥ ـ ٩٣، وراجع ابن كثير ٨/ ١٥٨ ومروج الذهب ٣/ ٧٢.

به العطش، وضعف عن القتال، فتساند الى جنب دار من تلك الدور، فطعنه لعين من القوم خلفه، فسقط إلى الأرض صريعاً، فأسره القوم)[١].

وتبدو هذه الرواية أدقّ من سابقتها، ويبدو أن هذا هو التفسير المعقول لوقوع مسلم في الأسر، فلو كانت به طاقة إضافية على مواجهتهم لما ادّخرها وقاومهم إلى آخر نفس، على أن كل المؤرّخين أجمعوا أنه عجز عن القتال.

ولعلّ ابن الأشعث خجل من موقفه وغدر أصحابه بمسلم، فأراد طمأنته إلى أنه آمن الجانب إذا ما سار معهم الى ابن زياد، ولعلّه أراد منه وضع يده في يده. وهذا ما لن يطمع فيه أحدٌ من مسلم.

تكررت محاولات محمد بن الأشعث عدة مرات لثني مسلم عن القتال واعداً إياه بالأمان، ولعلّ ذلك كان مكراً منه، ولعلّه حسِب أنه له دالة على ابن زياد فحسب انه يستطيع بما قدمه له أن يمنعه من قتل مسلم، وقد روي أنه طلب ذلك منه، إلّا أن ابن زياد زجره ورفض طلبه.

وقد حُمل مسلم إلى القصر، واجتمعوا حوله، وانتزعوا سيفه من عنقه، فكأنه عند ذلك آيس من نفسه، فدمعت عيناه، ثم قال: هذا أول الغدر، قال محمد بن الأشعث: أرجو ألا يكون عليك بأس.

قال: ما هو إلّا الرجاء، أين أمانكم! إنا لله وإنا إليه راجعون، وبكى، فقال له عمرو السلمي: إن من يطلب مثل الذي تطلب، إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك، قال: إني والله ما لنفسي أبكي، ولا لها من القتل أرثي، وإن كنت لم أحب لها طرفة عينٍ تلفا، ولكن ابكي لأهلي المقبلين إليَّ، ابكي لحسين وآل حسين.

ثم أقبل على محمد بن الأشعث فقال: إني أراك والله ستعجز عن أماني، فهل عندك خير؟ تستطيع أن تبعث من عندك رجلًا على لساني، يبلّغ حسيناً، فإني لا أراه إلّا قد خرج اليكم اليوم مقبلًا، أو هو خرج غداً هو وأهل بيته، وإن ما ترى من جزعي لذلك. فيقول: إن ابن عقيل بعثني اليك، وهو في ايدي القوم أسير لا يرى أن تمشي

(١) مقتل الحسين، للسيد محمد تقي آل بحر العلوم عن اللهوف لابن طاووس ص٢٢ ومناقب ابن شهراشوب ٤ ـ ٩٣ ـ ٩٤، ومقتل الخوارزمي ج١ ف١٠ ـ ٢١٠، والفتوح ٥ ـ ٩٤، والارشاد للمفيد ١٩٦، وراجع المصادر الأخرى التي ذكرناها..

حتى تقتل، وهو يقول ارجع بأهل بيتك، ولا يغرّك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل؛ إن أهل الكوفة قد كذّبوك وكذّبوني، وليس لمكذّب رأي)[1].

وقد وعده ابن الأشعث أن يفعل ذلك، ويقال أنه أرسل رسولًا للامام عليه السلام مع أننا نستبعد ذلك لقيه في (زبالة) وأبلغه رسالة مسلم، وقد قال له الامام عليه السلام: (كل ما حمَّ نازل، وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا)[2].

(أبكي لحسين وآل الحسين عليهم السلام)

كانت رسالته الى الحسين عليه السلام واضحةً: أقبل، فالأمور قد مهدت، والناس كلها معك، أما الآن فماذا يفعل بعد أن تغير الموقف تماماً، وسيقدم الحسين عليه السلام إلى أناس ليسوا معه، وربما كانوا معه، وظلت قلوبهم معه الآن، ولكنهم قد استذلّوا واستسلموا وأعطوا سيوفهم لعدوهم كرهاً بعد أن لم يجدوا في أنفسهم القدوة على مقاومة سلطانه وإغرائه.

ولعلَّ أصعب موقف واجه مسلم هو الموقف الذي يستحضر فيه ويتذكر دعوته للامام الحسين عليه السلام للقدوم إلى الكوفة، مع أن الظروف التي دعاه فيها كانت ملائمة لذلك.

كان الموقف الذي سيتعرض له الامام عندما سيقع بيد الجلاد أشد إيلاماً لمسلم من موقفه هو وقد وقع بين يديه فعلًا، ولم يكن بمستطاعه التعبير بالقول عما يمكن أن يلحقه إذا ما قدم ولعل الدموع هي رد الفعل الطبيعي للحزن العميق الذي ألَمَّ به، وهو يرى إمام الأمة وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله الشرعي توشك أن تنتهك حرمته، لا ليبعد عن

(١) تراجع المصادر السابقة والنص المنقول عن الطبري ٣/ ٢٨٩ - ٢٩٠ وكان مسلم قد بعث برسالة الى الامام(ع) حين تحول من دار المختار الى دار هانيء وبايعه ثمانية عشر الف، وقيل ثلاثون الفاً، مع عابس بن ابي شبيب الشاكري الذي قدم معه واستشهد في كربلاء.. (اما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر الفاً، فعجّل الاقبال حين يأتيك كتابي، فان الناس كلهم، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى)، الطبري ٣/ ٢٩٠، وراجع ابن كثير ٨/ ١٥٨، وابن الاثير ٣/ ٣٩٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

مركزه الطبيعي في خلافة الأمة وحسب، وإنما ليقتل قتلة شنيعة بأيدي من سار لانقاذهم وانتشالهم من الجور والانحراف.

وكعادته بالاستهانة بالجميع، وخصوصاً بالأشراف الذين عرف استعدادهم للخضوع والاستسلام والذل اكثر من غيرهم للحفاظ على مصالحهم ومكانتهم والحصول على مكاسب أكثر في ظل دولة الظلم والانحراف، اظهر ابن زياد استهانته بابن الأشعث عندما أخبره (بما كان منه وما كان من امانه إياه، فقال عبيدالله: ما أنت والأمان، كأنّا أرسلناك تؤمنه، إنما أرسلناك لتأتينا به؛ فسكت)[1] ولم يكن بوسعه سوى أن يسكت، فهو جندي للظالم، باع نفسه وأعلن ولاءه دون قيد أو شرط، ولم يعد بوسعه تسجيل أي موقف شريف، ما دامت قدمه قد زلت تلك الزلّة الكبيرة منذ البداية، ولم يعد بوسعه تجميل صورته وتحسين أفعاله وإظهار نفسه بمظهر البطل، ما دام ذلك الدور قد احتكره رجل واحد، هو حاكمه وسيده، الذي أراد أن تكون إرادته هي الارادة الوحيدة القوية والمتسلطة والذي لم يرد أن تسلط الأضواء على غيره ليشاركه مجده وسلطانه.

أشراف أم شرطة.. مذلّون مهانون

ولعلَّ ابن زياد أراد أن يتَّخذ القبض على مسلم وتسليمه اليه مظهراً احتفالياً قد يتاح له في إذلاله واستخراج كلمات الاعتذار والمديح منه بعد أن وقع في الأسر وأصبح وحيداً في مواجهة أعدائه الذين أسرعوا للمساهمة بجني ثمار سعيهم ونصرهم، ولعله كان طامعاً أن يتراجع مسلم وأن يتبرّأ من إمامه عليه السلام ويعلن عدم عدالة قضيته.

كان الأشراف في مقدمة من أسرعوا لحضور هذه الاحتفالية، فعندما أقبل ابن الأشعث بمسلم وجد على باب القصر بعض المنتظرين (منهم عمارة بن عقبة بن ابي مُعيط، وعمرو بن حريث، ومسلم بن عمرو الباهلي، وكثير بن شهاب)[2].

ولعلَّ بعضهم أراد جني ثمار نصره قبل ابن زياد، ولعلَّها فرصة قد تتاح له أن يذل مسلم قبل أن يذلّه سيده، وقد يتاح له أن يضحك من الأسير المغلوب، أو يرد

(١) الطبري ٣/ ٢٩٠ وراجع المصادر السابقة.

(٢) تراجع المصادر السابقة والنص عن الطبري ٣/ ٢٩٠.

عليه كلمات الاعتذار التي قد يسمعها منه، وحنيذاك يتقدم هو بموعظة ينفع فيها أسيره، وكل خارج عن إرادة الدولة أن لا يفعل ذلك ويطيع سلطانه، ففي ذلك وحده الأمان من الأخطار والمتاعب.

وقد تطوع مسلم بن عمرو الباهلي، مبعوث يزيد الى ابن زياد ومرافقه بعد ذلك من البصرة إلى الكوفة لهذه المهمة النّذلة، عندما انتهى مسلم اليهم وهو عطشان وأمامه قلّة ماء باردة موضوعة على الباب فطلب أن يُسقى.

(فقال له مسلم بن عمرو: أتراها ما أبردها! لا والله لا تذوق منها قطرةً أبداً حتى تذوق الحميم في نار جهنم!

قال له ابن عقيل: ويحك، من أنت؟

قال: أنا ابن من عرف الحق إذا نكرته، ونصح لامامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته وخالفت، أنا مسلم بن عمرو الباهلي.

فقال ابن عقيل: لأمك الثكل! ما أجفاك، وما أفظك، وأقسى قلبك وأغلظك. أنت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني.

ثم جلس متسانداً الى حائط)[1].

ويكشف (حوار) الباهلي ومسلم عن ذوبان شخصية الأول في قائده المنحرف، وعن عدم رؤية سواه، فهو مثَله الأعلى الذي يمثل له القوة الوحيدة القادرة على دفعه وابقائه على قيد الحياة منعماً، إنه ينساق وراءها دون وعي أو إرادة بعد أن فقد امكانية النقد والتقويم وقدرة التمييز بين الحق والباطل والمعروف والمنكر، بين ما يريده الاسلام وما يرفضه، وهو إن تبجح بموقفه هذا، فلأنه يرى أنه الموقف الوحيد الصحيح الذي ينبغي عليه أن يقفه، ولعله يغبط نفسه على أنه كان يتمتع بعقلانية أتاحت له الحفاظ على مركزه ومصلحته في جو اختلطت فيه القيم وتضاربت، وعاد الاسلام يعيش غربة حقيقية بعد أن كان هو سيد الموقف.

إن نماذج مسلم بن عمرو الباهلي تلوح لنا دائماً وفي كل وقت، تقيس الأمور بعين المصلحة والمنافع وتنساق وراء من بيده الصولجان وفوق رأسه التاج فتتخذه إماماً وقائداً ما دامت هي تمسك عصا صغيرة تسيطر بها على مجموعة من الناس.

---

(١) نفس المصدر السابق.

إنها ـ بقدر ما تتجبّر وتتكبر على من تحسبه ضعيفاً مخذولاً ـ بقدر ما تستكين وتنحني أمام من يشبعها ذلّاً وإهانات، ما دام يتيح لها في النهاية أن تبدو بدور العزيز القوي.

وربما كان موقف الباهلي مدعاة لخجل عمرو بن حريث أو عمارة بن عقبة، فقد ذكر أن أحدهما بعث غلامه فجاءه بماءٍ في قلة ليسقي مسلم (فأخذ كلما شرب امتلأ القدح دماً، فلما ملأ القدح المرة الثالثة ذهب ليشرب فسقطت ثنيتاه فيه، فقال: الحمدلله! لو كان لي من الرزق المقسوم شربته)[1].

ولعلّها حكمة إلهية، أن يموت أصحاب الحسين عليه السلام كلهم عطاشى بما فيهم رائدهم الى الكوفة ومبعوث إمامهم إليها، ويُحرموا مما أباحه الله لكل مخلوقاته، وأن تتكرر مواقف المتطوعين المتزلّفين في كل مرة ليرددوا على أسماع مسلم، هذا الماء مباح لكل مخلوقات الله إلّا أنت ـ كما فعل الباهلي ـ وعلى أسماع الحسين عليه السلام وأصحابه كما فعل بعض جنود ابن زياد، في الطف، فيما بعد.

عزيزٌ بين الأذلّاء

ولم يكن لقاء مسلم بابن زياد، مما يمكن أن يسرّ له هذا الأخير، الذي توقع أن يفد عليه مسلم خائفاً ذليلًا يطلب الصفح والرحمة ويتبرّأ من ابن عمه عليه السلام، فما حصل هو عكس ذلك تماماً.

(أُدخل مسلم على ابن زياد فلم يسلّم عليه بالأمارة، فقال له الحرسيُّ: ألا تسلّم على الأمير؟ فقال له: إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه!

فقال له ابن زياد: لعمري لتُقتَلنَّ.

قال: كذلك؟[2].

قال: فدعني أوصي إلى بعض قومي، فنظر إلى جلساءِ عبيدالله وفيهم عمر بن سعد، فقال: يا عمر، إن بيني وبينك قرابة، ولي اليك حاجة، وقد يجب لي عليك

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩١ وتراجع المصادر السابقة.

(٢) وقال له: (إن قتلتني فقد قتل من هو شرّ منك من كان خيراً مني) مقتل الحسين للخوارزمي ١/ ٢١١ وكان قد أجاب الحرسي بقوله: (اسكت ويحك، ما هو لي بأمير فأسلم عليه) الارشاد للمفيد ص١٩٨.

نجحُ حاجتي، وهو سرّ، فأبى أن يمكّنه من ذكرها، فقال له عبيدالله: لا تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك)[1].

وقد أذلَّ مسلمُ ابن زيادٍ مرَّتين، مرةً عند دخوله وعدم تسليمه على ابن زياد وهو الذي اعتاد أن ينحني الناس أمامه، ومرةً عندما توجه إلى ابن سعد طالباً أن يوصيه باعتباره القرشي الوحيد في المجلس، وقد ألغى بذلك دعوى آل زياد بانتمائهم إلى ابي سفيان (القرشي) ايضاً وكانت عدم شهادة مسلم له بهذا الأصل المفتعل مدعاة لغضبه الشديد وذله بنفس الوقت، ولعلّه لم يشأ أن يناقش مسلم هذا الأمر، فتكون صراحة مسلم مدعاة لإذلاله وتذكير الناس بدناءة أصله.

وكان رد فعله على موقف مسلم الأول هو أن هدَّده بالقتل.

وعلى موقف تجاهل مسلم لأصله المزعوم، السكوت والاكتفاء بتوجيه الأمر لابن سعد بالاستجابة لطلبه حسماً لنقاش محتمل بهذا الشأن.

أمانة عمر بن سعد!

ولم يكن ابن سعد بمستوى الأمانة التي أودعه إياها مسلم، وكان مثار احتقار الجميع بعد ذلك، حتى ابن زياد نفسه.

لم يشأ مسلم، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، أن يفد إلى ربه، إلّا بعد أن يبرىء ذمته من الدين الذي كان عليه، ولم يفكر في تلك اللحظات إلّا بالحسين عليه السلام، ومع أنه كلّف ابن الأشعث بإرسال من يوصيه بالبقاء والتريث، وعدم القدوم إلى الكوفة، إلّا أنه لم يطمئن لوعود ابن الأشعث، وكان كل شيء يدعوه ـ عند ذاك ـ لعدم الاطمئنان ولعلَّ أمله بابن سعد كان ضعيفاً إلّا أنه لم يشأ أن يترك الدنيا دون وصيته، فقال له:

(إن عليَّ بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة، سبعمائة درهم، فاقضها عني، وانظر جثتي فاستوهبها من ابن زياد، فوارها، وابعث الى الحسين من يرده، فاني قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه، ولا أراه إلّا مُقبلًا)[2].

(١) الطبري ٣/ ٢٩١، ومقاتل الطالبيين ص٧٧، ونهاية الارب للنويري ٢٠ ـ ٤٠٢، وذكر في جواهر المطالب انه قال لعمر بن سعد: (لا أرى في المجلس قرشياً غيرك) ص١٣٤.

(٢) الطبري ٣/ ٢٩١ وراجع المصادر السابقة، مع اختلاف طفيف في النصوص.

ولم يكن بوسع مسلم أن يفعل إلّا ما فعل، إلّا أنه كان قد ائتمن خائناً إذ لم يجد غيره ولعلّه احتمل أن يكون أميناً على وصيته، غير أن الأمين لا يخون، وابن سعد قد خان، وقد بادر بإعلام سيده ما أخبره به مسلم قائلًا: (أتدري ما قال لي؟ إنه ذكر لي كذا وكذا)[١]، وذكر وصية مسلم له.

وكان رد ابن زياد صفعة لابن سعد، لعلّ الذليل تلقاها مبتسماً، دون أن تتأذى نفسه، ولعلّ ابن زياد كشف بالموقف الخياني من ابن سعد وتقبّل الرد العنيف منه نفساً ضعيفةً جبانة لا ترى في الاستسلام أو الغدر ضيراً، وقد يكون ذلك هو الذي شجّعه في نهاية المطاف لكي يسند إليه مهمة قتل الامام عليه السلام وأصحابه فيما بعد، عالماً أنه لا يملك إرادة الرفض... ألم يستمر بخدمة الدولة تابعاً ذليلًا رغم مركز أبيه الذي جعل معاوية يخاف منه فيقدم على اغتياله بالسم؟

إن من سكت عن هدر دم ابيه وانحنى لقاتله، جدير بأن يمضي في شوط الذل والخيانة إلى النهاية.

قال ابن زياد لابن سعد: (انه لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن.

أمّا مالك فهو لك، ولسنا نمنعك أن تصنع فيه ما أحببت؛

وأما الحسين فإنه إن لم يردنا لم نرده، وإن أرادنا لم نكفَّ عنه.

وأما جثته فإنا لن نشفعكَ فيها، إنه ليس بأهل منا لذلكَ. قد جاهدنا وخالفنا، وجهد على هلاكنا)[٢].

ويبدو من الطبيعي أن ابن زياد الذي خلص من مآزق عديدة، خلال فترة قصيرة، تعرَّض في بعضها لخطر الموت المحقق، لولا تراجع أهل الكوفة واستسلامهم بفعل اغراءات الحاشية من أشراف الكوفة وبعض رؤساء القبائل المتنفذين، وقد رأى أن ذلك المد الشعبي الذي طغى وكاد أن يودي به قد انحسر وتراجع، ولا بدَّ أنه رأى أن ذلك قد حصل بفعل مهارته ودهائه وحسن تصرفه، وانه قد نجح في المهمة التي أرسله بها يزيد إلى أبعد حد مما كان سيرضيه في النهاية بعد أن كان غاضباً منه قبل ارساله إلى الكوفة.

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) المصادر السابقة مع اختلاف يسير في النص.

كانت النتيجة المتوقعة من كل ذلك أن يعمد إلى المزيد من الأساليب التي عمد اليها في هذه المهمة، ولا يكتفي بعدم السماح للامام الحسين عليه السلام بعدم القدوم أو يفرح إذا ما أرسل اليه احد يمنعه إو يحذّره من ذلك، وإنما يطمع بقدوم الامام عليه السلام الى الكوفة وقد تخلت عنه القاعدة الشعبية التي كان يأمل أن تسانده في ثورته على النظام الأموي الفاسد، والمضي بعد ذلك الى ابعد غاية لارضاء يزيد والقيام بقتل الحسين عليه السلام واستئصال الذكور من أولاده وآله وأقربائه.

وهكذا فانه وجد أن الفرصة أمامه كانت سانحة لتنفيذ مهمته إلى النهاية. وبجوابه أعرب عن حقده على الحسين ومسلم كليهما، وأعلن عن عزمه على إلحاق العقوبة حتى بالجثث التي لن يضيرها ما يفعل بها، ما دامت قد أصبحت جثثاً، ولكنه يريد أن يرهب بذلك من يحاول أن يتحدى الدولة الأموية الغاشمة مهما كان مركزه ومكانته من الأمة، وهو أمرٌ تلجأ إليه الدول الطاغوتية عادةً في غمرة عملها الدؤوب لتعزيز سلطانها وبسط نفوذها.

بين (المغلوب) القويّ و(المنتصر) الضعيف

وكشف الحوار الذي دار بين مسلم وابن زياد، عن طبيعة الرجلين وطبيعة توجهاتهما وسلوكهما، ولنا أن نتصور الجو الذي جرى فيه هذا الحوار.

ابن زياد في قمة (انتصاره ونجاحه) بعد قمع المعارضة الشعبية والقبض على رؤوسها وقادتها، وهو يتطلع الى يزيد مثلًا أعلى، يريد أن يرضيه بكافة الطرق والأساليب، ومسلم (المغلوب) المقيّد الجريح العطشان وقد تخلى عنه ثمانية عشر الف مقاتل أو ثلاثون الفاً من الرجال، أبدوا استعدادهم منذ البداية للوقوف معه ومع الامام عليه السلام حتى الموت.

الجلّاد يقف بمواجهة أسيره يرعد ويبرق ويتوعد ويشتم، وهو أمر لم يكن يفعله لو لم يكن في ذلك الموقف الذي كان يرى فيه نفسه منتصراً، ولم يكن يُتوقع منه إلّا في موقفه هذا الذي اختال فيه زهواً وكبرياء.

فقد كان يتوقع من أسيره خنوعاً واستسلاماً وذلّة، أما وقد رأى أن هذا الأسير المرتهن بكلمة واحدة تخرج من فمه حتى يموت أشنع ميتة، يواجهه هذه المواجهة الصلبة الشامخة، ويواجه كذبه وتلفيقاته وعجرفته بمنطق الانسان الرسالي الذي لا

يرى أمامه إلَّا قيم الاسلام ومباده‌ء، ومنطق كتاب الله ورسوله ﷺ وآله وأوصياءه عليهم السلام.

فإن غضب الجلاد يتحول إلى جنون مطبق وهياج مسعور، وحقده يطفو ليعلن حقيقته كما هي مكشوفة أمام الناس بعد أن لم يستطع اخفاءها بما اعتاده من نفاق وكذب وجدل.

التفت الجلاد إلى أسيره قائلًا: (ايهِ يابن عقيل! أتيتَ الناسَ وأمرهم جميع، وكلمتهم واحدة، لتُشَتِّتَهم، وتفرق كلمتهم، وتحمل بعضهم على بعض!)[1].

وهذه هي الحجة الأموية الدائمية التي طالما رفعوها في وجه خصومهم، وهي التي طالما استعملها معاوية وأعوانه كزياد وابن النابغة وابن شعبة وغيرهم، واستعملها الطغاة من بعدهم على مر التاريخ مبررين بها كل جرائمهم وكل أعمال القمع التي قاموا ضد أولئك الخصوم.

وكأنما الله سبحانه وتعالى، أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، وقدكلّفه أن يدعو الأمة لكي تجتمع فحسب، أما على أي شيء، فهذا لا يهم ما دام أمرها جميع ولمتها واحدة، وكأنه ـ رحاشاه ـ لم يأمر أن تجتمع على الاسلام والاسلام وحده، لتكون بهذا الشرط الأساسي قد حققت رضاه وأعلنت استجابتها التامة لرسالته وما أراده منها.

لقد كانت الحجة (ناجحة) أحياناً في خضم الفتن التي شهدها المسلمون والتي كان معاوية الطرف الرئيسي والسبب المباشر لها، وطموحهم أن يروا أنفسهم وقد اجتمعوا ونبذوا الفرقة والتفتوا إلى هذه الرسالة التي كان لهم شرف حملها ونقلها إلى العالم.

أما وقد انفرد الأمويون بالحكم والسلطان المطلق، وباسم الاسلام، فعلى أي شيء يمكن أن يجمعوا الأمة، إن لم يكن بالاسلام نفسه؟ وكيف يبررون خروجهم المعلن عنه إلَّا في بعض الأمور الطقوسية والمظهرية؟

إن حجتهم في هذه الحالة باطلة ومزيفة، وما دفعوها إلَّا لتبرير انصرافهم عن الاسلام، والعمل لتأسيس دولة بعيدة عنه، دولة كسروية أو قيصرية، جاهلية ظالمة.

---

(١) المصادر السابقة، والنص منقول عن الطبري ٣/ ٢٩١.

وكانت الأمة بحاجة إلى أن تواجههم بفساد هذه الحجة، وبحجة غالبة قوية تدحضها وتفندها.

وهكذا أجاب مسلم ابن زياد: (كلا، لست أتيتُ، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعوَ إلى حكم الكتاب)[1].

لم يتنصَّل من مهمته، ولم يقل انه ليس ضد دولة الظلم، وإنما أعلن عنها وعن طبيعتها بكل وضوح، وأعلن أنه لم يكن وحده الذي تصدى لمقاومة الانحراف الأموي، وان المتصدي الأول لانحرافهم المتعمد والذي يراد جرّ الأمة كلها لهذا الانحراف، إنما هو إمام الأمة نفسه عليه السلام، وأنه إنما هو طليعة له.

وقد واجه ابن زياد باعتباره أحد رموز النظام بما قام به أبوه هو بالذات (زياد ابن أبيه) التي الحق معاوية نسبه بأبي سفيان. كما مرَّ بنا في هذا الكتاب ـ وقد واجهه بانحراف الدولة (الاسلامية) التي كان من المفترض أن تسير على خط الاسلام الصحيح ولا تنحرف وتجور وتحكم بما لم ينزل به الله تعالى.

وبماذا يمكن أن يجيب ابن زياد، والأمر كما قال مسلم حقاً، هل يمكن أن يقول ان دولته تعمل بالعدل وبما جاء في كتاب الله، وهل يستطيع أن يؤكده ويثبته، أم يدعيه ادعاء، ثم يعمد بعد ذلك الى الكذب والتجريح وتشويه شخصية محدثه أمام الحاضرين، مع أنه معروف بالفضل، بل انه رمز من رموز الصلاح والمعروف،

---

(١) المصادر السابقة باختلاف بسيط في النصوص، والنص أعلاه منقول عن الطبري ٣/ ٢٩١ وأضاف مسلم، كما روى الخوارزمي (. . .إذ كنا أهله، ولم تزل الخلافة لنا، وإن قهرنا عليها ـ رضيتم بذلك أم كرهتم ـ لأنكم أول من خرج على إمام هدى، وشقَّ عصا المسلمين، ولا نعلم لنا ولا لكم إلّا قول الله تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، وروي أنه قال له: (لست لذلك أتيت هذا البلد، ولكنكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمرتم على الناس من غير رضى، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وندعوكم الى حكم الكتاب والسنة، وكنا أهلًا لذلك، فإنه لم تزل الخلافة لنا منذ قتل امير المؤمنين علي بن ابي طالب، ولا تزال الخلافة لنا، فإنَّا قهرنا عليها. انكم أول من خرج على إمام هدى وشق عصا المسلمين، وأخذ هذا الأمر غصباً، ونازع أهله بالظلم والعدوان) حياة الامام الحسين/ القرشي ٢ ـ ٤٠٦ نقلًا عن الفتوح ٥/ ١٠١.

ويكفي موقفه الأخير لمواجهة هذه الدولة المتسلطة دليلًا على صدق المبادىء التي حملها وآمن بها وجاء ليموت من أجلها، ومن أجل أن يساهم في إبعاد الأمة عن الانحراف الذي تجر إليه جراً وتُساق إليه بشتى الأساليب والطرق.

رمتني بدائها وانسلّت

وكأنَّ ابن زياد رأى أن قيام مسلم بذلك يشكل تعدياً شخصياً عليه، وكأنه رأى أن هذه الأمة رهينة برغباته ورغبات سيده يزيد، وأن لا حق لأحد أن يتدخل بشؤونهما ويعارض نزعاتهما وهواهما، لقد أثاره جواب مسلم ولم يملك إلّا أن يواجهه بالشتيمة والافتراء (وما أنت وذاك يا فاسق، أولم نكن نعمل بذاك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر)[1].

بهذه الفرية واجه مسلماً، ولعلّها أدانته أكثر مما أراد لها أن تدين خصمه ولعله لم يستطع منع بسمات السخرية التي ربما كانت قد ارتسمت على شفاه الحاضرين عندما أطلقها، كان هو وسيده اللذان يشربان الخمر على رؤوس الأشهاد ولا يتحرجان من ذلك.

الأمة كلها تعلم أن يزيد يشرب الخمر منذ زمن بعيد، منذ مطلع شبابه، وأنه الف اللهو والبطالة، لقد عرف كشارب للخمر مخضرم في عهد أبيه وفي عهده ايضاً كخليفة وأميرٍ للمؤمنين، يتعاطاها كل يوم كما يتعاطى المسلمون الصلاة في أوقاتها.

وقد كانت نكتة طريفة حقاً أن يروح ابن زياد متهماً مسلم بما يفعله هو ويعرفه الناس جميعاً عنه، وإذ انتشرت بعد ذلك أبيات قالها يزيد في مجلس طرب له بعد مقتل الامام الحسين عليه السلام وذكر فيها ابن زياد معه، فإن حكمة إلهية شاءت أن يفتضح القاتلان بين الأمة فلا يذكر اسم أحدهما إلّا وتذكر الخمرة معه ويذكر اللهو والعبث والابتذال.

---

(١) المصادر السابقة، والنص عن الطبري ٣/ ٢٩١، قال يزيد لساقيه بعد مقتل الامام الحسين(ع) ووفود ابن زياد اليه:

اسقني شربةً تروّي حشاشي ... ثم مِل فاسقِ مثلها ابن زياد
صاحب السر والامانة عندي ... ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنيين فغنوا به) مروج الذهب ٣/ ٨٢.

تعجّب مسلم ـ ولعل الحاضرين تعجبوا مثله ـ وأجاب:

(أنا أشرب الخمر! واللهِ إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت: وان أحق بشرب الخمر مني وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرَّم الله قتلها، ويقتل النفس بغير النفس، ويسفك الدم الحرام، ويقتل على الغضب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً.)[1].

لم يجب ابن زياد مسلم ولم يفنّد أقواله، وقد شخّص مسلم حال هؤلاء القتَلة بدقة كما شخّص الاتجاه السائد في هذه الدولة لجمع الأعوان وقمع المعارضين بكل طريقة ـ حتى ولو لم يكونوا معارضين فعلًا ـ وكان يحتمل أن يقفوا بوجه الدولة يوماً ما أو أن يكونوا عقبة في طريق مشاريعها وأغراضها، واكتفى ابن زياد بإعادة شتائمه وربما أراد أن يعيّره (بفشله) في المهمة التي جاء الى الكوفة من أجلها فخذل في النهاية حتى وقع بين يديه، (إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه ولم يرك أهله)[2].

إدّعاء الجبر الإلهي، السلاح الأموي المضلل

لقد اتَّخذ الأمويون (الارادة الإلهية) وسيلةً لتمرير مفهوم شاعَ بين الناس وأصبح له أتباع وأنصار، وكان مفهوم الجبر الإلهي الذي ردَّ كل شيء إلى إرادة مباشرة من الله عز وجل، وجعل البشر ـ على أساسه ـ غير مسؤولين عن أفعالهم، سلاحاً بيد الأمويين حاولوا به اسكات الجهلة والبسطاء من أبناء الأمة، وكانت ايحاءات معاوية التي أشرنا إليها من قبل دليلًا على توجه الدولة لتعزيز هذا الاتجاه الذي غالباً ما ينجح في غياب التصور الاسلامي الصحيح وفي غمرة تقاعس علماء الأمة ومفكريها عن أداء واجباتهم لشرح كل مفاهيم الاسلام كما جاءت حقاً، لا كما أراد لها المحرّفون والمضلّلون وفقهاء الدولة المحترفون المرتزقة.

فابن زياد هنا يقول لمسلم ان الله لم يركَ أهلًا لهذا الأمر فحال دونه وجرت بذلك قدرته.. ورآني وسيدي يزيد جديرين به فجعله لنا، ولو لم نكن كذلك لما منحنا ذلك ولما تمتعنا بهذا الملك الطويل العريض.

---

(١) المصادر السابقة، والطبري ٣/ ٢٩١.

(٢) نفس المصدر السابق.

فقد كان سعي مسلم ـ بنظره ـ إذاً مجرد أمنية لم يشأ الله تحقيقها . .

وكأن مسلم أراد ملكاً أو إمرةً لنفسه ليتمتع كما يتمتع ابن زياد ويزيد وكأنه لم يكن صاحب رسالة ومبدأ كبير . . . وكأنه لم يعرف من كان أهلًا لتحمل مسؤولية الأمة وقيادتها (فمن أهله ياابن زياد؟)[١] هكذا تساءل متعجباً.

وأجاب ابن زياد بوقاحة: (أمير المؤمنين يزيد)[٢].

ولعلَّ الوقت لم يتح لمعاوية لاستبدال هذا اللقب، لئلّا يكون مثار سخرية الأمة وغضبها، وإلّا فأيّ مؤمنين يزيدٌ أميرهم؟ أليس ادعاء ذلك من ضروب البلاء التي لا يحمد سوى الله عليها، وهو الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه؟ وهو الذي يحكم بين عباده بعد كل شيء؟

(الحمد لله على كل حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم)[٣].

هكذا أجاب مسلم، مستسلماً لقضاء الله وأمره، لا ليزيد ولا لابن زياد.

وهنا ربما ظنَّ ابن زياد أن مسلم قد أفحم وعَدِمَ الحجة فأراد استفزازه اكثر مما فعل وسأله: (كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئاً؟)[٤].

وهل هو الظن؟ انه اليقين وهو واثق من ذلك لا يساوره شك فيه، قال: (والله ما هو بالظن، ولكنه اليقين)[٥]،

هكذا أعلن قضيته بكل وضوح، وأعلن حق الامام عليه السلام بقيادة هذه الأمة وزعامتها لكي تتخلى عن يزيد وعن كل النماذج المشابهة له وتعود الى خط الاسلام الصحيح، ومن أجدر من الحسين عليه السلام بموقعه ومكانته من الأمة وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وعلمه وصفاته الفريدة، للقيام بهذه المهمة الدقيقة لانتشال الأمة من الظلم والانحراف وقيادتها نحو الاسلام ووفق مبادئه وشريعته؟

أيمكن أن يقيس أحد يزيداً بالحسين عليه السلام؟ وهل هناك وجه للمقارنة بينهما؟

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) المصادر السابقة، والنص للطبري ٣/ ٢٩١.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) نفس المصدر السابق.

هل إذا أتيحت الفرصة ليتغلب يزيد على العرش الذي مهده له أبوه، أصبح وجوده شرعياً رغم أنه فاسق لأن فقهاء الدولة قالوا بجواز إمامة الفاسق والمفضول وعدم جواز التخلي عن بيعته باعتبار أنه قد جمع الأمة وحافظ على وحدتها؟ حتى لكأنَّ تلك الأحاديث المزوّرة بدت مفصّلة على مقاس يزيد ومن هم على شاكلته. !

كان جواب مسلم رفضاً قاطعاً لدولة الظلم ورمز الظلم، ولعله في موقفه ذاك الذي أراده فيه ابن زياد أن يبدو ضعيفاً متخاذلاً، أشد قوة من أي وقت مضى، ولنا أن نتصوره يتحدث بذلك الشكل وسيف الجلّاد مصلّت فوق رأسه وهو يبرق ويرعد ويتوعَّد، وماذا يملك الطاغية غير الغضب والوعيد وسفك الدماء؟ وماذا يملك سوى أن يشهر حقده وسيفه وعصاه؟

توعَّد ابن زياد وهدد، وما كان بالذي يستطيع كظم غضبه والتغلب على هواه، وكان يجد في قتل الناس وتعذيبهم اللذة التي يجدها الطغاة عادة عندما يسومون الناس قتلًا وتعذيباً وعسفاً، وكأنهم بذلك يلهون ويلعبون وكأنهم لم يفعلوا شيئاً ـ على حد تعبير مسلم ـ وقد جبه ابن زياد قبل قليل بذلك.

(قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يُقتلها أحد في الاسلام)[1].

(الابداع) في الجريمة لا يقدر عليه إلَّا المتمرّسون بها، الموغلون بسفك الدماء، أجاب مسلم: (أما أنك أحق من أحدث في الاسلام ما لم يكن فيه.

أما أنك لا تَدَعْ سوء القتْلة، وقبح المُثلة، وخبث السيرة، ولؤم الغلبة، ولا أحدَ من الناس أحق بها منك)[2].

وما عسى مسلم أن يجيب بغير ما أجاب به وصفع خصمه؟

---

(١) المصادر السابقة والنص عن الطبري ٣/ ٢٩١ وقد روى النويري في نهاية الارب ٢٠/ ٤٠٣ قال: (ثم كانت بينهما مقاولة، قال له ابن زياد آخرتها: قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يقتلها أحدٌ في الاسلام فقال: أما أنك أحق من أحدث في الاسلام ما ليس فيه. أما أنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السريرة ولؤم الغلبة لأحد من الناس أحق بها منك)، وجاء في الفتوح ٥/ ١٥٢ ان مسلم قال لابن زياد: (أنت وأبوك أحق بالشتم منهم، فاقض ما أنت قاضٍ، فنحن أهل بيت موكل بنا البلاء).

(٢) نفس المصدر السابق.

وبأي شيء يمكن أن يكون ابن زياد أحق الناس إن لم يكن بالتفنن بالجريمة والانتفاخ أمام أعدائه العزل والتظاهر بما يتظاهر به الطغاة عادةً وقد حسبوا أن الغلبة لهم والناس إلى جانبهم.

كانت صفعة قوية لابن زياد، صفعة بصفاته القبيحة هذه المعروفة عنه من قِبل جميع أفراد الأمة سواء في الحجاز أو الشام أو العراق، وفي غيرها من البلدان الاسلامية، الذين عرفوا وسمعوا الكثير عن أباه الذي اشتهر بقسوته المتناهية في قمع المعارضين ومن حسب أنهم سيكونون من المعارضين وكل الأبرياء الذين وقعوا بين يديه.

لم يستطع أن يقابل القول بالقول والحجة بالحجة. (وأقبل ابن سمية يشتمه ويشتم حسيناً وعلياً وعقيلًا، وأخذ مسلم لا يكلمه)[1].

والشتيمة سلاح العاجز الذي لا يجد الكلمات التي يستطيع أن يحاور بها خصمه ويرد بها حجته ويدفع بها التهم عن نفسه.

كشف مسلم ابن زياد، وأظهره أمام جلسائه كما هو، وابن زياد أعرف بنفسه من جلسائه.

ومع أن مسلم عرف جرأة ابن زياد على القتل وسفك الدماء والتنكيل بأعدائه، وانه لن يدع سوء القِتلة وقبح المثلة وخبث السريرة ولؤم الغلبة على حد تعبيره وأنه سيكون معه أشد مما كان مع سواه، فانه وجد أن عليه أن لا يتنازل أمامه وأن يواجهه بقوة، لتظل كلماته وموقفه ماثلةً أمام الأمة فيما بعد، عسى أن تحركها وتهز وجدانها يوماً ما، وعسى أن تثير فيها نوازع الكرامة والحرص على حريتها وإنسانيتها وعقيدتها قبل كل شيء.

فهو لم يقبل إلى الكوفة بمهمة شخصية أو هدف خاص به أو بعائلته، ولم يأت لطلب أمرة أو مال أو جاه، وإنما جاء استجابة لأمر إمام الأمة وتنفيذاً لأوامره، مع أن معرفته بأهل الكوفة ورأيه الخاص بهم قد يمنعه من المجيء اليهم لو كان الأمر يعود اليه خاصة لى أنه لم يتردد رغم توقعه خذلانهم وتراجعهم لأنه كان على يقين من

(١) نفس المصدر السابق.

صواب قائده وإمامه، كما ذكرنا ذلك في بداية هذا البحث، فمضى الى الكوفة، وقام بعمله من أول ساعة وصل بها اليها، وجمع حوله عدداً كبيراً من أهلها، بايعوه على نصرة الحسين عليه السلام كما رأينا، ولم يتردد، وقد وجد نفسه وحيداً بمواجهة ابن زياد الدموي العنيف في أن يبدي رأيه فيه وفي سيده يزيد وحال الأمة المزري الذي أوصلها اليها معاوية وأزلامه وفي مقدمتهم زياد، والد هذا الطاغية الذي يمثل امامه ويتطاول عليه ويسبه ويهدد بقتله وتعذيبه والتمثيل بجثته بعد ذلك.

وقبل أن يأمر بقتله واجهه مسلم بعقدة النقص فيه، عقدة الأصل الدنس وعقدة الوضاعة والسفاح التي تحدر منها أبوه، وجعله فيها معاوية على أساس قانون جاهلي وبشهادة خمار وصنيع أخاً له، وكأن مما يشرِّف المرء أن يكون أخاً لمعاوية، إلَّا أن مصلحة معاوية وزياد التقت على طريق الشر ولم تعد بنظرهما أية قيمة للاسلام ومبادئه وقوانينه.

القاتل الدعيّ

ولعلَّ الأمة كلها قد غضَّت النظر عن فعلة معاوية وزياد، إلَّا أنها بالتأكيد لم تنسَ الأصل الوضيع الذي أراد رفعه بالانتماء الأموي الدنس.

وإذ لم يجرؤ أحد بمواجهته بوضاعته ودنسه، واجهه مسلم بذلك بشجاعة (يا ابن زياد، أما والله لو كانت بيني وبينك قرابة ما قتلتني)[1].

ومن أين يمكن أن تكون بينهما قرابة؟ أمن جهة معاوية ويزيد؟ وهل طهرت أصول هذين حتى يطهر أصل ذاك؟

وكيف تكون بينهما قرابة، وقد ادعاه معاوية لأبيه الزاني ابي سفيان، فسخِر بذلك من الأمة كلها وكتابها ودينها، وأعلن بذلك خروجه الصريح وخروج كل من ساهم معه بتلك المهزلة عن أحكام الاسلام وشرائعه.

لقد أسمعتَ لو ناديت حيّاً

كان مسلم يأسف لأنه وقع هكذا بيد ابن زياد، ومع أنه لم تكن به بقية من قوة عندما عرضوا عليه الأمان، إلَّا أنه ربما تمنى أن يموت هناك، وقد حاول استنهاض

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩١.

ابن الأشعث الذي آمنه وأراد إن يثير فيه غيرة الاسلام وحميّته (فقال يابن الأشعث، أما والله لولا أنك آمنتني ما استسلمت، قم بسيفك دوني فقد اخفرت ذمتك)[1].

ولم يقم ابن الأشعث دونه، ولم يكن مستعداً أن يقوم حتى دون نفسه هو، فذمته قد اخفرت منذ البداية منذ أن تخلى عن قيم الاسلام الحقيقية واستسلم لأعداء الاسلام، ومنذ أن تسلَّط معاوية وزياد وأولادهما وأشباههما ونظائرهما على رقاب الناس فأذلّوهم واستعبدوهم.

قتل مسلم

وأمر ابن زياد بإصعاد مسلم فوق سطح القصر ليضرب عنقه هناك ثم ليتبع جسده رأسه، أمر بذلك الأحمري بكير بن حمران الذي ضرب مسلم رأسه وعاتقه بالسيف (فصُعد به وهو يكبّر ويستغفر ويصلّي على ملائكة الله ورسله وهو يقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذّبونا وأذلّونا)[2].

وحاول الأحمري بن حمران الشماتة منه قائلًا: (الحمدلله الذي أقادني منك)[3] وضربه ضربةً لم تغن شيئاً قال الأحمري: قال لي مسلم: (أما ترى في خدشٍ تخدشنيه وفاءً من دمك أيها العبد؟ ثم ضربته الثانية فقتلته)[4].

ولم يملك ابن زياد عندما سمع كلام ابن حمران إلَّا أن يعقب بقوله: (أو فخراً عند الموت؟)[5].

لم يكن يفخر، غير أنه لم يرَ قيمة للعبد الذليل الذي كاد أن يقتل على يديه، ولم يكتف بالسلامة، فجاء ثانية منساقاً وراء أوامر سيده الذي طلب منه ارتكاب جريمته البشعة ليضيف الى عار الخيانة عار الجبن والجريمة (ثم أمر ابن زياد بجثته فصُلبت، وحُمل رأسه إلى دمشق، وهذا أول قتيل صُلبت جثته من بني هاشم، وأول من حُمل من رؤوسهم الى دمشق)[6].

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٣، وابن كثير ٨/ ١٥٩، ومروج الذهب ٣/ ٧٣.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) مروج الذهب ٣/ ٧٤.

قتل هانيء

كان تسارع الأحداث بذلك الشكل لمصلحة ابن زياد، يمثل له قمة النجاح، وقد بدا له بعد قتل مسلم أن يعمد. لإكمال مشواره العنيف في الجريمة ـ إلى قتل هانيء الذي احتجزه قبل يوم واحد من مقتل مسلم، وقتل بعض المعارضين ممن كانت قبائلهم تواليه وتخضع له.

ورغم أنه قدم وعداً لابن الأشعث بالابقاء على هانيء، بعد أن تقدم اليه هذا بطلب ذليل يرجوه فيه ذلك قائلًا له: (انك قد عرفت منزلة هانيء بن عروة في المصر، وبيته في العشيرة، وقد علم قومه أني وصاحبي سقناه اليك، فأنشدك الله لما وهبته لي، فاني اكره عداوة قومه؛ هم أعزّ أهل المصر، وعُدد أهل اليمن)[1].

كان ابن الأشعث خائفاً على نفسه من أعزّ أهل المصر، وعدد أهل اليمن، وقدوعده ابن زياد بذلك إلّا أنه لم يفعل، وأمر به ليضرب عنقه صبراً (وهو يصيح يا آل مراد، وهو شيخها وزعيمها، وهو يومئذٍ يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، وإذا جانبها أحلافها من كندة وغيرها كانت في ثلاثين ألف دارع فلم يجد زعيمهم منهم أحداً فشلًا وخذلاناً)[2].

لقد سكت قومه أعزّ أهل المصر وعدد أهل اليمن وأحلافهم وكتموا غيظهم وناموا على ذلهم وهم يرون شيخهم وزعيمهم يقتل في سوق يُباع فيه الغنم وهو مكتوف يهيب بهم (وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم، وامذحجاه، وأين مني مذحج، فلما رأى أن أحداً لا ينصره جذب يده فنزعها من الكتاف، ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم يدافع به رجل عن نفسه؟!

ووثبوا اليه فشدّوه وثاقاً، ثم قيل له: امدد عنقك، فقال: ما أنا بهذه سخي، وما أنا بمعينكم على نفسي، فضربه مولى لعبيدالله بن زياد بالسيف، فلم يصنع سيفه شيئاً، فقال: إلى الله المعاد! اللهم إلى رحمتك ورضوانك! ثم ضربه أخرى فقتله)[3].

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٢.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٧٣ وابن كثير ٨/ ١٥٩.

(٣) الطبري ٣/ ٢٩٢ وراجع أنساب الأشراف ق١ ج١ ـ ١٥٥.

كان هانيء ممثلًا للصفوة العراقية الرافضة للظلم والانحراف، وقد رفض قتل ابن زياد في بيته غدراً، مع أنه كان يعلم أن ابن زياد قد يقتله إذا ما تمكن منه، ان قوة المبادىء قد تمكنت منه ولم يكن خائفاً، ولم يخضع أو يستسلم إلا لله ربه ولم يدن إلّا بالاسلام ولم يطع إلا نبيه ﷺ وأوصياءه على أمته من بعده.

كان قوياً بهم رغم شيخوخته[1]، فلم يهن ولم ينكل ولم يتراجع رغم ما أحاطه به الطاغية من حفاوة ورغم محاولاته استمالته لجانبه، وكان قتله في سوق الأغنام شرفاً له وأي شرف، وكان جره بالحبال في الطرق مع مسلم، وصلبت جثته مع جثته، منكوسين في الكناسة[2]، حافزاً لأن يقدم غيره على ما أقدم عليه، رغم قسوة العقوبة التي يعد بها الظالمون،

لم يضر مسلماً وهانئاً ما فعله بهما ابن زياد، ولم يقلل ذلك من قيمتهما وشأنهما وعدالة قضيتهما، ولم ترفع من قيمة الجلاد شيئاً، رغم أنه أراد بذلك الارتفاع بنظر سيده وأراد التقرب منه بقسوته.

وحسب الجميع حكم التاريخ العادل بعد أن زال بريق الدولة وقوتها وسلطانها، وحسبهم ملاقاة حكم عادل آخر يسأل كل منهم فيه عن قضيته، ويقلب فيه سجل أعماله.

طويت صفحة الحياة القصيرة وذهب مسلم وهانيء الى ربهما، ووفد بعدهما الحسين عليه السلام ويزيد وابن زياد وكل من شارك بالمجازر الدموية التي أعدتها دولة الظلم لخصومها، ولا ندري كيف سيكون حوار المتخاصمين يوم الجزاء، غير أننا ندرك بلا شك جزاء المجاهدين والمضحين، وندرك جزاء المنحرفين والظالمين، ألم يحدثنا القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ عن ذلك؟ أم أننا لا ندرك لحد الآن مَن هؤلاء ومَن هؤلاء؟

إننا ندرك كل شيء، فالتاريخ قد سجل كل شيء، وبقي أن نعي دورنا نحن وعلى طريق أي منهم نسير.

---

(١) ورد في مرآة الزمان ص٨٥ أن عمره عند استشهاده بلغ تسعاً وتسعين سنة...

(٢) عن أنساب الأشراف ق١ ج ١ - ١٥٥، والدر النظيم ص١٦٠، ومقتل الخوارزمي ١/ ٢١٥، ومناقب ابن شهر اشوب ٢ ـ ٩٤، والمناقب والمثالب ص١٧٢ (حياة الامام الحسين، القرشي ٢ ـ ٤١١ ـ ٤١٢).

مأدبة الدم

كان استشهاد مسلم وهانيء ملحمة من ملاحم الاسلام، حملت قضيته العادلة إلى الجميع، وبقي أن يدرك الجميع دورهم بمواجهة الظلم والانحراف في كل زمان.

لقد تباشر الطغاة بقتلهما وتبادلوا رسائل التهنئة وأقاموا حفلات الفرح ابتهاجاً بذلك فـ(عبيدالله بن زياد لما قتل مسلماً وهانئاً بعث برؤوسهما الى يزيد وكتب اليه: أما بعد، فالحمدلله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه، وكفاه مؤنة عدوه. أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانيء بن عروة المرادي، واني جعلت عليهما العيون، ودسست اليهما الرجال، وكدتهما حتى استخرجتهما، وأمكن الله منهما، فقدمتهما فضربت أعناقهما، وقد بعثت اليك برؤوسهما مع هانيء بن ابي حية الهمداني والزبير بن الأروح التميمي، وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة، فليسألهما أمير المؤمنين عما أحب من أمر، فان عندهما علماً وصدقاً وفهماً وورعاً)[1].

وأخبر العالمان الصادقان الفاهمان الورعان يزيد عما قام به ابن زياد في سبيله وأطلعاه على رسالته التي افتخر فيها بكيده ومكره وجواسيسه.

وكان يزيد مسرور غاية السرور من (ابن عمه) ـ الشجاع ـ كما وصفه بكتاب الرد الذي ارسله اليه، وأوصاه الاستمرار بمهمته لمواجهة الحسين عليه السلام واستعمال أشد الأساليب شراسة ودموية وأن يحترس على الظن ويأخذ على التهمة، فالحسين عليه السلام يمثل الخطر الوحيد الذي يواجه الدولة وقد يطيح بها.

كان رده على ابن زياد: (أما بعد، فإنك لم تعد إن كنت كما أحب، عملتَ عمل الحازم، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقدأغنيتَ وكفيت، وصدّقت ظني بك ورأيي فيك، وأنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، واكتب إليّ في كل ما يحدث من الخبر)[2].

ولم ينتظر ابن زياد من سيده توصياته بهذا الشأن، فهو خبير بعمله وفق

(١) الطبري ٣/ ٢٩٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

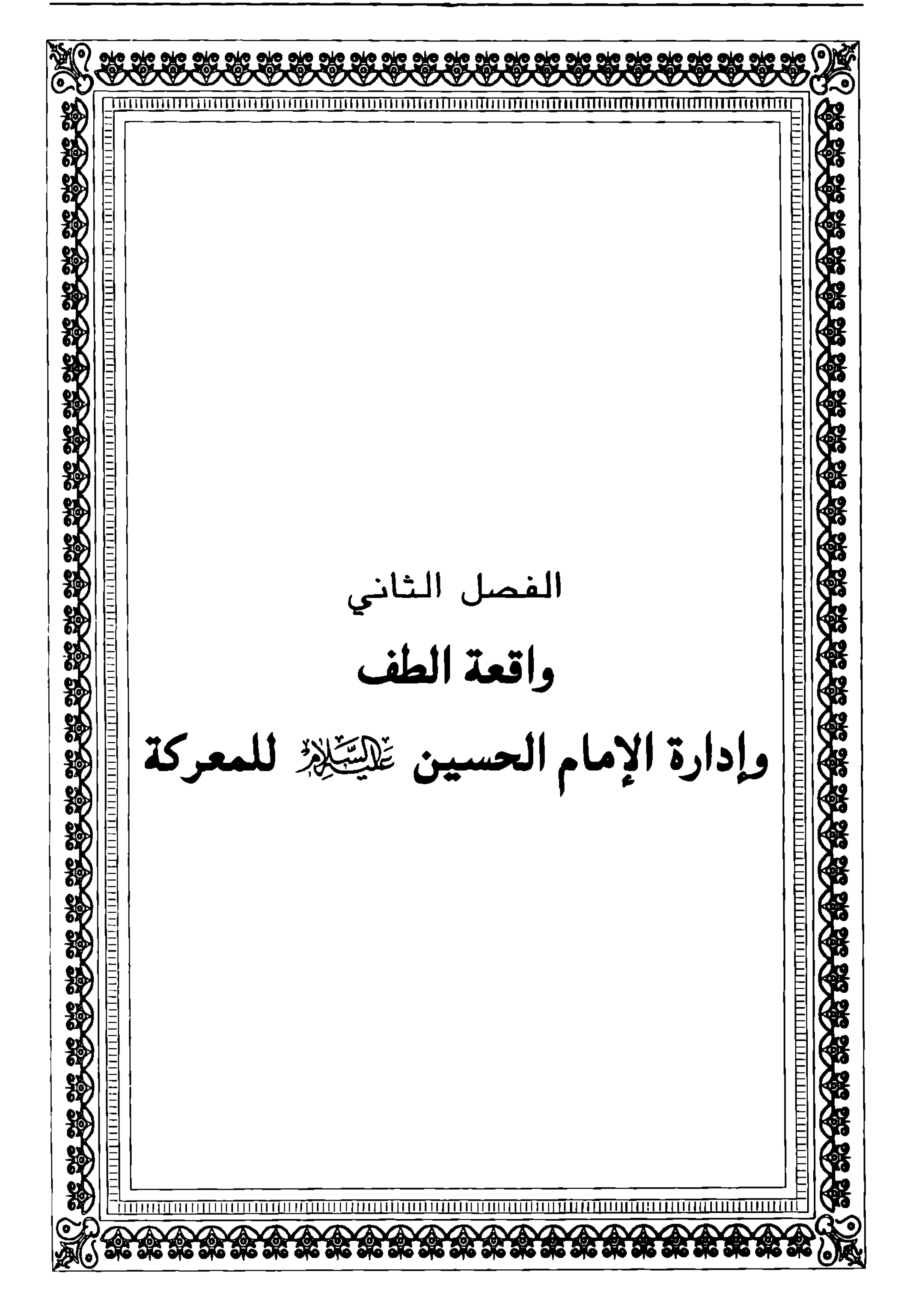
الأسلوب الأموي ولعل والده أول رواد هذا الأسلوب، وقد أقدم على قتل عبد الأعلى الكلبي الذي كان أخذه كثير بن شهاب وعمارة بن صلخب الأزدي بين قومه الأزد وهم ينظرون إليه، وقد سكتوا عن قتله وطأطأوا رؤوسهم كما فعلت مذحج.

وطويت صفحة من هذه الملحمة... لتفتح صفحة أخرى سجّلها الحسين عليه السلام بدمه ودماء أصحابه لكي تظل المعركة قائمة، بين الاسلام وخصومه، ولكي يظل انصار الاسلام على استعداد لبذل دمائهم كما فعل الحسين وأصحابه، وإلّا فأي فصل من الاستسلام المريع سيشهده المسلمون وأية هاوية عميقة سينحدرون اليها، لو لم ترق تلك الدماء الزكية التي علّمت الجميع أن كل شيء يرخص ويهون في سبيل الاسلام.

إن تساؤلات عديدة حول مهمة مسلم في الكوفة تبرز أمام الدارس المتأمل، وأولها حول تخلي الأعداد الغفيرة التي بايعته للامام الحسين عليه السلام بفترة وجيزة لم تتجاوز ساعات معدودة وكأن الأمر تمَّ بطريقة سحرية غريبة غير مفهومة.

غير أن عودتنا لدراسة مجتمع الكوفة في عهد يزيد قد يساعدنا على حل بعض الإشكالات التي قد تلوح لنا ونحن نستعرض مهمة مسلم، وقد نجد فيها أجوبة على العديد من تلك الإشكالات.

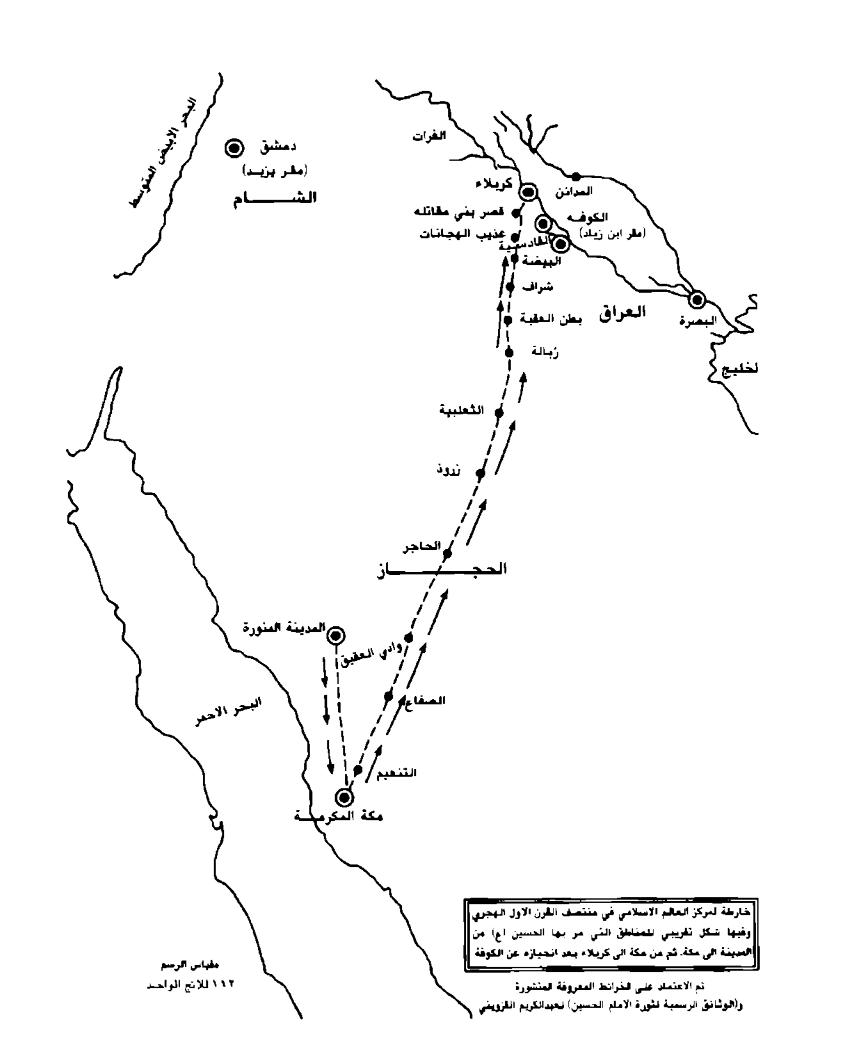
وسنتناول ذلك في بحث قريب في هذا الفصل بعون الله.



الفصل الثاني

واقعة الطف

وإدارة الإمام الحسين عليه السلام للمعركة



خارطة لمركز العالم الاسلامي في منتصف القرن الاول الهجري وفيها شكل تقريبي للمناطق التي مر بها الحسين (ع) من المدينة الى مكة. ثم من مكة الى كربلاء بعد انحيازه عن الكوفة

تم الاعتماد على الخرائط المعروفة المنشورة و(الوثائق الرسمية لثورة الامام الحسين) لعبدالكريم القزويني

المسيرة الملحمة... من مكة إلى الكوفة

لماذا خرج الحسين عليه السلام من مكة

لعل الأسباب التي دفعت الإمام الحسين عليه السلام للخروج من المدينة، هي التي دعته إلى الخروج من مكة بعد ذلك. ولعله لم يملك الخيار بين البقاء والخروج، إلا إذا كان البقاء يعني الاستسلام للسلطة الحاكمة ومبايعة يزيد، وبدون هذا فإنه كان معرضاً للقبض عليه وقتله أو سجنه أو نفيه إلى مكان سحيق على أبعد الاحتمالات وكانت قضيته ستشوّه وستعرض على أنها منافسة على الزعامة والسلطان وحسب وكان يزيد سيلجأ معه إلى ما لجأ إليه أبوه معاوية من قبل مع خصومه وأعدائه.

وكانت كتب أهل العراق تحمله المسؤولية التاريخية أمام الأمة كلها للنهوض وقيادة الثورة المناوئة للحكم المنحرف، إذ انه لو لم يقرر المسير إليهم لتحمل تبعات ترددهم وتراجعهم، ولقيل فيما بعد إنَّ نجاحهم محقق لو سار إليهم الحسين، أما وهو لم يسر إليهم، فإنهم فقدوا القائد الذي يمكن أن يأخذ بأيديهم إلى ذلك النجاح. ولتحمّل بعد ذلك تبعات كل تقاعس وسكوت عن حكومات الجور والانحراف.

أليس حقد هؤلاء عليه، وعلى شيعته، نابع من أنهم كانوا حجر عثرة ضد الانحراف والظلم وأنهم أبطلوا أكذوبات الأمويين وأحد وتاتهم بضرورة الخضوع للحاكم ولو كان فاسقاً؟.

وقد تحدّثنا بإسهاب في الفصل السابق عن كتب أهل العراق التي تواردت عليه بزخم هائل، وقرار الخروج الذي اتخذه والدوافع التي دعته لذلك.

أصبح الخروج إلى العراق محتماً إذاً وفي وقت استطاع أكبر تجمع للمسلمين أن يشهد هذا الخروج ويعرف دوافعه لينقل ذلك فيما بعد إلى المسلمين في كافة أقطارهم.

إذ خرج منها (لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية... في اليوم الذي خرج فيه مسلم بن عقيل)[1] لمحاصرة ابن زياد واستنقاذ هانىء منه، والذي انقلبت فيه رياح

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٣ وتكاد كتب التاريخ تجمع كلها على ذلك.

الثورة وأصبحت لصالح ابن زياد الذي قبض على الأمور بيد حديدية واستطاع قتل مسلم وهانىء وبعض رجالهما وسجن بعضهم وتفتيت جموع الثوار بخطة محكمة شارك فيها أشراف الكوفة ورؤساؤها.

وضوح الأهداف والغايات

وبخروج الإمام الحسين عليه السلام من مكة أصبح هدف الثورة واضحاً وغاياتها معلنة ومعروفة للجميع وهو التصدي لدولة الظلم والانحراف ومحاولة ايقاف تماديها وخروجها المتسارع عن الإسلام وقوانينه، لا بمجرد القول وإنما بالقوة المسلحة، أي اعلان الحرب عليها،

ومن الطبيعي أن الدولة اليزيدية لم تقف موقف المتفرج على الأحداث وربما كانت ترصد تحركات الإمام الحسين منذ البداية وقد رأينا أنها ذهبت إلى حد محاولة القبض عليه في المدينة واغتياله في مكة ومحاولة منعه من الخروج بالقوة عندما (اعترضه رسل عمرو بن سعيد بن العاص، عليهم يحيى بن سعيد، فقالوا له: انصرف أين تذهب، فأبى عليهم ومضى الحسين عليه السلام على وجهه، فنادوه: يا حسين، ألا تتقي الله تخرج من الجماعة، وتفرق بين هذه الأمة، فتأوَّل! الحسين قول الله عز وجل: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] [2].

اعلان حالة الطوارىء

وقد وصل خبر خروج الحسين عليه السلام من مكة إلى يزيد بسرعة فائقة، ولعله قد بلغه حينما قدمت عليه رسل ابن زياد برأسي مسلم وهانىء وخبر القضاء على ثورتهما فأرسل إليه يوصيه باتخاذ أقصى حالات اليقظة والحذر، واللُّجوء إلى ما تلجأ إليه الدولة عادة من الاحتراس على الظن والأخذ على التهمة ومراقبة الطرق والمنافذ

(١) يونس ٤١.

(٢) الطبري ٣/ ٢٩٦ كما حاول عمرو بن سعيد ارسال كتاب أمان للإمام (ع) لكي يطمئن ويرجع وأرسله مع أخيه يحيى الذي أقرأه الكتاب وجهد معه، إلا أنه رفض ذلك بشدة. (الطبري ٣/ ٢٩٧).

وارسال الحراس والدوريات وتعبئة أعوان الدولة ومرتزقتها وتجنيدهم استعداداً لمواجهة الإمام وحربه[1].

وهنا لا بد لنا من التعرف على طبيعة الموقف.

فيزيد على ما يبدو وقد وصله خبر خروج الحسين عليه السلام ومقتل مسلم وهانىء في وقت واحد أو في وقتين متقاربين جداً، إذ بينما يبشره ابن زياد بالقضاء على ثورة مسلم، يرسل إليه هو يحذره من الحسين عليه السلام الذي خرج من مكة إلى الكوفة. فرسالة يزيد أرسلها وهو يعلم تراجع أهل الكوفة وتخليهم عن مسلم وقتل وأسر بعضهم، فربما كان اطمأن هنا بعض الشيء وهو يرى تبدد السحب التي كانت تتجمع فوق رأسه منذرة بما لا يعلم إلا الله من نتائج وعواقب.

ولم تكن ليزيد تلك الكياسة والحلم اللذين يمكن أن يتظاهر بهما أمام الأمة كما تظاهر معاوية من قبل ليعفو عند المقدرة والقوّة، بل إنَّه ربما كان يتصرف بحقد أشد من ذلك الذي حمله أسلافه وهو يرى بقية سلالة أعداء عائلته وهو يوشك أن يقع في قبضته.

وكانت المعركة بنظره معركة حاسمة أخيرة يستطيع التخلص فيها من عدوه ويسكت صوت المعارضة والثورة على الحكم الأموي إلى الأبد. خصوصاً وإن موقف الحسين عليه السلام ربما كان هو الموقف الوحيد الذي يعلن رفضه لدولة يزيد.

ولا بد أنه منذ تلك اللحظة بدأ يستشعر بوادر (النصر) المزعوم ويهنىء نفسه عليه ويعد العدة لاستئصال الحسين عليه السلام وأصحابه بنفس الطريقة التي أقدم عليها ابن زياد مع هانىء ومسلم وبعض أنصارهما.

ومع أن ابن زياد كان هو الذي بادر إلى تلك الطرق المروعة لقتل هانىء ومسلم فإن ذلك شجع يزيد لكي يأمره بفعل المزيد مع الحسين ورجاله إذا ما وقعوا في يده. لم يتوقع يزيد أن يقوم أعوان مسلّمة المتخاذلون بالوقوف على أقدامهم ثانية ومساندة الإمام. ومع ذلك فإن خوفه من قيام ثورة مسلمة بوجهه جعله يأمر باتخاذ المزيد من الاجراءات والاحتياطات الاستثنائية لمنع كل الاحتمالات التي قد تكون في غير صالحه.

---

(١) وقد عمد ابن زياد بأخذ ما بين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج المصدر السابق ٣/ ٢٩٩.

محاولات لمنع المسيرة

والملاحظ أن محاولات عديدة ـ تحدثنا عنها بإسهاب ـ جرت منذ أن كان في مكة وفي كل مراحل مسيرته إلى الكوفة لمنعه من مواصلتها لأن ذلك من شأنه أن يوقعه في قبضة أعوان الدولة وقد يؤدي إلى قتله وقتل أصحابه فيما بعد.

وبالرغم من اختلاف دوافع المحذرين و (الناصحين)، فإننا لاحظنا أن جواب الإمام يكاد أن يكون واحداً لا يتغير وإن اختلفت كلماته. وقد لمس فيها هؤلاء تصميمه على المضي بمهمته إلى النهاية مهما كانت النتائج.

وقد أحكم ابن زياد قبضته على الناس في الكوفة واستعد لتأليف جيش يواجه به الإمام الحسين عليه السلام كما (بعث الحصين بن تميم صاحب شرطة حتى نزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان، وما بين القادسية إلى القصقطانة، وإلى لعلع، وقال الناس: هذا الحسين يريد العراق)[1].

ومعنى ذلك أنه كان يريد قطع خط الرجوع عن الإمام عليه السلام إذا ما وصلته أخبار مسلم وقدر ذلك. وهو أمر لم يفكر به الإمام بأي حال من الاحوال. وأن أثيرت شبهة حول هذا الموضوع سنتحدث عنها في القسم الثاني من هذا البحث بعون الله.

(التنعيم)، المحطة الأولى

(التنعيم) كان المحطة الأولى التي مر بها الإمام في طريقه من مكة إلى الكوفة، وقد أخذ معه عياله وثقله وأهل بيته، وقد عرفنا دوافعه لأخذهم معه، مع أنه لم يكن يتوقع أوضاعاً ممهدة.

كان مسيره إيذاناً بملحمة كبيرة ستشهدها الأمة وتقف منها موقف المتفرج، غير أنه لم يكن شيء بمستواها وحجمها سيثير الأمة فيما بعد ويخرجها من سباتها الطويل واستسلامها المتواصل لأعداء الإسلام الذين استلموا السلطة والحكم على المسلمين حتى أنها لم تر في ذلك شيئاً غير طبيعي. وكأن مسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله لا بد أن تنتهي بيزيد ليكمل شوط الرسالة ويحملها بتلك الكفاءة التي حملها صلى الله عليه وآله.

وكانت معركة مواجهة مصيرية بين الإسلام وأعدائه، وقد ألقى فيها الأعداء كل ثقلهم وبذلوا كل جهودهم ليتغلبوا على آخر القوى الحقيقية التي كانت مستعدة

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٠١.

للتضحية في سبيل الإسلام.. ولو أن تلك القوة المتمثلة بالإمام الحسين عليه السلام وصحبه قد هادنت واستسلمت بدورها لما وجد من يضحي من أجل الإسلام بعد ذلك.

كان الحسين عليه السلام وصحبه بذرة لشجرة مثمرة قيّض لها أن تعيش وتثمر إلى الأبد، ولم يكن شيء يجعلها بذلك المستوى ويجعل لها قابلية الديمومة والحياة سوى الإقدام الشجاع الذي تم فعلًا وأثبت فيه الإمام عليه السلام وصحبه أن للإنسان ما يعيش من أجله حقاً. وإذا ما انعدم هذا السبب فإن التضحية حينئذٍ تكون أول الواجبات، بل الواجب الوحيد.. فما مبرر العيش إذا انعدم السبب الذي يعيش من أجله المرء.؟.

وهكذا أقدموا على الخطوة الوحيدة التي كان من الواجب اتخاذها، والتي عجزت الأمة كلها عنها. لكنها أدركت فيما بعد أنها الخطوة الصحيحة حقاً، وأدركت خطأها حينما لم تواكب الإمام في مسيرته وتشاركه فيها.. إذ أنها لو فعلت ذلك لحظيت بقيادة حقيقية تعيدها إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله حقاً. ولما وقعت ذلك المأزق الخطير في الذي جعل يزيد وأشباهه يتسلطون عليها.

كان لا بد من وقفة باسلة، وشنّ الحرب بوجه دولة الانحراف والظلم، وبكل الوسائل المتاحة، وطرح كل تحفظ وحذر عند مواجهة من لم يتحفظ ولم يحذر وهو يطرح الإسلام جانباً وينبذه بكل وقاحة مع أنه يدعي الحكم باسمه ويحتل على أساس ذلك أسمى مركز في الدولة الإسلامية وهو خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه..

وإلا فأي موقف بديل يمكن أن يوقف الانحراف ويمنعه.؟.

في (التنعيم) لقي الإمام إبلًا بعث بها عامل يزيد على اليمن إليه محملة بالورس والحلل ـ وهي من أموال الأمة المسلمة، وقد استولى عليها الإمام وعرض على أصحاب الإبل السير معه فيوفى كراؤهم وتحسن صحبتهم أو مفارقته فيعطون من الكراء على قدر ما قطعوا من الأرض (فمن فارقه منهم حوسب فأوفى حقه، ومن مضى منهم معه أعطاه كراءه وكساه)[1].

---

(١) الطبري ٣/٢٩٦ والتنعيم موضع بمكة في الحل على فرسخين من مكة ويراجع مقتل الخوارزمي ١-٢٢٠ وابن كثير ٨-١٦٦ والارشاد للمفيد ومثير الأحزان لابن نما -٢١.

وكان ذلك هو التصرف العادل الوحيد الذي كان يمكن أن يقفه الإمام منهم. فهو ليس متجبراً يفرض نفسه على فئة من المستضعفين بدلًا من متجبر آخر، لقد كان ممثلهم الحقيقي وأحرى به أن يدفع إليهم حقوقهم كاملة غير منقوصة.

كما كان تصرفه حيال أموال الأمة هو التصرف الصائب الوحيد، فليس من المعقول أن لا يقر ليزيد حقاً في التسلط على الأمة كخليفة ويقر له بشيء من حقوقها وأموالها. وما دام قد أعلن الحرب عليه، فما معنى تسليم هذا الجزء من الأموال إليه.؟.

على أن أعداء الحسين عليه السلام قد وضعوا سابقة لهذه، ادعوا فيها أنه كان قد استولى في عهد معاوية أيضاً على أموال مماثلة، وحاولوا جعل القصة تبدو معقولة عندما ذكروا أن الحسين عليه السلام كتب في أعقاب ذلك رسالة إلى معاوية يخبره فيها بما حدث وكأنه يستأذنه في ذلك وأن معاوية قد غض النظر عن ذلك وقال أنه سيكررها وأن له يوماً سيشهد فيه متاعب ممن ليسوا في مثل حلمه وعقله.

أي أن الذين ذكروا تلك القصة لتذكر معها هذه فيما بعد أرادوا تصوير الاستيلاء على أموال المسلمين لحفظها وتوزيعها في أهلها كعملية قرصنة أو سرقة أو عمل طائش يقام في وضح النهار. ومن الغريب أن القصة الأولى ـ وقد تطرقنا إليها في هذا الكتاب قد انطلت على العديدين. إذ كيف يقدم الإمام، ولم تكن بينه وبين معاوية حرب معلنة على الإقدام على خطوة كتلك.؟.

(الصفاح) ـ قلوب الناس معك. وسيوفهم مع بني أمية

وفي (الصفاح) لم يعدم الإمام عليه السلام من يتوجه إليه بالنصح، والتحذير من الإقدام نحو العراق أكثر مما تقدم. فقد لقي الفرزدق الشاعر وسأله عن نبأ الناس خلفه فقال له الفرزدق (قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية)[1] كانوا يرغبون في

---

(١) المصدر السابق ٢٩٦/١ وابن الأثير ٤٠١/٣ وفي تذكرة الحفاظ ـ الذهبي ١-٣٣٨ أن الفرزدق لقي الإمام بذات عرق. وروي أن بينها وبين مكة مرحلتان وروى ابن نما في مثير الأحزان أن الحسين عليه السلام لقي في (ذات عرق) بُشرَ بن غالب وسأله عن أهل الكوفة قال: السيوف مع بني أمية والقلوب معك. قال صدقت. ص ٢٧.

التغيير وبرؤية حاكم عادل كالحسين عليه السلام عليهم، إلا أنهم كانوا يريدون ذلك أن يتم وفق إرادة وقوة عليا غير قوتهم وإرادتهم وكانوا يريدون غيرهم أن ينهض بهذه المهمة. أما هم فقد أصبحوا من حصة الحاكم الجائر يتلاعب بهم ويسيرهم كيفما يشاء.

وأمام وضع كهذا لا يُطمأن إليه استفسر الفرزدق من الإمام عن سبب خروجه العاجل ذاك، وقد روى فيما بعد أنه عليه السلام قال له: (لو لم أعجل لأُخذت)[1] ثم قال له عليه السلام: (لله الأمر والله يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتدِ من كان الحق نيّته، والتقوى سريرته)[2].

كانت مهمة الإمام عليه السلام معروفة وهو التصدي لدولة الظلم ومحاربتها.. أما النجاح الآني وإنجاز المهمة بأسرع وقت ممكن فلم يكن مضموناً.

على أن ما يلفت حقاً في جواب الإمام هوأنه كان يعتبر عمله رغم ما قد يلحقه من ورائه، أمراً يستحق الشكر وأنه كان يرى الثبات في مهمته مهما كانت النتائج. أترى أن الحسين عليه السلام هنا لا يحسب الشهادة في سبيل الإسلام نعمة تستوجب الشكر حقاً؟ وهل أنه كان يرى عدة سنوات متبقية في ظل الانحراف والجور أجدر بالشكر من حياة باقية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وأبيه وأمه والأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين.. في جنة الخلد.؟ إذا كان من لا يعرف الإسلام حقاً لا يعرف ذلك، فهل الحسين عليه السلام لا يعرفه أيضاً..؟.

(الحاجر) ــ رسالة إلى أهل الكوفة: «.. إني قادم عليكم في أيامي هذه»

وفي (الحاجر) من بطن الرُمَّة، كتب الإمام إلى أهل الكوفة يعلمهم برأي مسلم فيهم ويعدهم بالقدوم عليهم ويوصيهم بالحذر والجد ريثما يقدم عليهم (فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية. فإذا

---

(١) و(٢) المصدر السابق

قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدّوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله)[1].

وهنا يبدو أنه استلم كتاب مسلم بعد خروجه من مكة، وكان يبدو مستعداً للاستجابة لطلب أهل الكوفة الذين دعوه لنصرة قضيته.

قيس بن مسهر الصيداوي: موقف شجاع: «هذا الحسين بن علي خير خلق الله، وأنا رسوله إليكم فأجيبوه»

وقد أرسل كتابه مع قيس مسهر الصيداوي وهو أحد الذين حملوا رسائل أهل الكوفة إلى الإمام، لينقله إلى الكوفة.

وحيث أن ابن زياد قد أمسك بأفواه الطرق ومخارجها وأوعز إلى جنوده وشرطه بذلك ونشر شبكة واسعة منهم تنفيذاً لأمر يزيد فإن قيس بن مسهر قد وقع بيد الحصين بن تميم عندما وصل القادسية وهي منطقة لا تبعد عن الكوفة كثيراً، وقد بعث به هذا إلى ابن زياد.

وقد أراد ابن زياد مساومة قيس وطلب منه سب الإمام عليه السلام مقابل الإبقاء على حياته. وهو أمر قد يفعله بعض من يتعرضون لموقف شديد كموقفه عندما يتراجعون ويجنبون.

وبدا قيس في الظاهر وكأنه يستجيب لطلب ابن زياد وصعد القصر، وبدلًا من شتم الإمام وتشويه قضيته ألقى كلمة حماسية حث فيها الناس على الالتحاق بجند الإمام، وقال: (إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه، ثم لعن عبيدالله بن زياد وأباه، واستغفر لعلي بن أبي طالب.

فأمر به عبيدالله بن زياد أن يُرمى به من فوق القصر، فُرمي به، فتقطع ومات)[2].

كان قيس بمستوى المهمة التي بعثه بها الإمام عليه السلام، فلم ينكل ولم يتراجع رغم علمه بقسوة الجلاد ووحشيته. ويبدو أنه كان منذ البداية يعمل بنشاط لإنجاح

(١) نفس المصدر ٣٠١ ويراجع ابن الأثير ٣/ ٤٠٢ والحاجر تقع جنوب الرياض اليوم وبطن الرمة واد بعالية نجد بين الغور والحجاز.

مهمة الإمام عليه السلام وجعل جماهير الكوفة تلتف حوله لنصرة قضيته. وكان موقفه حرياً أن يحرك تلك الجماهير المتراجعة الخائفة، إلا أن عنف ابن زياد وإرهاب الدولة المشرع فوق الرؤوس ودور الأشراف والرؤساء المخذل، جعل الناس تستسلم وتطرق برؤوسها رغم علمها بعدالة قضية الإمام ورغم موقفها الإيجابي الأول المؤيد.. كان كل امرىء في دولة الظلم تلك يجعل من سلامته الشخصية أول هدف له مما جعل الخوف عقدة الجميع وجعل مقارعتها آخر شيء يفكرون به بعد الذي لحقهم منها.

(زرود).. اللقاء بزهير بن القين

ويبدو أن الإمام عليه السلام التقى بزهير بن القين البجلي في (زرود) أو حواليها، وكان زهير حاجاً مع أصحابه وامرأته. وكان عثماني الهوى، وقد تحاشى الإلتقاء مع الإمام ولم يكن أبغض إليه من أن يسايره في منزل، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير. وقد اتفق أن نزلا في فنزل واحد لم يجدا بداً من النزول فيه. منزل الحسين في جانب وزهير في جانب.

وقد استدعاه الإمام إليه، وتردد في البداية للاستجابة لطلبه إلا أن امرأته حثته على الذهاب والاستماع إليه.

وكانت لحظة اللقاء القصيرة بين الإمام وزهير كافية لجعل الأخير يرجع مستبشراً قد أسفر وجهه وقد أمر أن ينقل فسطاطه وثقله ومتاعه إلى الحسين عليه السلام وقد طلق امرأته قائلًا إنه لم يكن يريد أن يصيبه بسببها إلا كل خير وقد حدث أصحابه حديثاً عن سلمان الباهلي عند غزو بلنجر وقد فتح الله عليهم وأصابوا غنائم، فقال لهم سلمان: (أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟ وقال: إذا أدركتم شباب آل محمد، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم)[1] وقد ودع

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٣٠٢ وابن الأثير ٣/ ٤٠٣ وزورد رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة، وروي أن زهير روى فلك عن سلمان الفارسي الذي حثهم على نصرة الحسين (ع) إذا ما أدركوه - ذكر ذلك الشيخ المفيد في الارشاد والفتال في روضة الواعظين ١٥٣ وابن نما في مثير الأحزان ٢٣ والخوارزمي في مقتل الحسين ١-٢٢٥ ف ١١. والبكري في المعجم ١-٣٧٦.

زهيراً أصحابه والتحق بركب الإمام الحسين عليه السلام، وقد استشهد بين يديه في كربلاء.

وكانت لزهير مواقف مشهودة قبيل معركة الطف وخلالها، أثبت فيها صدق انتمائه للإسلام، رغم توقعه القتل في تلك المعركة. وكان يبدو كأنه كتيبة كاملة بنشاطه وحركته واندفاعه لنصرة الحسين عليه السلام.

(الثعلبيّة)، وصول خبر مصرع مسلم

في (الثعلبيّة)[1]، عندما نزل الحسين ممسياً، التحق به رجلان هما عبدالله بن سُليم والمذري بن المشمعلّ الأسديان وأخبراه بخبر سمعاه عن رجل أسدي من أهل الكوفة مفاده أنه لم يخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم وهانىء وقد رآهما يجران بأرجلهما في السوق[2].

وقد استرجع الإمام عليه السلام مراراً وترحم عليهما.

وناشد الرجلان الإمام عليه السلام لكي يرجع إلى مكة قائلين: (ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف عليك.

فوثب عند ذلك بنو عقيل بن أبي طالب.

وقالوا: لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا، أو نذوق ما ذاق أخونا)[3].

وقد نظر الإمام إلى الرجلين وقال: (لا خير في العيش بعد هؤلاء.. فقال له بعض أصحابه: إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع.

ثم انتظر حتى إذا كان السحر قال لفتيانه و غلمانه: أكثروا من الماء فاستقوا وأكثروا ثم ارتحلوا وساروا)[4].

---

(١) وقد روي في أمالي الصدوق ص ٩٣ أن رجلاً أتى الإمام وسأله عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، فقال عليه السلام: إمام دعا إلى هدى فأجابوا إليه، وإمام دعا إلى ضلاله فأجابوا إليها، هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، وهو قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

(٢) و(٣) وورد في تاريخ اليعقوبي ٢-٢٤٣ أن خبر مقتلهما ورد على الحسين عليه السلام في (القطقطانة).

(٤) الطبري ٣/ ٣٠٢-٣٠٣ وابن الأثير ٣/ ٤٠٣ وابن كثير ٨-١٦٨.

وقد اتخذ بعض المغرضين من هذه الرواية ومن بعض الروايات الأخرى حجة على تثبيت وهم مفاده أن الإمام عليه السلام ربما كان قد نوى التراجع، إلا أن موقف بني عقيل هو الذي منعه من ذلك.

وسنتحدث في القسم الثاني من هذا المبحث عن الشبهات التي أوردت حول تراجع مزعوم للإمام وسنجد أنها لم تقم على أي أساس واقعي أو منطقي.

أمّا هنا في هذا الموقف. فلنا أن نستحضر المشهد أمامنا.

الإمام عليه السلام جالس مع أصحابه بينما يفد عليهم الرجلان الأسديان ويخبرانهم بخبر مسلم وهانيء ويدعوان الإمام لقطع مسيرته.

وقبل أن يتفوه الإمام بأية كلمة يتقدم بنو عقيل معلنين أنهم لن يبرحوا حتى يأخذوا بثأر أخيهم أو يذوقوا ما ذاقه.

لقد أعربوا عن استعدادهم للمضي إلى النهاية مع الإمام وكانوا أيضاً يدركون ما سيلقونه على يد جيش السلطة الظالمة. وربما تتاح لهم في معركة الغد قتل بعض أعوانها مسجلين مواقف جديدة لنصرة الإسلام.

لم يقل لهم الإمام عليه السلام: هيا نتراجع فرفضوا ذلك.

بل أنه جعل من موقفهم حجة على من دعاه للتراجع. فقد نظر إلى الأسديين وقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء. وكأنه كان يريد أن يسمعا الجواب من أصحابه لا منه. وكأنه كان يريد أن يقول لهما: انظرا هذا هو موقف أصحابي إنهم يأبون الرجوع رغم إدراكهم لخطورة الموقف وإنه ليس في صالحهم. فكيف بي أنا الذي دعوتهم إلى الالتحاق بي والانضمام إلى مسيرتي.؟.

شبهة

ومن الملاحظ هنا ـ كما يروي المؤرخون، أن أعداداً من الناس كانت تلتحق بالحسين عليه السلام من الأعراب وغيرهم، وكان لا يمر بأهل ماء إلا اتبعوه[1] طمعاً بالغنيمة أو النصر السهل الميسر، وربما لم يدر في خلدهم أنه عليه السلام يمكن أن يلاقي

---

(١) الطبري ٣/٣٠٣ وابن الأثير ٣/٤٠٣ وابن كثير ٨-١٦٨.

أية مصاعب في التغلب على أعوان الدولة في الكوفة. وهو الأمر الذي عرف الإمام دوافعه، فكان يشرح لهم طبيعة الموقف ويدعوهم للتخلي عنه إن شاءوا، لأن هؤلاء لا يشكلون قوة عقائدية يمكن أن تصمد أمام جيش العدو إذا ما احتدم القتال، وقد ينضمون إلى ذلك الجيش ويشكلون خطراً عليه وعلى أصحابه وربما غدروا بهم وشجعوا غيرهم على الاجتراء عليه وعلى أصحابه.

إن شبهة ترد هنا مفادها أن الحسين عليه السلام قد خير الناس بالانضمام إليه أو التخلي عنه.

ويستند أصحاب هذه الشبهة على دعوة الحسين عليه السلام بعض من اتبعه إلى الرجوع، متوهمين بذلك أنه كان يسعى لتكوين جيش كبير حتى ولو كان من المرتزقين النفعيين. بينما أن الواقع يشير إلى أن جيش الإمام كان محملًا برسالة إلى أهل الكوفة وغيرهم. ورغم أن هذا الجيش الصغير لا يملك مقومات الغلبة على ما أعدته الدولة القوية المتنفذة ويدرك أن الرسالة لا يمكن أن تبلّغ إلا إذا كانت مصبوغة بدماء أفراد هذا الجيش نفسه وهم الحسين عليه السلام وأصحابه.. فإنه واصل المسيرة، مدركاً أن من التحق به لا يمكن أن يقدم هذه الدماء، وسيكون موقفهم المتخاذل نكسة على أصحاب الرسالة أنفسهم، وقد يشوّه جرّاء ذلك موقعهم وتشوه دوافعهم، ويعرضون على الأمة فيما بعد على أنهم جماعة من قطاع العراق وشذّاذ الآفاق دفعتهم مصالحهم للاغارة على الكوفة لتعكير أمنها ونهب ممتلكات أبنائها.

وبقدر ما كان الإمام يفرح بانضمام شخص رسالي إليه، مؤمن بأهدافه وغاياته ويعتبره كسباً كبيراً لقضية الإسلام، بقدر ما كان يشير على من اتبعوه قصد الفائدة والربح لتركه والذهاب بعيداً عنه.

ترى لو أن الإمام أتيح له جيش مرتزق لا يحمل الهدف الذي حمله، وعرض عليه ذلك الجيش أن يسير تحت قيادته، أكان الإمام يقبل بذلك ويسلطه على مقدرات المسلمين ليحل جيش ظالم محل جيش ظالم آخر.

أكان يقبل استبدال ابن سعد بابن سعد آخر والشمر بشمر آخر..؟.

أم أنه كان يريد عودة الناس إلى الإسلام واستبعاده كل أدوات الظلم والانحراف وعناصرهما.؟.

(زُبالة) ـ وصول خبر مصرع عبدالله بن يقطر ـ أراد الدعي مساومته فسبّه ودعا إلى نصرة الحسين عليه السلام

وفي (زبالة) ـ وهي على حدود العراق، وصل إلى الإمام عليه السلام خبر مقتل أخيه من الرضاعة ـ عبدالله بن يقطر ـ وكان قد أرسله إلى مسلم قبل أن يعلم بما حل به.

وقد وقع هو الآخر في الشبكة التي نشرها الحصين بن تميم بالقادسية، وقد أرسله إلى ابن زياد أيضاً كما فعل بقيس بن مسهر الصيداوي وكانت أم عبدالله هذا مرضعة للإمام ومربية له في مطلع طفولته.

وقد أراد ابن زياد مساومة عبدالله أيضاً وطلب منه أن يسب الإمام عليه السلام أمام الناس، ثم ليرى رأيه فيه بعد ذلك.

وكانت تلك فرصة أمام ابن بقطر لو كان يريد الحياة ويريد التمسك ببعض المكاسب الشخصية، إلا أن طموحه كان أبعد من ذلك. كان يريد إعادة الأمة إلى مواقفها الأولى من الإسلام. ولم يكن يرَ لحياته أية أهمية أمام المهمة الصعبة التي أخذ على عاتقه القيام بها مع إمام الأمة.

صعد المنبر (فلما أشرف على الناس قال: أيها الناس، إني رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة ابن سمية الدعي)[1].

ولم يملك ابن زياد حيال قوة ابن بقطر هذه وصلابته وحرصه على تأدية مهمته حتى النهاية سوى أن يلجأ إلى أسلوبه المعتاد والذي يبدو أنه قد ألفه وأساغه وهو إلقائه من فوق القصر إلى الأرض، فألقي وكسرت عظامه، وبقي به رمق فأجهز عليه أحد أعوان الدولة وذبحه.

لا حاجة للمتخاذلين

وعقيب ذلك كرر الإمام عليه السلام دعوته لمن انضم إليه بالانصراف لو أحبوا وقال: (أما بعد، فقد أتانا خبر فظيع. قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وعبدالله بن بقطر، وقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف، ليس عليه منا ذمام)[2].

ومهما تكن دقة الخطاب المروي هنا فإن الإمام عليه السلام لم يحسب أنه بحاجة إلى

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٠٣ وابن الأثير ٣/ ٤٠٣.

من سيخذلونه في المستقبل ويتخلون عنه، إنه بحاجة إلى فئة رسالية قد تكون قليلة العدد، إلا أنها قادرة على إبلاغ رسالة الإسلام إلى الأمة ودعوتها للنهوض والمشاركة بعملية التغيير الكبرى التي كان الإمام مقدماً عليها.

لم يكن جيش الإمام بحاجة إلى زوائد ليطهره منه فيما بعد، وإنما أراده جسماً واحداً حياً متماسكاً، وإن بدا صغيراً بنظر العدو، أو بدا صغيراً يمكن القضاء عليه بضربة واحدة.

وفعلًا (تفرق الناس عنه تفرقاً، فأخذوا يميناً وشمالًا حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه. . وإنما فعل ذلك لأنه ظن إنما اتبعه الأعراب، لأنهم ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون علام يقدمون. وقد علم أنهم إذا بيَّن لهم لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه)[١].

(بطن العقبة) ـ (نصيحة) أخرى

ونزل بـ (بطن العقبة). . وهناك تقدم إليه (ناصح) آخر، دعاه للتراجع قائلًا: (إني أنشدك الله لما انصرفت، فوالله لا تقدم إلّا على الأسنة وحد السوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال، ووطأوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً، فأما على هذه الحال التي تذكرها فإني لا أرى لك أن تفعل.

فقال له: . . إنه ليس يخفى عليَّ، الرأي ما رأيت، ولكن الله لا يغلب على أمره)[٢] كان الإمام يدرك كل شيء، ويدرك أن سلامته الشخصية مرهونة برجوعه ومهادنته على أننا نتساءل: هل وضع الإمام عليه السلام في كل وقت سلامته الشخصية فوق كل اعتبار؟ وهل أن ما سعى إليه هو امتيازات ومكاسب تتيح له تحقيق مصالح شخصية في ظل حكم مطلق كحكم يزيد ومعاوية؟.

لو أنه كان يريد ذلك لما كان أي معنى لذهابه بتلك الصورة التي يتعرض فيها لخطر الموت الأكيد. وهذا ما أراد إفهامه دائماً أولئك المتقدمين له بالنصح والتحذير، إذ لم يستطع هؤلاء أن يفهموا سر ذلك الاندفاع والاقدام رغم كل ما كان يلوح من مخاطر ومتاعب.

لقد خفيت عنهم الدوافع، فعجزوا عن التقدم بالنصح السديد.

---

(١) و(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٠٣-٣٠٤ وابن الأثير ٣/ ٤٠٤.

(شراف) (ذو حسم) ـ استعداد لمواجهة جيش الحر

وفي (شراف)[1] أمر عليه السلام فتيانه فاستقوا من الماء فأكثروا ثم ساروا منها، فرسموا صدر يومهم حتى انتصف النهار. وقد بادر الحسين إلى الانحياز إلى (ذو حسم) وهو تل صخري فيما يبدو فجعله خلف ظهره ونزل، فأمر بأبنيته فضربت. . وذلك كإجراء اتخذه عندما لمح جيشاً يتقدم لملاقاته قادماً جهة الكوفة، من القادسية ويبدو أنه كان مرسلًا للبحث عن الإمام ومحاصرته.

كان ذلك جيش الحر بن يزيد الرياحي (التميمي اليربوعي)، وكان يتألف من ألف فارس. . بعثهم الحصين بن تميم، وكان على شرطة ابن زياد، وفق أوامره بمراقبة الطرق ووضع المسالح ما بين القطقطانة إلى خفان.

وإذا ما كانت هذه دورية واحدة من الدوريات المسلحة التي بثها مسؤول شرطة ابن زياد على الحدود، فلنا أن نتصور أعداد الدوريات الأخرى وأعداد أفرادها الذين لا بد أنهم لم يقلوا عن عدد دورية الحر.

لقاء في الظهيرة ـ إغاثة جيش العدو ـ هكذا تكون المبادىء

ويبدو أن الوقت كان حاراً في منتصف الصيف. وكان لقاء الحر بالحسين عليه السلام قد تم في الظهيرة، وربما كان الحر لا يتصور أنه سيلاقي الحسين في ذلك المكان فلم يأخذ أهبته ويتزود بالماء لأنه ربما حسب أنه سيعود إلى مكان آخر يجد فيه الماء.

وكان الحسين عليه السلام وأصحابه ـ رغم قلتهم ـ في موقف أفضل من موقف الحر العطاشى المرهقين. وكان بوسعه وهو في مكانه المحصن من الخلف أن يستغل عطش أصحاب الحر وعطش دوابهم لمناوشتهم أو الإفلات منهم أو منع الماء عنهم على الأقل.

---

(١) التي قد تقع قرب نقرة السلمان حالياً وقد يقع على مبعدة منها إلى جهة العراق. قرب تلال (ذو حسم) التي تقع إلى اليسار. وتحتاج هذه الأماكن إلى دراسة متخصصة لتحديد أماكنها بالضبط لأهمية هذه الدراسة.

وراجع البحار ٤٤-٣٧٥ وتذكرة الخواص ٢٤٥ وأعيان الشيعة ٢٠-٣٧٠ ومروج الذهب ٣-٦٠ ومناقب آل أبي طالب ٤-٩٥ وأمالي الصدوق ١٥٤.

إلا أن الذي قام به الإمام عليه السلام قد تجاوز تصورات أعدائه الذين جاءوا للتضييق عليه وأخذه لابن زياد.. فمع علمه بمهمتهم، ودون أن يقوم بمساءلتهم واستغلال موقفه استغلالاً عاطفياً لصالحه أمر أصحابه بسقيهم الماء وسقي خيولهم الماء وترشيفها وشارك هو بنفسه بهذه المهمة الإنسانية التي لا يتصور أحد أن عدواً ما يمكن أن يقوم بها تجاه عدوه.

عود على بدء

إلا أن ذلك هو الذي حصل فعلًا، وأعيد فصل سابق وقفه أمير المؤمنين عليه السلام من عدوه معاوية. فبينما استولى هذا الأخير على الماء في صفين، جعل جل همه أن يمنع الإمام وجنده الماء، وعندما أتيحت للإمام فرصة الاستيلاء على الماء كان أول ما فعله أن سمح لجنود معاوية بأخذ حاجتهم منه ثم لم يمنعهم إياه طيلة فترة الحرب.

كان هذا الأمر غير مفهوم من قبل أولئك الذين لا يحملون تصورات الإسلام ورسالته وقيمه والذين لا يرون أمامهم إلا الغلبة والظفر مهما كانت الغايات ومهما كانت الوسائل.

أما بنظر الرساليين فإن المعركة تتخطى حدود الأشخاص وحدود النزعات الفردية الخالصة.

وتتجاوزها لما هو أبعد من ذلك. وربما كان قلب المؤمن الرسالي يفيض أسىً على عدوه وهو يراه ينزلق ويتيه ويبتعد عن خط الإسلام ويراه خاسراً في كل الأحوال، بينما يرى نفسه الرابح الوحيد مهما كانت نتائج المعارك التي يخوضها، ما دام يسلك طريقاً واضحاً ومنهجاً محدداً في كل أوقات السلم أو الحرب. وربح أية معركة لا تمثل له كسباً شخصياً بقدر ما تعني كسباً للإسلام وقيمه ومبادئه، فهو قد اتحد مع تلك القيم والمبادىء حتى عاد لا يرى لنفسه قيمة بدونها، ويرى الانتصار لها نصراً حقيقياً له هو خاصة.

وذاك منطق لا يفهمه من تقاطع مع أفكار ومبادىء الذين حملوه.

جاء الحر من القادسية بفرسانه الألف ليستقبل الإمام الحسين عليه السلام وكان من الإمام ما كان تجاه الجيش العطش الذي وافاه قبيل ظهر ذلك اليوم الحار.

ذكّرهم، فلم يذكروا

وقبيل الصلاة تحدث الإمام عليه السلام مع أفراد ذلك الجيش مذكراً إياهم بأنهم هم الذين دعوه وأنه إنما جاء استجابة لدعوتهم (إنها معذرة إلى الله عز وجل وإليكم؛ إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم: أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين إنصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم فسكتوا عنه. .)[1].

وما يملكون سوى السكوت، وقد دعوه فعلًا، وتخلوا عنه بعد ذلك، وجاءوا الآن محاربين له، كلهم من الكوفة، وكلهم كانوا يميلون إليه وربما كانوا لا يزالون كذلك، إلا أنهم سُلبوا إرادتهم وحريتهم وأعطوها لقوة حسبوا أنها قوة عليا وقوة خارقة مع أنها لم تكن كذلك.

كان الإمام يعلم ذلك ويعلم أنهم كانوا مسلوبي الإرادة وأنهم ضعفاء أمام فرعون وأصنام فرعون وأعوان فرعون وأنهم لن يدعوه حتى يسلموه إليه ليقوم هو بقتله وقد يأمرهم لأداء هذه المهمة، وسيقومون بها طائعين مرغمين، وسيحاولون بالتالي إلقاء تبعة ذلك على فرعون وأعوان فرعون.

«نحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم».. حجج دامغة

وكانت كلمة الإمام حجة على كل أجيال الاستسلام والخنوع، ليس عليهم فقط.. وإذ أُتيح من يحفظ لنا كلماته وأقواله.. فإن هذه الكلمات والأقوال تظل شاهداً عبر العصور على موقف الإمام وفعله ضد الانحراف والظلم وعلى عدم جواز مهادنة فرعون مهما كانت شعاراته وحججه وأباطيله ومزاعمه.

صلى الحسين عليه السلام بهم وبأصحابه. صلاتي الظهر والعصر.

لم يروا بأساً في ذلك فربما كان هذا أمراً مسموحاً به. منحوه ثقتهم، وتوجهوا إلى الله يصلّون خلفه، ومع ذلك كانوا على استعداد لسل سيوفهم ورفعها فوق رأسه أو اغمارها في صدره.

(١) الطبري ٣٠٦ وابن الأثير ٣/ ٤٠٧.

كانت قلوبهم معه وسيوفهم عليه.

ربما كانت صلاتهم خلفه فرصة أخيرة لهم ليكونوا خلفه على الدوام ويمنحوه ثقتهم وعزيمتهم وصبرهم.. وهكذا ألقى خطبة أخرى فيهم:

(فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله. ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعّين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أنتم كرهتمونا، وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم، وقدمت به علي رسلكم انصرفت عنكم)[١].

قال لهم من هو وما هي مهمته، وأوضح لهم مركزه منهم، وبيّن بطلان حجة عدوه وعدوهم الذي تسلط عليهم بالجور والعدوان.. حاول استنهاضهم وإثارة حمية الإسلام فيهم.

ويبدو أن الحر لم يكن ممن أرسل إلى الحسين عليه السلام يدعوه، وقد أنكر ذلك.. إلا أن الإمام أمر أحد أصحابه باخراج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إليه (فأخرج خرجين مملوءين صحفاً، فنشرها بين أيديهم.. فقال الحر: فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيدالله بن زياد)[٢].

وقد امتنع الحسين وأمر أصحابه بالانصراف، وقد حاول الحر منعهم فتوجه إليه الإمام بالتقريع منكراً عليه فعله.. وقد سكت الحر عن ذلك احتراماً منه لمنزلة الإمام ومكانته

وقد اتفقا في النهاية على أن يأخذ الإمام عليه السلام طريقاً لا تدخله الكوفة ولا ترده إلى المدينة، وتياسر عن طريق العذيب والقادسية وبينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلًا.

الحر يساير الإمام إلى (البيضة).. كلمة أخرى هناك.. «أنا أحق من غيّر»

وسار ركب الإمام إلى (البيضة) والحر يسايره.. وهناك رأى أن يحاول مرة أخرى تحريك العزائم المحذرة والإرادة المشلولة لذلك الجيش الحائر الذليل..

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٠٦ وابن الأثير ٣/ ٤٠٨.

فألقى خطبة أوضح فيها سبب ثورته وقدومه عليهم، وذكّرهم بمواقفهم السابقة مع أبيه أمير المؤمنين وأخيه الحسن عليهما السلام وتطابقها مع موقفهم الحالي.. وأوضح أن ذلك يشكل خسارة شخصية لهم ما داموا يتخلون عنه ويتراجعون ويرتمون ثانية في أحضان حاكمهم الظالم.

(أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلّا لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله». ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر. قد أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم، أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أسوة.

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فخطكم اخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم)[1].

كان ذاك بياناً جديراً بقائد كالحسين عليه السلام يقدّر طبيعة عمله ونتائجه.

قول رسول الله ﷺ بصدد جهاد الحاكم الظالم واضح لا لبس فيه.. وسيد شباب أهل الجنة إذ ينقله عنه فهو على ثقة أنه صادر عنه.. وهو يناقض الأحادث التي وضعها بعض مرتزقة الدولة ومأجوريها بوجوب الخضوع للحاكم الظالم.

والحاكم الظالم يشخص الآن أمام الأمة مجاهراً بظلمه وجوره وعدوانه وفساده وتعطيله لحدود الله واستئثاره بأموال المسلمين وتحليله الحرام وتحريمه الحلال.

وهنا يؤكد الإمام على نقطة جديرة بالانتباه وهي: أن مهمة تغيير هذه الأوضاع الصعبة التي يعلن فيها الحاكم استهتاره بكل قيم الإسلام وابتعاده التام عنها ينبغي أن يقوم بها أكثر الناس شعوراً بالمسؤولية وأقربهم من رسول الله ﷺ.. شخص تربى في

---

(١) الطبري ٣/٣٠٧ وابن الأثير ٣/٤٠٨.

بيته وتلقى الإسلام من منبعه الأصلي قبل أن تكدره أغراض المنتفعين والطامعين وذوي الأهواء والمصالح.

وأجدر الناس قياماً بهذه المهمة هو نفسه الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. . وها هو يقدم على هذه المهمة ولا يتردد مع أنه يعلم كيف سيلقاه عدوه، إنه يقدم بنفسه إليهم ويعرضها لعنف الدولة وبطشها، ويقدم بأهله ليكونوا مع أهل من يقدم على مساندته والقتال معه. . إنه يقول لهم: هذه نفسي أقدمها في سبيلكم وفي سبيل أن يعود الإسلام ثانية لتعيشوا تحت لوائه في حرية وأمن، وهذه عائلتي سيصيبها الضيم الذي قد يصيب عوائلكم إذا ما قاتلتم معي وحل بكم ما حل بي.

يقول لهم ذلك مع أنه يعلم أنهم قد تخلوا عن إرادتهم وحريتهم وأنهم قد ماتوا حقاً وإن كانوا يبدون بمظهر الأحياء الأصحاء الفرسان الذين يحملون السيوف والحراب والسهام ويقدمون لمحاصرته مع جماعته القليلة ويبدون أمامهم حتى بمظهر الابطال.

في (ذي حسم): «إني لا أرى الموت إلا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برما»

ومرة أخرى في (ذي حُسم)، التل الصخري الذي لجأ إليه ليأمَن مكر العدو وغدره، حاول استنهاض عزائم الجيش المستنفر لقتاله أو تسليمه لابن زياد، وحاول لفت أنظارهم إلى الحال المزرية التي وصلت إليها الأمة في ظل حكام الجور والانحراف.

(إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكرت، وادبر معروفها واستمرَّت جداً، فلم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برما)[1].

إن سؤاله الاستنكاري قد أراد من ورائه اشعارهم بحال قائمة معاشه. . الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه. . فأي معنى لأي ادعاء من أي شخص بأنه مؤمن

(١) الطبري ٣/٣٠٧.

بالله إذا لم يتصد لهذه الحالة القائمة المعاشة التي يتحكم فيها الطغاة بأهوائهم ومنكرهم.. وقبل أن يعيش فيها دون أن يرى للإسلام ظلّا أو دوراً حقيقياً؟.

(الحر) يدعو الحسين عليه السلام للاستسلام.. «.. أفبالموت تخوفني»

وحاول الحر أن ينضم إلى مجموعة (الناصحين) والمحذرين ويدلي بدلوه في هذا المجال، داعياً الإمام عليه السلام إلى الاستسلام:

(إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى.

فقال له الحسين: أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟.

ما أدري ماذا أقول لك.. ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، **فقال له:** أين تذهب؟ فإنك مقتول.

فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً يغش ويرغما

فلما سمع ذلك منه الحر تنحى عنه، وكان يسير بأصحابه في ناحية والحسين في ناحية أخرى)[1].

ولعل الحر قد حسب نفسه (الناصح) أو المحذر الوحيد للإمام عليه السلام كانكان يرى أن النتيجة المحتمة لثورة الحسين عليه السلام هي الموت قتلا، فما كان يزيد ليتنازل عن ملك سعى له أبوه بالسيف وكان الحسين يرى ذلك أيضاً، ولعل استهانته بالموت وتمثله بأبيات أخي الأوس الذي كان يريد نصرة جد يريد نصرة جسده رسول الله صلى الله عليه وآله.. ولعله كان المستمع الوحيد لكلمات الإمام وخطبه والمستفيد الوحيد منها.. ولعله أيضاً كان منذ تلك اللحظات يعيش صراعاً بين البقاء مع دولة الظلم والانحياز إلى جانب الإمام الثائر.

(١) الطبري ٣/ ٣٠٧ وابن الأثير ٣/ ٤٠٩ وورد فيه بيت ثالث بعد البيتين السابقين:
وإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفى بك ذلّا أن تعيش وترغما

ومع أن موقفه جاء متأخراً، إذ فضل الانحياز إلى جانب الإمام والقتال معه والموت بين يديه، إلا أنه سجل موقفاً كبيراً وخالداً.. ففي اللحظات التي كان الإمام عليه السلام بقوته الصغيرة يواجه جيش ابن زياد الضخم الذي قد يفوقه في العدد ألف مرة وفي التسلح آلاف المرات، ومع زيادة احتمال القتل، بل تأكده، استطاع الحر أن يسترجع وعيه ويشعر بحريته وقوته لمواجهة دولة الظلم ويتغلب على مخاوفه من الموت المحقق.

في (عذيب الهجانات) التحقوا به رغم الحصار ليفوزوا فوزاً عظيماً

في (عذيب الهجانات) التحق بركب الإمام عليه السلام أربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم منهم نافع بن هلال الجملي ومجمّع بن عبدالله العائذي (دليلهم الطرمّاح بن عديّ على فرسه وهو يقول:

يا ناقتي لا تذعري من زجري وشمّري قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سَفرِ حتى تحلّي بكريم النجرِ
الماجد الحر رحيب الصدر أتى بهِ الله لخير أمرِ
ثمة أبقاه بقاء الدهرِ

فلما انتهوا إلى الحسين أنشدوه هذه الأبيات فقال: أما والله إني لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا، قتلنا أم ظفرنا)[1].

وقد حاول الحر منعهم من الالتحاق به وحبسهم وارسالهم إلى ابن زياد بحجة أنهم من أهل الكوفة وأنهم ليسوا ممن أقبل مع الإمام، إلا أن الإمام أصر على عدم التخلي عنهم قائلاً: (لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد كنت أعطيتني ألا تعرض لي بشيء حتى يأتيك كتاب من ابن زياد.

فقال: أجل، لكن لم يأتوا معك.

قال: هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تممت على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك. فكف عنهم الحر)[2].

ولا بد أن هذه المواقف، سواء من الحسين عليه السلام أو من أصحابه قد حيّرت

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٠٧-٣٠٨ وابن الأثير ٣/ ٤٠٩.

الحر وجعلته في دوامة نفسية شديدة.. فهؤلاء النفر يلتحقون بالحسين عليه السلام بعد خذلان الناس له وقد أخبروه بذلك فعلًا كما سنرى بعد قليل.. والحسين يقول لهم: أما والله إني لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا، قتلنا أم ظفرنا. وهم يصرون على الالتحام والتواصل ومتابعة المسيرة سوية حتى كاد الأمر أن يصل إلى القتال والمناجزة.

أي أمر جعل هؤلاء يقدمون على الموت بذلك الشوق وتلك البسالة غير المعهودة وغير المألوفة؟ هل يرى الحر أمامه طالب ملك وزعامة...؟ أم يرى أمامه طليعه رسالية يقودها الإمام، لكي يظل موقفها ماثلًا أمام أبناء الأمة على الدوام، لتقابله بمواقف مماثلة مع كل حكام الجور والانحراف.

سأل أصحابه الملتحقين به (أخبروني خبر الناس وراءكم.. فقال له مجمع بن عبدالله العائذي: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم، فهم إلبٌ واحد عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[1].

فلماذا أصر هؤلاء على الالتحاق بالحسين عليه السلام مع علمهم بأن أشراف الناس إلبٌ واحد على الإمام، وأن سيوف سائر الناس غداً مشهورة عليه؟ ألكي يقتلوا معه؟.

وما الذي يجنونه من ذلك؟ وما مصلحتهم منه؟.

لا شك أنهم أدركوا أمراً لم يدركه الجميع ولم يعوه حق وعيه، وهي رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى الأمة، التي هي رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ورسالة الإسلام نفسها.

كانوا يرون أن مهمتهم قد بدأت الآن.. وأنها ستأتي أكلها وسيحوزون ثوابها عند الله.. سواء نحجوا بالقضاء على الظالم أم نجح هو بالقضاء عليهم وقتلهم.. لم يهمهم هذا، فهو أمر بيد الله وبيده آجال الدول والأفراد. أما هم فعليهم القيام بواجبهم الذي حدّده أمام الأمة لهم.

أدركوا أن إمامهم إلى الحق الحسين بن علي، فأطاعوه والتحقوا بمسيرته رغم المخاطر التي كانت تلوح أمامهم.

---

(١) الطبري ٣/٣٠٨ وابن الأثير ٣/٤٠٩.

وإن إمام الباطل يزيد وأعوانه فرفضوهم رغم ما قد يتاح لهم في ظلهم من عيشٍ رغيد وحياة مرفهة، ولكنها قصيرة محدودة الأمد.

لقد رأوا أمامهم رسول الحسين إلى الكوفة قيس بن مسهر الصيداوي يقتل أمام أعينهم عندما رفض مساومة ابن زياد وصلى على الحسين وعلى أبيه ولعن ابن زياد وأباه ودعا إلى نصرة الحسين عليه السلام وأخبرهم بقدومه وحثهم على الالتفاف حوله أمر ابن زياد بالقائه من طمار القصر. وكان بذلك يعد كل من يخرج عن حكمه بهذه الميتة الشنيعة.

ومع ذلك فقد خرجوا والتحقوا بالإمام عليه السلام . . وأخبروه بما جرى لرسوله إلى أهل الكوفة.

(فترقرقت عينا الحسين عليه السلام ولم يملك دمعه ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[1] اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلًا، واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك)[2].

تلهف للقاء الحبيب

لم يكن هؤلاء هم وحدهم الذين التحقوا بالحسين عليه السلام ، فقد التحق به أفراد عديدون مع أنهم كانوا قلة، وكان منهم يزيد بن نبيط من عبد القيس من البصرة، خرج مع ابنين له، عبدالله، وعبيدالله. . (حتى انتهى إلى الحسين عليه السلام ، فدخل في رحله بالأبطح، وبلغ الحسين مجيئُه، فجعل يطلبه، وجاء الرجل إلى رحل الحسين، فقيل له: قد خرج إلى منزلك، فأقبل في اثره، ولما لم يجده الحسين، جلس في رحلة ينتظره، وجاء البصري، فوجده في رحلة جالساً، فقال: (بفضلِ الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)[3].

فسلم عليه، وجلس إليه فخبّره بالذي جاء له، فدعا له بخير، ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه، فقتل هو وابناه)[4].

---

(١) الأحزاب: ٢٣.
(٢) و(٣) الطبري ٣/ ٣٠٨ وابن الأثير ٣/ ٤١٠.
(٣) الطبري ٣/ ٢٧٨.

إلى الإمام

وقد أشار الطرماح على الإمام أن لا يتقدم عن موقعه في (عُذيب الهجانات)[1] وقال له: (رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم، ظهرَ الكوفة وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيد واحد جَمْعاً أكثر منه، فسألت عنهم، فقيل اجتمعوا ليعرضوا ثم يسرحون إلى الحسين)[2].

وعرض أن ينزله جبلهم المنيع الذي يدعى (أجأ)، وهناك يستطيع أن يكون بأمان من أعدائه، غير أن الإمام اعتذر عن ذلك، وقال له: (جزاك الله وقومك خيراً، أنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري علامَ تنصرف بنا وبهم الأمور في عاقِبِهِ)[3].

ولو كان الإمام وأصحابه يخافون من القتلة المفزعة التي أصبحت محتملةً أكثر من أي وقت مضى وخصوصاً بعد سماعهم أخبار استعداد ابن زياد لمقابلتهم لبذلوا جهوداً جبارة للمضي مع الطرماح واعتصموا بأجأ وبمن سيجدهم من الطائيين الذين قدرهم الطرماح بعشرين ألف يضربون بين يديه بأسيافهم.

لا بد من لفت أنظار الأمة بلون الدم القاني

لكن إنجاز المهمة كان يستدعي لون الدم الأحمر القاني ليلفت أنظار الأمة بشكل حاد إلى الانحراف الصارخ عن الإسلام ولم يكن الهرب هو الوسيلة المناسبة لذلك.

وقد طلب الطرماح من الإمام أن يذهب لأهله بعد أن اقتاد لهم مسيرة من الكوفة على أن يعود بأسرع وقت ليكون من أنصاره وقد أجابه الإمام: (فإن كنت فاعلًا فعجِّل رحمك الله)[4].

لم يكن الإمام بحاجة إلى جيش يرجح كفته ثم ينقلب عليه ويتنكر له بقدر ما كان يحتاج ولو شخصاً واحداً ينصر قضيته ويظل على نفس خطه الرسالي المستقيم لا

---

(١) واد لبني تميم وهو حد السواد، بينه وبين القادسية ستة أميال وقيل له عذيب الهجانات لأن خيل النعمان ملك الحيرة كانت ترعى فيه.

(٢) و(٣) نفس المصدر السابق ٣/٣٠٨ وابن الأثير ٣/ ٤١٠.

(٤) الطبري ٣/٣٠٨.

يحيد عنه ويمزج دمه بدمه الشريف، لتظل تلك الدماء شاهدة على التضحية الكبيرة في سبيل الإسلام.

هل أن الحسين عليه السلام لم يحسب التحاق تلك الجماعة القليلة به نصراً؟ ألم يكن التحاقهم به التحاقاً بركب الرسالة الذي قاده رسول الله ﷺ منذ البداية وكان محفوفاً بالمتاعب والصعوبات أيضاً..؟ وكان هؤلاء يتعرضون لنفس المخاطر التي تعرض لها أصحاب الرسول ﷺ وهم يواجهون كل قوى الشرك والكفر بقيادة قريش؟.

ألم يكن الرسول ﷺ من قبل قد نُصر من قبل بفئة قليلة بإذن الله؟.

وهل انتصر بهم لنفسه أم لدين الله؟.

وإذ يضاف واحد إلى أنصار الحسين عليه السلام ليقدم على التضحية بنفسه ـ وهي أغلى ما يملك، ألا يعد ذلك انتصاراً لدين الله؟.

كان الإمام عليه السلام يريد أن تظل مواقف أصحابه شاخصة أمام الأمة على الدوام وكان يريد لقوتهم التي تغلبت على مخاوفهم وآلامهم أن تنتقل إلى الأمة كلها فيما بعد.

وكان موقف واحد منهم جديراً بأن يهز وجدان الأمة على الدوام ويجعلها تعيد النظر بمواقفها على الدوام وتنتفض على واقعها الذي يتسلط عليه الطواغيت والفراعنة.

لم يكن الإمام بحاجة لرجل يتقوى به ويلوذ خلفه بقدر ما كان بحاجة لموقف شجاع يشخص أمام أنظار الأمة دائماً لتشد به عزيمتها وتقوّي به أزرها لم يكن مستوحشاً إلى الرجال[1] كما روي عن الطرماح وإنما كان الوقت قصيراً، وفرصة الالتحاق بالركب محدودة، وإلا فأية قيمة عسكرية وأي نصر عسكري يمكن أن يجنيه إذا ما أضيف شخص إلى أصحابه القليلين بمواجهة الجيش الذي يفوقه مئات المرات بل ربما بألف مرة؟.

---

(١) الطبري ٣/٣٠٨ وقد أورد أن الطرماح قال: (فعلمت أنه مستوحش إلى الرجال حتى يسألني التعجيل).

(قصر بني مقاتل) ـ لقاء مع عبيد الله بن الحر: «.. فإلّا تنصرنا فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا»

وفي (قصر بني مقاتل)[1] عندما نزل الحسين عليه السلام، وجد هناك عبيد الله بن الحر الجعفي قد نزل قبله، فاستدعاه إليه. وقد كان ابن الحر كما ذكر هو قد خرج من الكوفة كراهة أن يدخلها الإمام وهو بها وقد رفض الذهاب إليه. إلا أن الإمام ذهب إليه بنفسه ثم دعاه إلى الخروج معه. فذكر له الأسباب التي دعته إلى الخروج من الكوفة، إذ لم يكن يمتلك القوة التي امتلكها أصحاب الحسين عليه السلام فاندفعوا لنصرته دون تردد ودون أن يحسبوا حساباً لأي شيء.. إلا الله.

وإذ لم ير الإمام منه استعداداً للمضي معه والالتحاق به قال له: (فإلّا تنصرنا فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع داعيتنا أحد ثم لاينصرنا إلا هلك. قال: أما هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله)[2].

وهنا نجد في توجيه الإمام عليه السلام شيئاً جديراً بالملاحظة والدرس، فهو إذ يطلب من ابن الحر، وقد تخلى عن نصرة الحسين وأصحابه، ألّا يكون مع الطرف الآخر الذي ينقاد للظلم والانحراف.. وهو بذلك يطلب من كل من لا يجد في نفسه القابلية على نصرة الحق وأعوانه أن لا ينضموا للظالم وأعوانه.

إنها ليست دعوة لابن الحر وحسب، بل هي دعوة للناس جميعاً.. أنصروا الإسلام وأهله، فإذا لم تجدوا في أنفسكم القدرة على ذلك ـ وأنتم محاسبون حتماً ـ فلا تكونوا عوناً للظالم ليكون حسابكم عسيراً فيما بعد.

كم من الجنود الذين كانوا في جيش ابن زياد كان بإمكانهم أن لا يشاركوا بالمجرزة التي ارتكبوها، ومع ذلك كان بإمكانهم أن يقفوا موقف الحياد على الأقل؟ غير أن بعض من يحاولون تبرير هزائمهم وضعفهم، لا يكتفون بالاعتراف بأنهم مهزومون متخاذلون، بل يذهبون إلى حد اعتبار مواقفهم الصحيحة الأولى هي

---

(١) وينسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة، يقع بين عين التمر والقطقطانة والقريات.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٠٩ وروي في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٨٥ أنه كان عثماني الهوى وقد حارب أمير المؤمنين عليه السلام مع معاوية في صفين وراجع ابن الأثير ٣/ ٤١٠ وروي أيضاً أنه على تخليه عن الحسين. إلا أن دلائل حاله فيما بعد لم تدل على ذلك.

المواقف الخاطئة ويذهبون (لتصحيحها) إلى الحد الذي يرتكبون فيه الخطايا الحقيقية، فلا يكتفون بالتخلي عن قضية ناصروها أو شخص وقفوا إلى جنبه، بل يذهبون إلى حد اعلان الحرب عليهما.

إن هذه الحالة تبرز وتتكرر في مجتمع الظلم وسلب الحريات.. فبينما تتبنى الجماهير موقفاً يتبناه أحد حكامها الظلمة، نراها تتراجع عنه خطوات عديدة، بل وتحاربه فيما بعد وتنقلب على أولئك الذين لا يزالون يتبنونه لمجرد أن حاكماً آخر جاء بعد ذاك الحاكم الأول، قد أراد ذلك.. وتصبح هذه الجماهير حينئذ ملكية أكثر من الملك.

«أما إذا رغبت بنفسك عنا، فلا حاجة لنا في فرسك»

عرض ابن الحر على الإمام عليه السلام، بعد أن رفض دعوته بالانضمام إليه، أخذ فرسه (الملحقة) وقال (والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلا لحقته ولا طلبني أحد وأنا عليها إلا سبقته، فخذها، فهي لك.. قال الحسين: أما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا في فرسك)[1].

إنه هنا يحاول تبرئة ذمته بعرضه هذا، لم يدر في خلده إلا أن الإمام كان يخوض معركة قد يخسرها ولكي لا يخسر حياته، فإن الهرب هوأول شيء احتمل ابن الحر أن يرغب الإمام فيه.

لم يفكر ابن الحر إلا بعقلية الصعاليك و قطاع الطرق الذين يقدمون على مغامرات ثم يحاولون التخلص منها بكل طريقة.

وكان الهروب الذي أراده ابن الحر للحسين عليه السلام جديراً بتأبط شراً والسلك بن السلكة وأمثالهما من المغامرين.

فهل كان الإمام عليه السلام سيقدم على هروب مثل هذا بعد أن يقتل أصحابه الذين قادهم إلى نصرة الإسلام ليحفظ حياته.. وحيداً طريداً خائفاً..؟.

وهل يستطيع بعد ذلك أن يجمع حوله أنصاراً آخرين إذا ما نوى استئناف مهمته..؟.

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٤٩.

وهل سيترك نساءه وعياله وأطفاله بيد عدوه، ليستغلهم كورقة ضاغطة لاستخراجه فيما بعد، أو ليقال هل هذا هو الحسين الذي أراد تخليصكم منا؟ فلماذا ترك عياله وأصحابه بين أيدينا وهرب؟.

الحياة هي الهدف الأكبر بنظر ابن الحر وأمثاله، وأية مجازفة لا تحقق له مكسباً فيها لا تستحق أن يخوضها، وقد حسب أن الجميع يفكرون بنفس الطريقة بما فيهم الإمام عليه السلام. وحسب أنه في اللحظات التي يفقد فيها كل شيء بما فيهم أصحابه وأهل بيته فإن همه لن يكون حينئذٍ سوى المحافظة على هذه الحياة.

وهكذا قدّم له فرسه، حاسباً أنه سيُسّر بهذه (الهدية) التي تتيح له إنقاذ نفسه.

ابن الحر: ندم حيث لا ينفع الندم: «لقد فاز الأولى نصروا حسيناً وخاب الأخسرون ذوو النفاق»

وقد قيل أن عبيدالله ابن الحر ندم بعد ذلك على عدم نصرته الإمام عليه السلام ولام نفسه وقد رويت أبيات من الشعر قالها بعد مصرعه عليه السلام [1] ولعل ما قاله من شعر كان نتيجة فورة عاطفية مؤقتة تميز أولئك المتقلبين الذين لم يتبنّوا موقفاً ثابتاً في الحياة والذين تبتعد طموحاتهم عن الحد الطبيعي المألوف ولو أنه كان حقاً متحيزاً بعد ذلك إلى قضية الحسين عليه السلام لكان على الأقل قد استجاب لدعوة المختار والتوابين الذين لم يكن غرضهم مجرد الأخذ بالثأر بقدر ما كان يستهدف بعث القضية من جديد، ولم يرفض ذلك كما فعل.

---

(١) أيا لكِ حسرة ما دمتُ حيّاً ... تردد بين صدري والتراقي
غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتعزم بالفراق
حسين حين يطلب بذل نصري ... على أهل العداوة والشقاق
فلو فلق التلهف قلب حرٍ ... لهمَّ اليوم قلبي بانفلاق
ولو واسيته يوماً بنفسي ... لنلت كرامة يوم التلاق
مع ابن محمد تفديه نفسي ... فودع ثم سرع بانطلاق
لقد فاز الأولى نصروا حسينا ... وخاب الأخسرون ذوو النفاق

مقتل الخوارزمي ١-٢٢٨، وذكر الدينوري أربعة منها مع اختلاف في رواية البيت الثالث. والملاحظ أن هذه الأبيات ليس في قوة السفر المروي لابن الحر ومن المحتمل أن تكون القصيدة الثانية له حقاً.

«فيا ندمي الّا أكون نصرته»

كان عبيدالله بن الحر معدوداً من أشراف الكوفة. وفي معرض تقييمه نتائج عمله، قام ابن زياد بعد واقعة الطف بتفقد هؤلاء الأشراف ليرَ من اشترك منهم في تلك المجزرة ومن لم يشترك وإذ لم يجد ابن الحر بينهم، وقد جاءه بعد انتهاء الواقعة اتهمه بأنه كان مع عدوّه الحسين، إلا أنه لم يملك الدليل على ذلك وقد انتهز ابن الحر فرصة انشغال ابن زياد عنه لحظة هرب خلالها وقيل أنه (خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم، فاستغفر لهم هو وأصحابه ثم مضى حتى نزل المدائن)[١].

وكان حال عمرو بن قيس المشرفي وابن عمه حال عبيدالله، فقد اعتذرا بكثرة العيال وأن في أيديهما بضائع للناس كرهاً أن تضيع.

المحطة الأخيرة قبل (كربلاء): «.. أنها أنفسنا نعيت إلينا»

كان (قصر بني مقاتل) المحطة الأخيرة قبل كربلاء، وقد أمر الإمام عليه السلام أصحابه بالاستقاء من الماء قبل استئناف المسير.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٤٣-٣٤٤ (... وقال في ذلك:

يقول أميرٌ غادرٌ حق غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
فيا ندمي ألا أكون نصرتُه ... ألا كلّ نفسٍ لا تسدَّدُ نادمه
وإني لأني لم أكن من حماته ... لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تأزروا ... على نصره سقياً من الغيث دائمه
وقفت على أجداثهم ومجالِهم ... فكاد الحشا ينفضّ والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى ... سراعاً إلى الهيجا حماةً خضارمه
تآسوا على نصر ابن بنت نبيّهم ... بأسيافهم آساد غيلٍ ضراغمه
فإن يقتلوا فكل نفس تقية ... على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراءون أفضل منهم ... لدى الموت سادات وزهراً قماقمه
أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا ... فدع خطة ليست لنا بملائمه
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفوا وإلا ذدتكم في كتائب ... أشدَّ عليكم من زحوف الديالمه)

لقد كان لابن الحر مواقف عديد متنوعة، لعل هذا أحدها.

وقد روي أن الإمام عليه السلام خفق برأسه خفقة بُعيد مسيرهم (ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، يا أبت، جُعلت فداك، ممَّ حمدت الله واسترجعت؟.

قال: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فعنَّ لي فارس على فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

قال له: يا أبتِ لا أراكَ الله سوءاً، ألسنا على الحق؟.

قال: بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت إذاً لا نبالي، نموت محقّين. فقال له: جزاك الله من ولدٍ خيرَ ما جزى ولداً عن والده)[1].

ويكشف هذا الحوار طبيعة المهمة الرسالية الكبيرة التي انتدب إليها الإمام وأصحابه، المهمة التي رأيا أنها لا بد أن تكون مقرونة بالتضحية والدم.

وإذ لم يثن الأب معرفة أنه سيقتل حتماً وهو يواجه ويتحدى دولة الظلم، لم يثن الابن أيضاً معرفته بذلك.

وقد دلت لهجة الحوار على الرابطة الحميمة بين الأب وابنه، رابطة العلاقة الأبوية والبنوية والوثيقة ورابطة العلاقة في الله.

ولعلها من الفرص القليلة النادرة التي يتاح لنا فيها أن نشهد موقفاً مؤثراً مثل هذا يتسابق فيه الأب والابنللشهادة في سبيل هدف واحد مشترك، يطمئن الاب ابنه، ويطمئن الأبن إياه، وهما يعلمان أي مصير سعيد سيصيران إليه إذا ما أنجزا مهمتهما إلى النهاية، بنفس الاصرار والعزيمة اللذين بدآها بهما.

والحوار على قصره، يستحق وقفات متأملة طويلة لنرى ذلك الانسجام الرائع بين نفسٍ واحدة كانت أباً وابناً يمضيان من أجل قضية واحدة هي قضية الإسلام التي تستحق وحدها هذا القدر من التضحية والعطاء.

---

(١) الطبري ٣/٩-٣ وابن الأثير ٣/٤١١.

تعليمات مشددة: «فجعجع بالحسين، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء..»

وبعد صلاة الصبح حاول الإمام أن يتياسر بأصحابه (فيأتيه الحر بن يزيد فيردهم فيرده، فجعل إذا ردّهم إلى الكوفة رداً شديداً امتنعوا عليه فارتفعوا، فلم يزالوا يتسايرون حتى انتهوا إلى نينوى، المكان الذي نزل به الحسين)[1].

وقد وردت تعليمات مشددة من ابن زياد للحر مباشرة عن طريق رسوله إليه، مالك بن النسير البدي ـ من كندة، الذي أقبل متنكباً سلاحه، وقد خصّ الحر وأصحابه بالسلام ولم يسلم على الحسين عليه السلام وأصحابه.

(أما بعد، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري..)[2].

وكانت أوامر ابن زياد بمنع الحسين من التحرك وانزاله بالعراء على غير حصن وعلى غير ماء واضحة بيّنه وقد احتمل أن يتساهل الحر بتنفيذها، فتضيع عليه بذلك فرصة قتل الإمام وأصحابه وكعادته في كل مواقفه أرسل رقيباً على الحر نفسه يرصد تحركاته ويعلمه بضرورة الالتزام بأوامره ويعلمه أيضاً بأنه مراقب وأن لا سبيل إلى تغيير هذه الأوامر أو التلاعب بها.

وقد أعاد ابن زياد الكرة مع عمر بن سعد فأرسل الشمر رقيباً عليه لم يكن الذي يجمعهم مبدأ الإسلام القوي المتين وإنما المصالح. وفوقها مصلحة فرعون وهكذا فلا سبيل إلى الثقة فيما بينهم.

الحر: تنفيذ التعليمات، الحذر من العيون

قال لهم الحر: (هذا كتاب الأمير عبيدالله بن زياد يأمرني فيه أن أجعجع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه، وهذا رسوله، وقد أمره لا يفارقني حتى أنفذ رأيه وأمره)[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) و(٣) الطبري ٣/ ٣٠٩ وابن الأثير ٣/ ٤١١.

ويبدو من مجموع محاورات الحر مع الإمام عليه السلام أن الحر لم يكن يتصرف بنفس القائد المفتون بزعيمه المنقاد له إلى النهاية بل أن مسحة من الحياء كانت تغلف تصرفاته كلها، فقد كان يستطيع أن يبدو بكبرياء العاجز الضعيف المصطنعة وهو يدعي القوة أمام من هو أقل قوة وعدداً منه، ويروح يزعم أنه إنما يقوم بواجبه لأنه على قناعة تامة بذلك مع أنه ليس سوى آلة بسيطة بيد سيده الذي يستطيع أن يسيره كيف يشاء ويستطيع سحقه في أية لحظة.

كان الحر حراً حقاً، مع أنه كان لا يزال مقيداً بسطوة فرعون وقانون فرعون، حاول أن يقول للحسين عليه السلام هذه ليست أوامري وإنما هي أوامر عليا لا سبيل إلى مخالفتها ويجب التقيد بها، مع أنه يعلم أنها أوامر مجحفة وظالمة وأن من يقف قبالته هو على الحق. وإلا فأية قوة جعلته يصمد على موقفه ويرفض فرعون وحكم فرعون جملة وتفصيلا؟.

وإذا كان يعلم أن الحسين عليه السلام وأصحابه على الحق، كان يحاول تبرير فعلته الباطلة أمامهم وإلقاء المسؤولية على أسياده ولكان قد تشامخ بأنفه ـ لو أنه كان مقتنعاً بأولئك الأسياد ـ وقال إن كل ما كان يقوم به إنما هو من وحي قناعته بأنهم على الحق وأن عدوهم على الباطل.

أليس ذلك ما نشهده من عبيد الباطل الأقزام الذين تعملقوا أمام ضحاياهم وادعوا الانحياز (الحق) فراعنتهم وأصنامهم وأسيادهم.

الضعيف المهزوز، يفتخر بطاعته ليزيد «أطعت امامي ووفيت ببيعتي»

كان الموقف الذي وقفه مبعوث ابن زياد جديراً به حقاً. فإذ يرى نفسه صغيراً أمام سيده. وإذ يجد أنه محل ثقته في مهمة التجسس هذه يحاول أن يقنع نفسه بأنه قام بما قام به عن قناعة وإيمان بعدالة قضيته. وكأنه يحمل قضية حقاً. ويروح يترافع أمام مستمعيه عن صحة تصرفاته وأفعاله.

سأل يزيد بن زياد بن المهاصر أبو الشعثاء الكندي مبعوث ابن زياد متعجباً: (ـ أمالكُ بن النسّير البدي؟ قال: نعم، وكان أحد كندة. فقال له يزيد بن زياد: ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟ قال: وما جئت فيه؟ أطعت امامي ووفيت ببيعتي. فقال له:

عصيت ربك وأطعت امامك في هلاك نفسك. كسبت العار والنار. قال الله عز وجل ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[1] فهو أمامك)[2].

قد يكون ابن النسير ممن كاتب الإمام عليه السلام، وقد يندفع إلى نصرته لو أن الأمور كانت في صالحه، غير أنه رأى موقفاً بدا فيه إمامه يزيد بكامل قوته (وعظمته، وسلطانه وقد انقادت الأمة وخضعت كلها له فما يضيره لو أدلى بدلوه.؟ وكيف تراه سيستغل هذه الفرصة السانحة التي جعله فيها ابن زياد موضع ثقته في هذا الموقف الدقيق؟ لا بد أنه سيبذل كل جهوده حتى يكون محلَّ هذه الثقة حقاً. ولن يضيره أن يستمع إلى من يعيّره بانحطاطه وتوطه، ألم يسقط الجميع إذاً.؟.

عيون المخبرين، تراقب كل شيء

حاول الحر تنفيذ أوامر ابن زياد وإجبار الإمام وأصحابه على النزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قريه. ولم يستجب لطلبهم عندما عرضوا عليه النزول في نينوى أو الغاضرية أو شُفَيه ـ وهي قرى قريبة منهم عامرة بالأشجار والماء وقال: (لا والله ما أستطيع ذلك، هذا رجل قد بعث إليَّ عينا..)[3].

ولعل عينا العين كانتا مفتّحتان على سعتهما ترقبان كل شيء.

وقد حاول زهير بن القيْن حث الإمام عليه السلام على منازلة الحر وأصحابه قائلًا: (يا بن رسول الله، إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بَعدُ من ترى ما لا قبل لنا به.

فقال له الحسين عليه السلام: ما كنت لأبدأهم بالقتال)[4] وهو مبدأ إسلامي أصيل. فهو سيدعوهم ـ وقد دعاهم فعلًا ـ إلى الانضمام إليه ونصرة قضيته، ولن يقاتلهم إلا إذا قاتلوه فالبادىء مصروع ومخذول ومهزوم حتماً، إن لم يكن الآن فغداً. وإن لم يكن في هذه الدار ففي الدار الآخرة. التي إن لم يؤمن بها أحد ويؤمن بحسابها وعقابها وثوابها، فلن يكون إيمانه إيماناً.

وقد كانت وصايا أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه في صفين ـ بهذا الشأن

---

(١) القصص ٣٢.

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٩.

(٣) و(٤) الطبري ٣/ ٣١٠ وابن الأثير ٣/ ٤١١.

واضحة: (لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم)[1] أمام الناس على مر العصور، وأمام الله الذي إليه المآل بعد كل شيء.

وقد أشار عليه زهير أيضاً أن ينزل قرية حصينة تدعى العقر فأبى الإمام ذلك. ثم نزل.

وذلك يوم الخميس في الثاني من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة. وبنزوله بدأ الفصل الجديد للمعركة التي خاضها الإمام عليه السلام ضد أعداء الإسلام.

شبهة حول تراجع مزعوم

وجدنا أن الإمام الحسين عليه السلام كان مصراً على إنجاز مهمته الكبيرة، وأنه لم يتراجع عن عزمه رغم (النصائح) والتحذيرات العديدة التي وجهت له في مكة وبعد خروجه منها وفي كل مراحل سفره الملحمي إلى الكوفة. وكان يعلم أن احتمال الموت، يقف في مقدمة المخاطر التي يتعرض لها.

ورغم ذلك فقد أثيرت شبهة ساذجة أريد منها إثبات أمرين:

أولهما: تردد الإمام في موقفه بعد سماعه أخبار تخلي القاعدة الشعبية في الكوفة عنه وقتل الزعيمين مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة، وبعد مواجهته لجيش عمر بن سعد في كربلاء.

وثانيهما: إثبات شرعية حكم الدولة الأموية بقيادة يزيد.

وهذه الشبهة تقوم على روايات مزعومة منها ما ورد على لسان عمر بن سعد (قائد الجيش الذي قتل الإمام عليه السلام وأصحابه)، وعبيدالله بن زياد (حاكم العراق من قبل يزيد الذي تصدى لمقاومة الحسين عليه السلام وحشد ذلك الجيش)، ويزيد (رأس السلطة الحاكمة الذي أرسل ابن زياد لهذه المهمة).. وهم طرف مناوىء له أغراض وأهداف عديدة لتشويه ثورة الإمام.

كما أنها قائمة على رواية مفادها أن خبر مقتل مسلم وهانيء وصله وهو في

(١) نهج البلاغة ٣٧٣.

الطريق إلى الكوفة، فهم بالرجوع إلى أن اخوة مسلم رفضوا ذلك، فاستمر في مسيره. وقد ذكرت لنا بصيغ متعددة نذكر منها

١ - (حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، لقيه الحر بن يزيد التميمي، فقال له أين تريد؟.

قال: أريد هذا المصر.

قال له: ارجع فإني لم ادع لك خلفي خيراً أرجوه.

فهمَّ أن يرجع، وكان معه اخوة مسلم بن عقيل، فقالوا، والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل. فقال: لا خير في الحياة بعدكم! فسار فلقيته أوائل خيل عبيدالله)[١].

٢ - (إن ابن زياد أمر بأخذ ما بين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة، فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج، فأقبل الحسين ولا يشعر بشيء، حتى لقي الأعراب، فسألهم، فقالوا: لا والله ما ندري، غير أنّا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج.

فانطلق يسير نحو طريق الشام نحو يزيد، فلقيته الخيول بكربلاء. فناشدهم الحسين الله والإسلام أن يسيّروه إلى أمير المؤمنين، فيضع يده في يده، فقالوا: لا، إلّا على حكم ابن زياد)[٢].

٣ - روي عن عبدالله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديين أنهما التحقا بالإمام عليه السلام وأخبراه عن رجل أسدي غادر الكوفة قوله (إنه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة، وحتى رآهما يجرّان في السوق بأرجلهما.

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمة الله عليهما، فردد ذلك مراراً، فقلنا: ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن تكون عليك..

فوثب عند ذلك بنو عقيل بن أبي طالب. قالوا: لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا، أو نذوق ما ذاق أخونا.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٨.

(٢) الطبري ٣/ ٢٩٩-٣٠٣.

فقال [الحسين]: لا خير في العيش بعد هؤلاء.

فعلمنا أنه قد عزم له رأيه على المسير)[١].

تفنيد المزاعم

إن ما يفند الزعم القائل بأن الحسين عليه السلام كان ينوي التراجع عن مسيرته أو الذهاب إلى الشام لوضع يده في يد يزيد أمور عديدة قد نستطيع أن نرى بها بطلان هذه المزاعم وعدم تطابقها مع واقع حال الحسين عليه السلام وأصحابه في تصميمهم على الذهاب إلى غايتهم مهما كانت المصاعب والمخاطر التي كان يلوح الموت في مقدمتها. ونذكر هنا جملة من الحقائق والوقائع ووجهات النظر التي تعزز الموقف الرافض لهذا الزعم.

١ - إن مهمة الحر لم تكن ملاقاة الحسين عليه السلام وازجاء النصيحة له بضرورة الرجوع، وإنما حثه على الاستسلام وترك القتال وحسب، لم يقل له ارجع وإنما قال له: إني أذكرك الله في نفسك فأني أشهد لئن قاتلت لتقتلن ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى (وقد مر بنا هذا في القسم الأول من هذا المبحث).

ولم يهم الحسين عليه السلام بالرجوع وإنما قال له مستهيناً بكلماته: (أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ وردد كلمات أخ الأوس الذي كان ينوي الشهادة خلف رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ - كانت مهمة الحر محددة له من قبل ابن زياد، كما ذكر هو للحسين عليه السلام في اليوم الأول من اللقاء بعد مسيره من شراف: (وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نقارقك حتى نقدمك على عبيدالله بن زياد) ولم يجد الحر في نفسه الجرأة على مخالفة الأوامر حتى ساعة بدء المعركة. فكيف يدعوه إلى الرجوع ويمنعه في نفس الوقت.؟.

٣ - لو كان الإمام يريد الرجوع أو الاستسلام لرجع قبل ملاقاته الحر بعدة أيام بعد أن بلغه مقتل مسلم وهانىء ورسوليه قيس وعبدالله. ولما وجد بين أصحابه من يعارض القرار الذي يتخذه لأنهم من أشد الناس قناعة بصواب مواقفه حتى ولو سار بهم إلى الموت، وقد ظلوا متفانين في طاعته والدفاع عنه إلى آخر لحظات حياتهم.

---

(١) المصدر السابق.

٤ - لا يعقل أن يستند الإمام عليه السلام في موقف خطير يريد أن يتخذه على قول أعراب يقولون إنهم لا يدرون شيئاً، سوى أنهم لا يستطيعون أن يلجوا ويخرجوا، فكيف قابلوا الإمام إذا كان التحرك ممنوعاً عليهم؟.

وكيف كان يسير بطريق الشام فلقيته الخيول بكربلاء؟.

إن أول خيل لاقت الإمام ومنعته من التحرك هي خيول الحر بعد خروجه من شراف وهي تبعد عدة أيام عن كربلاء... ولا شك أن هذه الرواية موضوعة بسرعة ويبدو فيها الارتباك والتفكك.

٥ - من الرواية الثالثة، وبعد نصيحة الأسديين له بضرورة التراجع وقبل أن يجيب الإمام انبرى بنو عقيل قائلين والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا ومن المعلوم أنهم عرفوا موقف الإمام مسبقاً من هذا الموضوع وفي هذا الجو العاطفي المشحون بالحزن والأسى على مقتل مسلم وهانىء انبروا للتعبير عن موقف الجميع بما فيهم الإمام، من التراجع ورأوا أنه أمر غير ممكن على الإطلاق.

وواضح هنا أن الإمام لم يقل: حسناً سأتراجع، وعندها انبرى بنو عقيل للاعتراض. وإنما بادر هؤلاء للاعلان عن موقف الإمام الحقيقي الذي وافقهم عليه وكأنه يقول: انظروا إلى أصحابي كيف يتمسكون بمهمتهم، فكيف تنتظرون مني موقفاً أقل من مواقفهم، وهم قد جاءوا معي لإنجاز هذه المهمة الكبيرة.

ولو أنه أمر أصحابه بالتراجع بما فيهم بني عقيل ـ وهم بمثابة أبنائه ـ لا يعصون له أمراً ولا يردون له قولاً، لاستجابوا له حالاً دون تردد لأنهم ـ كما ذكرنا ـ يعلمون بصواب مواقفه وأفعاله ويرون أنفسهم ملزمين باتباعها والسير وفقها.

ولم تكن المسألة برمتها مسألة عصبية أو ثأر دفع بني عقيل للمضي إلى النهاية بقدر ما كانت المسألة الانتصار للحسين وقضيته. وقد رأينا أداءهم الرائع في المعركة وتقدمهم لملاقاة العدو الذي يتفوق عليهم بالعدد والعدة دون اهتمام بقوته، وكان جل اهتمامهم منصباً على أن يشهد أمامهم ذلك الأداء العظيم في تلك المعركة الفاصلة التي لفتت أنظار الأمة إلى عدالة قضيتهم لحماية الإسلام.

عمر بن سعد: هل تقبل شهادة القاتل؟

وسوف نرى ـ بعون الله ـ من مجموع الوقائع ومن شهادات أناس عاصروا الأحداث إن تلك المزاعم كانت باطلة، إضافة لما ذكرناه قبل قليل.

فلنلاحظ السيناريو الذي عرض علينا والغرض من عرضه بهذا الشكل الموحي الخبيث، ولنأت إلى أصل تلك المزاعم من البداية:

إلتقى الإمام الحسين عليه السلام وعمر بن سعد، بعد أن أمرا أصحابهما أن يتنحوا عنهما بحيث لا يسمعوا صوتيهما ولا كلامهما (فتكلما، فأطالا، حتى ذهب من الليل هزيع، ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكره بأصحابه، وتحدث الناس فيما بينهما، ظناً يظنونه أن حسيناً قال لعمر بن سعد: اخرج معي إلى يزيد بن معاوية، وندع العسكرين، قال عمر: إذاً تهدم داري.

قال: أنا أبنيها لك. قال: إذاً تؤخذ ضياعي.

قال: أنا أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز فتكره ذلك عمر، فتحدث الناس بذلك وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئاً ولا علموه)[1].

لقد أريد لنا أن نصل هنا إلى أن الحسين عليه السلام كان مطمئناً إلى يزيد وعدالته وحكمه، وأنه كان مستهدفاً من عبيدالله بن زياد فقط، وأنه ربما كان قد استعجل القدوم إلى العراق حتى وقع بين يديه، وأن الأمر الآن لو ترك للحسين عليه السلام وقد تضايق إلى هذا الحد وحوصر، وأصبح قاب قوسين وأدنى من الموت لذهب إلى (ابن عمه) يزيد ووضع يده في يده وبايعه وانتهت القضية برمتها، وكفى الله المؤمنين القتال..!!.

وإن المسألة لا تعدو ـ في النهاية أن تكون حظاً في التقدير من وجهة نظر الإمام ووفق اجتهاده أراد تصحيحها في النهاية بالذهاب إلى يزيد لحقن دمه ودماء أصحابه، وله الحق كل الحق في ذلك بعد أن أصبح في ذلك الموقف الدقيق..!!.

هذا ما أريد ايهامنا به، مع أن الرواية ذكرت لنا أن أحداً لم يسمع كلامهما ولم يعلم شيئاً عنه.

فكيف افتري هذا القول الذي لم يقصد منه ـ بلا شك ـ سوى التقليل من شأن الثورة التي أعلنها الحسين عليه السلام ولم يتراجع أو يتخاذل أو يستسلم في كل موقف من مواقفها وفي كل وقت من أوقاتها إلى أن لقي مصرعه وحيداً أمام جيش الأعداء الحاشد.

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٢ وابن الأثير ٣/ ٤١٣.

وعلى أساس هذه المزاعم، كتب عمر بن سعد إلى عبيدالله بن زياد (وهو إلى هنا المصدر الوحيد للخبر الذي ذكر، لأنه وحده الذي التقى بالإمام وحادثه، ولم يسمع كلامهما أي شخص آخر).

(أما بعد فإن الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة. هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي جاء منه أو أن نسيره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، أو أن يأتي يزيداً أمير المؤمنين فيضع يده في يده، فيرى فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لكم رضى وللأمة صلاح)[١].

كان ابن سعد هو قائد الجيش الذي قاتل الحسين عليه السلام، وهو الذي أوعز شخصياً بقتله ثم بأن تطأه الخيل بسنابكها وترضّ جسمه (وقد أمر عشرة فرسان فداسوا الحسين بحوافر خيولهم حتى ألصقوه بالأرض يوم المعركة، وأمر برأسه أن يحمل من يومه إلى ابن زياد)[٢] وقد استجاب ابن سعد بذلك استجابة ذليلة لطمعه في ولاية الري وخوفه من ابن زياد ويزيد الذي قتل أبوه أباه من قبل، فأبدى (بطولة) الجبان أمام الجمع اليسير الذي ضمه ركب الحسين عليه السلام من النساء والأطفال، وفعل ما فعل به وبأصحابه، مما يذكره التاريخ باشمئزاز.

مزاعم الخاضع المستسلم

ألا نعجب إذا ما افترى هذه الرواية التي ربما أراد بها تبرير خضوعه واستسلامه هو، بعد إظهار شهادته الكاذبة ومزاعمه ـ ربما فيما بعد، ليقول: لست أنا الوحيد

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٣ وقيل أن الحسين عليه السلام قال لابن سعد: (اختاروا مني خصالًا ثلاثاً: أما أن أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، وأما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه، وما أن تسّيروني إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئتم، فأكون رجلًا من أهله، لي ما لهم وعليَّ ما عليهم..) الطبري ٣/ ٣١٢ وابن الأثير ٣/ ٤١٣.

وروي في العقد الفريد ٥/ ١٢١.. (فقال الحسين لعمر بن سعد اختر مني إحدى ثلاث خصال، أما أن تتركني أرجع كما جئت وأما أن تسيرني إلى يزيد فأضع يدي في يده وأما أن تسيرني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت.

فأرسل إلى ابن زياد بذلك. فهمّ أن يسيّره إلى يزيد. فقال له شمر بن ذي الجوشن: أمكنت الله من عدوك فتسيّره! لا إلا أن ينزل على حكمك، فأرسل إليه بذلك.

فقال الحسين: أنا أنزل على حكم بن مرجانة؟! والله لا أفعل ذلك أبداً).

(٢) ابن كثير ٨/ ١٩١ والطبري ٣/ ٣٣٥ وابن الأثير ٣/ ٤٣٣.

الذي وضع يده في يد يزيد وأطاعه وأشهر سيفه في خدمته فحتى الحسين نفسه طلب مني أن يذهب إليه ويضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه أي أنه سينزل على حكمه ويستسلم له ـ حقناً لدمه ـ وفي هذا رضى لكم وللأمة صلاح، كما عبر بعد ذلك فرحاً بأكذوبته هذه التي أحكم نسجها وحسب أن الأمة ستنخدع بها، فتعذره على موقفه الذليل الخانع المستجيب للظلم. كما أنه أراد تحميل ابن زياد مسؤولية إفساد ذلك الأمر. وهذا بدوره حمّل الشمر المسؤولية بعد ذلك.

أما المصدر الثاني للرواية، فهو ابن زياد الذي روى لنا أنه قبل بذلك، وقال لما قرأ الكتاب (هذا كتاب رجل ناصح لأميره، مشفق على قومه، نعم قد قبلت)[1] قبل بماذا؟ بالخيارات المزعومة التي طرحها الحسين عليه السلام؟.

ومنها أن يذهب ليزيد فيضع يده في يده. وهنا ستحسم المسألة من قبل القائد الأعلى للدولة، وسيتصرف هو بعد ذلك بحكمته وسيعفو عن الحسين عليه السلام بعد أن تراجع وأدرك خطأ موقفه ومسعاه، وربما يسامحه كما ذكرت لنا رواية أخرى عنه بعد ذلك ـ كما سنذكر بعد قليل بعون الله وهو مسلسل ماكر خبيث، الغرض منه الايحاء لنا بأن الحسين عليه السلام قد وجد الأمر مشروعاً في النهاية أن يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده ويستسلم له ما دام لم يقدر على مواجهة جيشه ومقارعته، وأنه ـ حتى ذلك الحين الذي أدرك فيه عدم قدرته على المواجهة، رأى أن ينسحب لئلا يثير المزيد من الفرقة ويستنبط المزيد من الدماء.

وبالتأكيد فإنه يراد الإيحاء بأن هذا ما ينبغي أن يفعله كل من لا يرى نفسه مؤهلًا لمقارعة دولة الظلم وإزالتها.

وربما يتخذ هذا الموقف المزعوم ذريعة لتوجيه النقد واللوم للإمام باعتبار أنه كان ينبغي أن يفعل ذلك منذ البداية، وأنه هو الذي جنى على نفسه بعد أن أوقدت الحرب نارها واستعد كل فريق للمنازلة.

وكان الأمر معقولًا ـ حسب الرواية المزعومة أن يقبل ابن زياد بعرض الحسين عليه السلام بل ويفرح به. وهكذا جاء سياق تلك الرواية أنه قد أعلن قبوله بذلك. فبأي شيء ـ بعد ذلك ـ يمكن أن يبرر تراجعه وإصراره على قتله؟.

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٣.

هنا، قيل إن شمر بن ذي الجوشن ـ الشريف الكوفي ـ قال له: (أتقبل هذا منه، وقد نزل بأرضك إلى جنبك؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك، ليكونن أولى بالقوة والعز، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة)[1].

وهكذا أحكمت القصة، وبرر تراجع ابن زياد وإصراره بعد ذلك على مقاتلة الحسين وأصحابه حتى ينزلوا على حكمه دون قيد أو شرط (فإن فعلوا فليبعث بهم إليَّ سلماً، وإن هم أبوا فليقاتلهم)[2].

إننا نلمس من إجابة الشمر المزعومة أن الحسين عليه السلام ربما طلب منهم أن يتركوه يعود إلى المكان الذي جاء منه دون أن يبايع ليزيد. وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات الأخرى وبعض من سمع كلام الحسين عليه السلام.

أما لو أنه كان يريد أن يذهب إلى الشام فيضع يده بيد يزيد، فلماذا لا يختصر الأمر ويضع يده في يد ابن زياد وينهي المشكلة؟ وهل يزيد إلا كابن زياد؟ بماذا يختلفان؟ ثم أليسا هما أبناء عمومة بزعمهما؟.

ثم تمتد حبكة الرواية إلى ما بعد ذلك، إلى حيث جيء بالرؤوس الشريفة ـ ومنها رأس الحسين عليه السلام ووضعت بين يدي يزيد، وقيل أنه قال عند ذاك...

(أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيتها إيّاه، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي)[3] [4].

لماذا هذه المزاعم

هذا ما ذكر لنا بعد ذلك، وقد أريد تصوير الحادث كله على أنه مجرد رغبة أو نزوة دفعت الإمام عليه السلام لحرب يزيد ـ كما كان معاوية يحاول أن يوحي من قبل، وقد ذكرنا بعض محاولاته بهذا الشأن. وأن الإمام قد تخلى عن عزمه بمحاربة الدولة بعد

---

(١) و(٢) المصادر السابقة/ نفس الصفحات.

(٣) وقيل أنه قال عندما بشر بمصرع الحسين وأصحابه عليه السلام: (قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية! أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين). الطبري ٣/ ٣٣٨.

(٤) الطبري ٣/ ٣٣٨-٣٤١ وابن الأثير ٣/ ٤٣٦ وابن كثير ٨/ ٤٣٧ وروى في هذا البيت: (أعزة علينا) وأضيف إليه هذا البيت الآخر:

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت ... قواضب في أيماننا تقطر الدما

أن رأى الموت أمامه ورأى عجزه عن ذلك. وأن عمر بن سعد نفسه كان يرى أيضاً أن الإمام ينبغي أن يذهب فيضع يده بيد يزيد، وأن عبيدالله نفسه استحسن تلك الفكرة، وحتى يزيد استحسنها لما سمع بها في النهاية وأبدى عن استعداده لدفع الحتف عن الإمام لو كان قد جاءه، وحاول أن يرمي بوزر الجريمة على عاتق ابن زياد وحده الذي ألقاها على عاتق شمر بدوره. . ذلك القاتل الذي ما كان ليتحرج ـ شأنه شأن ابن زياد نفسه ـ من اعلان عداوته الصريحة وبغضه الشديد وحقده على الحسين وآل الرسول ﷺ.

ولعل الشمر كان سيفخر بذلك ويختال أمام الجميع عندما يحمّل لوحده وزر هذه الجريمة النكراء نيابة عن أسياده ولعله يرى في ذلك الشرف كل الشرف لأنه نفذ أوامرهم، ولعله سيبتسم ابتسامة مقيتة إذا ما راح الناس يحملونه وحده كل جريمة ارتكبها غيره بحق آل البيت . فلا شيء يحسب له الشمر حساباً سوى أسياده.

لقد فرح يزيد بمقتل الحسين عليه السلام وفرح به ابن زياد قبل ذلك، وكما أمسك ابن زياد بيديه قضيباً فراح يضرب به وجه الحسين وثغره، فعل يزيد ما فعل ذاك تماماً.

(أذن للناس، فدخلوا والرأس بين يديه، ومع يزيد قضيب، فهو ينكت به في ثغره ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام المدي:

يفلقن هاماً من رجال أحبةٍ إلينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما[1]

وقد وصفه بأنه (قاطع ظالم)[2]. . وقد فرح فرحاً شديداً بمقتله وأمر بإقامة الأفراح والاحتفالات، وأبدى حقده عليه حتى بعد مقتله. وقد استعرض أمام أهل الشام نساءه وصبيانه. (لما جلس يزيد بن معاوية دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله ثم دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونساءه فادخلوا عليه والناس ينظرون، فقال يزيد لعلي: يا علي أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قدر رأيت)[3]. وقد شتم زينب في مجلسه ذاك ووصفها بأنها عدوة الله وقال لها (إنما خرج من الدين أبوك وأخوك)[4].

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدرين وابن الأثير ٣/ ٤٣٧.

(٣) و(٤) ابن كثير ٨/ ١٩٦ والطبري ٣/ ٣٣٩.

امتصاص النقمة الشعبية

وثمة سبب آخر لهذه الرواية، وهو شعور الطغمة الحاكمة بتزايد النقمة على هذه الجريمة حتى من داخل بيوتها، فقد ذكر أن نسوة الحسين وصبيانه، لما أدخلوا دار يزيد (لم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً)[1].

وقيل إن جماعة من آل الحكم أنفسهم استنكروا ذلك، فقد قال يحيى بن الحكم لوفد أهل الكوفة لما أقبلوا برأس الحسين (حجبتم عن محمد يوم القيامة؛ لن أجامعكم على أمرٍ أبداً)[2].

وعندما (دخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه. فسمعت دور الحديث هند بنت عبدالله بن عامر بن كريز ـ وكانت تحت يزيد بن معاوية ـ فتقنعت بثوبها، وخرجت فقالت يا أمير المؤمنين أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ! قال: نعم فأعولي عليه، وحدّي على ابن بنت رسول الله ﷺ وصريحة قريش، عجل عليه ابن زياد فقتله قتله الله)[3].

وقد استنكر عديدون فعله ونكته بالقضيب على ثغر الحسين. وكان ممن فعلوا ذلك (رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو برزة الأسلمي: أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟ أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذا، لربما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه، أما أنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء هذا يوم القيامة ومحمد ﷺ شفيعه، ثم قام فولّى)[4].

كانت بوادر النقمة والغضب والاحتجاج تلوح حتى من داخل دور الطغمة الحاكمة ومن أقرب المقربين إليهم. وقد أرادوا أن يبرروا فعلتهم النكراء بتبادل التهم فيما بينهم.

إننا سنتحدث بعون الله ـ عن ردود الفعل على هذه الجريمة النكراء، غير أننا نود أن نذكر أن مرجانة نفسها أم عبيدالله قد استنكرت هذه الجريمة النكراء من ابنها القاتل.

---

(١) - (٤) المصدر السابق.

كل الدلائل تناقض هذا الزعم

إن ما ذكر بخصوص التراجع المزعوم يناقض تماماً مواقف وأقوال الإمام عليه السلام وإصراره على المضي في معركته العادلة ضد الحكم الجائر المنحرف، كما يناقض شهادات بعض المشتركين بالجريمة أنفسهم من أعضاء الوفد الذين حملوا رأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد عند روايتهم قصة المذبحة التي حدثت في الطف.

فقد قال زحر بن قيس الجعفي أحد أعضاء الوفد مبشراً يزيد: (ابشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره. ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته، وستين من شيعته، فسرنا إليهم، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام، فعدونا عليهم مع شروق الشمس)[1].

كان بوسع زحر أن ينكر إصرار الحسين عليه السلام على القتال، وأن يقول أنه طلب أن يؤخذ إلى يزيد أو يرسل إلى أحد الثغور أو يعود إلى الموضع الذي جاء منه، ولكنه لم يستطع ذلك لأن موقف الحسين ورجاله كان قد وصل إلى كل الأسماع، ولن يجد من يصدقه إذا ما ادعى عكس ذلك وعمد إلى تحريف أقوال الإمام ومواقفه كما حاول أن يفعل القتلة الثلاث، الذين ربما لم يقرروا حتى ذلك الحين أن يقوموا بالحملة الاعلامية المناسبة بعد قتل الحسين وأصحابه.

كما أن شهادات أخرى بهذا الخصوص قد نفت بشكل قاطع ما قيل عن طلب الحسين عليه السلام الذهاب إلى يزيد ليضع يده في يده. . وقد روي عن عقبة بن سمعان قوله: (صحبت حسيناً فخرجت معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتها. ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون؛ من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير أمر الناس)[2].

---

(١) الطبري ٣/ ٢٣٨ وابن الأثير ٣/ ٤٣٦-٤٣٧ والعقد الفريد ٥/ ١٢٢.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٢ وابن الأثير ٣ ٤١٣.

وحتى هذا الطلب الأخير إذا صح أن الحسين عليه السلام قد تقدم به، فإنه لا يعدو إلا أن يكون من باب إلقاء الحجة على أولئك القتلة الذين نووا قتله حقاً ورأوا أنها فرصة سانحة ـ ما داموا قد أعدوا ذلك الجيش الكبير وأن الإمام عليه السلام وأصحابه كانوا بتلك القلة ـ أن يقدموا على تلك التصفيات الجسدية المروعة التي أقدموا عليها فيما بعد بذلك الأسلوب الشائن، فقد كان الحسين عليه السلام يدرك أن حرص العدو على تثبيت مصالحه وحكمه سيجعله يقدم على أية خطوة يراها ضرورية لذلك حتى ولو كانت قتله. وجاءت تصريحاته في عدة مناسبات ـ كما ذكرنا ـ معبرة عن ذلك بوضوح.

ماكنة الاعلام الأموية لم تتوقف بعد معاوية: اكذب حتى يصدقك الناس

كانت تلك الأكذوبة جديرة بمعاوية، ولعل يزيد أراد هنا أن يتقمص شخصية والده وأراد أن يضحك على ذقون الناس ويوهمهم أن الحسين عليه السلام كان مستعداً للتصالح معه ومبايعته، معنى ذلك أن الحسين عليه السلام قد أدرك (خطأ موقفه) السابق وأراد تداركه، ولكن بعد فوات الأوان، حينما(ضيَّع) عليه ابن زياد هذه الفرصة (الثمينة)..!.

ولعله كان بذلك يريد تهدئة من استفزه وأثاره قتل الحسين، وهكذا كانت تصريحاته بأنه كان سيقنع منه بإحدى الخصال التي ذكرها ابن سعد (المصدر الوحيد لهذه الأكذوبة)، وأنه ما كان ليقتله لو أن الفرصة قد أتيحت له وحضر إلى الشام وبايعه.

لقد رأى يزيد نذر الثورة والغضب تتجمع فوق عرشه وتكاد تعصف به ـ كما سنرى عند دراسة نتائج هذه الثورة فيما بعد ـ بعون الله.

ولم يكن شعور الندم المصطنع على هذه الجريمة نابعاً من إحساس عميق بالجزاء الذي سيلقاه من الله بعد ذلك، فهو لا يؤمن بذلك بالتأكيد. ولم يكن نابعاً من إحساس إنساني كبير بجريمة ارتكبت في عهده وفي ظله فاستنكرها، لأنه كان ممثلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكان جديراً به أن تسود العدالة والحق في حكمه بحكم موقعه، وإنما لأنه رأى عوامل السخط والغضب والكراهية والتمرد تلوح حتى في وجوه بعض المقربين منه.

لقد كانت الجريمة وصمة كبيرة في جبين أولئك الذين ارتكبوها، وكانت تعبر

عن الخوف المخزي الذي شعروا به من الحسين عليه السلام وأصحابه رغم قلة عددهم. وقد أحسوا فيما بعد بثقل النظرات الغاضبة الساخطة العديدة التي تساقطت عليهم وادانتهم ولما تصاعد من غيظ عميق مكبوت حتى من أقرب المقربين إليهم.

وقد أكد شاهد آخر كذب مزاعم ابن سعد الأخيرة، وهو حسان بن بكير العبسي. قال: (أشهد أن كتاب عمر بن سعد جاء إلى عبيدالله بن زياد وأنا عنده، فإذا فيه: . . . أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين، بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه وما يطلب ويسأل، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم، فلما قرىء الكتاب على ابن زياد قال:

الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص[1]

وحسبنا أن ننقل مشهداً من المشاهد العديدة التي ترينا كيف أن القتلة أصيبوا بإحباط كبير وشعور بالمهانة بعد الاقدام على جريمتهم النكراء. وكيف أن كل واحد منهم حاول التنصل منها وإلقاء مسؤوليتها على صاحبه.

هل شعر المجرمون بالعار

(قال عبيدالله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر، أين الكتاب الذي كتبت به إليك في قتل الحسين؟.

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به.

قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً إليهن بالمدينة. أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي، سعد بن أبي وقاص، كنت قد أديت حقه. قال عثمان بن زياد أخو عبيدالله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خِزامه إلى يوم القيامة وأن حسيناً لم يقتل. فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيدالله)[2].

---

(١) الطبري ٣/ ٣١١.

(٢) الطبري ٣/ ٣٤٢.

لماذا الاعتذار إلى عجائز قريش؟ ولماذا هذا الخوف الشديد من تبعات الجريمة؟ ولم سكت ابن زياد ولم يواجه النقد بنقد مثله؟ ولماذا لم يقل أنه كان على حق في قتله الحسين؟.

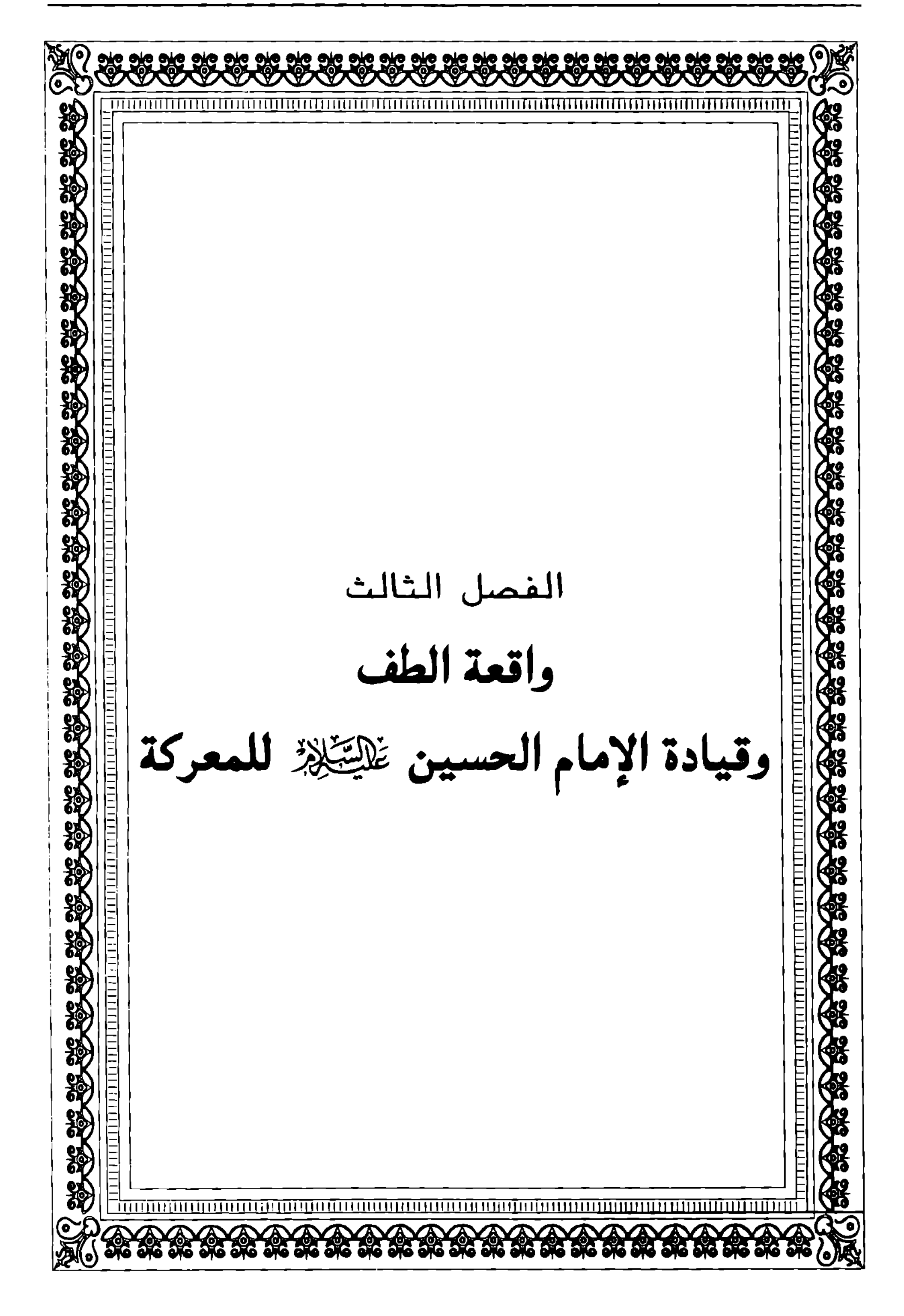
لقد أجاب يزيد نفسه عن هذه الأسئلة. وأن غلّف جوابه بمغالطاته المقصودة التي أراد بها تبرير شرعية وجوده وذلك بتكرار كذبة ابن سعد.

(وما كان علي لو احتملت الأذى وأنزلته معي في داري، وحكّمته فيما يريد، وإن كان علي في ذلك وكفء ووهن في سلطاني، حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته، لعن الله ابن مرجانة، فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلّي سبيله ويرجع فلم يفعل، أو يضع يده في يدي، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل فلم يفعل، فأبى ذلك وردّه عليه وقتله. فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة فبغضني البر والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسيناً؛ ما لي ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه)[1].

أكان حزن يزيد حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته؟ أم لما سببته الجريمة من غضب في نفوس جميع الناس، برّهم وفاجرهم على حد تعبير يزيد نفسه؟ أم أنه حزن مصطنع أراد به يزيد تمرير كذبة ابن سعد. وتبرئة ذمته من كل شيء. وجعل حكمه يبدو بنظر الناس شرعياً، ما دام الحسين عليه السلام نفسه قد أراد مبايعته.. كما زعم.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٦٥.



الفصل الثالث

واقعة الطف

وقيادة الإمام الحسين عليه السلام للمعركة

الإمام الحسين عليه السلام قائداً للمعركة

بعد غياب أمير المؤمنين عليه السلام عن الساحة، ووفاة الامام الحسن عليه السلام، أسفر الانحراف عن وجهه واعتلنت الدولة الأموية الناشئة رفضها للعديد من قيم الاسلام وتصوراته ومثله، وأرست دعائم جديدة للسياسة والحكم. وكانت التصرفات المعلنة لأقطاب الحكم والحاشية والعمال والقادة تدل على انهماك جاد ووقوع شديد في أحضان الانحراف الذي حاولت الدولة تبريره وإيجاد الذرائع الشرعية، واختراع الأحاديث والروايات الملفقة عن لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، لتمريره، وجعل الأمور تبدو بشكل طبيعي، وكأنها استمرار لما كانت عليه في السابق بل وجعلها تبدو وكأنها أكثر اشراقاً وبعثاً على الثقة والتفاؤل بالمستقبل في ظل هذا النمط الجديد من الحكم.

وأضحى الإسلام يطبق لا في الشام وحدها، وإنما في كل أرجاء العالم الإسلامي، من خلال تصورات معاوية ونظرته وفلسفته القائمة على تحقيق المصلحة الذاتية لرئيس الدولة، باعتباره المخول والمتصرف الوحيد والأول فيها. وإذا ما استسلمت الأمة كلها لقوى الانحراف، فلا بد أن يظل فيها (هنا وهناك) من يشعر بخطورة الحال ويسعى الى تفادي الأوضاع المأساوية التي تمر بها وتخليصها منها، وأن يوجد من يرى أن القادة الحقيقيين لا يزالون موجودين، ويمكن أن يلعبوا الأدوار المناسبة في هذا المجال، رغم أنهم قد أبعدوا عن مركز القيادة الفعلية. ولا بد في هذه الحال، أن تتجه أنظارهم إلى هؤلاء القادة، ويتوقعوا منهم ممارسة دورهم لانقاذ الأمة من ورطتها وانحدارها. وهنا، لا بد لنا أن نتسائل: هل تغيب عن رأس الدولة الداهية ملاحظة الحركات المناوئة لنظامه، والتي قد تتصدى لتصحيح المسيرة؟ هل تغيب عنه ملاحظة وجود القيادة الحقيقية التي تتطلع اليها الأمة وهو يرصد تحركها ونشاطاتها، ومكامن الخطر المحتملة نتيجة لذلك؟ وهل كان من المحتمل أن يظل مكتوف اليدين أمام أي تحرك ـ مهما كان بسيطاً ولا يتخذ الاجراءات القمعية المناسبة لوأده واخماده؟. إن هذا هو ما فعله بالضبط في حملته المحمومة لتقوية عرشه وتنصيب يزيد خليفة من بعده، وقد أعد لكل ظرف جملة من الاجراءات التي يمكن

القيام بها ضد أي تحرك أو ثورة محتملة، سواء وقعت في عهده أو عهد خليفته من بعده.

إن القادة الحقيقين للأمة وهم آل البيت عليهم السلام ـ كان لا بد لهم من ملاحظة الظروف الموضوعية التي يمكن القيام فيها بثورة لتصحيح الانحراف والقضاء على أسبابه، دون اللجوء إلى أي لون من ألوان المجازفة التي قد تفقد الأمة حتى القليل من المكاسب التي حصلت عليها، وتجعل الفئة الحاكمة تلجأ إلى أساليب جديدة مبتكرة أو تسفر عن وجهها نهائياً، وتعلن رفضها للاسلام جملة وتفصيلاً وقد تتعاون مع أعدائه التقليديين من بقايا الامبروطوريتين إذا ما وجدت نفسها في موقف صعب، وقد تعمد إلى استئصال كل من تشم منه رائحة العداء للدولة الفرعونية الجديدة.

ولذلك رفض الامام الحسين عليه السلام الاستجابة للنداءات الموجهة إليه لاعلان الثورة على معاوية. وقد أوضحنا الأسباب التي دعته إلى ذلك وفي مقدمتها المكانة التي استطاع معاوية الحصول عليها بين صفوف فئات عديدة من أبناء هذه الأمة وخصوصاً أهل الشام الذين نظروا إلى الاسلام والى الحياة كلها بمنظاره وتبنوا فلسفته، وتحيزوا إليه تحيزاً مطلقاً، نتيجة للامكانات والقوى التي أعدها لتثبيت أركان الدولة وقدراته واستعداداته الشخصية للتصدي الشرس (المبرر غالباً) لكل من يحاول النيل منه أو القضاء على دولته.

كان معاوية بنظر الكثيرين من أبناء الأمة المخدوعين، لا يختلف عن غيره من الخلفاء السابقين، وإن مكانته (ككاتب للوحي وخال للمؤمنين وأحد الأمناء الثلاثة) قد أتاحت له أن يتبوأ مركز الزعامة وأن يجعل الكثيرين يعتقدون أن المتصدين والمعادين والثائرين عليه لم يفعلوا ذلك إلا بدافع البغي والحسد والتنافس على السلطة والمناصب.

كان بمقدور معاوية الذي واجه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو من تعرف الأمة كلها فضله ومكانته، ونازعه على هذه المكانة التي أعدها رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتصدى لكل (منافس) آخر، وهذا (المنافس) لا يمكن بطبيعة الحال أن يبلغ المكانة التي بلغها أمير المؤمنين عليه السلام بين المسلمين، حتى ولو كان من أولاده عليهم السلام.

غير أن يزيد لم يكن يتمتع بالحظوة والمنزلة اللتين تمتع والده، ولم يكن له خبرة وامكانات و(دهاء) ذلك الوالد، مما يتيح له ادارة شؤون الأمة الاسلامية، في

كل أقطارها كما كان يديرها، كما لم تكن له حصافة ومكر ذلك الأب الذي بدا أمام الأمة بذلك المظهر المغلف بالاسلام والذي مكنه من التظاهر بالورع والصلاح.

كان يزيد منذ البداية معلناً خروجه السافر عن الاسلام في عهد والده، وبعد ذلك وكانت الأمة كلها تعرف ذلك.

وقد رأينا عند التعرض لدراسة شخصيته أنه كان من أبعد الناس المحتملين كلها، وقد قلنا في بداية الحديث عنه: إن الأمة الاسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وقبيل وفاته لو سئلت: من كانت تحتمل أن يصبح خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله عليها بعد خمسين عاماً، فإنه ما من أحد بكل تأكيد يستطيع تصور إمكان تبوء شخص كيزيد مركز إمامة الأمة وقيادتها خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، إذ أن ذلك لو وقع، لكان معناه أن الأمة قد انتهت كأمة اسلامية، غير أن ما لم يكن محتملًا وغير قابل للتصديق، وقد وقع فعلًا، وأصبح يزيد أميراً للمؤمنين وقائداً للمسلمين وأصبح الخروج عليه وعن طاعته، خروجاً عن الاسلام بنظر الدولة التي تربع على عرشها، وهنا تبرز مسؤولية الامام الحسين عليه السلام الحقيقية.

ماذا لو بايع الحسين عليه السلام يزيداً

ويطرح هنا سؤال مهم جداً: ماذا كان سيحدث، وما كان سيصير إليه حالنا وماذا كنا سنفعل نحن لو ارتضى الامام الحسين عليه السلام، القائد الحقيقي للأمة، الاستسلام ووضع يده بيد يزيد وأعلن قبوله وطاعته؟ هل سيكون من حقنا أن نناقش حال الأمة وأوضاعها وما آل إليه أمرها بعد ذلك بسبب الغشم الأموي الطارى؟

لا بد أننا كنا سنقتدي بالامام الحسين عليه السلام ـ لو فعل ذلك ـ ونضع أيدينا بيد كل يزيد يأتي من بعده، ولا بد أننا سنسكت عن كل انحراف، كما لا بد أن يكون قد سكت من قبلنا امام الأمة لو استجاب ليزيد وبايعه، وعاش في ظله.

كم كانت المسؤولية التي سيتحملها الامام عظيمة وخطيرة لو قبل ببيعة يزيد؟

إنه سيتحمل مسؤولية استسلام وانحراف الأمة كلها، ووقوعها جثة هامدة بيدي يزيد وكل يزيد بعده.

لو قبل الحسين عليه السلام بذلك، لكانت الدولة الأموية قد أنعمت عليه ببعض الأموال والجوائز ولما حاولت أن تطمس بعض الحقائق بشأنه وشأن فضله وفضل آل البيت جميعاً، ولوظفت ذلك في خدمتها ولمصلحتها، باعتبار أن أكرم المسلمين

وأفضلهم وأقربهم من رسول الله ﷺ قد رأى أن يكون يزيد إماماً للأمة، وعلى ذلك فينبغي على كل أفراد الأمة أن يقبلوا بذلك بصورة نهائية، ولا يفكروا في الخروج على يزيد وعلى كل يزيد فيما بعد، ولا يشكوا بمشروعية استخدام السيف والقوة ضد كل فئة مناوئة، وسيعتبر الخروج عليه خروجاً عن الاسلام والحرب عليه حرباً ضد رسول الله ﷺ.

لقد ظلت الأبواق الأموية تصرخ، معلنة شرعية الدولة وسلامة بنائها، رغم ثورة الامام الحسين عليه السلام التي كشفت زيف ذلك وبطلانه، فكيف كان سيكون صوت تلك الأبواق لو قبل الحسين بها ولم يثر عليها؟

مقولة شرعية الدولة الأموية رغم ثورة الحسين عليه السلام عليها

ولقد ظلت بعض الأبواق التي اعتمدت المنظار والتصور الأمويين ترى في يزيد حاكماً لائقاً على المسلمين وخليفة مناسباً لرسول الله ﷺ، بالضبط كما خطط معاوية وأراد. وكأن الاسلام عبث، وكأن الله تعالى أرسله إلينا لنعبث به ونلهو، ولا نحكمه في حياتنا، ولا نحتفظ منه إلا بالجانب التعبدي المظهري، الذي أريد له هو الآخر أن يبدو مهلهلًا خلقاً لا طعم له ولا أهمية، وترى في ثورة الامام الحسين عليه السلام على يزيد ورفضه مبايعته والاستسلام له خروجاً على اجماع الأمة ووحدتها وقيادتها (الشرعية) وكأن الأمة لم تستدرج من قبل معاوية لتقبله ولياً لعهده، كأمر واقع، عليها أن لا ترفضه ولا تعرضت لذل الفرقة والانقسام، وأن بيعة يزيد كانت صحيحة ملزمة للأمة كلها.

ترى كيف كانت ستعزف تلك الأبواق لو كان الامام الحسين عليه السلام قد قبل بيزيد ووضع يده في يده؟

في غمرة النقاش والجدل البيزنطي العقيم، قام عشرات من فقهاء الدولة وموظفيها وكتابها المأجورين، يبينون لنا (بأجلى برهان) كيف أن بيعة يزيد كانت ملزمة للأمة كلها، وأنها تصح حتى لو انعقدت بواحد، وكيف أن الخروج عليه يعني الخروج عن الاسلام، وراحوا يبتكرون ويضعون ويلفقون الروايات الكاذبة على رسول الله ﷺ ويجعلون من بعض تصرفات الخلفاء سنة ملزمة، مع أن الأمر ليس كذلك بالفعل، وأن الأمر الملزم حقاً هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأوصيائه عليهم السلام، كما ورد بأحاديث صحيحة ثابتة لا ينكرها حتى أولئك المطبلون المزمرون.

وإذا لم يستطع أحد انكار فسق يزيد واستهتاره وقالوا:

(إنه كان مع ذلك إماماً فاسقاً)(١).

ومع أن يزيد كان منذ البداية معلناً خروجه السافر عن الإسلام في عهد والده، وبعد ذلك كانت الأمة كلها تعرف ذلك. فإنهم لم يروا لأحد أن يخرج عليه أو يعزله، مبررين ذلك بأقوال هزيلة منسوبة إلى رسول الله ﷺ، على أنه لا يفوتنا أنهم وضعوا تبريراتهم تلك في ظل الحكم الأموي وفي ظل أنماط من الحكم اعتمدت الصيغة الأموية أساساً في التعامل وفي الحياة والسياسة، وفي ظل حكام لا يقلون عن يزيد فسقاً واستهتاراً وخروجاً عن الاسلام.

قالوا:

(والامام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه، على أصح قول العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من اثارة الفتنة، ووقوع الهرج، وسفك الدم الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن، وغير ذلك، مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه، كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا)(٢).

هل ثار الحسين عليه السلام على يزيد وأراد عزله بمجرد فسق طارى أم لأن يزيد كان

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ٨/ ٢٢٦، وورد في مقدمة ابن خلدون: (.. ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصر..) ص ٣٣٩ (... إن يزيد كان فاسقاً..) ٢٤٠، (.. وأما يزيد فعين خطأه فسقه) ٢٤١.

(٢) ابن كثير ٨/ ٢٢٧ وورد في مقدمة ابن خلدون: (... أما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز، ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم، فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز، لما ينشأ عنه من الهرج والدماء، فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين، ولا أنكروا عليه ولا أثموه، لأنه مجتهد، وهو أسوة المجتهدين، ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره، فانهم أكثر الصحابة، وانوا مع يزيد، ولم يروا الخروج عليه!!) ص٢٤٠، على أنه يقول بعد ذلك: (ولا تقولن أن يزيد، وإن كان فاسقاً، ولم يجز هؤلاء الخروج عليه، فأفعاله عندهم صحيحة، واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعاً، وقتلا البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل، وهو مفقود في مسألتنا، فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد، بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه، والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد!!) ص٢٤٠.

فاسقاً منذ البداية ولم تظهر منه بادرة على أنه حاول التراجع عن سلوكه المعلن الذي ظهر عند الكافة من أهل عصره على حد تعبير ابن خلدون، وكان مدمناً عليه، وممثلًا لكل الفسقة في عصره وفي كل العصور؟

كيف أجاز العلماء للامام أن يفسق ويفسق ويظل فاسقاً، بل ومثالًا لكل فاسق، مع أنه خليفة لرسول الله ﷺ وأميناً على وحيه ودينه؟

هل نسوا أن الأمة التي يتحدثون عنها هنا هي الأمة الاسلامية؟

أم لعلهم اعتقدوا أنهم مقبلون على رؤية أمة منقرضة في أواخر عهدها كالأمة الرومانية؟

إن الحديث هنا ـ كما ينبغي أن ندرك جيداً ـ هو عن الأمة الاسلامية التي تحمل القرآن وتقيم ديناً هو خلاصة لجهود مئات الأنبياء وتضحياتهم، والتي ينبغي أن يكون كل فرد منها ـ مهما قلت مسؤولياته ـ ممثلًا عن الاسلام وصورة جميلة له، وكان جديراً بقائد الأمة وامامها أن يكون بمستوى مسؤولياته الجسيمة، لا حبيس ملذاته وشهواته وطموحاته المتدنية، فمصير الأمة كلها، اليوم وغدا رهين بسلوكه وتصرفاته.

هل يدعو الاسلام الأمة للاستسلام وعدم التدخل بشؤون حاكم الدولة التي هي شؤونها، وغض النظر عن تصرفاته المشينة الخارجة عن تعاليم الاسلام وتشريعاته بحجة عدم إثارة الفتنة، ووقوع الهرج وسفك الدماء وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن، ليتمادى أكثر فأكثر بعد ذلك ويخرج عن الاسلام جملة وتفصيلًا؟

وأي فتنة أكبر من فتنة وجود شخص غير مؤهل لتسلم أبسط المسؤوليات العادية، في مركز قيادة عشرات الملايين من أبناء الأمة خليفة لرسول ﷺ وممثلًا له؟

وأي جريمة أكبر من جريمة السكوت عن ذلك؟

حملة التبريرات لجرائم يزيد ضد الاسلام والمسلمين

إننا حين نبرر لحاكم فاسق أفعاله، نتيح لكل الحكام الفسقة فيما بعد التمادي في سلوكهم البعيد عن الاسلام ونتحمل مسؤولية الانحراف على مدى التأريخ.

لقد راح البعض يبررون ليزيد أعماله، ويتلقفون الأحاديث المزورة والموضوعة على النبي ﷺ ليستخدموها في عملية الترقيع المشينة لكل أبطال الانحراف في

سلوكهم وأخطائهم، ليجعلوا أبناء الأمة أمام العشرات من المغالطات المضحكة والأكاذيب والتلفيقات التي من شأنها أن تربكهم وتشوش تفكيرهم وتصوراتهم وتبعدهم عن التصورات الاسلامية الصحيحة[1].

كيف يمكن تبرير الأعمال التي قام بها يزيد مع أنه كان خليفة على المسلمين، وأقلها ترك الصلوات وشرب الخمور.

مع أنه حشر في القرن الذي تلا قرن الرسول ﷺ حسب الحديث المنسوب إليه، ولعله وضع خصيصاً ليشمل يزيد، ولكي يمكن تبرير المذابح التي قام بها في كربلاء والمدينة، ورمي الكعبة بالمنجنيق والأحجار.

لنستمع ثانية إلى أحد هذه التبريرات حول غزوة المدينة وإباحتها وهتك أعراض نسائها:

(وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة، وما جرى عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه، فرح بذلك فرحاً شديداً، فإنه كان يرى أنه الامام، وقد خرجوا عن طاعته، وأمروا عليهم غيره، فله قتالهم حتى يرجعوا الى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٤١ (السلف من الصحابة والتابعين، خيار الأمة. وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي ﷺ يقول: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً ثم يفشو الكذب، فجعل الخيرة، وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه، فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا يشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت، فهم أولى الناس بذلك، وما اختلفوا إلا عن بينة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد وإظهار حق. وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم، ويجعله إمامه وهاديه ودليله. فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه. واعلم أنه على كل شيء قدير) المقدمة ٢٤١. ويدل هذا الكلام على أن الأجيال الأولى من المسلمين كلها تتساوى في خيرتها وعدالتها ومن المفهوم أن هذه الأجيال تمتد حتى الفترة التي عاش فيها يزيد، لذلك فهو مشمول بحديث الرسول ﷺ وهو من الأخيار العادلين، أما نزاعهم، فإنَّ علينا أن نجد مبرراته ولا نكون في شك منه، فكلهم تحرى الحق، وحتى (الفاسق) منهم فعل ذلك بعد أن اجتهد، وإن اختلافهم (ويتضمن ذلك تقاتلهم) رحمة ما دمنا سنختار من يكون إمامنا وهادينا ودليلنا سواء أكان الحسين عليه السلام أو يزيد وهذا كلام مضلل وموضوع بعناية ويتبنى الأحاديث المزورة التي ظهرت في عهد معاوية.

الطاعة ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة كما تقدم، وقد جاء في (الصحيح): (من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان)[1].

وهو حديث موضوع آخر أريد به تبرير الارهاب الأموي، وما تزال دول الارهاب المتسترة باسم الاسلام والتي تعمد إلى ادعائه ديناً رسمياً لها، تلجأ إليه للقضاء على أعدائها ومعارضيها.

هل يرى أحد، كما كان يرى من ربطوا أنفسهم بأنظمة الجور والظلم، أن يزيد كان إمام الأمة المعين أو المنتخب؟ وعلى فرض صحة ذلك، وعندما وصله عمل مسلم بن عقبة بالمدينة وإباحتها وهتك أعراض نسائها ومبايعة أهلها له على أنهم عبيد ليزيد، فهل اعتبر أن عمله ذلك كان لازماً وضرورياً لكي يذهب الى ذلك المدى من (التأديب)؟ الم يكفه قتل من قاتلوه والقضاء عليهم وحسب؟ وهل فعل أحد قبله ما فعله ليقول أنه كان يسير على سنة من سبقه[2].

أم أنّ هذه سنة جديدة أراد بها تثبيت دولته بعد أن لم يجد في نفسه كفاءة أبيه، وافتقد الوسائل التي كان يلجأ إليها ذلك الأب الماكر من قبل؟

وقد وجد من جاءوا بعد يزيد أنها سنة فاعلة تتيح لهم القضاء على أعدائهم وإسكات معارضيهم وتثبيت عروشهم فاعتمدوها كأسلوب حاسم سريع يتيح لهم تحقيق أهدافهم وأطماعهم، ومن هنا كان السكوت عنها والترويج لها.

هل يستطيع أحد أن يؤكد أن يزيد لم يوص ابن عقبة بفعل ما فعله مع أهل المدينة؟ وماذا كان معاوية يتوقع. عندما أوصى قبيل وفاته أن ترمى المدينة بابن عقبة إذا ما ثارت عليه؟

وهل أن يزيد قد سمع كما سمع غيره بما فعل ابن عقبة بالمدينة، وأنه لم يفعل شيئاً سوى الاعراب عن سروره وفرحته لأنه كان يرى أنه الامام وأنهم قد خرجوا

---

(١) ابن كثير ٨/ ٢٢٧.

(٢) عمد معاوية إلى أسلوب القتل والإرهاب إلا أنه لم يذهب إلى المدى الذي ذهب إليه يزيد. غير أنه مهد لذلك قبيل وفاته إذ وصى بإنفاذ عبيد الله إلى الكوفة وابن عقبة إلى المدينة إذا ما حصل وثارتا على يزيد.

عليه؟ وهنا فإن المبرر له هو الحديث الذي وضعوه له ولأمثاله عن رسول الله ﷺ ليسلطه سيفاً على رقاب الناس وليسكت به كل حركة معارضة فيما بعد.

هل كان أمر الأمة جميعها حقاً؟ وعلى أي شيء اجتمعت؟

هل اجتمعت على يزيد واختارته بحريتها وارادتها ووعيها؟ هل كان يزيد نتاج ولادة طبيعية وارادة حرة وهل كان تركيبها ـ كأمة اسلامية ـ طبيعياً ووجود يزيد خليفة عليها أمراً طبيعياً؟ وهل جاء من يريد حرمانها من حرية الاختيار الواعي تلك ويعيدها إلى دروب الجاهلية وممارساتها، فلجأت إلى السيف لتقتله رغم مركزه، رغم أنه كان من الجيل الذي نوه عنه رسول الله ﷺ وأشار إلى أنه خير الأجيال..؟

ألا تبدو مثل هذه (الأحاديث) موضوعة عمداً لكي تتصدى دولة الظلم لاعدائها، والتي كانت ترى أن هؤلاء الأعداء لا بد أن يكونوا من بين أكثر الناس وعياً وأكثرهم شعوراً بالمسؤولية ومن بيت النبوة، لكي تبرر هجمتها الشرسة عليهم واستباحتها لهم مخترقة بذلك ستار التقديس والاحترام اللذين تكنهما الأمة لهم، ولكي تستطيع بعد ذلك التصدي لكل معارض مهما كان مركزه من رسول الله ﷺ ومن المسلمين؟

أليس هذا ما حصل بالضبط بعد ذلك؟

هل الحديث هنا عن أمة تعيش ظروفاً صحية وأجواء نقية، عن أمة تعرف طريقها ودينها وإمامها وتسير خلفه وتجتمع حوله دون أن تتأثر بالأبواق والدعايات والأساليب المضللة؟

أم أنها تتحدث عن حقبة من التاريخ أريد فيها لأمتنا أن تكون مسخاً، وأريد لمولودها أن يكون مشوهاً وغير طبيعي، وأريد لخليفتها أن يكون فاسقاً مدمناً على فسقه وفجوره وانحرافه..؟

وهل كان مصير المسلمين إلى أبد الدهر مرهوناً بإرادة يزيد وأمثاله وسلوكهم غير المنضبط، وأن الله قد أمر بطاعتهم ما دامت الأمة قد (اجتمعت) حولهم وأصبحوا قادة لها، مهما تكن الأساليب التي وصلوا بها إلى منصب القيادة؟

هل جاء مائة وأربع وعشرون ألف نبي ليصلوا إلى خلاصة عظيمة، هي رسالة الاسلام، وأكبر مكسب للبشرية، ليقطف ثمارها يزيد وحده ومن هم على شاكلته،

ولتحرم منها بعد ذلك مليارات من البشر عاشوا على هذه الأرض وكان من حقهم أن يعيشوا حياة الاسلام كما أرادها لهم رسول الله ﷺ؟

أليست هذه نتيجة محزنة حقاً؟

والا فكيف نستطيع إقناع إنسان (ولو كان) ساذجاً بالصلاة خلف إمام لا يصلي ويهمل الصلاة ويضيعها ويميتها في أغلب الأحيان؟ كما ذكر عن يزيد بالفعل، مما ذكرناه في هذه الدراسة، وكيف يمنع الامام الفاسق الأمة من الانغمار في الفسق؟ هذا إذا رغب في ذلك أصلًا، الا يسعى في هذه الحال لجرها إلى ما اعتاد هو عليه؟

هل ناقشنا كيف أصبح الفاسق إماماً للأمة وخليفة لرسول الله ﷺ وكيف مهد أبوه ذلك له، فسنَّ بذلك سنة سيئة في دولة الاسلام الناشئة أضافها لعشرات السنن السيئة التي سنها ليتحمل وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة؟

لقد راح العديدون منا يثنون على ذلك الأب الذي جعل هدفه منذ البداية مناوأة الاسلام وإعلان الحرب على الدولة الاسلامية منذ نشأتها على يد رسول الله ﷺ، وحتى مجيء أمير المؤمنين عليه السلام وحكمه الفعلي، وقد عمل على تخريب تلك الدولة والقوة الكبيرة الأولى المسيطرة فيها، ولم يدع لنا هؤلاء مجالًا حتى لانتقاد يزيد، بحجة أنه من التابعين ومن القرن الذي تلى قرن الرسول ﷺ، (وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول فأخطأ)[1].

فهل أنه كلف نفسه عناء النظر والاجتهاد حتى تأول فأخطأ؟ وهل أخطأ بحادث واحد أو تصرف معين، وانتهى الأمر وأصبحنا لا نناقش إلا ذلك الأمر الذي أخطأ فيه، أم أنه انتهج سبيل الخطأ والرذيلة منذ البداية، وكانت أعماله سلسلة من الأخطاء الشنيعة التي لا يمكن تبريرها بحال؟

ثم: كيف؟ وبم تأول؟ وعلى أي أساس أو منهج في البحث والنظر؟ لقد استخدم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة (الموضوعة وغير الموضوعة)، ليبرر بها تصرفاته ويستثمرها لصالحه، ولم ير أنه كان بحاجة للرجوع إليها واعتمادها، ليكون في قسم منها مصيباً وفي قسم آخر منها مخطئاً، فقد كان يفعل فعلته ثم يأتي من يبررها له بعد ذلك، ولم يكن أحد يجرؤ على رفع أصبع في وجهه، وليقول له أنه

(١) ابن كثير ٧/٢٢٦.

أخطأ وأن عليه أن لا يعود إلى ذلك ثانية، ما دام قد وظف في خدمته جيشاً من المحدثين والفقهاء و(الصحابة) والقصاصين والشعراء ورؤساء القبائل وقادة الجند وغيرهم، ثم أنهم يعتبرن أن خليفته، الذي هو خليفة رسول الله ﷺ لم يفعل شيئاً كبيراً إلا ما ذكروه عنه من شرب الخمر واتيانه بعض القاذورات، ولم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض.

(وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا يصبح فيه مخموراً)[1].

وإذ لم يستطع موظفو يزيد ومن جاء بعدهم من مرتزقة دول الانحراف دفع تهمة الفسوق عنه، فإنهم حاولوا الدفاع عنه ضد من اتهمه بتهمة الزندقة من الروافض طبعاً..!

متناسين الأشعار التي كان يرددها حول تلاعب هاشم بالملك.

(فلا ملك جاء ولا وحي نزل)[2].

متهمين معارضيه بأنهم هم الذين وضعوا تلك الأشعار.

ترى لو صح ما قالوا، وكان هذا الشعر والأقوال الأخرى التي رويت عن يزيد مكذوبة وأنه مفترى عليه، أما كانت أفعاله كافية لكي تدل على انتهاجه سبيل الزندقة والكفر والخروج المعلن عن الاسلام وتعاليمه؟

وهل الزندقة ـ بنظرهم ـ هي الترويج النظري الأفكار والآراء المعادية للاسلام وحسب، أما السلوك المعادي والمغاير لسلوك المسلمين، فلا يعد من الزندقة ما دام صاحبه لم ينكر بلسانه ـ بعد ـ شهادة لا إله إلا الله، مع أنه قد أنكرها بفعله؟

---

(١) ابن كثير ٨/ ٢٣٩.

(٢) لن نعيد هنا ما رويناه عن بقية المصادر الأخرى وكتب التاريخ المعروفة حول شذوذ يزيد واستهتاره وآثرنا نقل ما رواه ابن كثير الذي روى لنا أيضاً آراء بعض (العلماء) عنه ودعوتهم إلى عدم الثورة أو الخروج عليه والتبريرات التي طرحوها، رغم فسقه وانحرافه وجنوحه عن خط الإسلام منذ مطلع حياته وحتى وفاته، وهو أمر طريف يدعو للتأمل حقاً.

لم تكن الأوضاع التي تمر بها الأمة، وهي تعيش بظل قيادة منحرفة جاهلة، مما يمكن السكوت عنه، إذ أن ذلك يعني الاقرار بشرعية تلك القيادة وسلامة تلك الأوضاع،

وحتى الموقف (المحايد) الذي لا يطلب فيه من أحد الادلاء برأي أو الوقوف موقفاً معارضاً، (وهو ما طلب من الحسين عليه السلام وعرض عليه من بعض (الناصحين) والمستسلمين للسلطة)، يعني إقرار الانحراف والظلم والشذوذ.

الموقف الدقيق والحساس للامام الحسين عليه السلام

كان موقف الامام الحسين عليه السلام حساساً ودقيقاً للغاية فقد كانت الأمة كلها تتطلع إليه وترى رد فعله وتقييمه للوضع كله، وكانت تنتظر كلمة واحدة منه لتسقط الى الأبد أو ترتفع إلى الأبد، ولم يكن أحد من أبنائها يتصور أن الحسين عليه السلام يمكن أن يهوي بها، ويستسلم ليزيد أو يقر له بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وقيادة الأمة، فقد كان ذلك أمراً غير ممكن وكان يعني اقراراً من رسول الله صلى الله عليه وآله بشرعية خلافة يزيد، إن مجرد تصور هذا الأمر لم يكن مما يمكن أن يتبادر إلى ذهن أحد إذ أن ذلك سيعني الاعلان (الشرعي) للأمة بالانحراف وترك الاسلام نهائياً، كانت الأمة منهزمة في داخلها ومذعنة لارادة رجل واحد سيطر عليها وطوعها لتنفيذ أهدافه وغاياته ومصالحه الشخصية، ومع أنها كانت تنحرف، وكانت مستسلمة وضعيفة إلا أنها كانت غير راضية في قرارة نفسها بهذا الانحراف وهذا الانحدار، مع أنها تدرك أنها غير قادرة على تغيير نفسها، كانت تنتظر قوة أكبر من قوتها، وإرادة أقوى من إرادتها لتقوم بهذا التغيير، فقد كانت تعلم أنها مشلولة وأنها ضعيفة وأنه لا بد لها أن تستعين في النهاية بتلك القوة الأخرى لإنقاذها وانتشالها من حالتها المأساوية.

كان حالها حال بعض شيوخ أهل الكوفة الذين تحدثنا عنهم والذين وقفوا على أحد التلال يتفرجون على واقعة الطف وهم يبكون ودموعهم تسيل على وجوههم، ويدعون الله أن ينزل نصره على الحسين عليه السلام وقد أثار موقفهم هذا حنق أحد المارة وقد شاهدهم في تلك الحال، وعندها قرعهم ووبخهم على موقفهم هذا، فلماذا لا يذهبون لنصرة الحسين عليه السلام ما داموا يرغبون بذلك، واكتفوا بالبكاء، وسكب الدموع، لم يجبه أحد منهم، إذ كيف سيجيبونه؟.

لقد وصل فعلهم إلى حد التمني وسكب الدموع وحسب، أما إرادتهم التي سلبت منهم فلم تعد تساعدهم على القيام بفعل إيجابي كذلك الذي قام به أصحاب الحسين عليه السلام.

لقد تمنى أصحاب الحسين عليه السلام أن ينتصر الحسين وينتصروا معه، فقاتلوا واستشهدوا بين يديه، وسعوا لتحقيق أمنيتم بفعل ارادي حر، فلماذا لا يفعل هؤلاء ما فعل أولئك ويذهبوا معه إلى ساحة القتال لكي تميل الكفة الى جانبه ويتحقق النصر الذي تمنوه؟

لم يجدوا أنفسهم قادرين على أكثر من الذهاب إلى الحد الذي وصلوا اليه، وهو الأمنيات تتردد في قلوبهم، وقد ترددها شفاههم همساً، إذ لم يريدوا لأحد أن يعرف ذلك، فمع أنهم تمنوا النصر للحسين، فقد كانوا خائفين من الوحش الأموي أشد الخوف.

كان هؤلاء نموذجاً للأمة المستسلمة اليائسة الخائفة الواقعة في الفخ المظلم الذي أوقعها فيه من كان ينبغي أن ترى فيهم اعداءها لا قادتها وأئمتها.

غير أن ما ينبغي أن لا يحدث قد حدث، وانحرفت الأمة، وكانت تدرك ذلك، وكان من يدرك ذلك بوضوح شديد هو قائدها الحقيقي الفعلي المنحّى والمبعد عن مركز القيادة، والذي جعلت دولة الانحراف جل همها القضاء عليه، أما باستمالته الى جانبها أو أبعاده أو قتله، وكان يعلم أنه لو وضع يده بيد يزيد وهادنه وأقر له بمشروعية خلافته وحكمه، لكان قد وقع صك التنازل النهائي للأمة، وأعلن خضوعها إلى الأبد للأنظمة الفرعونية الفردية المستبدة، ولكان فعله إشارة واضحة للأمة بأن عليها أن لا تفكر بالاسلام بشكل جدي بعد الآن، وأن لا تعتبره إلا كحدث وقع في تاريخها وعاشته أياماً قصيرة سعيدة ثم انتهى حلماً ليتها لم تره إذ أنها ما أن ذاقت حلاوته وعاشت في أجوائه السعيدة، حتى اختفى لتظل هي تعيش واقعاً مراً مليئاً بالآلام والنكبات والتأخر والانحطاط.

الامام الحسين عليه السلام أمل الأمة الاسلامية

كان الامام الحسين عليه السلام الأمل الوحيد المتبقي أمام الأمة، وكانت ترقب ما سيقوم به، بل وتتوقع ذلك ليست وحدها وحسب، وإنما حتى أولئك الذين اغتصبوا

السلطة كانوا يدركون قوة موقف الحسين عليه السلام وقوة قضيته أما يزيد، وأنه يمكن أن يعصف بعرشه في لحظات قد يستطيع فيها أيقاظها وجرها إلى جانبه.

وهكذا رأينا كيف أن معاوية قد كتب عهداً لعبيد الله بن زياد على الكوفة، وأودعه لدى سرجون الرومي مولاه ومستشاره، وأوصاه أن يظهره ليزيد إذا ما أحس بوادر خطر محتملة من الحسين عليه السلام.

كان معاوية يدرك أن الحسين عليه السلام لا يمكن أن يتنازل أمام يزيد ويخضع له أو يهادنه، وقد حاول أن يثنيه عن عزمه منذ البداية ويستميله إلى جانبه، إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً.

وبقي الحسين عليه السلام ثابتاً على موقفه بعد وفاة معاوية واستلام يزيد الحكم، لقد رفض النظام كله من خلال رفضه يزيد، ولم يكن ينطلق من رغبة شخصية بحتة، ومزاج رافض لدولة الظلم الأموية أو خلفيات اجتماعية وعائلية لا تتقبل وجود يزيد لأنه وريث أمية وابن معاوية، ولكنه كان ينظر بمنظار أشمل وأوسع وكان يضع أمامه مصلحة الأمة وحياتها واستمرار وجودها وبقائها أمة إسلامية تعيش حياة إسلامية وجواً إسلامياً وتتنفس هواء إسلامياً نقياً، لا أمة تعيش على الهامش ويعيش أبناؤها في ظل الانحراف والظلم متشرذمين متفرقين غارقين في حمأة الجهل والفاقة والرذيلة،

فيزيد لم يكد يستلم الحكم بعد، ولم تر الأمة منه ظلماً أو جوراً لأنه لم يحكم إلا منذ أيام قليلة، وربما حقق بعض المكاسب الظاهرية في بداية مجيء حكمه كما كان يفعل بعض الحكام الجدد الدين يستلمون السلطة لأول مرة لاستمالة الناس إليهم، فلماذا رفضه الحسين؟

رفضه لأنه كان وريث الحكم الجائر وممثله الأول، الحكم الذي ما كان له أن يوجد بالشكل الذي كان عليه في عهد معاوية، وكان ينبغي أن يكون استمراراً لحكومة رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، إلا أنه انحرف وشذ حتى لم يعد من الاسلام إلا اسمه، ولأن يزيد كان خلاصة لمعاوية ونسخة منه، مع أنها نسخة ليست أفضل من النسخة الأصلية المزوقة المحسنة، لأنه لم يهتم بتحسين مظهره أمام الأمة كما أوصاه أبوه، ولم يكلف نفسه عناء الاهتمام حتى بالممارسات والاداءات العبادية المظهرية كالصلاة والصيام، ولم يتجنب بعض ما اشتهر به ويتكتم على أفعاله، إذ قد يكون من شأن ذلك أن يجعل الأمة راضية عنه ويجعل منه شخصاً مقبولاً بنظر العديدين من أفرادها.

كان وريث (الخلافة) وولي العهد قد تمادى إلى أبعد حد في استهتاره واستهانته بالأمة منذ البداية، منذ نعومة أظفاره، وطيلة حياته وقبل استلامه المنصب، لم ير أمامه أمة يمكن أن تراعى أو يحسب لها حساب، بل وجد أمة ضعيفة منقادة وخاضعة لأبيه خضوعاً تاماً، ورآها تستجيب لمبايعته ـ رغم علمها بحقيقته ـ صاغرة ذليلة.

وقد رأى أيضاً أنها لا بد ستسكت عن نزواته وشذوذه وانحرافه في المستقبل، ولم ير نفسه ملزماً بتكليف نفسه لإخفاء حقيقته أمامها والتستر على أفعاله المشينة، كان هذا هو خليفة المسلمين وقائدهم وحاكمهم، ولم يكن شخصاً عادياً يحتل مركزاً بسيطاً لا أثر له في حياتهم ومصائرهم، وأنه سيعيش ويرحل دون أن يترك أبلغ الآثار وأشدها خطورة عليها.

وهكذا هب الحسين عليه السلام لنصرتها ونجدتها في هذا الموقف العصيب الذي وجدت نفسها فيه، وهي مرغمة صاغرة، وكان أول أمر أشغل فيه يزيد نفسه بعد وفاة أبيه معاوية هو طلب بيعة الحسين عليه السلام وبعض من كان يحتمل معارضتهم لحكمه ومنهم ابن الزبير، وقد أرسل الى عامله على المدينة، يأمره سراً باجبار الحسين عليه السلام على مبايعته، وقد وجدنا أن الحسين عليه السلام رفض رفضاً حاسماً وقد ترك المدينة حالّا إلى مكة، ثم غادرها بعد ورود كتب أهل العراق إليه عالماً أن بقاءه فيها سيتيح ليزيد وجنوده استباحتها وقتله فيها دون أن يترك ذلك أثراً على المديين القريب والبعيد، وسيضيع (الحادث) دون أن تنتبه الأمة إلى ما سيحدث، وسيعمل الإعلام المضلل على أن يمر دون أن يؤثر على مجريات الأمور بأي حال من الأحوال.

كانت تلك الفترة الحافلة بنذر القلق والترقب والهفة الى معرفة ما سيجري في ظل الحاكم الجديد الذي مهد له أبوه الأمور وذلل أعناق العرب على حد تعبيره هي التي سار فيها الامام الى الكوفة، وكان تأثير الخروج الى الكوفة ـ كحدث غير اعتيادي ـ بالغاً، إذ أنه ذهب ليتزعم جماعات عديدة دعته الى نصرتها وقيادتها للوقوف بوجه النظام الباغي المتسلط، وكان ذلك يشكل عنصر إثارة للأمة المستسلمة الخائفة ويشغل بالها ويثير قلقها وهي ترى الحسين عليه السلام يتصدى للنظام الذي بدا أمامها متماسكاً قوياً، بأناس غير مضمونين، وغير واثقين من أنفسهم، وقد يتغيرون وينقلبون عليه مع أنهم هم الذين وجهوا الدعوة إليه لقيادتهم.

وقد رأينا في غضون هذه الدراسة لهفة العديدين للالتقاء بالحسين عليه السلام (لنصحه) أو تحذيره من الذهاب الى الكوفة، ومن هؤلاء أناس قريبون إليه، وقد

تكون نصائحهم وتحذيراتهم بدافع الحب والشفقة عليه، لكنهم كانوا يفكرون بعقلياتهم وتصوراتهم الخاصة، ولم يكونوا يحملون عقلية الحسين وتصور الحسين عليه السلام ولم يكونوا يرون ما كان يراه من عواقب وخيمة إذا ما آثر التراجع او الاستسلام والخضوع والمهادنة.

كانوا لا يرون من المسألة إلا جانبها الشخصي الفردي، ولم يكونوا يفكرون بمستقبل الأمة على المدى البعيد.

ولو أن الحسين هادن يزيد وصالحه، لأصبح فرداً عادياً من أفراد هذه الأمة، ولكان قد أزال بنفسه مبرر وجوده إماماً حقيقياً للأمة، ولما عادت له قوة التأثير الكبيرة التي اتسعت بعد استشهاده والتي لا تزال تتسع وتنمو حتى اليوم، ولما انتفضت الأمة عشرات المرات بوجه حكامها المنحرفين وتساءلت عن أسباب وجودهم على رأسها، وعملت على التخلص من كل انحراف وجور، مع أن الفرصة لم تتح لها دائماً لفعل ذلك.

ولو أنه عليه السلام هادن يزيد، لأمضى بقية سنوات عمره، وهي قليلة حتماً، إذ أنه تجاوز الخمسين من العمر بأربع سنوات، في هدوء وطمأنينة، ولكنه في مقابل ذلك سيجعل الأمة تفقد هدوءها وطمأنينتها الى الأبد وهو أمر ما كان الحسين عليه السلام ليفعله بأي حال من الأحوال.

وقد رأينا إجاباته المصممة الحازمة لكل أولئك (الناصحين) والمحذرين، وكانت تدل كلها دون استثناء على أنه قد قرر المضي في مهمته حتى ولو لم يتبق معه أحد.

ولم يبق مع الحسين عليه السلام سوى القلة من أصحابه وأهل بيته الذين رافقه معظمهم من المدينة وقد عزموا على خوض المعركة التي خاضها وكانوا يعلمون أنهم سيموتون معه عليه السلام غير أنهم علموا أنهم سينتصرون في النهاية حتى وإن ماتوا، ينتصرون أولًا على أنفسهم التي قهروا مخاوفها وأطماعها، وجعلوها لا تهاب الموت، ولا تتصور أنه النهاية المأساوية المتوقعة، كما يتصور من فقدوا إيمانهم، كما جعلوها ترحب به وتتشوق إليه وتقبل عليه بروح مصممة قوية، لأنه سيكون سبيلًا لإنقاذ الأمة كلها، وهو أمر كانوا حريصين عليه كل الحرص، سيما وأن ذلك سيكون بداية لحياة دائمية كريمة مع الحسين عليه السلام في جنة الخلد.

كانوا يمضون بنفس العزيمة التي مضى بها البدريون لطلب الشهادة مع رسول الله ﷺ وما كانت تصوراتهم وأهدافهم ـ تلك التي حملها البدريون الأوائل ـ تفوق الطاقة العادية للبشر، وأن لا أحد يمكن أن يقدم على الموت كما أقدموا فإن هؤلاء أثبتوا أن ما عمله أولئك كان في حدود الطاقة البشرية، وأي فرد من أفراد الأمة قادر على فعل ما فعلوه غير حاسب أنه قد خسر حياته، بل أنه قد ربحها إذ قدمها مقابل قضية عادلة حقيقية يتعلق بها مصير الأمة كلها، بل وحياتها أيضاً.

العقلية الانهزامية نتاج أموي

لقد حسب المتخاذلون والمستسلمون من أبناء الأمة ـ وهم الأغلبية ـ أن الحسين عليه السلام كان يخوض معركة خاسرة بالعدد القليل الذي رافقه، وأنه كان يقامر بحياته وحياتهم إذا ما مضى الى نهاية الشوط وأقدم على منازلة جيش السلطة، وأنه قد أخطأ بقراره هذا، ويذهب (المتساهلون) باعتباره مخطىء في الحكم (الشرعي) لأنه عليه السلام ظن أنه كان قادراً على الاطاحة بالحكم الأموي، وقد راجت أفكار وأطروحات الاستسلام والبحث عن الحلول الوسط، حتى أصبحت مبدأ لا يأنف منه بعض كبار العلماء والمفكرين المسلمين بعد ذلك، طالما غيرهم قد سكت ولم يتصد للانحراف الأموي اليزيدي، يقول ابن خلدون:

(لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره، بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره، فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه، لا سيما من له القدرة على ذلك، وظنها من نفسه بأهليته وشوكته، فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة، وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها، إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك. ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيرهم في مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك، ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله، وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم، فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه)[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٣٩/ ٢٤٠.

كانت حسابات واضعي هذه الأطروحات، هي نفس حسابات قريش وحلفائها، جنوناً سافراً ومجازفة كبيرة، وأعلنوا سخريتهم بل واستهجانهم وغضبهم منه ثم بعد أن استقامت الأمور وأيده الله بنصره، وخضعت له الجزيرة وما حولها، أدركوا أنهم كانوا مخطئين، مع أنهم ربما لم يدركوا بعد السبب الذي جعله مع القلة المستضعفة معه يتغلب وينتصر وينشر الاسلام في بقعة واسعة في عدد من السنوات لا يتجاوز عدد الأصابع.

ولو أن الرسول ﷺ لم ينجح في مهمته وقتل قبل أن يتمها ويبلغ الرسالة، لرأينا كيف أنهم كانوا سيتبجحون بأنفسهم وحسن رأيهم وصواب نظرهم حينما طلبوا منه التخلي عن الرسالة وحينما امتنعوا من الانضمام اليها أو تأييدها، وسيثنون على حصافتهم وحسن تقديرهم للأمور، ولرأينا حتى اليوم من يتوجه بالنقد واللوم المباشر له ﷺ بنفس الحماس الذي أبداه الكفار ومشركو قريش، غير أن الكفة مالت لصالح الاسلام، وانتصر رسول الله ﷺ على رغم قريش وأعوانها وحلفائها، ولم ير هؤلاء بداً من الاعتراف بصواب نهجه ﷺ في العمل ونشر الرسالة الاسلامية، وربما أدرك الكثيرون منهم ـ فيما بعد ـ السبب الحقيقي الذي جعله ينتصر على أعدائه رغم الصعوبات والمخاطر الجمة.

لقد التحق الكثيرون منهم بركب المسلمين رغم عدائهم القديم السافر، لأن ما سعى إليه الرسول ﷺ قد تحقق في حياته، وقامت الدولة الاسلامية بقيادته تنشر سلطانها حتى حدود أقوى امبراطوريتين في العالم، ولم يقل أحد ممن أعلن عداءه للاسلام في بدء الدعوة، أن رسول الله ﷺ كان مخطئاً في تحديه قوى الكفر والشرك، وما عادت تهمة الجنون والسحر وما شابهها تثير السخرية إلا على أولئك الذين أطلقوها من قبل.

كان حكمهم عليه ﷺ بالجنون والسحر وما شابهها لأنهم ظنوا أنه لن يستطيع التغلب على القوى العاتية التي كانت تقف بوجهه، وقد اختفت التهمة حالما انتصر وأقام دولة الإسلام.

وعاد الحكم يصدر ثانية على الحسين عليه السلام ممثل الرسالة الحقيقي وخليفة رسول الله ﷺ الفعلي لأن من أصدره كان يتصور أن ما كان يقوم به كان عبثاً، فالدولة الأموية التي استأثرت بمكاسب المسلمين وتحكمت بكل شيء وفق قوانين شخصية لا تمت إلى الاسلام، والتي ابتلعت أحدى الامبراطوريتين وأصبحت تنافس الأخرى

وتهددها، وكانت تبدو كائناً هائلًا لا يمكن التصدي له والصمود أمامه وإعادته الى الصواب.

وكان كل سعي باتجاه إعادة هذه الدولة الى خط الاسلام يبدو عبثاً لا طائل تحته، وكان الأمر يبدو مجازفة خطيرة هي أقرب الى الجنون، ولن تكون النتيجة المباشرة لهذا السعي سوى التعرض لانتقام هذه الدولة وبطشها، وهو الأمر الذي لم يكن أحد مستعداً للتعرض له، بعد أن كان سعي الدولة طيلة عشرين عاماً موجهاً لاسكات الأصوات المعارضة وشراء ما يمكن شراؤه منها، والقضاء الجسدي بشكل طائش بأعمال غير مسؤولة تبدو وكأنها نتيجة مباشرة لأعمال أولئك المعارضين، وهو ما يردده الى الآن بعض من يتصدون لتاريخ تلك الفترة، أما ما يتحقق بعد ذلك من نتائج فهو أمر لم يكلف أحد منهم نفسه التعرض له، مع أن الكثيرين من معاصري الحسين عليه السلام وممن ترددوا عن الالتحاق به والمشاركة بثورته ندموا على مواقفهم المتخاذلة السلبية، وانتفضوا بعد ذلك بوجه يزيد والنظام الأموي، الذي لجأ الى المزيد من أساليب البطش الدموي للقضاء على كل من يقف بوجهه بعد قتل الحسين عليه السلام وأصحابه في واقعة الطف، ومر الحادث وكأنه أضاف قوة الى قوة الدولة التي بدت قوية مزدهرة تعيش حالة احتفالية سعيدة (بالقضاء) على أعدائها.

ومن هنا كان حكمهم على سعي الحسين عليه السلام منذ البداية بأنه فاشل لأنه قد لا يستطيع إزاحة يزيد حالًا وأنه سيتعرض للقتل وستتعرض عائلته للأذى والتشرد وسيحرم من يتبقى منها من أعطيات الدولة وجوائزها وكرمها، وهذه نتيجة بدت غير سارة وبدت وكأنها عبث لا طائل من ورائه، ومع أن هذه النتيجة كانت محتملة من قبل الإمام الحسين عليه السلام نفسه، بل وبدت وكأنها مؤكدة إلا أنه كان يرى النتائج الأخرى المحتملة، وهو أمر رآه جديراً بتلك التضحيات الكبيرة التي قام بها.

وكان نفس ما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وآله سيحدث ثانية مع الحسين عليه السلام لو أنه دحر الجيش المعادي وتغلب عليه وسيطر بعد ذلك على الحكم، كان أولئك الناصحون والمحذرون والمتخاذلون أنفسهم سيأتون ويطرحون أنفسهم تحت قدميه معتذرين عن تخلفهم عنه لأنهم لم يكونوا يحسبوا أنه يستطيع القضاء على يزيد أو طرده وأنه سيتبوأ مركزه الحقيقي في قيادة الأمة، أما وأنه قد استطاع فعل ذلك فهم الآن في خدمته وجنود بين يديه.

لقد كان ذلك هو مقياس النصر الوحيد في نفوسهم المهزومة، التغلب السريع على العدو في ساحة القتال، فمن يعيش عد منتصراً، ومن يقتل عد مهزوماً.

وكانوا يحسبون أنهم قد يستطيعون تبرئة ذممهم بنصيحة مجردة ـ تلقى على استحياء ـ قد يتقبلها أو لا يتقبلها السلطان، وحتى هذه النصيحة قد لا يتوجب عليهم القيام بها إذا ما أرادوا أنه قد لا يستجيب لها وقد يرفضها أو يعاقب عليها[1]، وهو مخالفة لكل قوانين الاسلام الأساسية. كما أشار الامام الحسين عليه السلام الى ذلك بوضوح.

الامام الحسين عليه السلام عرف الداء فوضع له الدواء ليرغب المؤمن في لقاء ربه

كان الحسين عليه السلام يرى أن التغيير الجوهري هو الأمر الوحيد الذي لا بد منه لإنقاذ الأمة وإعادتها الى الطريق الذي رسمه لها رسول الله صلى الله عليه وآله وأن مسؤولية هذا التغيير تقع على كل أبناء الأمة، وفي مقدمتهم هو عليه السلام لما يتمتع به من علم وموقع متقدم ومكانة مرموقة، وكان يرى أن القول وحده لا يمكن أن يحقق ذلك التغيير، ولا بد من فعل كبير حاسم يظل ماثلًا أمام أنظار الأمة وفي أذهان أبنائها دوماً، لتستجيب له بعد ذلك استجابة مؤكدة وتخرج من المأزق الذي أوقعها فيه النظام الأموي، فذلك هو وحده الجدير بتحقيق هذا التغيير، فأمام جمع من جيش ابن زياد، أرسله مع الحر لحصاره ومضايقته قائلاً:

(إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلًا لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله[2]»

---

(١) وقد أدى إهمال الناس الأمر المعروف والنهي عن المنكر إلى تمادي (الخلفاء الأمويين) في عبثهم وخروجهم المعلن عن الاسلام، ودعوتهم علانية إلى ترك هذه الفريضة، وقد خطب عبد الملك بعد قتل ابن الزبير بمكة خطبة جاء فيها: (أما بعد: فلست بالخليفة المستضعف يعني عثمان ولا الخليفة المداهن يعني معاوية ولا الخليفة المأمون هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم؟ فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، ألا وإنا نحمل لكم كل شيء إلا وثوباً على أمير أو نصب راية، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه) تاريخ الخلفاء، السيوطي ٢٠٣/ ٢٠٤، ودعوة عبد الملك هذه لا تحتاج إلى بيان أو إيضاح.

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٧، ونهاية الأدب ٢٠/ ٤١٩، وابن الأثير ٣/ ٢٨٠، وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ١٧١، والخوارزمي ١ ف١١.

.. الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله).

ثم قال بعد ذلك:

(إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حذأ، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيشٍ كالمرعى الوبيل.

ألا ترون أن الحق لا يعمل به وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً)[1].

لقد كان يستعرض أمامهم واقعهم المعاش، ويريهم حقيقة الأوضاع التي كانوا يمرون بها في ظل أقطاب الانحراف والجور الذين لا يضعون أمامهم سوى مصالحهم وهواهم.

لقد استحلوا الحرام، ونكثوا عهد الله، وخالفوا سنة رسوله ﷺ وعملوا فيهم بالاثم والعدوان والخروج الصريح عن أحكام الاسلام، ولزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وبعبارة واحدة: الغوا الاسلام واستبدلوه بالأباطيل الأموية».

وفي وضع كهذا، حيث الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه، ماذا ستكون مسؤولية المؤمن بالاسلام؟ هل ينحني أمام ريح الانحراف والباطل؟ أم يقاوم الانحراف ويتصدى له ولو كلفه ذلك حياته؟ إذ ما معنى الحياة في ظل أوضاع كهذه؟

وهل سيكون الموت عند ذاك بدون هدف؟ وهل ستكون الحياة هي الهدف وإن كانت مع الظالمين وفي ظلهم وتحت حكمهم ؟

كان عليه السلام يريهم أنه المسؤول الأول عن إعادة الأمور الى نصابها الصحيح الذي أهمل ونبذ، وأن عليهم أن يفعلوا فعله، وينحازوا الى صفه ولا يكونوا رهن مشيئة وإردة الظالم الخارج عن الاسلام.

ومتى ما علمنا أن كلماته هذه قد وجهها للجيش المعادي الذي جاء لمحاصرته ومضايقته وقتاله ومنعه من الذهاب الى هدفه والرجوع، وأنه لن يتركه حتى يستسلم أو

---

(١) المصدر السابق.

يسلمه لابن زياد، أدركنا أنه كان يريد تنبيههم، وهو في موقفه الدقيق ذاك والذي بدا واضحاً لهم أنه لا يمكن أن يتراجع عنه، الى قراره الأخير، وهو القرار الصائب الذي اتخذه مقابل القرار الذي اتخذته غالبية أبناء الأمة بالاستسلام والمهادنة والخضوع وقبول الذل والانحراف، وأراهم كيف أنه سيمضي (مقتنعاً واثقاً) في هذا القرار الى النهاية وأنه سيستشهد ويقبل على الموت بكل جرأة غير حاسب أي حساب لكثرة أعدائه وقوتهم وكأنه لا يراهم أمامه إلا أشباحاً هزيلة ضعيفة تستحق الرثاء، رغم أنهم في الظاهر بدوا أقوياء مدججين بالسلاح وقادرين على قتله وقتل أصحابه.

وقد أراد بذلك أن ينبه الأمة كلها الى خطورة حالها والى الموقف الصحيح الذي ينبغي أن يقفه كل فرد منها حيال تلك الحال المتردية.

الأداء الدقيق للامام الحسين عليه السلام

ويهمنا أن نلاحظ الأداء الدقيق للامام عليه السلام خلال المعركة وقبلها، وهو أداء يكشف سعيه لاستثمار الوقت والجهد لإيصال رسالته للأمة كلها في محاولة منه لاشراك كل أفرادها مهما طال الزمن بجهده النهائي ـ الذي بدى أنه لن يتوقف بموته ـ للاطاحة بدولة الظلم والانحراف مهما كان الشكل الذي اتخذته تلك الدولة والشعارات الظاهرية التي ترفعها، ما دامت بعيدة في الواقع عن الاسلام.

لم يرد لثورته أن تمر دون أن تلحظها جماهير الأمة وتتعاطف معها بعد أن تشاهد اداءه واستبساله دفاعاً عن الاسلام، ولم يرد لها أن تنتهي بمجرد انتهاء المجزرة دون أن تتساءل الأمة بجدية ووعي عن السبب الحقيقي الذي دفعه للوقف بالقلة القليلة من أصحابه بوجه أعتى نظام تسلط بالقوة والارهاب والخديعة فاستأثر بمكاسب المسلمين ومقدراتهم، وبدا أي واحد منهم صغيراً وضعيفاً أمامه، وبدا كأن لا أحد له القدرة على النيل منه، فكيف بالاطاحة به أو تحطيمه

لم تكن قيادة الامام الحسين عليه السلام للمعركة منذ بدء المسيرة من المدينة الى العراق ـ مروراً بمكة ـ وحتى انتهاء واقعة الطف، مرهونة بتحركات أعدائه وتصرفاتهم خلال تلك الفترة، ولم تكن نتيجة رد فعل لتلك التحركات والتصرفات، بل كان كل ما صدر عنه من مواقف وخطب يسعى لتعزيز مبدأ الثورة والتحرك ضد الانحراف دائماً وليس في وقته هو وحسب.

لم يجل في خلده أن معركة أعدائه كانت ضده شخصياً إلا أنه كان المدافع الأول عن الاسلام والذي رفض المساومة والمهادنة ما دام ذلك سيكون على حساب الدين والأمة المسلمة.

ومن هنا نعلم أنه لم يسع لتحقيق مكاسب شخصية يتيحها له الانتصار في معركة ثم ينتهي الأمر، وإنما كان يسعى لتحقيق مكاسب دائمية للأمة يتاح لها من خلالها تشخيص الانحراف دوماً والتعرف على طريقها في ظل الاسلام.

ولو أنه كان يسعى لتحقيق مكاسب شخصية لكانت اشارة واحدة منه ليزيد تجعل هذا الأخير مسروراً لمنحه اقليماً واسعاً من أقاليم مملكته، بل وربما حتى مقاسمته الملك، لو رغب في ذلك وأبدى استعداده للسكوت عن كل ممارسات الظلم والانحراف.

الصورة الحقيقية للموقف الذي عاشه الحسين عليه السلام

ولنضع أنفسنا أمام الصورة الحقيقية للموقف كله:

١ - (الدولة الاسلامية) وقيادتها الأموية أعلنت انحرافها وأظهرته بشكل واضح.

٢ - (الامام الحسين عليه السلام) رفض هذه القيادة المنحرفة منذ البداية، ومنذ أن طلب معاوية مبايعة الأمة ليزيد، وبقي على موقفه هذا حتى هلاك معاوية.

٣ - كان أول أمر اهتمت به هذه القيادة هو اجبار الحسين عليه السلام على المبايعة والا تعرض للقتل.

٤ - رأى الامام عليه السلام أن مبايعته غير ممكنة، إذ أن ذلك سيعني اقراره ومباركته للانحراف الذي طالما أعلن رفضه له.

٥ - أدرك الامام عليه السلام أنه سيتعرض لغضب الدولة ووحشيتها وشراستها وأنها لن تتورع عن اللجوء الى أشد الأساليب بطشاً للقضاء عليه واسكاته.

٦ - خطط الامام عليه السلام لاسماع الأمة صوته وتبليغها سبب رفضه مبايعة القيادة المنحرفة، التي خططت بدورها للقضاء عليه إذا رفض المبايعة، وتضييع قضيته وتشويهها وعرضها على أنها قضية منافسة بين الحسين عليه السلام ويزيد، لم يتح للحسين النجاح فيها وكانت (الغلبة) ليزيد.

٧ - عدم المبايعة هو الموقف الوحيد الذي أمكن أن يقفه الحسين عليه السلام، والاستجابة لموقف معارضي الدولة في الكوفة كان هو الموقف العملي الذي أمكن أن يتخذه أمام إلحاح الدولة وإصرارها على قيامه بمبايعة راسها.

٨ - رفض المبايعة كان سيظل مجرد موقف سلبي، إذا لم يسع الحسين عليه السلام بفعل إيجابي للقضاء على الانحراف، وتقديم ذلك بمسيرة الى الكوفة استجابة لدعوة أهلها رغم علمه بضعفهم واحتمال تراجعهم، وكان عدم المسير إليهم سيعني خذلانهم.

٩ - رغم معرفته بأن المعركة سوف لن تكون متكافئة من حيث العدد والعدة بينه وبين أعدائه فإنه لم يتراجع عنها، في أية مرحلة من مراحلها وصمم على الاستمرار فيها رغم خطر الموت الأكيد الذي كان يتعرض له.

١٠ - وهكذا أراد الحسين عليه السلام أن يموت امام الأمة كلها وتحت سمعها وبصرها وبعد أن يوضح لها طبيعة مهمته، وأن لا يتم حادث الموت سراً أو في مكان معزول لتموت معه قضيته أيضاً، وقد أراد بذلك أن تظل قضيته التي هي قضية جماهير المسلمين عموماً وإن تخلوا عنها في ذلك الوقت قائمة على الدوام وغير محصورة بوقت أو ظرف معين.

١١ - أراد الحسين عليه السلام للأمة أن تتصدى للانحراف وتقف في وجهه مهما كان الشكل الذي بدا عليه ذلك الانحراف، ومهما تعددت وجوهه ورموزه وقيادته.

لم يكن الحسين عليه السلام يريد لشهادته أن تمر دون ثمن، ودون أن تجني الأمة منها مكاسب حقيقية تجعلها قادرة على تشخيص الانحراف والظلم ورفع يدها بوجه المنحرفين والظالمين.

كان رفضه للظلم والانحراف رسالة خاصة لكل فرد من أبناء الأمة الاسلامية وفي كل الأزمنة ليرفضهما بدوره، وكانت تضحيته الكبيرة الشاملة اشارة واضحة الى ما ينبغي أن يقدمه كل واحد من أبناء الأمة من تضحيات ان اقتضى الأمر ذلك.

علنية مسيرة الحسين عليه السلام وشمولية خطاباته لكل الأمة دليل على علنية وشمولية العمل الاسلامي

لم تكن مسيرة الحسين عليه السلام مسيرة صامتة ومخفية عن أنظار الأمة، بل كانت مسيرة معلنة بكل مراحلها وخطواتها وتفاصيلها، فلم يكن الامام يبحث خلالها عن

مخرج يتيح له الحفاظ على حياته (رغم موقفه الرافض للمبايعة) وإلا لكان قد أثر الذهاب الى مكان بعيد كاليمن حيث يستطيع عند ذاك أن يظل حياً، إلا أن قضيته ستموت بعد ذلك وتنسى تحت وطأة الاعلام الأموي والدعاية المضلة للدولة.

وهكذا كانت الاشارات الى الموت المحتم الذي سيلقاه والذي كان متيقناً أنه سيحل به، فما كانت الدولة تسمح لأحد أن يكشف انحرافها وأخطاءها والتصدي المسلح لها، وكانت ستستنفر كل قوتها وجهدها للقضاء عليه.

لقد كان الامام الحسين عليه السلام في كل موقف وقفه، وفي كل مراحل مسيرته من مكة الى الكوفة يحاول تنبيه الناس بما فيهم أصحابه والجنود الذين وقفوا في وجهه، الى خطورة الأوضاع التي كانوا يمرون بها، ورداءة الحال التي وصلوا إليها في ظل الحكم الأموي الطارىء الذي أراد أن يكون هو الأصل، والذي أراد أن يوصلهم الى أبعد مديات الانحراف والى الخروج السافر والنهائي عن الاسلام.

كما كان يحاول أن يبين لهم أسباب خروجه من مكة الى العراق وطبيعة المهمة الدقيقة التي كان يتصدى لها ويشرح لهم الأسباب التي دعته الى رفض يزيد وعدم مبايعته، كان يريد مخاطبة الأمة كلها. من خلالهم ـ وإقناعها بضرورة التخلي عن يزيد ممثل النظام المنحرف وقائده، وتغيير مواقفها المتخاذلة والمستسملة،

وهذا أمر ينبغي الالتفات إليه بعناية، ونحن ندرس تاريخ تلك الثورة الكبيرة التي أعادت الاسلام الى بناء الأمة، واعادتهم الى آفاقه والى أحضانه وجعلتهم يضعونه نصب أعينهم دائماً كلما بدا لهم انحراف أو خروج عن تعاليمه أو تشريعاته وأحكامه.

وينبغي أيضاً الالتفات الى دقة الكلمات والعبارات الواردة في الخطب والأقوال التي ألقاها دائماً وتفوه بها في معرض توضيح المهمة التي خرج لانجازها، وموقفه وموقف أصحابه من الأحداث التي كانت تمر بها الأمة والتي دعته لإعلان الثورة ورفض الحكم الأموي رفضاً قاطعاً لا رجعة عنه ولا تردد فيه.

فهو ـ على سبيل المثال ـ عندما يخاطب طلائع جيش العدو المرسلة لحصاره والتضييق عليه بقوله:

(إنها معذرة الى الله عز وجل وإليكم، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت

علي رسلكم: أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا امام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه إليكم)[1].

وعندما يقول لهم:

(اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يحق لكم علي وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم علي سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم: فاجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا اليّ ولا تُنظرون إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين)[2].

فحين يستعمل كلمة (معذرة ـ اعتذر ـ عذري ـ العذر) فهو لا يستعملها في معرض الاعتذار عن خطأ في السلوك أو في تقدير الموقف أو الكفاءة أو القوة، كما قد يتبادر الى بعض الأذهان، لأنه من أكثر الناس معرفة وادراكاً بصحة مسيرته التي كان يبدو أنه مصرّ على الاستمرار فيها، كما رأينا ذلك وعلمناه من نفس تلك الخطب ومن غيرها في كل المواقف الأخرى التي وقفها ولكنه يستعملها في معرض توضيح موقفه أمامهم وأمام الأمة كلها، وسبب اقدامه على المهمة الكبيرة التي أخذ على عاتقه القيام بها مع أصحابه، وكان يريد منهم أن يشتركوا معه جميعاً لانجازها، لا الوقوف متفرجين أو في الصف المقابل المعادي إنه يستعمل تلك الكلمات في معرض إلقاء الحجة عليهم، بل على الأمة كلها، لينبههم الى خطورة حالهم ووصولهم الى حافة الهاوية التي أوشكوا على الوقوع فيها.

كانت قيادة تلك المعركة تستدعي تخطيطاً شاملًا ونظرة مستوعبة لتحقيق أهدافها الكبيرة، مقابل التضحيات الجسيمة التي سيقدمها الحسين عليه السلام وأصحابه، والتي ستذهب هدراً وتبدو كما لو أنها انتحار متعمد إذا لم تتحقق تلك الأهداف.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٠٦.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٨.

قيادة الحسين عليه السلام للمعركة نموذج للقيادة الشمولية المستوعبة

وكانت الخطوات تبدو محسوبة بدقة متناهية بحيث تعمل كل واحدة منها (سواء المواقف أو الأقوال) على تبصير الأمة بالأهداف الحقيقية للمسيرة والواقعة الملحمية التي تمت في أعقابها، لتكون تلك الواقعة، وهي الفصل الدموي الأخير، مؤشراً لأكبر حدث يتم في تاريخ الاسلام للفت نظر الأمة بقوة الى واقعها المنحرف، والمتسارع في الانحراف على وتيرة لو تم للنظام الحاكم الاستمرار فيها لوقعت الأمة كلها في هاوية خطيرة قد لا يتسنى إنقاذها منها فيما بعد، حتى بثورات مماثلة لثورة الحسين عليه السلام وحتى لو أريق من الدماء أكثر مما أريق بتلك الثورة وكان توقيت الثورة ـ حال وفاة معاوية ـ أول الأمور المحسوبة والمدروسة بعناية، فما كان يمكنه الانتظار حتى يتمادى يزيد ـ وهو على سدة الحكم ـ باستهتاره وانحرافه، بعد أن عرف به قبل ذلك بشكل واضح، ثم القيام بالثورة عليه بعد ذلك، إذ سيتساءل الناس عند ذلك: لقد كنتم تعرفون يزيد، وقد رفضتموه منذ البداية، ورفضه الحسين عليه السلام ولم يبايعه ثم سكت عنه بعد أن أصبح حاكماً، مع أن سلوكه ظل هو نفسه، فلماذا الثورة عليه الآن وقد تمادى أكثر وبصورة مكشوفة ومعلنة.

ستكون مهمات الثورة عندئذ أعقد وسيستغل يزيد فترة المهادنة الأولى لتنفيذ كل أغراضه ونواياه التي هي ليست في صالح المسلمين حتماً، وسيجد من يبرر له تصرفاته وأفعاله ضد الاسلام وعرضها على أنها التصرفات الصحيحة التي لا غبار عليها، رغم أنه لم يكن إلا مجرد فاسق، وهذا لا يقلل من قيمته كخليفة ما دامت تصرفاته الباقية في حدود الواجب الشرعي أليس هذا ما نسمعه بالفعل، رغم أن الحسين عليه السلام لم ينتظر مدة أطول يتاح فيها ليزيد إظهار المزيد من فسوقه وانحرافه؟ ماذا كنا سنسمع أيضاً لو انتظر الحسين عليه السلام أطول من ذلك؟

وهكذا نعلم ضرورة توقيت الثورة التي تمت في بداية عهد يزيد، وبدأت منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه أخبار تسلمه السلطة الى المدينة، وقد تحدثنا عن الأحداث والوقائع التي تمت في ذلك اليوم وما أعقبه في الأيام العديدة المحسوبة التي تمت فيها المسيرة الملحمية الى مكة ثم الى الكوفة.

الأمة تراقب وتترقب ثورة الحسين عليه السلام

ويبدو من اهتمام المؤرخين، وبعضهم قد لا يحبذ الثورة وقد لا يقف الى جانبها[١] وعرضهم تفصيلات دقيقة عنها، إن الحدث قد استأثر باهتمام جميع المسلمين في ذلك الوقت، وان الأمة كانت تراقب تحركات الحسين عليه السلام والدولة الأموية على السواء، وترصد أبسط المواقف وأكثرها سرية وخصوصية، لترى نتيجة تلك المعركة الحاسمة، مع أن العديدين من أبنائها لم يتصوروا أن الأمر يصل الى حال تقدم فيه الدولة على قتل الحسين عليه السلام كما كان الأمر مع الحر بن يزيد، قائد الطليعة الأولى التي تصدت لمحاصرة الحسين عليه السلام وقتاله ومنعه من حرية التصرف.

الامام الحسين عليه السلام يتيح للأمة المقارنة بينه وبين يزيد

وهذا ما كان يبدو أن الامام الحسين عليه السلام كان يسعى إليه، كان يريد وضع القضية كلها امام الأمة وتعريفها بطرفي الصراع، الامام الحسين عليه السلام وخطه الرسالي الصحيح، والدولة الأموية وخطها المنحرف عن الاسلام جملة وتفصيلًا.

وكان الجو المشحون ـ المليء بنذر الترقب والقلق مما قد يحدث نتيجة المواجهة التي يسعى إليها الطرفان ولا يتحاشيانها رغم التباين الواضح في قوتهما العددية وتسليمهما واستعداداتهما العسكرية وغيرها ـ يثير الأمة كلها ويجعلها تتطلع بوجوم لتلك القافلة الصغيرة التي انطلقت من المدينة، وحطت الركاب في مكة لفترة من الزمن كانت مكة مليئة بزوارها من كل أنحاء العالم الاسلامي وقد دعتهم لمراقبتها وفهم مهمتها، ثم الى الكوفة حيث لا استقرار في الأوضاع ولا ثبات في المواقف.

كان الامام الحسين عليه السلام يريد الأمة كلها أن تراقبه وترصد مسيرته وتسمع أقواله وتتخذ الموقف الصحيح حياله وحيال ثورته، وقد نجح في ذلك الى حد بعيد، فلم يكن أحد ليحتج بجهله بعد ذلك ويقول: إنه لم يكن يدري بدوافعه وأهدافه الحقيقية من وراء ثورته على النظام، ولا يقول أحد أن الحسين عليه السلام كان يسير ولا

---

(١) كابن كثير الذي كان يميل للرموز الأموية عموماً، وقد أورد تفصيلات كثيرة عن ثورة الحسين عليه السلام أوردناها هنا، (وهذا يجعل تلقي أخبار القتال مقبولًا ولا شبهة فيه. ولقد أجاد ابن كثير عندما تحدث عن مقتل الحسين تحت عنوان «وهذه وصفة مقتله مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن، لا كما يزعم أهل التشيع من الكذب»). معالم الفتن ج٢ ص٢٨٨.

يعلم بالمخاطر التي بدت واضحة للعديد من الناس الذين هم أقل كفاءة وخبرة ووعياً منه، فكيف به هو وقد بدا له احتمال القتل مؤكداً وهو يواجه نظاماً شرساً لا يبدو أنه سيتخلى عن (المكاسب) التي حصل عليها بسهولة، ويقبل التنازل عن الكرسي والصولجان والتنازل عنهما بمجرد دعوة منه عليه السلام ومع ذلك فلم يقف ولم يتراجع أو يتنازل أو يخفف من وتيرة تصريحاته وأحاديثه التي دعت لكشف ذلك النظام المنحرف وعزله حتى في أشد الظروف حراجة، ورغم بقائه وحيداً بمواجهة عشرات الآلاف من الجنود المعادين المتعطشين لدمه.

إن دوافع هذا الموقف ما كانت لتمر دون أن تتساءل الأمة بجدية هذه المرة عنها، وتدرك بعد ذلك أنه كان الموقف الصحيح الوحيد الذي كان عليها أن تقفه جانب الحسين عليه السلام وإذ فاتها أن تقفه في اللحظة الحاسمة المناسبة، فإنها ظلت تتطلع الى ذلك، حتى بعد أن مرت قافلة الحسين وغادرت ووفد أصحابها الى بارئهم وخالقهم يشهدون عليها بالضعف والتخاذل والاستسلام،

وظلت تتطلع الى قوافل أخرى تلتحق بها ما أراد الامام تحقيقه في مسيرته الأولى.

إن دراسة فاحصة متتبعة لمواقف الحسين عليه السلام وخطبه وكلماته وأجوبته منذ أن طولب بمبايعة يزيد من قبل عامله على المدينة، وحتى لحظة استشهاده ترينا أنه كان يخطط لادارة معركة حاسمة كبيرة، ومواجهة السلطة الغاشمة مواجهة معلنة ـ رغم تباين الامكانات في العدة والعدد بينه وبينها ـ تدرك الأمة فيها بوضوح ودون أي التباس مدى التضحيات التي سيقدمها في هذه المعركة التي لم يكن يبدو أنه مستعد للتراجع عنها في أية مرحلة من مراحلها.

إن مظلوميته الكبيرة التي أرادها أن ترتسم بوضوح في الأذهان، تتجسد باستهدافه شخصياً دون أبناء الأمة الآخرين، وهو أكثرها شرفاً ومنزلة، لمبايعة أقلها شرفاً ومنزلة قائداً على المسلمين، حتى إن من أراد له أن يبايع لم ير أن يمهله لحظة واحدة ـ كما رأينا وطلب رأسه مقابل عدم مبايعته وهو يدرك أنه لم يبايع على أية حال.

إن هذه المظلومية لا تعني استهدافه بالقتل وقد بايع كبقية الناس الآخرين، لأنه في هذه الحال لن يكون سوى أحد الأرقام المضافة الى العدد الكبير من الناس الذين

قتلتهم الدولة حفاظاً على مصالحها وخوفاً من خطر مرتقب منهم، ثم لماذا تقتل الدولة من لا ترى فيه خطراً عليها؟.

ويمكن القول أن الحسين عليه السلام أدرك أن أقل ما سيواجه به ـ نتيجة النظام القائم بقيادة يزيد ـ هو القتل، ومن هنا خطط لكي لا يتم ذلك سراً ودون معركة معلنة يتم فيها كشف القاتل وإبراز عيوبه وانحرافه وانحراف دولته، ومن هنا أيضاً رفض البقاء في مكة ليغتاله أعوان النظام ثم تضيع الجريمة بعد اعلام مركز بهذا الاتجاه، أو الذهاب بعيداً الى شعاب اليمن كما أشار عليه ابن عباس أو الذهاب مع الطرماح بن عدي الى طيء هرباً من جيش الحر.

الدم الذي انتصر على السيف بمشهد ومرأى من الأمة

إنه سعى الى مواجهة تتم أمام أنظار الأمة وأسماعها ولم ير لنفسه أن يموت حتف أنفه ذليلًا مطارداً، وإنما وقف مقابل جيش قد يفوق عدده عدد أصحابه ألف مرة، وواجههم بالسبب الذي دعاه الى رفض يزيد وحكمه المنحرف وطلب منهم التخلي عنه والانضمام إليه.

لم يكن موقفه مألوفاً أو عادياً بحيث لا تلتفت إليه الأمة ولا تتساءل عن حقيقة الدوافع إليه، ولو بعد حين من الزمن، وهو ما فعلته بعد ذلك، وهو ما أراد الحسين عليه السلام أن تفعله، فلئن قتل، فإنه لم يرد لذلك أن يتم دون ثمن ودون أن تجني الأمة ثمار سعيه لكشف انحراف الدولة وجورها وابتعادها عن الاسلام.

وقف كشفت أقواله وتصريحاته ومواقفه أنه كان يسعى للوقوف موقفاً لم يتح للأمة أن تشهد مثله من قبل كما لن يتاح لها أن تشهد مثله بعد ذلك، وقد ذهب الى حد أخذ أطفاله وعياله معه ليشهدوا الواقعة المفجعة في الطف، ولعل ذهابهم سوية، وهم بيت الرسالة وسلالة النبوة، للتعرض لهجمة من ادعوا الحرص على الاسلام مع أنهم كانوا أشد أعدائه، واستهدافهم بأشد ضروب القسوة والوحشية، سيكون شاهداً على بطلان كل ادعاءات الدولة الظالمة التي عملت ما عملت باسم الاسلام، كما سيكون برهاناً على أنها تحارب الاسلام نفسه، إذ تحارب هؤلاء وتعاملهم بذلك الشكل القاسي والمصين.

فمهما عملت تلك الدولة على تشويه صور أعدائها من آل البيت عليهم السلام، فإن لتلك الصور قداسة ومنزلة تظل فوق كل الافتراءات والتشويه، ولعل آخر ما يفكر به

المسلمون أن تستهدف عائلة الرسول ﷺ نفسه بذلك الضرب من التعامل الهمجي الذي ذهب الى حد قتل الأطفال وسلب النساء وترويعهن وحملهن بصورة مهينة وعرضهن في الساحات والشوارع والمجالس العامة بشكل لا يرضاه أي منهم لعائلته، بل ولا يطيق حتى التفكير به.

ترى هل غابت الأحاديث والآيات التي تدل على قداسة آل البيت ومنزلتهم من رسول الله ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى؟ وهل أصبحوا أعداء الأمة بعد أن أكد الله ورسوله ﷺ قداستهم ومنزلتهم، وأصبح لزاماً عليها أن تحاربهم تحت لواء أعدائها الحقيقيين المتسترين بالدين ما داموا قد استطاعوا جعله مطية لأغراضهم ومطامعهم؟ بل وتذهب في عدائها الى التنكيل بهم بذلك الشكل الفظيع الذي لفت أنظار الناس جميعاً؟

إن ما عمله أعداء الحسين عليه السلام بعياله وأطفاله كان شاهداً واضحاً لا لبس فيه على عداء دولة الانحراف لنبي الاسلام ﷺ ودينه القويم الذي أنزله الله عليه ونشره رغم أنوف مؤسسي تلك الدولة وسلفهم المعلنين عداوتهم للاسلام حتى بعد أن انتشر وقوي وتوسع.

ومع أن هناك هدفاً آخر استهدفه الحسين عليه السلام ـ من وراء استصحابه أطفاله وعوائله ـ وهو عرض الصورة المريعة التي عاشوها وشهدوها على جماهير المسلمين خلال مسيرة العودة وبعدها، فإن ما شهدته كان يكفي لفضح التوجهات الأموية المنحرفة الحاقدة على الاسلام، وكانت لتلك المشاهد المؤلمة التي تعرض فيها آل الرسول ﷺ رغم قداستهم ومنزلتهم، أثرها البالغ لتعرية المنحرفين وكشفهم بشكل واضح أمامها. وهذ أمر قد سعى إليه الحسين عليه السلام بكل تأكيد، وهو ما لم يكن ليتم مع غيره لو حاول ذلك، فما كل امرىء كالحسين عليه السلام وليس الجميع آل النبي ﷺ وأهله.

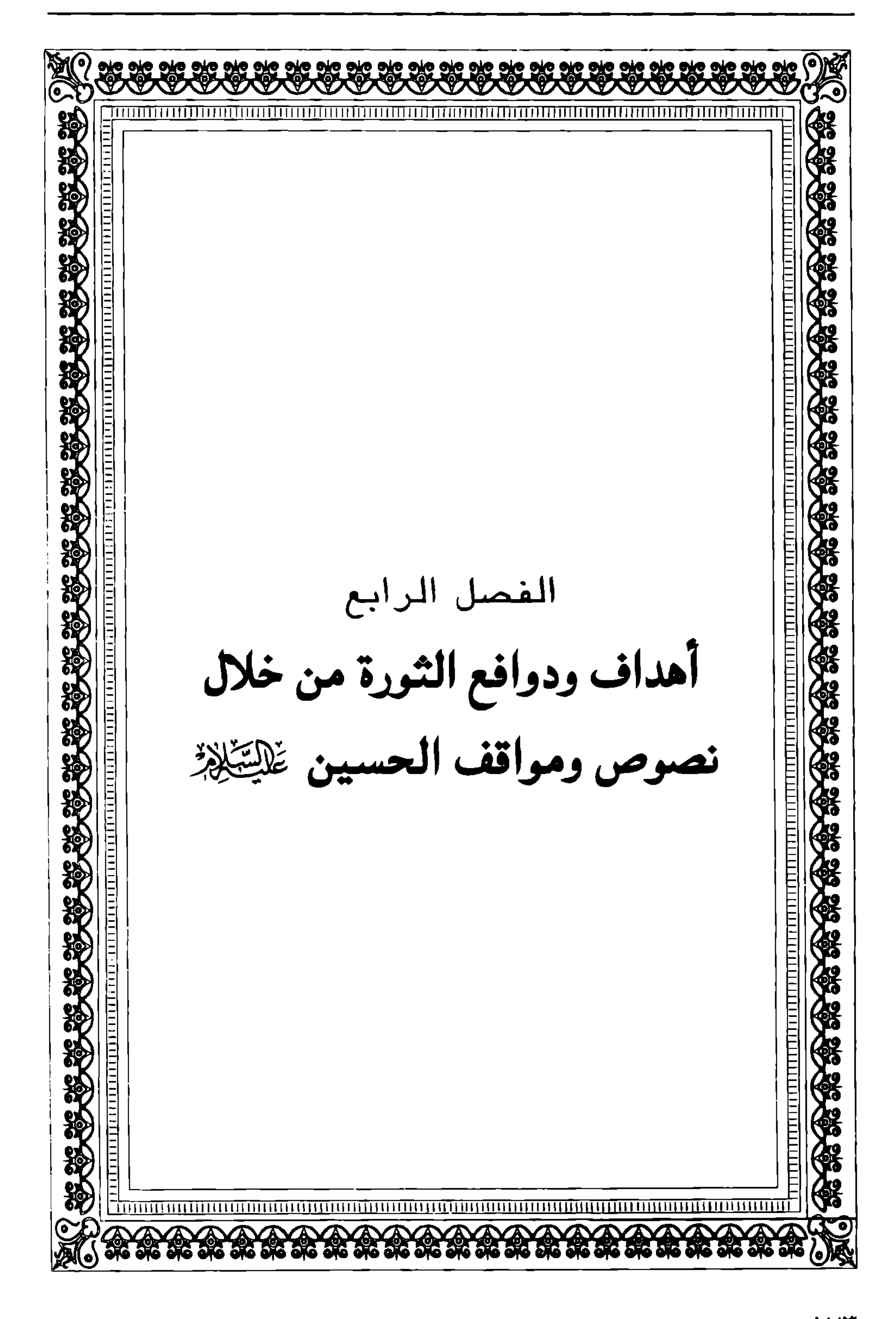
الامام الحسين عليه السلام مثال القائد البارع الذي حقق كل أهدافه

ويمكن القول ـ على ضوء المعلومات التاريخية المتطابقة، والتي أوردها مؤرخون لا ينحازون جميعاً للامام، بل لعل بعضهم يؤيد المسار العام للحكم الأموي كابن كثير مثلًا ـ ان الامام الحسين عليه السلام كان قائداً بارعاً وقد حقق كل الأهداف المرجوة لثورته مع أن الظرف عموماً لم يكن لصالحه وامكاناته من حيث عدد الأعوان

والسلاح كانت محدودة جداً، ويبدو من خلال خطبه وتوجيهاته وإدارته لحظة القتال، وحتى ترتيب معسكره وتعامله مع أصحابه وأعدائه وناصحيه ومحذريه ان اداءه كقائد لفئة مقاتلة محدودة وقائد للامة كلها، كان محسوباً ومدروساً ومتوازياً ومتوحداً، في كل مراحل مسيرته وحتى استشهاده، ولم يشذ أي موقف من مواقفه عن بقية المواقف الأخرى في أية مرحلة، فكأن ساعة الصفر الحاسمة للقتال بدأت في المدينة في أول يوم طولب فيه بمبايعة يزيد، واستمرت مناوشاته مع الدولة حتى آخر لحظة من حياته في الطف ويمكن الجزم أن قيادة الامام الحسين عليه السلام للمعركة منذ اليوم الأول لبدئها ـ أي منذ رفضه مبايعة يزيد في حياة معاوية وبعد هلاكه كانتْ مسددة بفعل الهي، جعلت منها معركة مكملة لمعارك جده صلى الله عليه وآله وأبيه وأخيه عليهما السلام ضد قوى البغي والانحراف التي بدأت تتسلط على الأمة وتفرض وجودها وتأثيرها، إذ ما سيكون تأثير قتله ـ بعد الفعل الاعلامي المضلل لدولة أمية لمحو ذكر آل البيت عليهم السلام ـ على الأمة التي أريد لها أن تتناساهم بل وتسبهم وتحذفهم نهائياً من قاموس قادتها الاصلاء وتذكرهم على أنهم أعداؤها الرئيسيون؟

ومع ذلك رأينا ذلك الدوي المثير الذي صاحب ذلك القتل وجعل الأمة تلتفت بشكل ملحوظ الى ذلك الانحراف المثير والخطير الذي أوغلت فيه دولة الأمويين، وتلتفت الى خطئها عندما استسلمت للتيار الأمور وانساقت معه لتنفيذ مخططاته الشديدة ضد الاسلام، ثم تعمل بدأب بعد ذلك لمقاومة هذا التيار وشن الحرب عليه، والالتفات بعد ذلك لكل تيار مشابه ورصده ومحاولة منعه من الانحراف، وهكذا رأينا سلسلة الثورات والانتفاضات التي حدثت بعد ذلك ولا تزال تحدث حتى اليوم، والتي جعلت الحكام برغمهم ينتبهون لخطرها، ومع أنهم قاوموها بشدة وبذلوا جهودهم لافشالها إلا أنهم رأوا في المقابل أنهم لا يستطيعون التمادي بانحرافهم وكشف أنفسهم أمام الأمة، وعلموا على تحسين مظهرهم بادعاء الحرص على الاسلام والابتعاد عن الممارسات المكشوفة التي كانت تتم في عهد يزيد وخلفائه الأمويين. لقد جعلت ثورة الحسين عليه السلام الحكام المنحرفين يحسبون حساباً للأمة وقيادتها المتمثلة بآل البيت عليهم السلام، وخطهم الرسالي الصحيح، ويبذلون جهدهم للتعايش مع الاسلام ما دام الأمر يتيح لهم في النهاية البقاء على سدة الحكم. فأصبح كل حاكم يرى في الاسلام قوة حقيقية وليست رمزية، يهاب المساس بها علناً، وذلك ما أعاد الثقة ثانية الى النفوس المهزومة والمستسلمة بقدرة هذا الدين على قيادة الحياة

قيادة فعلية وجعلها حياة سعيدة على هذه الأرض مثلما ستكون كذلك في الدار الآخرة. صحيح أن الدولة الأموية تمادت في انحرافها واستهتارها الى أبعد حد ـ بعيد مقتل الحسين عليه السلام ، ولعلها فعلت ذلك لاشعار نفسها بأنها انتصرت حقاً وأسقطت الى الأبد آخر الاستحكامات التي وضعها الرسول صلى الله عليه وآله لحماية أمته، وهم آل بيته أنفسهم، وأنها إذا أقدمت على قتلهم وهم أعز الناس وأشرف الناس، فأنها لم تعد ترى بعد ذلك حرمة لأي مسلم آخر، إلا أن ما نزل براس هذه الدولة يزيد، بعد انغماس مفرط في الشهوات والملذات، وما نزل ببعض خلفائه من الفرع الثاني للبيت الأموي آل مروان نتيجة عبثهم واستهتارهم، جعل الكثيرين حتى من رموز هذه الدولة نفسها يتحاشون القيام بما قام به يزيد وبعض (الخلفاء) الأمويين ويدركون أن المظهر المتطرف للترف الذي أخذوا به أنفسهم سيكون سبباً للقضاء عليهم ويتحاشون التعرض للاسلام وقيمه بتلك الغلطة وذلك الاستهتار الذي عرف به أسلافهم، ويدركون أن الاسلام هو قوة حقيقية فعلًا، وأن هناك من يؤمن به حقاً ويجعله فوق كل اعتبار أو مبدأ آخر.



الفصل الرابع

أهداف ودوافع الثورة من خلال نصوص ومواقف الحسين عليه السلام

الثورة الإصلاحية
على الأوضاع المنحرفة عن الاسلام

حاول الامام الحسين عليه السلام في كل مراحل المعركة استعراض الأوضاع المنحرفة التي كان يعيش في ظلها المسلمون، والتي كانت تمهد لانحراف شامل وخروج معلن عن الاسلام، وتوضيح دور الطبقة الحاكمة صاحبة المصلحة الأولى من ذلك الانحراف، الذي يتيح لها التصرف بحرية بعيداً عن قانون الاسلام وتشريعاته، وكشف شخصية الرأس الأول في الدولة يزيد، وقد أطلعنا على جوابه لمعاوية عندما دعاه لمبايعة يزيد بعد أن أطنب في مدحه أمام جماعة من وجهاء أهل المدينة:

(وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وآله. تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه. فخذ ليزيد فيما أخذ به، من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي، تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذه الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدم باطلًا في جور، وختفا في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود: «ولات حين مناص:)[1].

(يزيد شارب الخمر ومشتري اللهو)[2].

(.. يزيد رجل فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق والفجور)[3].

قالها للوليد بن عتبة عندما طالبه بمبايعة يزيد بعيد هلاك معاوية وقال لمروان عندما طلب منه مبايعة يزيد:

---

(١) و(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١/١٩٥/١٩٦ ط٢ مصر.

(٣) الخوارزمي ج١ ف٩، وابن طاووس ص١٠/١٩٩، والنويري ٢٠/٣٧٩، والفتوح ٥/١٨.

(على الاسلام السلام إذا بليت الأمة براع مثل يزيد)[1]. وكتب لأهل البصرة من مكة قائلًا: (فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت)[2].

وخطب في جيش الحر بن يزيد الرياحي قائلًا:

(إن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله)[3].

وعند نزوله كربلاء خطب في أصحابه قائلًا:

(إن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت حذاء، ولم يبقى منها إلا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون الى الحق لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً؟ فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً)[4].

كان الحسين عليه السلام، عندما يستعرض أوضاع الأمة في ظل الانحراف، يؤكد على ضرورة مشاركتها بالقضاء على ذلك الانحراف، فلم يكن هو المعني الوحيد بذلك، بل كانت الأمة كلها معنية وكانت هي المستهدفة والمتضررة. وإذ يؤكد الحسين عليه السلام على انحراف القيادة، ورأسها بالذات، يزيد، فإنه يؤكد على فساد النظام كله. . ، إذ كيف يكون صالحاً ومقبولًا إذا كان رأسه فاسداً؟ وقد حاول وعاظ الدولة المنحرفة تمرير المخطط المشؤوم لقبول الحاكم الفاسق، وأشاروا الى يزيد بالذات مبررين ذلك بأحاديث مفتراة وموضوعة، وقد أشرنا لذلك من قبل. إن هؤلاء عندما فعلوا ذلك بإيعاز من الدولة لجأوا الى التزوير والتضليل بعد أن لم يتمكنوا من اخفاء حقيقة يزيد، وبعد أن لم ير هو نفسه ضرورة لاخفاء حقيقته، إذ أنه وجد أمامه أمة خائفة منهزمة، ولم يجد من يقف بوجهه ويواجهه بحقيقته طيلة حياته سواء في

---

(١) ابن طاووس ص١١.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٠.

(٣) الطبري ٣/ ٣٠٧، والنويري ٢٠/ ٤١٩، وابن الأثير ٣/ ٢٨٠، والبلاذري ٣/ ١٧١.

(٤) الطبري ٣/ ٣٠٧، والعقد الفريد ٤/ ٣٨٠، وتاريخ الإسلام ٢/ ٣٤٥، واللهوف ص٣٣ وحلية الأولياء ٢/ ٣٩، وابن عساكر جزء خاص بريحانة الرسول ص٢١٤، ومجمع الزوائد ٩/ ١٩٢، وذخائر العقبى ١٤٩، والخوارزمي ٢ ص٥، والاتحاف بحب الأشراف، الزبيدي ١٠، ص٣٢٠.

عهد أبيه أو بعد ذلك. وكان لا بد للحسين عليه السلام أن ينتبه الى تحرك الاعلام الأموي المضلل بهذا الاتجاه، فيعلن أن فساد الحاكم سببه أولاً فساد نظام الحكم كله وأن الثورة عليه واجبة في هذه الحال، وهو ما فعله الامام وأكد عليه، فالفساد لا يزول إلا بتغيير السبب الرئيسي فيه، وقد نجح الامام الحسين عليه السلام نجاحاً باهراً بتبصير الأمة بواقعها في ظل قيادتها الفاسدة، مما جعل أجهزة الاعلام الأموي وكل الأبواق السائرة في ركابها تعجز عن دفع صفة الفساد عن يزد ودولته، ـ وإذ تصر القيادة المنحرفة على انتهاج خط الفساد والانحراف المعلن ولا تعلن استعدادها لقبول أية نصائح أو توجيهات بهذا الخصوص، فإن الحل الوحيد هو ردعها والتصدي لها وكشفها أمام الأمة كلها لكي تكون على بينة من أمرها، وتعلم أن الطريق الوحيد هو إزاحة مثل هذه القيادة المنحرفة بكافة الطرق المناسبة، ومنها اعلان الحرب عليها ومهاجمتها وعدم الاكتفاء بنقدها وتبيان عيوبها، وهو ما فعله الامام الحسين عليه السلام، وقد حاول استنهاض الأمة ودفعها للقيام بمهمة التغيير، ثم أعلمها بعد ذلك أنه سيمضي لانجاز المهمة ولو لم يكن معه أحد، إذ أن ذلك لا يسقط عنه المسؤولية ولا يكون مبرراً لقعوده وسكوته. لقد أرادها أن تختار الوقوف الى جانبه، وقد أشعرها بفعله. إن الموقف الصحيح هو موقفه، وأنه وقفه باختياره، عندما رأى تدهور الأوضاع، وأن لا سبيل الى اصلاحها إلا بمواجهة مباشرة مع رموز الانحراف، فالانحراف المعلن لم يكن ليصحح إلا بالثورة المعلنة، والموقف المعلن الى جانب الاسلام، كان يريد الأمة أن تتصرف بوعي وادراك سليمين وأن تعرف دوافعه الحقيقية من الثورة وتتصرف مثله. وقد صرح علناً:

(مثلي لا يبايع مثله).

وكان تصريحه أمام ممثل السلطة في المدينة، وليس أمام جماعة معينة من خواصه ومريديه، ولم يكتف الامام بمجرد رفض يزيد وعدم مبايعته، وإنما انطلق يعبر عن ذلك بفعل آخر، يجسد مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد علمنا أن كان يرى:

(أن يزيداً هو أول منكر يجب أن يزول من عالم الاسلام)[1].

---

(١) الشهيد مطهري، حقيقة النهضة الحسينية، مؤسسة البعثة طهران ص١١.

أسير بسيرة جدي محمد ﷺ وأبي علي عليه السلام وأهدكم سبيل الرشاد

وقد أوصى أخاه محمد بن الحنفية قبيل خروجه من المدينة بين فيها أسباب خروجه ودوافعه لطلب الاصلاح الشامل في أمة الرسول ﷺ:

(إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي محمد ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي محمد ﷺ وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين)[1].

وكان عليه السلام قد دعا أهل البصرة لاتباعه لكي يعيدهم الى المنهج الصحيح لا المزور الذي استحدث وأصبح سائداً في ظل معاوية وخليفته

(وأنا أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم الى سبيل الرشاد)[2].

وكتب الى عمرو بن سعيد عامل يزيد على مكة رداً على كتابه الذي أرسله إليه، وفيه يدعوه للعودة الى مكة ويتهمه بالشقاق:

(فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا الى الله عز وجل وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة)[3].

وخطب في أصحاب الحر قائلًا:

(إن رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطاناً جائراً، مستحلًا لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان الخ)[4].

---

(١) الخوارزمي ١/ ١٨٩، والمناقب ٤/٨٨، ومقتل العوالم ٥٤.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٠.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٩٧، وابن الأثير ٣/ ٢٧٦، وابن كثير ٨/ ١٦٣، والخوارزمي ١ ف١. والنويري ٢٠/ ٤١٢، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٣.

(٤) الطبري ٣/ ٣٠٧، والنويري ٢٠/ ٤١٩، وابن الأثير ٣/ ٢٨٠. والبلاذري ٣/ ١٧١.

وكتب لأهل الكوفة مع مسلم بن عقيل:

(ومقالة جلكم أنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق، فإن كتب إلي (مسلم) أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الحجى والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم، فأني أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله تعالى، فلعمري، ما الامام إلا الحاكم بالكتاب والقائم بالقسط، والدائن بدين الله، الحابس نفسه على ذات الله)[1].

كانت دوافع الثورة لا تحتمل التأخير والتقاعس أو التعويض عنها بحل وسط يمكنه أن يدواي جراحها أو يقي عثرتها، فالأمة قد انحرفت ووقعت فريسة سهلة بيد حكامها الجائرين المنحرفين، الذين تسلطوا عليها بالقوة والاكراه وضروب الظلم والقهر، لو أننا درسنا تاريخ تلك الفترة بتمعن ووعي، لوجدنا أنها كانت فترة دقيقة مرت فيها الأمة بأقسى اختبار، وكان من الممكن أن تسقط إلى الأبد، ولا تنهض من كبوتها ثانية. كان أمر سقوطها مدبراً ومخططاً له بعناية وبراعة جديرة بعبقري الشر ومؤسس الدولة الأموية معاوية، وكان أقل تأخر أو تلكؤ من جانب الحسين عليه السلام، للوقوف بوجه الانحراف وفضحه وكشفه أمام الأمة المستسلمة اليائسة، سيكون إيذاناً برقدة دائمية لن تصحو منها الأمة، وستفقد فيها كل المكاسب التي تحققت في ظل رسول الله ﷺ ودولة الاسلام العادلة التي أقامها وأراد لها أن تستمر الى الأبد وفق منهجه وادراته وهكذا دعته الضرورة الملحة للخروج الذي لم يكن منه بد، والثورة لن تنجح وستفقد مبررات قيامها لو تأخرت عن ذلك الأجل، لطلب الاصلاح في أمة جده محمد ﷺ. ومفهوم الاصلاح هنا قد يكون مغايراً لما تحمله بعض الأذهان والعقليات التي قد ترى فيه محاولة لتصحيح بعض ما أعوج ومال وانحراف وجبر بعض ما انكسر وتحطم، وترى أنه أسلوب قد يكون توفيقياً، ولا بأس من اللجوء إليه لحل مشكلة آنية قد تنشأ بين الدولة ورعاياها. أما الإمام الحسين عليه السلام فلا يرى ما يراه هؤلاء، ولا مكان عنده للحل الوسط الذي يقبل ببعض أحكام الاسلام ويرفض

(١) الطبري ٣/ ٢٧٨، وابن الأثير ٣/ ٢٦٧، والبحار ٤٤/ ٣٣٤، وروضة الواعظين ص١٧٣، والإرشاد ص١٨٦. وأعيان الشيعة، السيد محسن الأمين ق١ ج٤ ص١٦٠، والأخبار الطوال، ابن قتيبة ص٢١٠، والمناقب ج٤ ص٩٠، والخوارزمي ١ ف١٠، والنويري ٢٠/ ٣٨٧، وتذكرة الخواص لابن الجوزي ص٢٤٤.

بعضها، فهذا مبدأ رفضه الاسلام رفضاً قاطعاً ونهى عنه نهياً أكيداً، فهل كان من المعقول أن يلجأ إليه ممثل الرسالة الحقيقي، وخليفة رسول الله ﷺ ووصيه عليه السلام وأشد الناس وعياً وأكثرهم معرفة بالاسلام وقرباً منه؟

إن الامام الحسين عليه السلام كان يعني (بالاصلاح) عودة الأمة ثانية الى اسلام محمد بن عبد الله ﷺ ووصيه عليه السلام، ولا حل وسط عنده سوى العودة التامة الى هذا الاسلام المبرء من العيوب والنقائص التي حاول اعداؤه الصاقها به، ليكون سيفاً مسلطاً على رقاب الناس بدل أن يكون رحمة ومنهجاً صائباً ينظم حياتهم وفق العدالة الالهية التي ترفض الظلم والتسلط والكفرة والانحراف وكل أنواع الشذوذ والخطأ.

لقد أراد الحسين عليه السلام عودة الناس من الاسلام الأموي الى الاسلام المحمدي، وهكذا أعلن أنه يريد أن يسير بسيرة جده محمد ﷺ وأبيه علي بن أبي طالب عليه السلام أي بسيرة الاسلام.

ترى لو أن رسول الله ﷺ كان يعيش في تلك الفترة، أكان يطلب غيره ما طلبه حفيده وخليفته وممثله عليه السلام؟ ألم يكن على استعداد للتضحية بنفسه وبكل غال ونفيس في سبيل تحقيق هذه المهمة؟

كان الحسين عليه السلام يؤكد عزمه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في وقت أوشك المعروف فيه أنه يصبح منكراً والمنكر معروفاً، وفي وقت ضاعت فيه قيم الاسلام وحلت محلها قيم جاهلية مستحدثة قائمة على تكريس مصالح العائلة الأموية ونفوذها وسلطتها وإذ أن هذه العائلة لن تتنازل بسهولة عن ملكها العريض الواسع وثرائها الأسطوري، فإن الأمر بالمعروف لن يكون فاعلًا بمجرد كلمة تقال أو نوايا حسنة يضمرها منكر الشر بقلبه، لا بد من فعل حاسم يرافق كلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بد من اليد التي ترتفع بوجه الظلم والإنحراف لايقافهما ومنعهما بقوة وحسم، ولا بد من الدماء التي تراق في سبيل تحقيق المهمة الكبيرة، مهمة تغيير الأوضاع وقلبه واعادتها الى خطها الأول.

انكار المنكر الأموي باليد الحسينية

لقد أدرك الامام الحسين عليه السلام ذلك بوضوح، وعلم أن مهمة التصدي لن تتم بمجرد التمني والنوايا الحسنة، فلم يكن ما أراده هيناً ولا سهلًا، والدولة الأموية تنشر ظلها في بقاع العالم الاسلامي كلها.

خرج لطلب الاصلاح في أمة جده محمد ﷺ، يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسير بسيرة جده ﷺ وأبيه عليه السلام لا بسيرة أي شخص آخر، وهو أمر يهول الدولة مجرد التفكير به، فكيف إذا ما سعى امرؤ لتحقيقه وجعله أمراً واقعاً؟ حتى وإن كان الحسين عليه السلام؟

ومن هنا أعطى الامام الحسين عليه السلام قيمة خاصة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه علم أن ذلك لن يتم إلا بتقديم دمه ثمناً لذلك، فقد كان ذلك الأمر الجدي الوحيد الذي سيحقق غايته في تغيير الأمة ولفت نظرها بشكل حاد الى وضعها المزري في ظل الحكام المنحرفين.

لقد علم أن استنكار المنكر الأموي بالقلب لن يجدي، وكذلك لن يجدي انكاره باللسان لأن ذلك لن يغير الأوضاع السيئة، ولن يعمل إلا على اصلاح بعض الأمور المظهرية. وربما عمدت الدولة المنحرفة نفسها الى زرع بعض هؤلاء الآمرين (بالمعروف) والناهين عن (المنكر) في خطوة منها للحفاظ على بعض المظاهر غير الضارة، ولتحسين صورتها أمام جماهير الأمة كما يجري الآن في بعض الدول (الاسلامية).

وكان لا بد من اعادة بعث هذا المبدأ الذي أوشك أن يموت وتموت معه خير أمة أخرجت للناس، لأنها لم تتمسك به تحت وطأة الجهل والتضليل والارهاب، وهو ما عمدت إليه دولة الظلم الأموية لتمرير مخططاتها وسلب المكاسب التي تحقق للأمة في ظل الاسلام

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. . .﴾[1].

إن ضياع مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني ضياع الأمة كلها كأمة إسلامية، لأنها تكون عند ذاك شبح أمة، لا أمة حية تبني وتنتج وتتحرك وتعطي، ستكون أمة مشلولة بل جثة هامدة لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، لذلك كان أمر وجودها وحياتها، خير أمة أخرجت للناس رهناً بقيامها بتطبيق هذا المبدأ الذي يتيح لها تطبيق كل قوانين الاسلام وأحكامه دون استثناء.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

كان بعث هذا المبدأ على يد الامام الحسين عليه السلام بتلك هذه الصورة الفريدة التي لفتت أنظار أبناء الأمة الى المخاطر التي تحيق بها نتيجة الانحراف الأموي، قد جعل موت الأمة الاسلامية مستحيلًا على كل من أراد ذلك وسعى إليه.

لقد كلفه ذلك حياته وحياة مجموعة فريدة من أهله وأصحابه، وتعرضت عائلته الى أشد أنواع الأذى والمهانة والحزن، ومع علمه أنه سيتعرض لكل ذلك، فإنه لم يتردد ولو لحظة واحدة ولم يتراجع فإن الفرصة ستضيع الى الأبد.

كان مهمة شاقة تستدعي أكبر قدر من التضحية أتيح لبشر أن يقدمه في تاريخها، وفي ذلك فقد كانت واجبة وضرورية، وإذا أنها أنيطت بحملة الاسلام للقيام بها، فهي إذا أمر ممكن، كما أنه أكثر يسراً على أولئك الذين يحملون شعوراً عظيماً بالمسؤولية، ويشعرون أنهم مسؤولون مسؤولية شخصية عن كل خطأ أو انحراف تقع فيه هذه الأمة، ومن أكثر شعوراً بالمسؤولية من الحسين عليه السلام؟ لقد كانت ثورة الحسين عليه السلام خطوة كبيرة لاحياء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن النكر وجعله مبدأ حياتنا اسلامياً قائماً الى الأبد، وقد أعطاه قيمة حقيقية لجعله مبدءاً حياً لا مجرد شعار لا يتعدى قيمته اللفظية وحسب.

وهكذا واجه من احتشدوا لحصاره وقتله بقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

(من رأى سلطاناً جائراً مستحلًا لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله).

قال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وقوله الفصل، وقد حل الوقت الذي ينبغي القيام فيه بهذه المهمة.

فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وإن الدنيا قد تغيرت، وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، الا ترون الى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه)[1].

---

(١) تراجع المصادر السابقة.

هل هذه الأمة الاسلامية التي ربى طليعتها رسول الله ﷺ وأرادها أن تنمو وتتقدم في ظل الاسلام وشريعته ومبادئه، أم أنها أمة قديمة مجدت أنبياءها وكتبها؟ أمة ماتت وما عادت سوى ظل أمة وذكرى أمة؟

هل هذا هو نتاج سعي الرسول ﷺ حقاً؟ أم نتاج انحراف بدا بسيطاً وربما دون وعي أو فهم حقيقي للاسلام، حتى اتسع بعد ذلك ليكون خروجاً صريحاً عن الاسلام؟ وهل امام الأمة وقائدها الآن:

(الحاكم بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الله والحابس نفسه على ذات الله؟

أم أنه يزيد.

(الفاسق الفاجر، شارب الخمر قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسوق والفجور، مشتري الهو)؟

وهل تطيب حياة أي مسلم في ظل أوضاع كهذه وفي ظل حاكم كيزيد؟

(وعلى الاسلام السلام إذا بليت الأمة براع مثل يزيد).

وعلى الاسلام السلام إذا ما أصبح الحرام حلالًا والحلال حراماً،

أي شيء يتبقى للمسلم حينئذٍ، هل يقبل أن يتخلى عن الاسلام ويعيش حياة الكفر والجاهلية والانحراف، أم يتبنى ما تبناه رسول الله ﷺ ووصيه ويدعو للمعروف ويأمر به وينهى عن المنكر يدعو للمعروف الذي يريده الاسلام ويرفض المنكر الذي يرفضه الاسلام ولو كان في ذلك ذهاب حياته، ولو كان على حساب سعادة عائلته وراحتهم. ألا يرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً؟

ألا يرى الموت سعادة؟

ألا يرى الحياة مع الظالمين برماً؟

أية حياة ستكون في ظل هؤلاء الظالمين المنحرفين؟ ستكون حياة العبودية والاقرار لهم بالحق في ظلم الناس وابعاد الاسلام عن حياتهم، أما مواجهة الظلم وانكاره، والوقوف بوجهه، فلن يكون له سوى ذلك الايقاع الجميل المتناغم الذي يشعر المرء أنه يؤدي مهمة حقيقية كبيرة مهمة من شأنها إيقاظ الأمة ولفت نظرها دوماً الى أي لون من ألوان الفساد والشذوذ والانحراف والكفر والخروج المعتمد على الاسلام.

وأي سعادة أكبر من تلك التي يشعر بها المرء حينما يرى أنه سيحقق مثل هذه المهمة الكبيرة؟ مهمة الهجوم على الظالم واعلان الحرب على الظلم، وفي حسابات الاسلام وحدها يتحقق النصر، إذ أن على المسلم أن يرفع سيفه وليس عليه أن يحقق الغلبة في المعركة التي يخوضها، فهذا أمر موهون بمشيئة رب العالمين وحكمته وأمره أما هو فقد أدى واجبه والتحق بركب المدافعين عن الاسلام وأما اكمال الشوط الى النهاية فليس أن يفكر فيه، فالشوط طويل وعمره لن يسعه. وكفاه نصراً أنه ثبت على موقفه ولم يحد عنه حتى آخر لحظة من حياته.

وكفاه فخراً أن الله وعده بالنصر، وكان حقاً عليه هذا النصر.

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[2].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . .﴾[3].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

ترى لو فكرنا بمنطق الاسلام هل كنا نتساءل: كيف تغلب الحسين عليه السلام على أعدائه رغم الفارق الهائل بينهم في العدة والعدد؟ هل كان الحسين عليه السلام يرى أمامه العدد الهائل من العدو المدجج بالسلاح؟ أم أنه كان يرى امامه أمة مريضة خائفة جديرة بالرثاء، وإذ لا ترى علتها ولا تنهض لاصلاح عيوبها فإنها جديرة بازدراء والتقريع؟ لعل ذلك يؤثر فيها بعد أن لم تؤثر الكلمات الرفيقة الهينة، فربما حسبوا ذلك ضعفاً منه يريد به دفع الأذى عن نفسه.

هيهات منا الذلة

وهكذا توجه عليه السلام إليهم بخطابه الشديد قبيل بدء المعركة، وبعد أن أصروا على حربه ومقاومته انتصاراً لأسيادهم وجلاديهم.

---

(١) محمد: ٧.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) غافر: ٥١.

(٤) الروم: ٤٧.

قائلًا :

(فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومطفئي السنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيري عترة الأوصياء، ومحلقي العهار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمة المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون.

ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

ألا وقد أعذرت وأنذرت، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة، على قلة العدد، وكثرة العدو، وخذلان الناصر.

فإن نهزم فهزامون قدما وإن نهزم فغير مهزمينا[1]

هل ترى أمامك شخصاً مسحوقاً مهزوماً خائفاً؟ أم أنك ترى شخصاً أمتلك إيماناً هو اليقين بعينه، إنه ليتراجع لأنه موقن بصحة موقفه وسلامته، ومن الوصول الى هدفه، ولو سلت بوجهه السيوف، فماذا سيقول لجده رسول الله ﷺ إن تراجع وتخاذل وآثر الذل في ظل يزيد بعد عز الاسلام الذي حمله دائماً في نفسه وفي ضميره كمثل أعلى جدير بتحقيق الخير والسعادة لكل البشر. وجد نفسه قوياً بالاسلام، ووجد أمامه نفوساً ضعيفة رأت أن حياتها ومصيرها وسعادتها رهينة بكلمة واحدة تخرج من فكم يزيد أو أحد أتباعه وحاشيته، وهكذا أنذرهم، وزحف بأسرته وأصحابه على قلة العدد وكثرة العدو وخذلان الناصر فقد كان لا بد من الهجوم، الآن وفي كل حين، ما دام الانحراف قد أظهر وجهه الكريه.

فإن يهزم أعداءه في هذه المعركة، فلطالما هزم الله أعداءهم، وإن يهزم فيها، فليست هذه الهزيمة التي فكر بها العدو ويحسب أنه انتصر بعدها، فالمعركة قائمة، والغلبة النهائية فيها للحق وللاسلام، وان انتهكت حدوده وتلاعب به أعداؤه وحسبوا أن الأمور قد استتبت لهم فما هي إلا جولة واحدة، والطريق لا يزال طويلًا.

---

(١) الخوارزمي ج٢ ص٧/٨، والبحار ج٤٥/٨/١٠، وابن عساكر، الجزء الخاص بريحانة الرسول (٣) ص٢١٨، وابن طاووس ٤١/٤٢، وجلاء العيون ٢/١٧٧.

لم يقل لهم الحسين عليه السلام أنه سيقتلهم ويبديهم، لكنه قال أنه سيهزمهم، وقد هزمهم، إذ بقوا رهينة مخاوفهم وفزعهم وعبيداً لمن هو جدير أن يكون أشد فزعاً منهم، لو كان يدرك حقيقة موقفه وتصرفاته، تقدم عليه السلام متخطياً الآلام والمصاعب دون تردد أو خوف يعلن رفضه الواقع الفاسد الذي قبلته الأمة وارتضته طالما رغب كل فرد من أفرادها أن يظل على قيد الحياة، ولو في ظل يزيد بعيداً عن الاسلام.

أي دروس شهدت الأمة في عرصة كربلاء، وأي وعي بالاسلام ثبتته تلك اللحظات التي أقدم فيها الحسين عليه السلام على تحدي أعداء الله وأعداء الأمة وأعداء أنفسهم، لم يفكر الشهيد أنه مهزوم إذ لم ير أمامه إلا الله وسلطانه وملكه، أما ضربة السيف وطعنة الرمح، فطالما أنها قد حققت له ما لا يتاح تحقيقه للجميع فحسبه منها فرحاً أنها جنبته حزناً كبيراً كان سيجثم على صدره، لو انه أطاع الظالم وأصبح اداة بيديه ينال بها من الآخرين، وكان عمره سينتهي أيضاً كما انتهت أعمار الآخرين وإن كانت العواقب ستختلف في الحالتين، فإن:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(١).

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٢).

لا يجيب عن السؤال الثاني إلا الفائزون أنفسهم، ولعل استبشارهم بالموت هو الذي يعبر عن ذلك.. أما الموت، فالجميع مقبلون عليه وملاقوه دون شك

(إذا ما الموت رفع عن أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقي الكرام إذا بقينا
فقل للشامتين بنا: أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا)(٣)

لقد تمثل بأبيات شاعر عربي ذكر أموراً بديهية عن الموت، فهو نهاية حتمية لهذه الحياة ومن لا يريد الاعتراف بذلك، فسيجعله الموت نفسه يعترف به.

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) الحشر: ٢٠.

(٣) المصادر السابقة، والأبيات لفروة بن مسيك المرادي.

كان الحسين عليه السلام يريد لأبناء الأمة كلها أن يترقبوا نهاية الحياة بغبطة، ويقبلوا على فوز محتم في الآخرة، بعد أن يعيشوا في ظلال الاسلام وعلى ضفافه، لا في ظل الفراعنة والمنحرفين، وكان التفاف أبناء الأمة حوله سيجنبهم النهاية المحزنة، إذ كان حرياً به أن يعيدهم الى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيجد الظالمون أنفسهم معزولين عن الأمة ولن يستطيعوا التسلط أو التغلب عليها ثانية وتسخيرها لأغراضها ومصالحهم الخاصة.

أما وقد عجزت الأمة عن ذلك، واستسلمت ذلك الاستسلام المهين ليزيد ورهطه وحاشيته، فإن ما ستقبل عليه سيكون رهيباً حقاً، وسيكون أولئك الذين شاركوا بقتاله أول المتسهدفين بعد أن جعلتهم الدولة أداة لحربه وقتله، ولم تكن لتطمئن اليهم في تنفيذ أغراضها الأخرى. فالكوفة لم تكن الى جانب معاوية منذ البداية وكانت عدوة له، ثم خضعت واستسلمت بعد غياب أمير المؤمنين عليه السلام عن الساحة، مع أن العديدين من أبنائها وقادتها لم يخضعوا البتة، وعادت ثانية لتؤازر الحسين عليه السلام وتعلن وقوفها الى جانبه وتنتفض مع (مسلم)، ثم ها هي تستسلم الى الأبد وستكون هادئة وخاضعة له على الدوام.

إن الدولة الأموية ستعمد حتماً بعد ذلك الى أشد ضروب القسوة والوحشية إذا ما لمست أدنى بادرة تمرد أو اعتراض في المستقبل، وهو ما فعلته بعد ذلك على الدوام. كانت صرخة الامام الحسين عليه السلام فيهم تشكل تحذيراً من مستقبل أسود في ظل دولة الظلم وفراعنتها وجبابرتها، كان ذلك المستقبل يلوح أمامه بقتامته وسواده المقيت، الذي سيجعلهم يتخبطون فيه خبط عشواء، وستتناولهم فيه اليد الأموية وتتلاعب بهم تلاعبها بالكرة:

(أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفرس، حتى تدور بكم دوران الرحى، وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده الي أبي عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله. ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

---

(١) تراجع المصادر السابقة

أعلى قتلي تحاثون؟

لقد كان يريهم أنهم عندما يقبلونه فإنما يقبلون أنفسهم، لأنه إمامهم وقائدهم الشرعي الوحيد الذي يحرص على مصالحهم ومستقبلهم، وإن الدولة ستستغل قتله على أيديهم لكي تتمادى بعد ذلك وتتجرأ على الأمة كلها وتستبد وتستعبدها الى الأبد.

كان يرى أن قتله كان محتماً ما دام يقف بوجه مشاريع دولة الظلم غير المشروعة، إلا أنه كان يحزن على أولئك الذين ينفذون هذه الجريمة بأيديهم، مع أنهم لا يستفيدون من ذلك، ويرى أن ما سيلحقهم جراءها سيكون عذاباً دائمياً في الدنيا والآخرة.

حيث سيستمر سفك دمائهم وتفرقهم وخلافهم الى الأبد، وكان لا يريد أن تتلوث أيديهم بالجريمة في سبيل طاغية واحد يريد الاستئثار بكل شيء لنفسه.

لقد وقف وحيداً بمواجهتهم، وكان عليه السلام (يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية، ويفترص العورة، ويشد على الخيل وهو يقول: أعلى قتلي تحاثون، أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف العذاب الأليم)[1].

فما عسى أن يحل بهذه الأمة إذا ما أقدمت على قتل إمامها وقائدها الشرعي، وأكرم مخلوق على هذه الأرض بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، لقد أقدم نفس أولئك الذين عرفوا منزلته ومكانته من جده رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الاسلام، ونفس أولئك الذين سار آباؤهم وإخوانهم بل وبعضهم أيضاً خلف أمير المؤمنين عليه السلام لحرب رأس هذه الدولة الظالمة التي يدافعون عنها الآن ويرفعون السيف بوجه من يريد انقاذهم

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٤، وقد ورد خطابه بصيغة أخرى مغايرة قليلاً لما ذكره الطبري (يا أمة السوء، بئسما خلفتم محمداً في عترته، أما انكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله، فتهابوا قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا يشعرون، يلقي بأسكم بينكم، ويسفك ،دماءكم، ثم يصب عليكم العذاب الأليم). الخوارزمي ٢ ص٣٤، ومقتل العوالم ص١٨، ونفس المهموم للقمي ص١٨٩.

وتخليصهم منها، فهل سيرون حرمة لأحد من عباد الله إذا ما أقدموا على قتل أكرم الناس وأشرفهم وأقربهم من رسول الله ﷺ، أم أنهم سيتمادون فلا يرون لأحد حرمة وسيكونون في مقدمة الذين ستحرقهم النار الأموية الحامية؟

استئصال الدولة الأموية الظالمة هو السبيل الوحيد لعودة الأمة الى اسلامها

كانت الثورة الحسينية واضحة الهدف، سريعة الوصول الى نفوس وضمائر الأمة المسلمة لا في زمن وقوعها وحسب، وإنما عبر كل هذه القرون الطويلة والى يومنا هذا، لأن الامام الحسين عليه السلام استطاع عبر مسيرته الملحمية من المدينة الى الكوفة مروراً بمكة، أن يكشف واقع القيادة المنحرفة المتسلطة على أمور المسلمين، ويوجه الأنظار نحوها ونحو ممارستها غير المشروعة، وأن يعلن عن موقفه العملي لحرب هذه الدولة والهجوم عليها على قلة العدد وكثرة العدو وخذلان الناصر، وأن لا يكتفي بموقف الدفاع السلبي والاختفاء عن أنظار السلطة في مكان ناء كما أشير عليه في بعض المناسبات.

كان تحديث للانحراف بذلك الاداء الرائع خلال كل أدوار المسيرة، وحتى ختام المعركة في الطف، قد لفت أنظار الأمة المسلمة بشكل حاد الى فساد حالها وانحطاطها واقبالها على موت محتم ما لم تسارع الى تبين موقفه وتقف بجرأة أمام حكامها وأعوانها لمنع انحدارها السريع نحو هاوية الهلاك المحقق. ولقد أتيح لعدد كبير من أبناء الأمة من أنصاره ومناوئيه أن يستمعوا الى خطاباته وأقواله ويكونوا شهوداً على المواقف الفريدة التي وقفها، والتي لم يبد في أي منها أنه كان يقبل المساومة وأنصاف الحلول.

كان الامام الحسين عليه السلام يريد استئصال دولة الظلم وازالتها من الوجود، فذلك هو الضمانة الوحيدة لعودة الأمة الى الاسلام عودة سليمة لا غبار عليها، لأن هذه الدولة ستكون مانعاً قوياً أمام مثل هذه العودة، ولن تتيح لأية قوة أخرى، حتى ولو كان هو الاسلام بقيادة رسول الله ﷺ نفسه، أن تقف أمام طموحاتها ومشاريعها غير المشروعة.

وسنجد بعون الله ـ في غضون هذا الفصل ـ أن الحسين عليه السلام قد استطاع أن يوجه المعركة بحيث يتخذ كل موقف وقفه المشاركون في المسيرة بعداً عقائدياً

وإنسانياً وعاطفياً، لتحتشد الصور والمواقف البطولية والانسانية وتشكل زخماً هائلاً في ضمير الأمة المسلمة، لتجد بالتالي أن على كل فرد منها ـ إذا ما كان مؤمناً بالله حقاً ـ أن لا يقدم أقل مما قدمه أصحابه عليه السلام، وهو ما جعل مسيرة الحسين عليه السلام مستمرة وعدد الملتحقين بموكبه كبيراً رغم بعد الشقة ومرور السنين.

أهم أهداف الثورة الحسينية

هو تحريك الأمة بأجمعها ضد الظلم الأموي

لقد نجح الامام الحسين عليه السلام نجاحاً باهراً باشعار الأمة بأهداف ثورته ضد النظام الأموي المنحرف، وجعلها تدرك حقيقة ثورته وأبعادها وضرورتها، وكانت قيادته للمعركة منذ البداية قد أكدت على البعد الجماهيري العام وضرورة، اشتراك الأمة كلها لتحمل مسؤولية ازاحة مسؤولي الانحراف ورموزه.

إن الأمة لم تستطع ـ حتى في أشد اللحظات ضعفاً واستسلاماً ـ أن تشكك بالدوافع الحقيقية للثورة وأن تنال من شخصية الحسين عليه السلام وأصحابه، وأن تتهمه بالسعي للحصول على السلطة، لأنها تتيح له المزيد من الامتيازات كتلك التي كان يتمتع بها معاوية أو يزيد. ولم يستطع الاعلام الأموي أن يضللها بهذا الشأن رغم محاولاته الجادة لابرازها كحدث عابر أراد أحد طرفيه استلاب السلطة من الطرف (الشرعي) الذي يحكم الأمة فعلاً، وحتى أولئك المدافعون عن السياسة الأموية، والتوجه الأموي في الحكم والحياة، لم يستطيعوا إلا أن يقولوا أن الحسين عليه السلام كان مجتهداً، وقد أصاب بعزمه على الوقوف بوجه الانحراف، إلا أنه (أخطأ) بتقدير قوته، وكان عليه أن لا يقدم بالعدد القليل الذي كان معه على تحدي الدولة ـ كما أشرنا الى ذلك ـ عند مناقشة رأي ابن خلدون وابن كثير وغيرهما في هذه الدراسة.

وهنا لا بد أن نشير اشارة مؤكدة الى أن الامام الحسين عليه السلام، أدرك قبل غيره أنه كان يقدم على عملية ضخمة تستهدف ازالة الانحراف، واعادة الأمة الى المسار الاسلامي الصحيح الذي رسمه واختطه رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدرك أن مهمة ازالة هذا الانحراف لن تتم إلا بازالة دولة الظلم نفسها، التي أقيمت على أساس بعيد عن الاسلام جملة وتفصيلاً، وأن هذه الدولة لن تسمح لأي شخص، حتى ولو كان رسول الله صلى الله عليه وآله أن (يسلبها) ما انتزعته وأخذته بحد السيف، وبعد كفاح مرير وسعي متواصل جندت فيه كل حاقد وخارج عن الاسلام، وأنها لن تتورع عن اشهار هذا

السيف نفسه في كل وقت تراه ضرورياً، لاستئصال أعدائها و(منافسيها) والقضاء عليهم. فالامام الحسين عليه السلام لم يكن يقدم على بلد قد استتبت فيه الأمور لصالحه، وإنما كان يقدم على بلد كان يحكمه ممثلو السلطة الجائرة، ويجبون خراجه ويسيرون أموره ولم تستتب له فيه طاعته ـ على حد تعبير ابن عباس ـ عندما أشار عليه بعدم الخروج وكذلك عمر بن بوذان أحد شيوخ بني عكرمة، وقد قال له عندما رآه ببطن العقبة قاصداً الكوفة:

(أنشدك الله لما انصرفت، فوالله لا تقدم إلا على حد السيوف والأسنة. وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطئوا لك الأشياء، فقدمت عليهم كان ذلك رأياً، فقال عليه السلام: يا عبد الله، ليس يخفى علي الرأي، ولكن الله تعالى لا يغلب على أمره. ثم قال: والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي)[1].

كما أنه يدرك ضعف أهل الكوفة واحتمال تراجعهم وانقلابهم عليه تحت وطأة الارهاب الأموي، وأنه يقدم منذ البداية على معركة غير متكافئة من حيث العدة والعدد، ولم يكن له بد من خوضها، ما دام قد اختار الوقوف الى جانب الاسلام. لقد استهدفته الدولة بالقتل منذ البداية عندما لم يبايع، وأدركت هي أنه لن يبايع، وكان الاجراء السليم الوحيد بنظرها قتله أو اغتياله في مكة أو المدينة قبل أن يواجه الأمة بالأسباب التي دعته الى رفض يزيد.

أما من جانبه، فلم يكن يجد أن عليه الاختفاء أو الهرب، ما دام أن ذلك هو موقفه النهائي، لأنه حتى لو نجح في ذلك، فستظهر الدولة قضيته على أنها قضية منافسة على السلطان، وأنها قضية كره متوارث، وأنها قضية انفجار نفسي، جعلت الحسين يقدم على ما أقدم عليه من عدم المباعية والاختفاء، وسنجد من أبناء الأمة من يقول أن الحسين قد هرب وترك الأمة وحيدة بمواجهة طغاتها وجلاديها، ويحمله مسؤولية ما سيلحق بها من خراب نتيجة تدهورها السريع في هاوية الانحراف.

وكان الامام الحسين عليه السلام يجد أن أمامه قضية واضحة كبيرة، يجب عليه أن يجعل الأمة كلها تنظر اليها بنفس الوضوح الذي ينظر اليها أصحابه على الأقل. كان

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٠٤.

يريد استثمار تلك القضية استثماراً حكيماً وصحيحاً، فالقتل أمر محتم ما دام يرفض مبايعة رمز الظلم ورأسه، فلماذا لا يهجم هو على دولته ويشن الحرب عليه ويجعل معركته تجري أمام سمع الأمة وبصرها، إذ أن لون الدم الأحمر القاني هو اللون الوحيد الذي سيظل في ذاكرة الأمة، ولن تنساه، وسيكون الشيء الوحيد الذي يحفزها لتذكر قضيته وتبنيها، وستخرج فصائل عديدة من أبنائها على أثره يلبون نداء هو يسترون على أثره، ولا بدَّ أن العديد منها ستنجح في تحقيق ما سعى إليه ، وأن تواصلها مع الاسلام ستكون له نفس حرارة الجيل الأول، الذي رباه رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام من بعده وأن دولة الظلم على امتداد التاريخ لن تكون مطلقة اليد وحرة التصرف للتلاعب بمقدرات الأمة الاسلامية على هواها ووفق رغبات حكامها، وستجد دائماً فصيلًا من فصائل الثورة الحسينية يتصدى لها بدماء أبنائه، ويكون لها بالمرصاد، وستجد طليعة حسينية مناضلة تفكر بمنطق الحسين عليه السلام وعقل الحسين، ولا يهمها إذا ما تساقط وقدمت دماءها في سبيل الاسلام، فستتبعها الأمة كلها يوماً من الأيام، فالسعي لازالة دولة الظلم مهما كان شكلها ولونها وشعاراتها يجب أن يستمر لأن هذا تكليف الهي لم يسقط عن عواتقنا مهما مرت السنون.

أما تحقيق ذلك فمرهون بمشيئة الله وحكمته وعدله، هذا هو منطق الاسلام وهذه هي لغته ومن لا يفهم ذلك لا يفهم الاسلام. ولسنا بحاجة الى اعادة ما قاله الامام عليه السلام ثانية بخصوص توقعه الموت في كربلاء، وقد سبق أن أشرنا الى تلك الأقوال في هذه الدراسة، غير أننا سنستعرض بعض أقواله ومواقفه خلال معركة الطف، وهي أقوال تدل على أن توقع الموت كان بحكم اليقين، وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الأخبار الواردة عن رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام ، بخصوص مصرعه في كربلاء، وعلمنا أنه وريث علمهما، والعالم الأول الذي انتهت إليه تلك الأخبار، وأضفناها الى معرفته بالواقع الذي كانت تعيشه الأمة في ظل قيادة الفساد والانحراف، وأن تلك القيادة ستتصدى بعنف وشراسة لكل منتقد ومعارض لها، أدركنا أن الامام الحسين عليه السلام لم يحسب نفسه ذاهباً في نزهة خلوية ـ كما أشار الى ذلك أحد الكتاب الذين تناولوا ثورته بالبحث والتعليق، وإنما كان يدرك أن مسيرته الملحمية التي كان يستعرض فيها نفسه وأصحابه وعائلته أمام الأمة كلها، ستكون مأساوية ودامية ومفجعة، وأن ضروب البلاء التي سيلقاها معهم لن تضاهيها ضروب أخرى من البلاء والمحن يمكن أن تمر بشخص آخر، وإذ أنه كان يطمح أن يشعر الأمة كلها أن ما نزل

به هو بعين الله وفي سبيله، وإذ أنه صبر صبراً عجيباً على ذلك البلاء، فإن رسالته التي خطها بدمه قد وصلت الى أسماع كل أبناء الأمة، وقد استوعبوها بسهولة وأدركوا أن معركة الحسين عليه السلام مع الانحراف لا تزال قائمة حتى بعد زوال الرموز الأولى، وأنه لا يزال يقود كل المعارك اللاحقة من موقعه في عرصة كربلاء، رغم ابتعاده المكاني والزماني عن تلك المعارك التي لا تزال تحدث وتتجدد الى يومنا هذا، وأنه نجح في تجنيد الأنصار الحقيقيين للاسلام في كل بقاع الأرض ليضافوا لأنصاره في بدر والطف وغيرهما من معارك الاسلام الخالدة.

ولعلنا بحاجة هنا لذكر تأكيده لابن عمه عبد الله بن جعفر، عندما حذره من المسير الى العراق لأنه يخاف أن يكون في ذلك هلاكه واستئصال أهل بيته، أجابه الحسين عليه السلام:

(فوالله، ليعدن علي، كما اعتدت اليهود في يوم السبت)[1].

كانت الدلائل كلها تشير الى أنه سيقتل إذا ما مضى في مهمته الى النهاية، وبالتأكيد فإن من نصحوه وحذروه لم يكونوا بمستوى ادراكه وعلمه، وما احتملوه بخصوص قتله واعتبروه أمراً مؤكداً احتمله هو أيضاً، بل به علماً يقيناً، ومع ذلك مضى ولم يتردد أو يهن أو ينكل.

لقد وضع ابن زياد المسالح والمراصد وأخذ الحدود ما بين واقصة الى طريق الشام، ومنه الى طريق البصرة، فلا يدع أحداً يلج أو يخرج، ومع علم الحسين عليه السلام بذلك من أحد الأعراب وقد قال له:

(إنا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج)[2].

فإنه (سار تلقاء وجهه)[3].

وقد عزم عزماً أكيداً على مواجهة الموقف الساخن الذي جردت فيه الدولة جندها وجواسيسها لمواجهته والقضاء عليه.

لقد بدا للبعض أن الحسين عليه السلام كان متورطاً، ولم يدرك ورطته إلا بعد أن مضى شوطاً بعيداً تجاه الكوفة، وقد فاتته فرصة الرجوع ولم يدرك ضرورتها إلا بعد

---

(١) الخوارزمي ج١ ص٢١٨، وابن كثير ٨/ ١٦٩، وقد روى الطبري ج٣ ص٢٩٧ الخبر بإيجاز.
(٢) و(٣) الإرشاد ص٢٠٣، وروضة الواعظين للقتال ص١٧٨.

أن حوصر ووجد نفسه بمواجهة طليعة جيش الدولة الذي يقوده الحر بن يزيد الرياحي، وقد أثبتت الوقائع عكس ذلك، ودلت على أنه عليه السلام كان عازماً على بلوغ نقطة الهدف، ومواجهة الدولة وقوتها هناك، وإن فرص الرجوع قد اتيحت له أكثر من مرة قبل مواجهة جيش الحر، فلم يفكر في ذلك على الاطلاق ولم يضعه في حسبانه

مشاهد الفجيعة ودماء الصالحين وأوصالهم المقطعة

تحرك الأمم على مر التاريخ

كانت الشهادة بذلك الشكل المفجع المروع المؤثر أول الأمور المحتملة من قبل الحسين عليه السلام، وقد أرادها هو أن تتم بذلك الشكل المؤثر، لا لأنه كان يرى ذلك نهاية لأمل لم يتحقق، بل لأن ذلك الأمر الوحيد الذي يمكن أن تبقى صورته في أذهان أبناء الأمة على مر العصور، والذي من شأنه أن يثيرها بشكل حاد ويجعلها تراقب ممارسات حكامها وأوضاعهم وأوضاعها هي، وتستعرض نفسها أمام الصفوة من الحسين عليه السلام وأصحابه الذين استشهدوا معه وأدوا واجبهم كأفضل ما يكون الاداء، لتجد ـ بالتالي ـ أن عليها الاقتراب من موقف هؤلاء، والابتعاد عن خط دولة الظلم، وانتهاج خط الرسالة الصحيح الذي رسمه لها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد روي عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال:

(خرجنا مع أبي الحسين، فما نزل منزلاً وما ارتحل منه إلا وذكر يحيى بن زكريا وقتله وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عز وجل أن رأس يحيى بن زكريا أهدي الى بغي من بغايا بني اسرائيل)[1].

ولم يذكر الحسين عليه السلام يحيى اعتباطاً، فيحيى له مقام رفيع عند الله جل وعلا لقد بشر به أبوه زكريا (الذي كفل السيدة مريم)..

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ

(١) اللهوف ص١٤ وفي رواية.(وسيهدى رأسي إلى يزيد بن معاوية) نظم درر السمطين ص٢١٥، عن مقتل الحسين للسيد محمد تقي آل بحر العلوم.

(٢) آل عمران: ٣٩.

ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(١).

وقد (سماه الله سبحانه يحيى وسمى ابن مريم عيسى، وجعله مصدقاً بكلمة منه وهو عيسى، كما قال تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى﴾. واتاه الحكم وعلمه الكتاب صبيا كما فعل بعيسى، وعده حنانا من لدنه وزكاة وبرا بوالديه وغير جبار كما كان عيسى كذلك، وسلم عليه، في المواطن الثلاث كعيسى، وعده سيدا كما جعل عيسى وجيها عنده، وجعله حصورا ونبيا من الصالحين مثل عيسى. . .)(٢).

هذا هو يحيى بن زكريا الذي اختصه الله باسم من عنده وكرامه وجعله نبياً، قتله أحد ملوك بني اسرائيل، وقد كان صديقاً له، لأن بغياً سقته الخمر وأغرته به، لأنه نهاه عن التزوج منها، ولأنه كان ينهي قومه عن ارتكاب المحرمات، لقد أدرك قومه خطأهم بعد ذلك عندما تخلو عنه وأسلموه للملك يقتله، وقد جرت عليهم تلك الجريمة الويلات والمآسي.

فهل كانت الدنيا التي يهدى فيها رأس سلالة النبوة لبغي من بغايا بني اسرائيل، كريمة القدر وعظيمة الشأن عند الله حتى يسمح فيها بارتكاب هذه الجريمة، وحتى (يحرم) منها يحيى عزيزه وأثيره والمقرب منه؟ أم أنه اختصه بقربه، وخلصه منها بعد أن قال كلمة الحق، وبعد أن حذر من الشذوذ والحرام. ؟ لماذا يتراءى رأس يحيى بن زكريا سليل الأنبياء الذي قال كلمة الحق فقتل من أجلها، للحسين عليه السلام سليل خاتم الأنبياء؟الانه كان يقول كلمة الحق أيضاً، ويدعوا إلى نبذ الباطل وترك الإنحراف؟ ألأنه كان يرى أن الدولة الأموية ورمزها ـ يزيد ـ أول باطل يجب أن يزول؟ هل سيترك وشأنه يقول مما يريد؟ أم أن أقل ثمن لذلك سيكون رأسه ورؤوس أصحابه، رغم أنه وريث الرسالات كلها، ووريث الأنبياء وابن سيدهم وخاتمهم؟ هل ستعبأ الدولة بذلك، وهو يواجهها تلك المواجه الواضحة، ويروم ازالتها واستئصالها؟ أن أنها ستقدم على قتله بنفس الطريقة التي أقدم بها منكرو الأديان والكفرة على قتل أنبيائهم وتعذيبهم، لأن منهج فراعنتهم لا يستقيم مع منهج أولئك الأنبياء؟.

---

(١) مريم: ٧، ١٢-١٥)

(٢) الميزان في تفسير القرآن/ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات الأعلمي للمطبوعات بيروت/ لبنان ١٩٧٢، ج٣ ص١٧٦/ ١٧٧.

كان ذكر الحسين عليه السلام ليحيى فيه إيجاء شديد بما سيلقاه على يد الطغمة الأموية المستلطة، وحتى لو لم يصرح بما سيلقاه هو، فإن في الاشارة ليحيى النبي القديس المقرب، وقد قدم رأسه الى إحدى بغايا بني اسرائيل، أضمرت الحقد عليه، وحرضت الملك على قتله لأنه قد قال قول الحق، اشارة لما يحتمل أن يلقاه هو وقد قال كلمة الحق وألقاها بوجه دولة الباطل.

كان يدرك أكثر من غيره أن هذه الدولة التي أقيمت على أسس البغي والعدوان والكفر والنفاق والخروج المتعمد عن الاسلام، لن تتساهل معه ولن تتركه يطيح بها وأنها ستلجأ الى أشد ضروب القسوة والوحشية معه.

ومع ذلك فإن الدنيا كانت هينة بنظره، كما هو حالها من الهوان عند الله، فهي ليست غاية وليست مستقراً دائمياً، وما هي إلا لحظات حتى تنقضي طال الأجل أو قصر، فليقل كلمته وليمضي، وإن كان في ذلك حتفه.

وإذ أدرك الملك الذي قدم رأس يحيى خطأه بعد ذلك وبعد أن أفاق من سكرته، فإن من قطع رأس الحسين لم يدرك خطأه لأنه ظل سادراً في سكره، إلا أن الأمة التي نفذت الجريمة أدركت أنها ترتكب خطأً جسيماً، وأنها كانت تناسق دون وعي أو ارادة وراء قائدها السكير المنحرف عن الاسلام، وأدركت أنها كانت بفعلها ذاك معرضة لهلاك والدمار الى الأبد، وأن عليها أن تصحح مسيرتها وأوضاعها، لتنتهج خط من أرادوا انقاذها وتخليصها من جاهلية جديدة معممة رفعت شعارات الاسلام وحاولت تضليلها وحرفها الى الأبد عن طريقه.

وهكذا بدأت صحوة الأمة، تتجدد دائماً، وظلت تقدم أنصاراً جدداً للحسين عليه السلام رغم طول الشقة وبعد الزمن، لأنها ادركت صحة مسيرته وسلامة توجهاتها، وأنه الوحيد الذي كان حريصاً على حياتها وبقائها أمة اسلامية تعيش جواً اسلامياً، وتتنفس هواء اسلامياً خالصاً، رغم أن شرائح كبيرة منها ظلت مخدرة ونائمة بفعل دول الظلم التي تتابعت على قيادتها على مر الزمن.

لقد كانت اشارات الحسين عليه السلام وتصريحاته في كل مرحلة من مراحل مسيرته واضحة بخصوص ميتة فظيعة سيلقاها على يد أعداء الاسلام، ها هو يخاطب أحد بني أزد في الثعلبية وقد سأله عن سبب خروجه عن حرم الله وحرم جده محمد صلى الله عليه وآله قائلاً بعد أن ذكر له بعض الأسباب:

(لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسنهم الله تعالى ذلّا شاملًا وسيفاً قاطعاً، وليسلطن عليهم من يذلهم.)[1].

وقال لأحد بني عكرمة ـ في زبالة ـ وقد حاول ثنيه عن المسير الى الحكومة:

(.. والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل فرق الأمم)[2].

وقال للحر بن يزيد قائد طليعة الجيش الأموي الذي أرسل لحصاره وتسليمه لابن زياد، وقد حذره من القتال والمضي في مهمته الى النهاية)

(أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني: ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال الأوس لابن عمه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فقال له أين تذهب، فإنك مقتول، فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً يغش ويرغما)[3]

فهل كانت مسؤولية ابن رسول الله ﷺ وخليفته وممثله تجاه الاسلام أقل من مسؤولية أخي الأوس الذي مضى ينصر رسول الله ﷺ رغم توقعه الموت؟

أكان تخويف الحسين عليه السلام بالموت كافياً لجعله يتراجع عن المهمة الكبيرة التي أخذ على عاتقه القيام بها، وهل هذا أمر يواجه به الحسين عليه السلام لكي يطلب منه الجواب عليه، وتحديد موقفه على ضوئه؟

وقد كان عليه السلام بترديده الآية الكريمة:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[4].

عندما سمع خبر مقتل رسوله الى الكوفة قيس بن مسهر الصيداوي، يشير اشارة واضحة الى ما ينتظره هو وأصحابه، وقد قال بعد ترديدها:

---

(١) الخوارزمي ج١ ف١١، واللهوف ص٢٩، وأعيان الشيعة ج٤ ص١٨٤.

(٢) الإرشاد ص٢٠٦، وأعيان الشيعة ج٤ ق١ ص١٨٨، ونفس المهموم للقمي ص٩٨.

(٣) الطبري ٣/٣٠٧، وابن الأثير ٣/ ٢٨٠، والخوارزمي ج١ ف١١، والمناقب ج٤ ص٩٦، والإرشاد ص٢٠٨، وروضة الواعظين للقتال ص١٨٠، وأنساب الأشراف ج٣ ص١٧١.

(٤) الأحزاب: ٢٣.

(االلَّهُمَّ اجعل لنا ولهم الجنة نزلًا، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك..)[1].

أولسنا على الحق، إذاً لانبالي وقعنا على الموت أو وقع الموت علينا

وروى عقبة بن سمعان قائلًا:

(لما ارتحلنا من قصر بني مقاتل وسرنا ساعة خفق الحسين برأسه خفقة، ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين عليه السلام على فرس له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، يا أبت، جعلت فداك، مم حمدت الله واسترجعت؟ قال: يا بني، إني خفقت برأسي خفقة، فعن لي فارس على فرس فقال: القوم يسيرون، والمنايا تسري اليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

قال له يا أبت، لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟

قال له بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت إذاً لا نبالي، نموت محقين،

فقال له جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده.)[2].

ولا ندري هنا أيهما أعجب، موقف الحسين عليه السلام، أم موقف ولده علي الأكبر عليه السلام، الذي يبدو أنه كبقية أصحاب أبيه عليه السلام، قد استوعب المهمة استعياباً تاماً، ولم يعد لديه شك بخطرها وأهميتها، غير أن الذي نجده هنا أنهما لم يباليا بالموت ما داما محقين، هذا ما قاله الوالد وأكده باطرائه ولده، ودعوة الله أن يجزيه خير الجزاء.

ونستطيع القول هنا إن الحسين عليه السلام لو كان حريصاً على حياته، لاستجاب لابن زياد وقد رأى جيشه الذي يتفوق على أصحابه ربما بألف مرة، غير أنه أصر على القتال ولم يتنازل أو يتراجع حتى وهو يواجه ذلك الجيش الذي أعد لحربه ومقاتلته.

---

(١) الطبري ٣/٣٠٨، والنويري ج٢٠ ص٤٢١.

(٢) الطبري ٣/٣٠٩، وابن الأثير ٣/ ٢٨٢، والنويري ج٢٠ ص٤٢٣، وروضة الواعظين للقتال ص١٨، والإرشاد ٢٠٩.

وقبيل المعركة بيوم عندما زحف نحو الحسين وأصحابه عمر بن سعد بعد صلاة العصر.

(وحسين جالس أمام بيته، محتبياً بسيفه، إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الصيحة، فدنت من أخيها فقالت: يا أخي، أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟، فرفع الحسين رأسه فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: إنك تروح إلينا.)[1].

وقد خاطب أصحابه بعد ذلك بقوله:

(.. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، ألا وأني قد أذنت لكم جميعاً، فانطلقوا في حل ليس عليكم مني حرج ولا ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سواد هذا الليل، وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يريدون غيري، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري)[2].

لقد رفض أهل بيته وأصحابه تركه، مصممين على أن يقتلوا بين يديه، وكان رفضهم قاطعاً رغم قرب موعد المنازلة.

وإذا كان موقفهم هذا غير مستغرب لأنهم أدركوا القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها، واستوعبوا كل أبعادها وعطاءاتها المستقبلية، فكيف يكون موقف الحسين عليه السلام صاحب القضية الأول، وممثل رسول الله ﷺ نفسه مثيراً للاستغراب؟

وكيف حصل أن انحاز هؤلاء للحسين عليه السلام مع علمهم بالموت المحقق الذي ينتظرهم؟ أليس انحيازهم إنما كان للاسلام وقضاياه العادلة، في مواجهة الشرك والباطل والضلال والانحراف.؟

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٤، والنويري ٢٠/ ٤٣٢، واللهوف ص٣٨، ودار السلام للميرزا النويري ج١ ص٧٥.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٥، وابن الأثير ٣/ ٢٨٥، واللهوف ص٣٨، والخوارزمي ج١ ف١١، وروضة الواعظين للفتال ص١٨٣، والإرشاد ص١٢٠، وآمالي الصدوق مجلس ٣ والبحار ج٤٤ ص٤٩٢، وجمهرة خطب العرب، أحمد ذكي صفوت ج٢ ص٤١، والمناقب ٤/ ٩٩، والإيفاد للعظيمي ص٦٣، وأنساب الأشراف ٣/ ١٨٥، والنويري ٢٠، ٤٣٥، مع بعض الاختلافات البسيطة.

أما كان أولى بأكثر الناس شعوراً بالمسؤولية، وأعلمهم بالاسلام وأقربهم من رسول الله ﷺ والممثل الحقيقي له أن يكون وأول المنحازين للاسلام، وأول المدافعين عنه ضد أعدائه، ولو كان ثمن ذلك الموت المحقق العاجل على يد أولئك الأعداء؟

إذا ما لمسنا في أنفسنا ضعفاً ولم نجد فيها القدرة على القيام بالدور الذي قام به الحسين عليه السلام وأصحابه، هل يكون من حقنا أن نقول أنهم أخطأوا بمواجهة الجيش الضخم الذي أعده ابن زياد، وأن عليهم أن يقعدوا ويستسلموا ويبايعوا يزيد، لأنهم بذلك يضحون بحياتهم وسلامتهم، هل بذلك يضحون بحياتهم وسلامتهم، أما حياة الأمة وسلامة الاسلام فليست من شؤونهم؟ هل هذا هو منطق الاسلام؟ وهل ربى رسول الله ﷺ أمته وأعدها لكي تقع في أحضان الانحراف والجاهلية من جديد؟ وهل كان يزيد وأشباهه النتيجة الطبيعية لسعي آلاف الأنبياء وتضحياتهم؟ وهل كان نتاج رسول الله ﷺ ونتاج الاسلام؟ لكي يقبل به الحسين عليه السلام ويقره ممثلًا له ﷺ وخليفة شرعياً على الأمة لمجرد أن معاوية ضلل هذه الأمة وعبث بها واستباح كل مقدراتها؟

وهل أن ما انطلى على عوام الناس وبسطائهم المخدوعين والمغرر بهم، وعلى أولئك الذين سكتوا وهم يعيشون تحت ظلال السيوف، وفي جو الارهاب والقمع والرشوة والابتزاز ينطلي على الحسين عليه السلام فيتراجع أمام سلطان دولة الغشم والانحراف، لمجرد أنها أرادت ذلك، ولا يستجيب لسلطان الله الذي يأمره ليكون أول المدافعين عن الاسلام وفي أول الصفوف ولو اقتضاه ذلك حياته؟

لا شك أن العكس هو الصحيح. وهكذا كانت الاستجابة التامة لله وأوامره في مقارعة الظلم والمنكر.

وهكذا صارحهم. كما روي عن الامام زين العابدين عليه السلام :

(إني غدا أقتل، وتقتلون كلكم معي.)[1].

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ج١ ص١٥٠، والبحار ج٤٤ ص٣٩٤، وترجمة ريحانة رسول الله من تاريخ دمشق لابن عساكر ص١٥٤، وهذه المصادر مذكورة في مقتل الحسين للمرحوم آية الله السيد محمد تقي آل بحر العلوم، وقد استعنا بالمصادر والنصوص التاريخية الواردة فيه في عدة مواضع من هذا الكتاب، ورجعنا إلى بعضها مما توفر لدينا، مما سهل علينا عملية البحث والدراسة.

وهكذا أخذ يردد وهو يعالج سيفه ويصلحه قبيل المعركة بساعات، أبياتاً بدا وكأنه يشير بها الى مصرعه المحتم:

(يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حي سالك السبيل)[1]

وقد أعدّ أصحابه وأهل بيته لتقبل أمر موته بصبر ورباطة جأش،

وقبيل الحملة الأولى، عندما تقدم عمر بن سعد نحو معسكر الحسين ورمى ثم رمى الناس، وأقبلت السهام من القوم كأنها المطر، فلم يبقى من أصحاب الحسين أحد إلا أصابه من سهامهم، فقال الحسين لأصحابه:

(قوموا رحمكم الله ـ إلى الموت الذي لا بد منه ـ أن هذه السهام رسل القوم إليكم.)[2].

الحسين عليه السلام لم يكن طامعاً في الملك
اللهم إن تكن حبست عنا النصر فاجعله لما هو خير منه

كان إقدام الحسين عليه السلام على المعركة بذلك التصميم وذلك الحزم رغم توقعه مخاطر الموت، وضروب الأذى له ولعائلته وأصحابه، له دلائله الكبيرة لمن يتأمل أمر تلك المعركة، فالموت محقق ذلك ولا يمكن أن يقال عنه ـ كما ادعت الدولة الأموية ـ أنه طالب ملك، وأنه منافس ليزيد، لم يوفق في مسعاه، وقد قتل في المعركة التي خاضها ضده،؟

إن استشهاد الحسين عليه السلام وتوقعه ذلك في كل لحظة، وترديده بعض الأقوال التي تشير بوضوح إلى أن نهاية عمره، ستكون في كربلاء، يمثل صفعة قوية للدولة الأموية، وقد أفشل ادعاءها أنه كان يريد سلب سلطانها ونزع التاج عن رأس يزيد ليضعه فوق رأسه هو، إذ من شأن منافس كهذا أن يكون حريصاً على حياته حرصه

(١) الطبري ٣/٣١٦، وابن الأثير ٣/٢٨٦، والإرشاد ٢١٦، واللهوف ٣٤، والبلاذري ٣/١٨٦، والنويري ٢٠/٤٤٧.

(٢) الخطط المقريزية ج٢ ص٢٨٧، والإرشاد ص٥٠، والخوارزمي ج٢ ص٨، واللهوف ص٤٢، ومقتل العوالم ص٨٤.

على الملك الذي يسعى إليه، أما مهمته فهي أبعد من مهمة تنافس شخصي على السلطان.

وكان الحسين عليه السلام يريد حقاً انتزاع التاج من على رأس يزيد ولكن لا لكي يضعه على رأسه هو. كان يريد سحق هذا التاج الذي كان تاج مظالم غير مشروعة، ومحصلة انحراف متسارع جعل يزيد يثب على السلطة، وينصب نفسه ملكاً على المسلمين دون إرادتهم أو رغبتهم، ويتصرف كما لو أنه المالك الحقيقي للناس والأشياء.

كان يريد للتاج أن يختفي إلى الأبد، ولا تظل هناك سوى سلطة واحدة، هي سلطة الاسلام، ولئن مات، ولئن حبست عنه الغلبة في هذه المعركة، فعسى أن تكون الغلبة للاسلام بعد ذلك وفي كل حين، وعسى أن تكون تلك بداية انهيار الظالمين وسقوط دولة الانحراف.

وهكذا قال بعد أن رمى حرملة بن كاهل الأسدي طفله الرضيع بسهم وهو في حجره فذبحه. :

(هون ما نزل بي أنه بعين الله. اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل، اللهم إن كنت حبست عنا النصر فاجلعه لما هو خير منه، وانتعتم لنا من الظالمين، واجعل ما حل بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل). [1].

فما هو خير، انتصاره في تلك المعركة؟

انتصار الاسلام في معاركه ضد أعدائه الظالمين، وقد توج الحسين عليه السلام بدعائه الى الله لينصر الاسلام وينتقم من الظالمين، ويجعل تضحيته في سبيل الاسلام خطيرة في الآخرة،

وقد أراد أن يتوجه كل مظلوم ورافض للظلم بهذا الدعاء إلى الله بعد أن يرخص نفسه في سبيله، وفي سبيل دينه الذي ارتضى.

لقد وجدنا في بداية هذه الدراسة أن معاوية مهد لقبول أفكار ومفاهيم مضللة قائمة على تزوير الحقائق التاريخية والمفاهيم الاسلامية الصحيحة.

---

(١) اللهوف ص٤٩، والخوارزمي ج٢ ص٣٢، ومثير الأحزان ص٣٦.

وكان يشير اشارات موحية لعلاقة حميمة بين آل عبد مناف وشرفهم المتميز عن شرف قريش وبقية العرب، وأن الله قد اختص آل عبد مناف (وهم آل هاشم وآل أمية) بالنبوة، وأن معارك جانبية قد وقعت بينهم، وأن ذاك كان شأنا داخلياً ليس على الآخرين التدخل فيه، لأنهم أبناء أعمام، وإذ يموت الآباء، ويبقى الأبناء، فإن منافسة محتملة قد تحدث بينهم، ولا شك أن ابن الخليفة الحالي ـ يزيد ـ هو أفضل هؤلاء الأبناء، ولم لا وأبوه قد أصبح اميراً للمؤمنين، وهكذا صرح:

(. أنه لم يبق إلا إبني وأبناؤهم، وابني أحق)[1].

ولا شك أن معاوية سيكون محقاً لو أننا نظرنا للمسألة كلها من الزاوية التي نظر بها إليها ما دام قد تناسى فضل النبي صلى الله عليه وآله، ورأى في الاسلام ملكاً آتاه الله محمداً صلى الله عليه وآله كما كان يرى أبوه، ورأى في مرحلة ما أن آخرين أقل منه كفاءة، قد تربعوا على كرسي الحكم.

إن من الانصاف لمعاوية أن نقول: أنه لو كان لن ابن أفضل من يزيد لنصبه خليفة من بعده، لكن ما الحيلة وليس عنده سوى يزيد، ويزيد تعرفه الأمة كلها ولم يكن عنده سوى ابن آخر أخرق رويت عنه حكايات مضحكة.

فليبذل جهده إذاً لتحسين مظهره أمام الأمة، وجعله يبدو ذا كفاءات جديرة بمنصب الخلافة، وليمهد له الأمر ما دام حياً، وليعرض الآخرين كمنافسين وحاسدين له على الملك. تلك كانت الأطروحة الأموية المضللة، وقد تحدثنا عن بعض جوانبها في هذا الكتاب. كان معاوية يرى ثقل الحسين عليه السلام ومكانته من الأمة، ويرى أن ما بناه ليزيد قد يتعرض للسقوط والتلف إذا ما هلك هو، وبدأت الأمة تعود إلى وعيها وتدرك حجم المؤامرة التي استدرجت إليها، وقبولها يزيد خليفة عليها مع وجود الحسين عليه السلام الخليفة الحقيقي وهو منحى عن مركز القيادة الفعلي، فإنها قد تثور عند ذلك، وتعمد إلى اسقاطه، وتطالب القيادة الحقيقية المتمثلة بالحسين عليه السلام لأخذ دورها، لتزعمها، على طريق بناء الدولة الاسلامية التي أرادها رسول الله صلى الله عليه وآله لا معاوية.

ولم يكن معاوية بالذي يتنازل بسهولة عن المكتسبات التي حققها بصعوبة،

(١) تاريخ الخلفاء ١٩٢.

وكرس لها سنوات حياته الطويلة، ولا بد أن يأخذ أهبته، ويستعد لكل احتمال طارىء، ولكل ما من شأنه أن يزعزع أركان دولته وملكه.

ورغم جيل السب الذي نشأ مناهضاً لآل البيت عليهم السلام، ورغم التعتيم المركز على دور أمير المؤمنين عليه السلام فإنه رأى أن فئات عديدة من الأمة لا تزال تتطلع إليهم، وترى فيهم أملها الوحيد لتصحيح المسيرة التي حرفتها الدولة الأموية بشكل معلن، ولعله لم تفته حفاوة المسلمين بالحسين عليه السلام واقبالهم عليه، ولقد رأى فيه مركز الخطر الأول، الذي يمكن أن يطيح بالعرش الأموي فيما بعد.

وقد رأينا حرصه على انتزاع مبايعته ليزيد، ومحاولته المتكررة لحثه على ذلك، والتي باءت بالفشل بعد ذلك، إذ ظل الحسين عليه السلام على موقفه الرافض ليزيد حتى هلاك معاوية. لقد أعد جواً يتيح لخليفته قتل الحسين عليه السلام تحت مبررات وأسباب مصطنعة، ولقد حاول ابرازه كشخص موتور حاسد ومندفع ومتحمس وذي ردود فعل غاضبة وعصبية، وحاول نشر مقولات وقصص كاذبة لاثبات هذه المقولات التي وضعت عن طريق أجهزة أعلامه، التي كان يديرها بنفسه بمهارة تامة، ومنها تلك التي أشارت الى وصيته ليزيد بعدم قتل الحسين عليه السلام إذا ما أخرجه أهل العراق، وتلك التي ادعت أنه عليه السلام استولى على قافلة كانت متوجهة إليه، وكتابة رسالة غاضبة جواباً على عتاب رقيق من معاوية. إلخ، وقد أشرنا في هذه الدراسة إلى بعض تلك الأقاصيص المفتعلة التي ما كانت تصدر إلا عن عبقري الشر معاوية نفسه.

لقد ذهب معاوية إلى حد اصدار أمر مكتوب أودعه مستشاره سرجون، يوصي بأن يكون عبيد الله بن زياد القائد الذي يتولى أمر التصدي للحسين عليه السلام كان مدفوعاً بعقدة كره وراثية بين أمية وهاشم، وأن التفاهم معه كان صعباً، وأنه سار تحت تأثير حماسة طارئة، منخدعاً بوعود أهل الكوفة، ودعوتهم إياه للقدوم عليهم، حتى أن كتاباً من الشيعة راحوا ينددون (بخداعهم) الحسين عليه السلام، مستندين إلى تلك النصوص الظاهرية التي ندد بها الحسين عليه السلام بهم ولامهم وحذرهم مغبة غدرهم وانقلابهم عليه.

صحيح أنهم كتبوا إليهم ثم نكثوا وعودهم وغدروا به

لكن السؤال هنا هل أن رفض الحسين عليه السلام مبايعة يزيد كان سابقاً على دعوة أهل الكوفة إياه، أم أن دعوتهم كانت سابقة على رفضه؟

لا شك أن دعوتهم إياه كانت وهو في مكة في منتصف شهر رمضان، أي بعد أكثر من شهر ونصف من اعلانه رفض مبايعة يزيد، وقد كان مصمماً على موقفه.

ومع علمه بجو العراق وطبيعة العراقيين، الذين استهدفوا بظلم الدولة المركز، واحتمال تراجعهم وانقلابهم عليه وتوقعه ذلك بشكل كان محرجاً وحتمياً لديه، فإنه استجاب لدعوتهم، لأنه لو فعل العكس فإنه كان يتحمل المسؤولية التاريخية أمام الأمة على مر الأجيال، وسيدعي الكوفيون، أنهم كانوا على استعداد لنصرته والسير تحت قيادته، **إلا أنه لم يأت، وكانت الأمة ستصدق ذلك وتعتبره المسؤول الأول من** كل النكسات التي نزلت وتنزل بها إلى يومنا هذا[1].

لقد أبطل الحسين عليه السلام ـ بتأكيده على أنه سيستشهد وأصحابه، إذا ما واجه دولة الظلم تلك المواجهة الحاسمة ـ المزاعم الأموية التي كانت تدعي أنه أحد طلاب الملك، وأحد المنافسين الحاسدين ليزيد، إذ لو كان كذلك لكان من أشد الناس حرصاً على حياته، ولكان قد لجأ الى المساومة وانصاف الحلول ولتراجع عندما حوصر وطلب منه مبايعة يزيد.

غير أنه بتأكيده الواضح أنه سيقتل تلك القتلة الشنيعة وقوله عندما خرج من مكة إلى الكوفة قد فند كل تلك المزاعم:

(وخير لي مصرع أنا لاقيه. كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقر بهم عينه، وينجز لهم وعده، فمن كان فينا باذلاً مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإني راحل مصبح إن شاء الله)[2].

ولقد كانت الأخبار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهي علم من العلم الذي علمه الله ـ تؤكد استشهاده في كربلاء، وقد تعرضنا لتلك الأخبار والروايات في هذه الدراسة وذكرنا بعض أسانيدها ورجالها وهم رجال الصحيح، وأنها كانت معروفة ومتداولة،

---

(١) اللهوف ص٥٢/٥٣ عن البحار ص٤٤/٣٦٧.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ٤٤/٣١٢.

ولا شك أن ما عرفه المحدثون. عن رسول الله ﷺ لم يكن مما يغيب عن الحسين عليه السلام وهو خليفته ووريث علمه.

كان الحسين عليه السلام باستشهاده يبلغ الأمة كلها أن هناك ما هو أثمن من الحياة، التوجه المخلص لله الذي هو المبرر الطبيعي لهذه الحياة، وإذ أن كل فرد له أن يمضي فترة محدودة على هذه الأرض فإن الله قدر لهذا الدين أن يظل حياً على الدوام، إلى أن يرث الله ومن عليها، وإن موت المسلم في سبيل بقاء هذا الدين لن يكون غير ذي جدوى أو مردود. هكذا كانت رسالة الاسلام منذ البداية، وهحذا كانت تعاليم رسول الله ﷺ ووصاياه وأفعاله، كلها تشير إلى ذلك إشارات واضحة لا غموض فيها.

وهكذا كانت تضحية الامام الحسين عليه السلام الكبيرة بنفسه وبكل شيء في سبيل الإسلام، واصراره على تقديم نفسه وأولاده قرباناً لله، إشارة لحيوية هذا الدين وقدرته على الديمومة والبقاء، وجدارته بكل تضحية أخرى، وإن كان لا تساوي تضحية الحسين عليه السلام.

كان أمر اعادة الأمة إلى خط الاسلام الصحيح، ومنعها من الانزلاق في مهاوي الانحراف السريع. يتطلب عملًا حاسماً كالذي أقدم عليه الحسين عليه السلام دون تردد أو مبالاة بقوة العدو وعدته وعدده، فلم يكن إلا صوته لتثبت وتتألق رغم التشويه والتزوير.

وقد أثبت الاسلام باستشهاد الحسين عليه السلام من أجله، إنه جدير بالحياة والبقاء، وإن التضحية في سبيله ليست عبثاً وليست اضاعة للحياة والجهد والمال.

كانت لغة الشهيد المعبرة النافذة الواضحة هي شهادته، وكان دمه مدادها، ومع أن كلماته قد عبرت بوضوح عن الهدف من ثورته واقدامه على مقاومة الانحراف حتى الشهادة، فقد كانت تلك الشهادة هي الدليل على صدقه واخلاصه وتفانيه في سبيل الاسلام، وكانت بداية موت أعدائه ـ أعداء الاسلام ـ وخوفهم الدائم من ثوار مرتقبين ومحتملين يقفون بوجوههم ويرقبون مسيرتهم ويرصدون تحركاتهم. فكلمات الشهيد قد عبرت بوضوح عن غايته، ودمه بلغ غاية البيان وأوصل موته ورسالته الى الجميع.

فبدون تلك الشهادة، وبدون ذلك الاستعداد لورودها والاقبال عليها، ستظل الكلمات جوفاء، وستضيع في زحمة الكلمات والادعاءات الأخرى.

لم يكن ترديد الحسين عليه السلام لأقواله بخصوص موت مرتقب في كربلاء على يد أعداء الاسلام، إلا دعماً لمسيرة أنصار الاسلام، لكي لا يترددوا أو يتخاذلوا أو يتراجعوا أو يضعوا أيديهم بأيدي أولئك الأعداء متى ما لاحت لهم بوادر الخطر، وهددهم أعداؤهم بالموت الزؤام.

وقد قدر الله لتلك الأقوال أن تظل حية نابضة، لأنها قرنت بفعل حي نابض، فعل ارادي حازم وواع، رأى صاحبه أن الموت في سبيل الاسلام سعادة، والحياة مع الظالمين المنحرفين برماً كما عبر هو عليه السلام.

الامام الحسين عليه السلام يضع الأمة في موضع المقارنة بين طرفي الصراع

عني الامام الحسين عليه السلام عناية فائقة خلال فصول المعركة وقبلها بتعريف الناس طرفي الخلاف والصراع، ومن شكلوا معسكري المعركة القائمة، وطبيعة أهدافهم وتوجهاتهم، ليتسنى لأفراد الأمة التمييز، وملاحظة الفرق بينهم، واتاحة الفرص لهم لاتخاذ الموقف المناسب على ضوء ذلك واعادة النظر في مواقفهم السابقة، وقد لاحظنا كيف أنه كشف المعسكر المقابل الذي تزعمه يزيد، باستعراض أعماله وممارسته. البعيدة عن الاسلام، بل لعل الفترة التي بايع فيها معاوية يزيداً، وحتى هلاكه كانت مكرسة من قبل الامام عليه السلام لكشف وبيان عيوبه ومساوئه وعدم أهليته لاستلام أبسط المناصب في الدولة الاسلامية ناهيك عن مركز الخلافة الأول ولم يكن يصف محجوباً (يزيد) ـ كما عبر حينما يكشف للأمة انحرافه ولكنه وهو بصدد خوض معركة ضد من رفضهم وأبى الاستسلام لهم، وجد أنه لا بد له من تعريتهم وكشفهم وبيان حقيقتهم أمام الأمة وأمام من استمالوهم وجعلوهم ضد الخط الرسالي الصحيح وهو خط آل البيت، وجعلوهم وقوداً لأطماعهم ونزواتهم، لكي تظل حجته قائمة عليهم، يديرونها في أذهانهم.

ولو بعد حين، ويناقشونها ويدرسون أبعادها، ليكشفوا أين وصل بهم الحال في ظل استسلامهم وانحرافهم وخوفهم.

وقد رأينا ـ قبل قليل ـ كيف عرض عليهم بشكل دقيق الحال المأساوية التي كانوا يمرون بها في ظل قيادة منحرفة نبذت الاسلام نهائياً، ولم تلزم نفسها بقوانينه، وأحكامه، واتخذت من بعض الأمور المظهرية ستاراً لتغطية أفعالها وممارستها غير المشروعة، واعتمدت الجور والباطل والمنكر، وعطلت الحدود، وأظهرت الفساد

وأحلت حرام الله وحرمت حلاله، كما جاء في خطبه وكلماته العديدة، مع من التقى بهم وحتى أولئك الذين حاربوه وقتلوه فيما بعد

كان يستعرض أمامهم عمل القيادة المنحرفة لكي يعلموا من هي، ولماذا قامت بما قامت به من أفعال وممارسات شاذة بعيدة عن الاسلام، وقد أثار بذلك في نفوسهم تساؤلات عديدة عن هذه القيادة التي ارتضوا الارتماء والتمرغ تحت قدميها، ولا تزال التساؤلات تثار حتى اليوم عن طبيعة تلك القيادة التي سبب الكوارث والويلات للمسلمين، وصارت سبباً لضعفهم وتخلفهم.

وقد قام من جهة أخرى ـ بعرفهم بالمعسكر الآخر المناوىء للمنحرفين، والذي يتزعمه هو عليه السلام، إنه يثير في أذهانهم ـ كذلك ـ تساؤلات عديدة عن سبب قيامه بالثورة، خصوصاً وأنه ليس بالشخص العادي، وإنما هو رسول الله صلى الله عليه وآله ووارث علمه وحكمه وقد استسهل الموت وأقدم عليه بشجاعة منقطعة النظير، ورآه أمراً هيناً ومحتماً أيضاً وهو يتصدى لأكبر مهمة اتيح لامرىء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقوم بها، وهي انقاذ الأمة من براثن الانحراف الأموي المعلن والمتسارع.

إنه لا يعرفهم بنفسه ـ على أنه أحد أشراف قريش المرموقين، وأحد الذين نالوا شرف قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهذا أمر لجأ إليه كل أولئك الذين نافسوا أمير المؤمنين عليه السلام وحاربوه من قبل، وادعوه لأنفسهم بشكل مثير للانتباه، كما فعل معاوية ـ بادعائه أنه خال المؤمنين، إن الحسين عليه السلام يذكرهم بأمور ربما تناسوها أو أريد لهم تناسيها عمداً ولو لأمد قصير ريثما تنجز المهام التي كلفوا بها، وتنجز الخطط التي أرادت الدولة انجازها لاضاعة الاسلام وأبعاده عن حياتهم إلى الأبد لقد أراد أن يفوت عليهم فرصة تناسبه أو تجاهله، والاعلان فيما بعد أنهم لم يكونوا يعلمون بطبيعة المهمة التي أراد القيام بها، وأن بعضهم لم يعرفوه حق المعرفة، ولم يعرفوا حقه وفضله ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن، وما ورد بحقه وبحق أبيه وآله عليهم السلام في كتاب الله العزيز وعلى لسان نبيه الصادق الأمين صلى الله عليه وآله.

فهو عندما يقول لهم أنه الحسين بن علي عليه السلام وابن رسول الله صلى الله عليه وآله وعندما يشجب قيام الدولة الاسلامية بقيادة يزيد بن معاوية، فإنه أرادهم أن يعتقدوا أنه فعل ذلك، انتصاراً لجده رسول الله صلى الله عليه وآله وللاسلام، وأنه على بينة من أمره بشهادة القرآن والرسول صلى الله عليه وآله، وأنه يعلم حق العلم بما يقوم به ويفعله، وهو الصواب، وأن على أولئك الذين وقفوا في معسكر عدوه وعدو الاسلام، أن ينحازوا إليه ويقفوا بجانبه،

وإلا فإن بقاؤهم في مكانهم يعني الهلاك المحقق لهم في الدنيا والآخرة، فهم سيفقدون اطمئنانهم وهدوءهم وأمنهم وجماعتهم وسيكون بأسهم بينهم لا على عدوهم، وسيفقدون في النهاية ثقتهم بأنفسهم، وسيدركون أنهم كانوا أكثر جهلًا من الجاهلين الأوائل الذي تصدوا لمقاتلي بدر بقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأولئك كانوا مشركين منذ البداية، ولم يدخلوا الاسلام أو يعرفوه بعد، وقد دخل قسم منهم في الاسلام وحسن اسلامهم، أما هم الذين يدعون انتماءهم للاسلام ويرفعون شعاراته الظاهرية، ويدعون حب محمد صلى الله عليه وآله والولاء له، فهم يقفون الآن قبالة الحسين عليه السلام ابنه وخليفته وحبيبه وحامل سره ومبلغ أمانته وأملهم الوحيد، وقد استدعوه لينقذهم ويخصلهم من شرور هذه الدولة المستبدة المنحرفة، ومع ذلك يقفون متبلدي الحس والارادة فاقدي الشعور، موقوفين عن كل فعل نابع عن ارادتهم الحقيقية، منقادين دون وعي، لينفذوا جريمتهم النكرا، بحق من رأوا في وقت ما أنه الوحيد القادر على تخليصهم من المحنة التي كانوا يمرون بها، مستسلمين لجلادهم وقاتلهم وسارقهم، لقد أراد الحسين عليه السلام عندما كان يذكرهم بنفسه ويريهم من هو، أن يريهم أيضاً عظم الجريمة التي كانوا يقدمون عليها لو تخلوا عنه نهائياً ومنعوه من تنفيذ مهمته ووقفوا إلى جانب عدوه، أما إذا ساروا إلى أبعد من ذلك وأقدموا على قتله، فإنهم بذلك يعلنون إدانة أنفسهم بأنفسهم.

وقد كانوا على أية حال. باستسلامهم المهين وتراجعهم الذليل بعد دعوتهم إياه وتخليهم عنه، مثالًا على ضعف الأمة كلها لأنهم شريحة كبيرة منها.

كان على الامام عليه السلام لكي يرجعهم إلى الصواب، أن يثير في نفوسهم هزة حقيقية عميقة، بل صاعقة، تجعلهم يدركون بشكل حاسم الهوة التي انحدروا إليها، والوحل الذي مرغوا أنفسهم فيه، بعد أن لم يستجيبوا لقائدهم الحقيقي الذي أراد تخليصهم من كل ذلك. وقد كان يريد أيضاً بتذكيرهم، من هو، وعندما يشخص أمامهم في ميدان المنازلة وفي الطريق إليها، أن يريهم عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه والتي لا بد من القيام بها، وأنها من الضخامة والأهمية بحيث أن شخصاً في مثل مستواه يرى أن تضحيته بنفسه وبكل ما يملك، هي أبسط أمر يمكن أن يفعله، فضياع الاسلام وانحراف المسلمين ليس بالأمر الهين الذي يرى الحسين عليه السلام إمكانية السكوت عنه، وحياته ـ وإن جلت وعظمت ـ ليست بالشيء العزيز الذي لا يمكن أن يجود به في سبيل منع ذلك.

كان يريد إعادتهم إلى علاقتهم الحميمة بقائدهم الأول رسول الله ﷺ، وكان يعلم أن ما ورد بحق آله عليهم السلام وهم أبوه وأمه وأخوه، لا يزال له صداه في بعض النفوس، وأن الثقافة الأموية القائمة على سبهم ومحو فضائلهم لم تستطع تضليل الأمة كلها بشأنهم، وكان مجرد اشعارهم بمقامه ومنزلته في ظل ظروف طبيعية، كافياً لاعادة كل ما ورد بشأنهم إلى الأذهاب المخدرة التائهة، أما حين تتسلط عليهم الفئة التي جعلت دينها إعلان العداوة والبغضاء لهم، فإن أجيالًا أخرى ستتلقف كلمات الحسين عليه السلام وتدرك معانيها وأبعادها بعد زوال الظل الأموي الأسود، وستدرك الأمة ولو بعد حين أنها قد أضاعت فرصتها الكبيرة عندما لم تستمع إليه ولم تسر خلفه، وأنها كانت من الهوان والضعف بحيث أنها رأت أن حياتها في غياب الاسلام، وفي ظل الظلم والانحراف شيئاً لا يمكن التفريط به مع أنها فرطت بالاسلام.

ولسنا بحاجة ـ هنا ـ إلى إعادة ما ورد بحق آل البيت عليهم السلام والحسين خاصة، من أحاديث استعرضنا بعضها في هذه الدراسة، غير أن الحسين عليه السلام عندما يشير إلى آله ونفسه وينبه الأمة إلى الخطر الذي تتعرض له عندما تتخلى عنه وتعلن الحرب عليه، فإنه أراد لها أن تتمسك بما أراد الله ورسوله ﷺ أن تتمسك به، وهو (كتاب الله وآل بيته عليهم السلام)، وعندها لن تضل أبداً ولن تنحرف ولن تسير بركان الظالمين والمنحرفين، أما إذا أثرت هؤلاء على كتاب الله وآل البيت فإن ضياعها وخرابها محتم، وكان أحد آل البيت هؤلاء عليهم السلام يشخص أمامهم بلحمه ودمه، يخاطبهم ويخاطبونه، لم يكن شيئاً عارضاً في تاريخهم رآه آباؤهم ونسوه هم، بل كان حياً مليئاً بالحيوية والفعل والنشاط، وقد كانت الوصايا بشأن أتباعه حاسمة وواضحة، وها هو ذا يؤكدها بنفسه، فذاكرتهم لم يغب عنها بعد كيف ذكر في القرآن وكيف ذكره الرسول ﷺ، وإذ أن هذه الذاكرة قد تحجرت بفعل إرهاب الدولة الأموية واسرافها في الظلم والجريمة، فإن شيئاً ما حياً لا بد أي يظل فيها ولا بد لكي تستعيد نشاطها وحيويتها.

فما ورد عن آل البيت في القرآن الكريم ظل (في دائرة الذهن لدى الجيل الأول، ولأن النبي ﷺ يحبهم، فلقد حصنهم وحذر من اقتحامهم بسوء، لأن حربهم حربه[1]، ومن آذى أهله فقد آذى الله[2]، ومن أبغض الحسن والحسين فقد أبغض رسول الله ﷺ [3].

---

(١) - (٣) أوردنا هذه الأحاديث ومصادرها فيما مر من هذه الدراسة.

(ومعنى تحصين النبي لهم أن النبي رفعهم إلى مكانة لا يضرهم فيها من خذلهم، وهذه المكانة هي نفسها مكانة الدعوة، والدعوة هي الحق ولو قل أتباعه. وبهذا التحصين يكون الاعتداء عليهم هو اعتداء على الدعوة، ومن اعتدى على الدعوة فقد اعتدى على رسول الله صلى الله عليه وآله، والإمام الحسين جاء دوره في الوقت المناسب، فهو حجة على عصر يتم فيه ترجيح الأبناء، فابن عثمان، وابن خالد، وابن سعد وابن معاوية وابن الزبير وابن أبي بكر كل منهم يريد الملك، فشاء الله أن تبدأ حركة الحسين في هذا الوقت، علماً بأن في ذاكرة الجيل الأول الأحاديث التي تضع أبناء أمية وأبناء أمية وأبناء الحكم في دائرة التحذير منهم، فهم الذين رآهم النبي على منبره ينزون نزو القردة، وهم الذين سيتخذون مال الله دولًا ودين الله دخلًا، وعباد الله خولًا، وفي نفس الوقت تحتوي الذاكرة على أبناء دائرة الطهر، أبناء الكساء والمباهلة، ولقد علم الجميع أنهم أهل البيت ولا أحد غيرهم.)[1].

في هذه الفترة التي لا زالت جماعة كبيرة من أبناء الجيل الأول حية تنتشر في كل بقاع الوطن الاسلامي وتردد الأحاديث التي قالها النبي صلى الله عليه وآله بحق آله، وقد يكون ذلك سراً وبعيداً عن عيون الرقباء والجواسيس الذين بثتهم الدولة لاحصاء أنفاس الناس وخنقها إذا ما رأت أن فيها ضرراً عليها، وفي فترة المواجهة الحاسمة التي أراد فيها الامام الحسين عليه السلام من الأمة أن تلتفت إلى واقعها لفتة واعية متدبرة متأملة لتعرف كيف وصل بها الحال وهي تولى إلى حرب وآل زياد، وتصبح آلة صماء بأيديهم وتشن الحرب على ابن الرسول صلى الله عليه وآله، أراد الحسين عليه السلام أن يعيدهم إلى الوعي وأن يبصرهم بعواقب الاستمرار بذلك المسعى الخائب بتذكيرهم بنفسه استجلاباً لشفقتهم لكي يمتنعوا عن حربه وقتاله وإنما لتحذيرهم مغبة تولي رموز الظلم والكفر والانحراف، كانت صرخة الحسين عليه السلام بوجوههم تحذيراً لهم من سقوط لن يكون القيام منه إلا بشق الأنفس وذهاب عشرات الآلاف من الضحايا، وكان خوفه عليهم أشد من خوفه على نفسه، بل لعله لم يخف على نفسه إطلاقاً وقد أدرك صواب نهجه وسلامة دينه ومعتقده.

---

(١) معالم الفتن، سعيد أيوب ج٢ ص٢٣٦/٢٣٧.

عدم جواز بيعة الفاسق

ويزيد رجل فاسق فاجر، ومثلي لا يبايع مثله

لقد خاطب عليه السلام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة عندما طالبه بمبايعة يزيد أثر وفاة معاوية قائلًا:

(إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الرحمة، بنا فتح الله وبنا ختم الله، ويزيد رجل فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله)(١).

ويبدو أن الوليد قد وعى كلمات الحسين عليه السلام تمام الوعي ولم يستجب لأوامر يزيد أو اقتراح مروان بقتله إذا ما امتنع عن المبايعة، وقد أجاب هذا الأخير بقوله، عندما عاتبه على ترك الامام يذهب دون أخذ البيعة منه:

(ويح غيرك يا مروان، أنك قد اخترت لي التي فيها هلاك ديني ودنياي. والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها، وأن قتلت حسيناً، يا سبحان الله، أأقتل الحسين، أن قال: لا أبايع؟ والله أني لأظن أن أمرأ يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة)(٢).

وما امتنع عنه الوليد وخاف منه، أقدم عليه آخرون بعد ذلك وفي مقدمتهم ابن زياد وابن سعد واضرابهما من أشراف الكوفة، الذين رأوا مصلحتهم تكمن في بقاء النظام، وربما حاربوا بشراسة من.رأى أنه مستهدف شخصياً بالثورة التي ينوي الحسين القيام بها وكان في رسالته التي كتبها من مكة إلى جماعة من أشراف البصرة ورؤساء الأخماس تأكيد على صلته برسول الله صلى الله عليه وآله ومقامه منه ومن الاسلام وتلميح لوقائع تاريخية جرى فيها استعباد آل البيت عليهم السلام من مركز القيادة الفعلي للمسلمين، حيث قال:

(أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً من جيمع خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه إليه مكرماً، وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به، وكنا أهله وأولياؤه وأوصياؤه وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا

---

(١) و(٢) الفتوح ٥، واللهوف ص١٠، ومثير الأحزان، والخوارزمي ج١ ف٩، والنويري ج٢٠ ص٣٧٩، والطبري ٣/ ٢٧٠، والإرشاد ٢٠٧.

وكرهنا، الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وأن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم إلى سبيل الرشاد)[١].

لقد ألمح إلى ظروف التبست فيها الأمور على الأمة، وكان منافسوا آل البيت عليهم السلام الذين استأثروا بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته، والذين حكموا فهمهم وتصورهم للاسلام، أقرب لمنهجه الظاهري من الحكام الأمويين الذين لم يبد آخرهم ـ أي اهتمام بالأمور المظهرية التي يمكن أن يكسب بها ود الأمة وثقتها، وفي ظروف كتلك تكون منافسة أولئك المستأثرين بالخلافة أمراً قد يجر إلى خلافات ومعارك كثيرة تدخل الأمة في متاهات وفتن قد لا تخرج منها إلى الأبد.

أما حين يتسع الانحراف ويبدو كل شيء واضحاً أمام الأنظار، ويسعى أعداء الاسلام لاماتة السنة وإحياء البدعة، فإن الالتباس يرتفع هنا ولا يبقى مجال للشك في طبيعة الحاكم وظلمه وانحرافه، وتكون الدعوة لنبذه دعوة للعودة إلى طريق الاسلام ثانية، وهنا يدعو الحسين عليه السلام الأمة لنفسه ونصرته، فهو وحده الكفيل باخراجها من ظلمات الانحراف الأموي إلى سبيل الرشاد إذا ما سمعت قوله وأطاعت أمره. وفي خطبته في مكة قبل خروجه إلى الكوفة قال:

(رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقر بهم عينه، وينجز لهم وعده، إلا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، ليرحل معنا)[٢].

إنه هنا يستجيب لأمر الله ما دام فيه رضاه جل وعلا، لا استجابة المسير المجبر، وإنما استجابة الواعي الذي يدرك مسؤولياته تجاه الاسلام، فما دام رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه قد سار في نفس ذلك الطريق الشائك المرهق من قبل، ووجد فيه راحة فيها رضا الله فأولى بآله وخلفاءه من بعده أن يسيروا في نفس ذلك الطريق مجدين صابرين لن يشذوا عنه، وعند ذاك سيكونون معه في حضيرة القدس وفي دار النعيم.

(١) الطبري ٣/ ٢٨٠.

(٢) الأربلي، كشف الغمة ج٢ ص٢٤١، اللهوف ص٢٥.

وهنا يشير إلى أن طريق رسول الله ﷺ ومنهجه ليس مقصوراً على النخبة من آله، وإنما هو مفتوح لكل من وطن نفسه على لقاء الله، وحينها سيكون معهم لا مع عدوهم، وسينتظره ما ينتظرهم في تلك الدار التي أعدها للخلص من أحبائه وأوليائه.

مشاركة القائد الأسوة للأمة في مسؤولياتها

وقد خطب في أصحاب الحر قائلًا:

(إنكم إن تتقوا الله، وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى لله، ونحن ـ أهل بيت محمد ﷺ ـ أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان.

وإن أبيتم إلا الكراهية لنا والجهل بحقنا، وكان رأيكم ـ الآن ـ على غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم)[1].

وخطب فيهم وفي أصحابه ثانية قائلًا:

(وأنا أحق بهذا الأمر ممن غير، فإن تممتم علي ببيعتكم، تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم وأولادي مع أولادكم ولكم في أسوة)[2].

إنه يذكرهم ـ بخطبتيه هاتين ـ بمقامه ومنزله من رسول الله ﷺ، وبمسؤوليته التي تحتم عليه أن يكون أول متصد لتغيير الظالمين وأبعادهم عن مركز القيادة، ودعوة الجميع لمشاركته هذه المسؤولية، وهو لا يجد حرجاً بدعوتهم صراحة إلى نفسه، لا لأنه سيجني من ذلك مكاسب شخصية له ولعائلته، بل لأنه الممثل الحقيقي لرسول الله ﷺ وللإسلام، والمؤهل الوحيد القادر على إنقاذهم من دولة الجور والعدوان، ويكشف حوار وحيد ممتع بينه وبين ابن الحر الجعفي الذي لم يشأ الالتقاء به خوفاً من أن يدعوه لنصرته عن طبيعة الناس في ظل دولة الظلم.

فقد دعاه الحسين عليه السلام لنصرته وقد دخل عليه فسطاطه قائلًا:

(يا ابن الحر إن أهل مصركم هذا كتبوا الي: إنهم مجتمعون على نصرتي،

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٠٦، والنويري ٢٠ ص٤١٩، وابن الأثير ٣/ ٢٨٠، والبلاذري، أنساب الأشراف ٣/ ١٧١ والخوارزمي ج١ ف١١.

وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا، وأن عليك ذنوباً كثيرة، فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟

قال ابن الحر: وما هي يا بن رسول الله؟

فقال الحسين: تنصر ابن بنت نبيك وتقاتل معه.

قال: ابن الحر إني لأعلم أن من شايعك كان سعيداً في الآخرة، ولكن ما عسى أغني عنك، ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة، فإن نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه فاركبها.

فقال الحسين عليه السلام: أما إذا رغبت بنفسك عنا، فلا حاجة لنا في فرسك ولا فيك، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، ولكن فر فلا لنا ولا علينا، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثم لا ينصرنا إلا أكبه الله على وجهه في نار جهنم)[1].

كان ابن الحر يعرفه ويخاطبه بابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد دعاه الحسين عليه السلام للتوبة ونصرته والقتال معه هو (ابن بنت نبيه)،

ومع أن ابن الحر ـ كما صرح ـ كان على قناعة تامة بأن من يقف مع الحسين عليه السلام سيكون سعيداً في الآخرة ـ فإن ثمن ذلك، وهو الموت، أمر لم يجد ابن الحر نفسه مطيقاً إياه، ويؤكد الحسين عليه السلام أمراً: إذا رأيتنا نقاتل، وندعو المسلمين لنصرتنا ولم تفعل ذلك، أكبك الله على وجهك في نار جهنم، إذ أن تخليك عنا في هذا الظرف الدقيق يعني تخليك متعمداً عن الاسلام، وهو أمر له حسابه العسير فيما بعد.

إن دعوته ابن الحر لنصرته هي دعوة للناس جميعاً لكي ينصروه وينصروا قضيته وثورته.

القائد الصادق، يذكر الأمة بأن الشيطان قد استحوذ عليها

وقال مخاطباً جيش ابن سعد قبيل بدء هجومه عليه:

(وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله عليكم، وأعرض بوجهه الكريم

(١) الطبري ٣/٣٠٩، وابن الأثير ٣/٢٨٢، والبغدادي خزانة الأرب ١/٢٩٨، والخوارزمي ١ ف١١، والبلاذري ٣/ ١٧٤، والدينوري ص٢٤٩، والأمالي: م٣٠، والإرشاد ص٢٠٩، والفتوح ج٥ ص١٣٠.

عنكم، وأحل بكم نقمته، وجنبكم رحمته، فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد ﷺ، ثم إنكم زحفتم الى ذريته وعترته، تريدون قتلهم. لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون. هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين.

أما بعد: فانسبوني وانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟

أوليس جعفر الطيار في الجنة عمي؟

أولم يبلغكم قول رسول الله ﷺ لي ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة»؟

فإن صدقتموني فيما أقول، فهو الحق، فوالله ما تعمدت كذباً منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه.

وإن كذبتموني، فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصار وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبركم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ فإن كنتم على شك من ذلك، أفتشكون أني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم. أنا ابن بنت نبيكم خاصة، ويحكم، أفتطلبوني بقتيل منكم، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟ فأخذوا لا يكلمونه)(١).

إن خطاب الحسين عليه السلام لمجتمع الظلم الذي عاش بين ظهرانيه وواجهه منتقداً مقرعاً لائماً، خطاب يصلح لمواجهة كل مجتمعات الظلم التي نشأتت في ظل الانحراف وغياب الحكم الاسلامي الصحيح، فهذا جيش يحشد، يتخذ الدروع وضروب الأسلحة ويعبىء أفراده لمعركة قيل لهم أنها حاسمة ومصيرية، أما من هو العدو، فهذا هو الأمر الداعي الى الغرابة حقاً، لو قيل لهذا الجيش أنك ذاهب لمقاتلة

(١) الطبري ٣/٣١٣، وابن الأثير ٢/٢٨٨، والخوارزمي ١/٢٥٣، والإرشاد ٢٤٨، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت ٢/٤٦، الأنساب للبلاذري ٣/١٨٨.

رسول الله ﷺ دفاعاً عن الاسلام، أكان يقبل هذا المنطق الأعوج؟ ومع ذلك فقد قبله.

قيل لهم يا أتباع محمد ﷺ ويا من أقررتم بالطاعة وأمنتم به، هيا بنا نزحف إلى ذريته وعترته لقتلهم فهم يريدون القضاء على الاسلام.

هل هذا إلا منطق شيطاني بعيد عن ذكر الله.؟

هل إن من يفعل ذلك ينتمي للاسلام حقاً؟ أم أن هؤلاء ينتمون لملة الكفر، وقد دافعوا عن آرائهم وعروشهم وسلوا سيوفهم على أعدائهم لا أعداء الاسلام، بل المدافعين عنه حقاً؟ هل كان ذلك الجيش الذي جرد لقتله نائماً أو واقعاً تحت تأثير مخدر أو قوة خارقة جعله يقدم على ذلك العمل المشين؟

ألم يكن أفراده يعلمون من كانوا يواجهون؟

هل تأملوا ولو لحظة واحدة ورجعوا إلى أنفسهم فعاتبوها على ذلك وعلى سعيهم لقتله؟ هل هو الاسلام أو رسول الله ﷺ الذي أمرهم بذلك؟

أم أن الذي أمرهم بذلك هو عدو الاسلام وسليل أعدائه؟

الأسئلة حاسمة وتحتاج إلى جواب سريع ورد فعل سريع وموقف مغاير لهذا الموقف المشين.

إن الذين يواجهونه هو الحسين ابن بنت نبيهم ﷺ الذي آمنوا به وادعوا حبه وموالاته..، وذكرى فاطمة عليها السلام لا بد أن تعيد إلى أذهانهم ما زين الله به سيدة نساء العالمين من شهادات تجعلها جديرة بتربيته وأعداد أوصياء رسول الله ﷺ الذين تحملوا مسؤوليته وأدوا رسالته وحفظوها من العبث والانحراف، رغم كل محاولات العابثين والمنحرفين.

وهو ابن الوصي، أخو الرسول وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق بما جاء به من عند ربه، إنها حقائق ووقائع ليس بإمكان أحد أن ينكرها، وإن كان معادياً له، بل كيف يعادي علياً من يدعي حب محمد ﷺ؟ وهل أحب محمد ﷺ امرءاً كما أحب علياً؟ لقد أحبه لله وآخاه في الله وزوجه ابنته لله واختاره وصياً، لأن الله أمره أن يختاره، أكان كل هذا يغيب عن ذاكرة الجيل الذي كان قبل أيام قليلة يجاهر بذلك ويدعي معرفته به تمام المعرفة، فالكوفة كانت مدينة علي وقد نشأ جيل كبير في كنفه وتحت رعايته وخاض الحروب معه، فلماذا انقادت بقايا ذلك الجيل المتعبة المخذرة

المستسلمة بعد طول قتال ونضال لعدو علي واستسلمت له، وسلت سيوفها لنصرته والدفاع عن مصالحه.

هل كان حمزة سيد الشهداء، الذي نصر الله الاسلام بسيفه وسيف ابن أخيه علي، يغيب عن ذاكرة ذاك الجيل الذي ادعى الولاء والحب لرسول الله ﷺ؟ وهل غابت ذكرى جعفر الطيار في الجنة وهو عم الحسين عن ذاكرته أيضاً..؟ أكان قول رسول الله ﷺ في الحسن والحسين عليهما السلام: هذان سيدا شباب أهل الجنة، غير متواتر ولا معروف حقاً؟ ألم يكونوا يرددونه حتى الأمس القريب؟

أكان عبثاً ـ وحاشا رسول الله ﷺ من العبث أن يقول لأمته أنهما سيدا شباب أهل الجنة وأن يقول في حقهما أحاديث لم يقلها بحق أحد من أهل الأرض سوى أمهما وأبيهما؟

وهل يكذب سيد شباب أهل الجنة لمجرد أن يدفع عنه السيوف والقتل، أو يتربع على عرش قصير العمر يجلس عليه سنوات محدودة ولا يشتاق إلى عرشه الدائم في الجنة؟ أجائز هذا في منطق الاسلام؟

أم أن رسول الله ﷺ انساق وراء عاطفة أبوية بحتة تغلبت على حبه للاسلام تماماً كما فعل معاوية وشهد لولديه بذلك؟

وهل أن الله جل وعلا شهد بحقهم وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً لرابطة أبوية أو صلة قرابة؟ حاشا لله.

وهل يجوز لمن يؤمن بمحمد ﷺ أن يشك فيه وفي أقواله؟

وهل يجوز لمن يؤمن بالله أن يحرف كلامه ويعبث به ويفسره على هواه؟

فلا يزال جيل من صحابة رسول الله ﷺ أمثال جابر الأنصاري وأبي سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم وأنس بن مالك وغيرهم ويعيش بين ظهراني الأمة، وقد سمع هذا الحديث وأدرك ما يعنيه وسمع العديد والعديد من الأحاديث الأخرى، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ هكذا تساءل، وطلب منهم أن يتساءلوا ويعيدوا النظر بسرعة في موقفهم المفزع وإلا فاتت الفرصة عليهم إلى الأبد، وأسخطوا الله وأعرض بوجهه الكريم عنهم، وأحل بهم نقمته وجنبهم رحمته.

فإذا ما تجاهل أحد كل ذلك، وشك بأقوال الرسول ﷺ بحق ولده الحسين الذي كان يمثل أمامهم ويخاطبهم، فهل من شك أنه ابن بنت نبيهم؟ وإذا ما أجابوا، فإن جوابهم سيكون: لا نشك في ذلك حتماً وسيؤيدون قوله، بل الحقيقة التي طرحها: ما بين المشرق والمغرب ابن بنت لنبي الله غيره فيهم، ولا في غيرهم وأنه ابن بنت نبيهم خاصة.

(ويحكم، أفتطلبوني بقتيل منكم، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟)

أكان الأمر هكذا؟ أم أنه جاء لانقاذهم من القتل وحماية أنفسهم وأموالهم من الدولة الغاشمة التي أرادت أن تتلاعب بهم وبمقدراتهم؟

لا شك أن هذا هو ما جاء من أجله. وهم يعلمون ذلك، غير أنهم لا يملكون التصريح بما كانوا يعلمونه حقاً.

وهكذا سكتوا (فأخذوا لا يكلمونه).

وما عساهم أن يقولوا وقد خافوا السيف المسلط على رؤوسهم، وقد شلت ارادتهم وجعلتهم الدولة أداة بيدها تضرب بعضهم ببعض.

كانوا يعلمون أنهم سيف الدولة التي تضرب به، وأنهم جلادها وضحيتها أيضاً، لم يكونوا قادرين على اختراق نطاق الخوف الذي أقاموه حولهم، ولم يجل ببالهم أنهم إذا اتحدوا، بل إذا اتحدت عصبة قليلة منهم، فإن أعوان الدولة وأجهزتها ستنهار كلها ولم يكون بامكان أحد التغلب عليهم.

كان خوفهم أكبر من إيمانهم، وكان حرصهم على المكاسب الضئيلة التي يتوقعون الحصول عليها في ظل دولة الاسلام العادلة لهم ولأولادهم ولكل الأجيال من بعدهم، والمكاسب الكبيرة الدائمية في يوم الجزاء.

كانوا يعلمون ذلك، غير أنهم كانوا يدركون أنهم مهزومون ضعاف، لا قدرة لهم على الوقوف في صف الحسين عليه السلام، ولقد تجاوزهم أصحابه بمراحل عندما تغلبوا على كل المخاوف والأطماع والنزعات الأرضية المتدنية، وعندما تبنوا قضية كل الأمة المظلومة المسلمة.

تحذير الأمة المستسلمة من المصير الأسود الذي ينتظرها في الدنيا والآخرة

كان موقف أهل الكوفة ـ وهي آخر شريحة صمدت بوجه النظام الأموي، ثم استسلمت وتراجعت بعد ذلك أمام سياطه وأرهابة ورشوته ـ مقلقاً بل محزناً حقاً.

أهذه هي بقية الأمة الاسلامية التي نهضت مع الرسول ﷺ لنشر دين الله في الأرض؟ وهل هي بقية الطليعة الجديدة التي رباها أمير المؤمنين وعزم على مواجهة أعداء الاسلام بها؟ أي شيء سيوقظ هؤلاء ويجعلهم يتراجعون عن استسلامهم المهين ويعودون إلى قواعدهم الصحيحة في ظل الاسلام؟

هل ستكون النصيحة وحدها وقد بذلها الحسين عليه السلام لهم، وأوضح لهم العواقب الوخيمة التي تنتظرهم إذا ما مضوا إلى نهاية الشوط في استسلامهم ـ كافية لمنعهم من الانسياق وراء دولة الظلم لتنفيذ مآربها وغاياتها لتدمير المجتمع الاسلامي؟

لا شك أن منظرهم، وهم يحيطون به، عازمين على قتله، لن يكون من الأمور التي تنسى، وسيكونون هم من أشد الناس ندماً، وهم يستعيدون تلك الجريمة الرهيبة التي يعلنون بارتكابها تخليهم عن الاسلام وخط الرسول ﷺ الصحيح، وتبني الخط الجاهلي الأموي الجديد، ولا شك أن تقريعاً أو لوماً لن ينفع مع أولئك المتخاذلين، غير أن الامام الحسين عليه السلام عندما يواجههم بذلك في أشد الظروف حراجة مع علمه أن ذلك لن يغيرهم أو يعيدهم إلى الصواب، فإن صرخته ستظل ملء أسماع الأمة دائماً، كما ستحتل وقفته مساحة كبيرة في ذاكرتهما وسيجد من ينتصر له ويتبنى موقفه حتى وإن بعدت الشقة وطال الزمن.

لقد تقدم الحسين عليه السلام واصحابه لجيش ابن زياد بالنصح والارشاد، وبذلوا جهودهم في ذلك، تقدم من أصحابه زهير بن القين وبرير بن خضير الهمداني ينصحانهم ويدعوانهم لالتزام خط الحسين عليه السلام وترك يزيد وأعوانه، وقد بلغ بهما الجهد في ذلك حداً دعا الحسين عليه السلام، لاستدعاء زهير قائلًا:

(أقبل، فلعمري، لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وبلغ في الدعاء، فلقد نصحت لهؤلاء، وأبلغت لو نفع النصح والابلاغ)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٠، وابن الأثير ٣/ ٢٨٨، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٤٨، ونهاية الأرب ٢٠/ ٤٤٤.

ستتوجه الأمة كلها باللوم ـ فيما بعد ـ لأولئك الذين تنازلوا أمام يزيد عن دينهم وعن كل المثل العظيمة التي جاء بها، وستكون صرخة الحسين عليه السلام بداية لصرخات احتجاج عديدة، ورفضه للظلم رفضاً دائماً له من قبل أبناء الأمة المسلمة، ومن يرفض الظلم يحاول أن لا يضع نفسه موضع الظالم، وإذا ما كان الحسين عليه السلام يرى لزماً عليه أن لا يخضع لفرعون زمانه، فإن الأمة ستجد نفسها ملزمة برفض كل فرعون، مهما علا وتجبر، ومهما تلون وتستر، ولن تجد نفسها مخدوعة بأباطيله. كان لا بد من كلمات نافذة كالسهام يلقيها الحسين عليه السلام بوجوه أولئك المستسلمين الخانعين، بعد أن لم تجد معهم كلمات النصح والارشاد الرقيقة الهادئة، وما عسى أن تجدي الكلمات مع أناس الفوا الذل واعادوا خشونة المعاملة وحديث السياط، غير أن الحجة لا بد أن تلقى، ولا بد أن يدرك أولئك الذين تخلوا عن نبيهم ورسالته وعترته ـ ولو بعد حين ـ أنهم كانوا مخطئين وكانوا منساقين وراءهم كبير، حينما ارتضوا الانخراط في جيش دولة الانحراف جنوداً مرتزقة لا يهمهم سوى جني المكاسب اليسيرة، والحفاظ على حياتهم من الوحش المتربص بهم.

وإذا كانت لا تجدي مع هؤلاء فإنها ستكون ذات جدوى كبيرة مع أولئك الذين أطل عليهم الاسلام عبر العصور، ومع الفئات الواعية من أبناء الأمة التي سيصلها صوت الحسين القوي الحازم.

ولنا أن نتصور مشهد الحسين عليه السلام وقد ركب فرسه ـ وقيل ناقته ـ وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه وتقدم نحو الجيش المحيط به وطلب منهم الاصغاء إليه بعد لم تجد نصائحه معهم، كان يعتم بعمامة جده رسول الله صلى الله عليه وآله ويحمل سيفه ودرعه، وقد أعلمهم أنها لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولنا أن نتصور الإيحاء الكبير الذي يمكن أن يبعثه ذلك في نفوس أفراد الجيش (المسلم)، كان أقل ما يمكن أن يفعلوه هو أن يسيروا خلف هذا السيف وتلك العمامة، ليجددوا عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله ويبرهنوا على صدقهم وولائهم لمسيرته وخطه الصحيح بالسير خلف أبنائه عليهم السلام إلى نهاية الشوط، فمسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله لم تنته بموته، والاسلام لم يقدر له أن يموت في تلك اللحظة، وقد أعد صلى الله عليه وآله وربى القيادة المؤهلة الواعية التي يمكن أن تكمل تلك المسيرة بأعلى قدر من الكفاءة ودقة الاداء.

لا بد أن مشهد الحسين عليه السلام، وهو يشخص أمامهم صورة حية لجده صلى الله عليه وآله، يحمل تراثه ويتقدم بنفس خطاته الواثقة في سبيل الاسلام، ستفعل فعلها في أكثر

النفوس غفلة وخوفاً وسيكون له نفس تأثير جده ﷺ لو برز أمامهم وطلب منهم الدفاع عن الاسلام. ومع ذلك فإن نفوس أهل الكوفة في ذلك الظرف الرهيب كانت مكبلة بقيود خوف شديد من سلطة الظلم التي كان يمثلها ابن زياد هناك.

لم يؤثر فيهم جلال الحسين، وهيبة الحسين وشخوصه أمامهم صورة ناطقة لجده الكريم ﷺ، غير أن ما لم يؤثر فيهم لن يظل على الدوام غير مؤثر على الآخرين، ولا بد أن أجيالًا أخرى سيهزها هذا المشهد وهذا الموقف، وسترى فيه حافزاً للتصدي لدولة الظلم أينما كانت وأينما وجدت، وستجد بكل غيور على الاسلام ومضح في سبيله ممثلًا لرسول الله ﷺ، وسيشخص الحسين عليه السلام على الدوام بتضحيته الكبيرة ومواقفه العظيمة قائداً لكل من يريد عز الاسلام وسيادته.

لقد خاطبهم الامام عليه السلام بعد أن رأى اصرارهم على مواجهة وقتله أو تسليمه لابن زياد قائلًا:

(تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً. أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلا الحرام من الدنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منا، ولا رأي تفيل لكم، فهلا لكم الويلات، إذ كرهتمونا وتركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبى. وتهافتم عليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومطفئي السنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيري عترة الأوصياء، وملحقي العار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمة المستهزئين ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾

وأنتم ابن حرب وأشياعه تعتمدون، وعنا تتخاذلون. أجل - والله - غدر فيكم قديم، وشجت عليه أصولكم، وتأزرت عليه فروعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيت صدروكم، فكنتم أخبث ثمر شجا للناظر، وأكلة للغاصب. ألا لعنة الله على الناكثين، الذين ينقضون الإيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا. فأنتم - والله - هم.

إلا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

ألا وقد أعذرت وأنذرت، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وكثرة العدو، وخذلان الناصر

فان نهزم فهزامون قدما ... وإن نهزم فغير مهزمينا
وما أن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفع عن أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذا خلدنا ... ولو بقي الكرام إذا بقينا
فقل للشامتين بنا: أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا[1]

أما والله، لا تلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفرس، حتى تدور بكم دوران الرحى، وتقلق بكم قلق المحور، عهد إلي أبي عن جدي رسول الله ﷺ، «فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون» إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم.

ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبرة، فإنهم كذبونا وخذلونا، وأنت ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

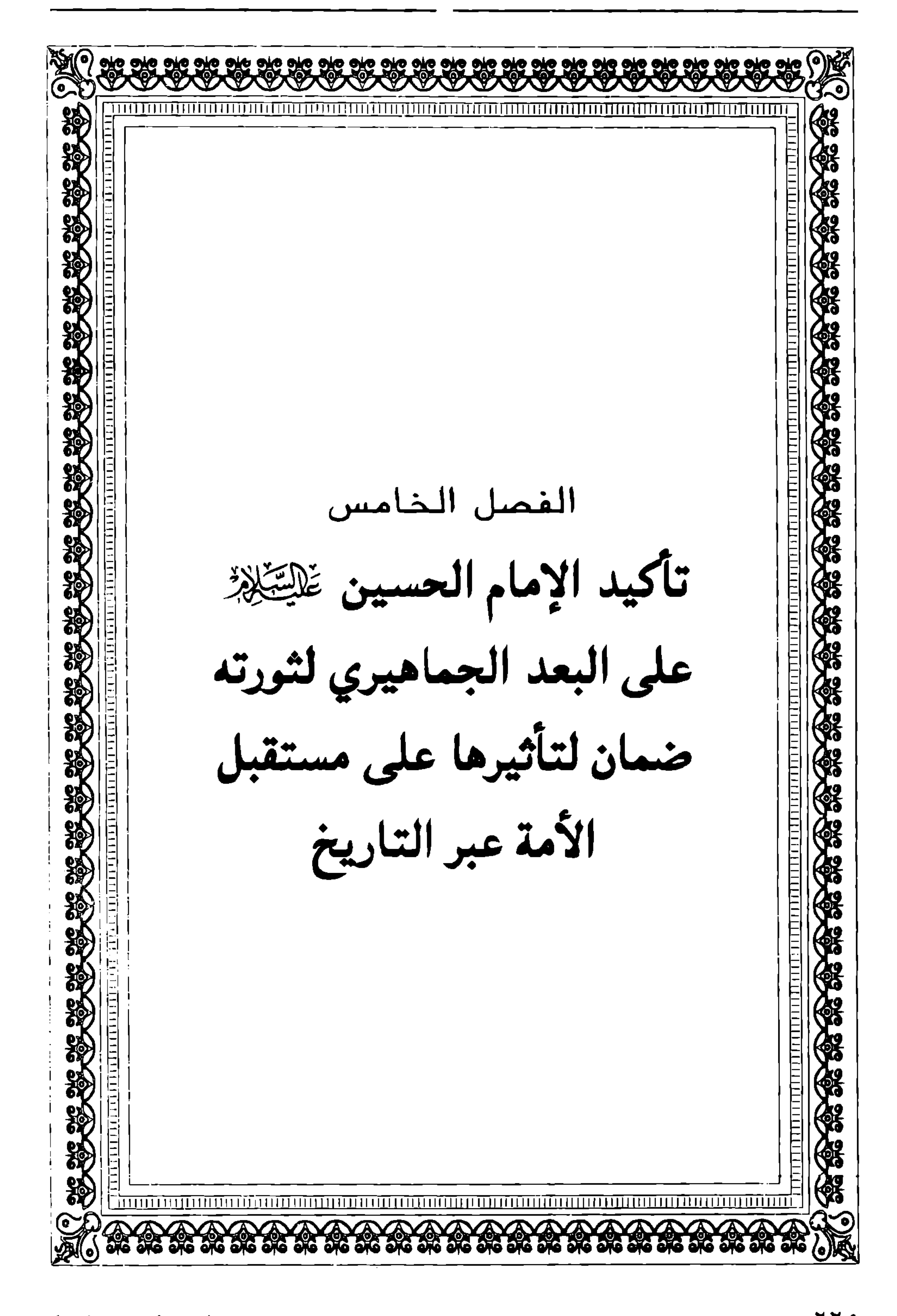
كان ينبههم بذلك على أنهم يضعون أنفسهم في الصف المعادي لرسول الله ﷺ حينما يحاربون ويقتلون آله وأوصياءه وحملة رسالته، ولم يكن في تلك الكلمات ما يشير إلى أنه كان يحاول استثارة عطفهم لكي يعفوا عنه فلا يقتلوه، فلو كان يريد مجرد

(١) ورد في اللهوف وبعض المصادر الأخرى أن الأبيات لفروة بن مسبك المرادي.

(٢) ابن عساكر، الجزء الخاص بريحانة الرسول المستل من التاريخ العام ص٢١٨، ومقتل الخوارزمي ج٢ ص٧/٨، واللهوف ص٤١/٤٢، وبحار الأنوار ج٤٥ ص٨/ ١٠، وجلاء العيون ج٢ ص١٧٧، ومقتل الحسين للسيد محمد تقي آل بحر العلوم ٣٧٨/ ٣٨٠.

ضمان سلامته لكانت اشارة واحدة منه تكفي لكي يشاركه يزيد حكمه، إذا ما استجاب له وقبل مبايعته. ولكان قد كفي مؤونة تجشم ذلك الموقف الصعب، ولما كان قد أشار إلى انحراف الدولة. وظلمها بتلك الكلمات الواضحة التي تثبت عداوته ونبذه لها ورفضه كل ممارساتها وألوان ظلمها لكنه كان يتحرق شوقاً لانقاذهم وابعادهم عن طريق الشر الذي سلكوه، وكان يريد أن يظلوا طليعة عقائدية مجاهدة تتقدم الأمة، لا مقدمة لأمة خائنة مستسلمة ذليلة، حتى لقد أوضح لهم أنه يريد الاستشهاد من أجل هذه الأمة، فهل كان عجيباً منه أن بذل جهوداً خارقة من أجل اقناع هذه الفئة التي تنصر الظالم وتندفع خلفه لتحقيق أهدافه ومطامعه، مع أنها هي الفئة المظلومة المسلوبة المباحة؟ لقد اقتيدت هكذا، وبهذا الشكل المهين لتقتل نفسها وتستأصل نفسها إذ تقدم على قتل قائدها وإمامها وخليفتها الحقيقي، لأنها ستكون حتماً هي الضحية التالية، ومن هنا كان تحذيره عليه السلام لهم بأنهم إن قتلوه، فإن الله سيلقى بأسهم بينهم ويسفك دماءهم، ثم لا يرضى لهم بذلك حتى يضاعف لهم العذاب الأليم.

إن هذه نتيجة حتمية لكل أمة خائفة مستسلمة تتخلى عن قيادتها الحقيقية القادرة على لم شملها، وتستجيب للانحراف، وتنقاد له، وتسير مغمضة الأعين خلف طواغيتها وكبرائها ومذليها وفراعنتها ومترفيها، وهي سنة إلهية تخضع لها كل الأمم التي تستجيب دون إرادة أو وعي لهؤلاء الحكام الفراعنة، وفي كل الأمم التي انتهكت حرمتها ومقدراتها، وأصبحت مجرد قطعان من الأنعام تنقاد بسهولة لجزاريها وجلاديها وقتلتها ورعاتها الأغبياء الجهلة.



الفصل الخامس

تأكيد الإمام الحسين عليه السلام على البعد الجماهيري لثورته ضمان لتأثيرها على مستقبل الأمة عبر التاريخ

تأكيد الإمام الحسين عليه السلام على البعد الجماهيري لثورته ضمان لتأثيرها على مستقبل الأمة عبر التاريخ

تمهيد

جعل الإمام عليه السلام الأمة تدرك البعد العام والجماهيري لثورته ضد الانحراف، ومع أن ادراكها ذلك كان ضعيفاً في البداية، إلا أنها بكل يقين علمت أن الحسين عليه السلام لم يكن يخوض صراعاً شخصياً يهمه خاصة، وإنما كان يحاول انقاذها وتخليصها من براثن الدولة الأموية المتسلطة، وكان اشتراك عدد من المسلمين ـ من غير عائلته ـ معه واندفاعهم بيقين قوي إلى حد تقديم أنفسهم شهداء في سبيل قضيته العادلة، ومواجهة آلاف الأعداء المدججين بالسلاح والمصممين على قتلهم، يدل على ادراكهم ووعيهم للقضية التي كان يخوضها عليه السلام وعلى فهمهم للأبعاد المستقبلية لها، والتي ستضع الأمة كلها أمام مسؤولياتها المباشرة، وعدم التخلي عن قضاياها ليخوضها ـ نيابة عنها ـ عدد محدود من أبنائها.

لم يكن أصحاب الحسين عليه السلام مجندين خلفه بقوة الغشم والاجبار والارهاب، غير أنهم كانوا يدركون أبعاد المسألة كلها، ويعون بشكل واضح مسؤوليتهم لاسناده والسير على خطاه لارجاع الأمة عن المنهج الأموي المضلل وعن كل منج مضلل في المستقبل.

ومع أن أعداداً كبيرة من أفراد الجيش الكوفي المجند كانت تدرك أن الحسين عليه السلام إنما كان يحمل قضية الاسلام العامة، وأنه لم يكن يخوض صراعاً على الملك والسلطان، وأنهم سيدركون أول المحررين من جور السلطة وارهابها، وإن ثورته في صالحهم وصالح الجماهير المسلمة المسحوقة المستغلة، إلا أنهم لم يملكوا قدراً من الجرأة وقوة الارادة الكافيتين لجلعهم يتخلون عن موقف الجلاد ـ والتضحية فيما بعد ـ على موقف الثوار، الذين يزعجهم ويقلقهم ذلك الخروج الصريح عن الاسلام الذي يتم في ظل الدولة الأموية.

لقد جعل الامام عليه السلام أصحابه يأخذون أدرواً مهمة لا في الاداء القتالي في

المعركة وحسب، وإنما بطرح القضية من قبلهم على أفراد جيش ابن زياد بشكل بدا معه واضحاً أنهم كانوا يدافعون عن الاسلام وعن الأمة المسلمة كلها، وأنهم إنما يتبنون موقف الحسين عليه السلام لأنه الموقف الجدير بانقاذهم من دولة الظلم.

وسنحاول في كتاب لاحق بعون الله، الحديث عن أصحاب الحسين عليه السلام تلك الطليعة البدرية الثانية، التي كان التحاقها بالحسين لمواجهة أعدائه بذلك الشكل الملحمي الرائع، دافعاً لأجيال عديدة من أبناء الأمة فيما بعد، لتلتحق به وإن لم تتح لها الفرصة لتكون من جنوده الأوائل، فقد كان سعيهم سعياً إنسانياً خالصاً، وكانت جهودهم ممكنة التكرار من قبل غيرهم، وبإمكان كل من أدرك رسالة الحسين عليه السلام أن يقف موقفهم بمواجهة دولة الظلم أينما كانت ، حتى ولو كان الحسين غائباً عن الساحة.

كانت الدعاية المضادة لآل البيت عليهم السلام منصبة منذ البداية في اتجاه يضعهم ضمن المتنافسين المحتملين الذين قد يتولون الخلافة، وقد حاولت تجريدهم من تلك الهالة الخاصة التي أحاطهم الله بها وشرفهم وكرمهم وحصنهم وأشاد بذكرهم، وذهبوا الى اعتبار ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله بحقهم نابعاً عن حب شخصي عاطفي لهم كما يفعل الآباء عادة.

وإذ تبوأ مركز الخلافة أناس، رأى معاوية أنه قد يكون أفضل وأشرف منهم، بل وحتى أكثر مؤهلات كذلك، فإن وجوده (خليفة) بعد ذلك جعله على يقين أنه يستطيع تمهيد الجو ليزيد من بعده، ورأى أن الأمر لا يستدعي سوى دعاية مركزة تتيح له تنصيبه باعتبار أنه يتمتع بكفاءات ادارية جيدة أو على حسب تعبير ابن كثير:

(لما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفته بالحروب، وترتيب الملك والقيام بأبهته)[1].

ودعاية مركزة أخرى تتيح له ابراز الحسين عليه السلام كمنافس على السلطة، حسود، عصبي المزاج يمكن اثارته بسهولة ووضع لذلك حكايات روجها ونشرها كما رأينا في غضون هذه الدراسة، ومع ذلك فإن نظرة واحدة إلى سيرة الحسين عليه السلام طيلة حياته ترينا أنه كان أبعد الناس مما حاول معاوية وأجهزة اعلامه الصاقه به، ومع

(١) ابن كثير ٨/ ٨٠.

كل ما كان يشعر به من آلام نتيجة تسلط معاوية، وسعيه لتنصيب يزيد ولياً للعهد بعد ذلك، فإن خطوته كانت أبعد ما تكون من العصبية والتسرع والشعور بالغبن الشخصي مع أنه كان كذلك يذوب شفقة على الأمة المغبونة بأسرها، والتي تقاد إلى واقع محزن حقاً، حينما يتسلط يزيد عليها ويتلاعب بمقدراتها.

وإذا ما زعم أحد أن الحسين عليه السلام كان يثور لنفسه، وكان يريد استعادة حقه في الخلافة، فإن الشواهد كلها تدل على عكس ذلك، مع أنه هاجم السلطة آخر الأمر وأعلن ثورته، ورفضه نظام يزيد على رؤوس الأشهاد.

لقد تحدثنا طويلًا عن دوافع الثورة ولسنا بحاجة لتكرار ما قلناه. غير أننا نتساءل هنا: ما هي دوافع أصحاب الحسين عليه السلام للثورة معه؟ هل الانتصار له شخصياً لعلاقة قربى أو ولاء شخصي له؟ أم لأنهم كانوا يرون ضرورة ثورته ومشاركة الأمة كلها بها، لأنها الشيء الوحيد الكفيل بمنع الانحراف، ولأنه الشخص الوحيد المؤهل لقيادتها وإيصالها إلى ما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله إيصالها إليه.

لقد صبغ أصحابه ولاءهم بالدم، وأقبلوا مستبشرين بالموت، لأن القضية كانت قضيتهم، ولأنه كان يريد انقاذ الأمة كلها، ولأنه كان يريد عودة الاسلام إلى موقعه الصحيح منها، وكان لكل دوره في هذه الثورة، وقد حاول الحسين عليه السلام أن يجعلهم يقومون بهذه الأدوار لتوعية أفراد الجيش المستنفر لقتالهم وقتلهم، وجعلهم يغيرون مواقفهم إلى صف الحسين عليه السلام لأنهم يكونون بذلك في صف الاسلام.

وكانت قناعاتهم بثورة الحسين عليه السلام ووقوفهم إلى جانبه بذلك الحماس الذي استسهلوا معه الموت، ومحاولاتهم اعادة أهل الكوفة إلى صوابهم، تؤكد بطلان المزاعم الأموية التي كانت تصور الأمر وكأنه صراع على كرسي الخلافة، إذ ما مصلحة هؤلاء مع الحسين عليه السلام إذا ما جلس على كرسي الخلافة؟ هل سيحصلون على المكاسب والمغانم الشخصية على حساب الآخرين في ظله؟ وهل لا يحصلون على هذه المكاسب والمغانم إذا ما قبلوا النظام القائم وقبلوا به؟ مع أن منهم من كانوا يعدون من الأثرياء والأشراف والوجهاء فعلًا، هل كان الموت يحقق لهم مكاسب شخصية أرضية كتلك التي يفكر بها ابن سعد مثلًا؟ أم أنهم كانوا يتخلون عن كل شيء ويقبلون على الموت بسعادة، لأنهم كانوا يعون قضية الحسين عليه السلام وعياً تاماً، ولأنهم أدركوا أن الثورة والتضحية والاستشهاد في هذا الموقف الدقيق أمر لا بد منه لمصلحة الأمة ولمصلحة الاسلام؟ هل كانوا يسيرون وراء قائد يتمتع بامكانات حربية

فائقة سيقهر بها أعداءه؟ أم خلف قائد يدعوهم للموت، لأنه السبيل الوحيد الذي يجعل أمتهم تبقى حية ويحصنها من الانحراف على مر الزمن، ويتقدم أمامهم في هذا السبيل.

الدور الإعلامي لأصحاب الحسين عليه السلام

كان اندفاع أصحاب الحسين خلفه، رغم علمهم أنهم مقبلون على موت محقق تفنيداً للدعايات الأموية المضللة التي تحاول ابراز الثورة وكأنها أمر منافسة على العرش، أو أن دوافعها قد تكون الحسد أو الخلاف الشخصي أو عقدة الكره بين الأمويين والهاشميين الخ، وشهادة إمام الأمة كلها دليل على أن الأمر أبعد من ذلك كله، وأن الحسين عليه السلام كان يخوض معركة مصيرية نيابة عنها، وكان من الواجب أن يشترك كل أبنائها في هذه المعركة، ولا يقفوا موقف المتفرج منها، أو يقفوا الى الصف المعادي المتمثل بالسلطة الجائرة والخارجة عن الاسلام.

لقد جعلهم الحسين عليه السلام يؤدون مهمة تبليغ الناس أسباب الثورة ودوافعها، ويوصلون إليهم قناعاتهم بضرورتها وجدواها، وكان اشراكهم في مهمة حث الناس على الوقوف إلى جانبه وترك عدوه، يدل على أنه كان يريد تفويت الفرصة على ذلك العدو لنشر مزاعمه وأباطيله بشأن الثورة، وعلى أنه كان يريد الأمة أن تقف موقف أصحابه، وتتبنّى تلك المواقف وتتخلى عن استسلامها للحكم الجائر وخوفها منه.

وقد جرت حوارات عديدة بين الحسين عليه السلام وأصحابه، وبينهم وبين بعضهم الآخر، وبينهم وبين بعض أفراد جيش ابن زياد، دلت على أن أولئك الأصحاب كانوا يتمتعون بمستوى عال من الوعي والادراك، جعلهم على يقين من ضرورة الثورة ضد النظام الأموي. وفي ذلك الظرف الدقيق بالذات، ولم يتراجعوا أو ينكلوا في كل مراحل الطريق الذي انتهى بكربلاء، رغم سماح الحسين عليه السلام لهم بذلك، ورغم ادراكهم أن مصير الموت ينتظرهم هناك، وأنه أمر محتم لا بد منه، إذا ما واصلوا مسيرتهم معه، وكانوا بذلك يبرهنون على أن الثورة لم تكن تخص الامام عليه السلام وحده، وأن مسؤولية المشاركة بها تقع على عاتق الجميع، وأنها اذا ما نجحت فستجني الأمة كلها المكاسب من وراء ذلك، لأنها هي صاحبة المصلحة الحقيقية من الثورة، وليس الحسين عليه السلام وحده، وليسوا هم وحدهم.

لقد كانت حوارات الامام وأصحابه مع أعدائهم، تؤدي عادة إلى اسكات

أولئك الأعداء وافحامهم، فقد كانت إيراداتهم وحججهم التي أوردوها بشأن قدومه واعلانه الثورة قوية مقنعة، لم يملكوا أمامها ربما سوى الاطراق والسكوت، وربما بادر بعضهم ممن لا يتمتع بأي قدر من الخلق الحسن والمنطق السليم إلى سب أصحاب الحسين عليه السلام وإعلان شماتته بهم، وبما هم مقبلون عليه، وهم يعتقدون أنه الرد المناسب على حجج الامام القوية، وحجج أصحبه كزهير ابن القين وبربر بن خضير، بعد أن لم يجدوا الرد الصحيح،

إنها المكابرة والعجز والعزة بالاثم، تغلب على نفوس بعض أولئك الشامتين العاجزين الذين تعطلت عقولهم واراداتهم، وانساقوا وراء نزعات الشر والعدوان، ولم يجدوا غير بضاعة الشتائم والكلام الوقح القبيح، يتعاملون بها في ذلك الموقف الصعب المحرج.

إن الحوارات التي تبدو لنا في غضون الأحداث المهمة التي جرت في معركة الطف وقبلها، تكشف لنا عن صدق التوجه الواعي المتبصر لأصحاب الحسين عليه السلام، وتكشف عن الفراغ والخواء والتجرد من روح المسؤولية والاستسلام لدى أولئك الذين كانوا في الصف المقابل جنوداً ليزيد وابن زياد، كما أنها تكشف عن زيف الادعاءات والتبجحات التي قد تصدر عن هذا الشخص أو ذاك بتأثير الشعور بالقوة المظهرية الطارئة التي قد يشعرون بها تجاه ما يبدو أمامه من قوة قليلة لأصحاب الامام عليه السلام بحكم قلة عددهم وقلة تجهيزاتهم، ما أنهم شعروا في النهاية أنهم كانوا أضعف من تلك الفئة القليلة، التي واجهتهم بكل شجاعة وصبر وهي تقف خلف الحسين عليه السلام وتسانده حتى الرمق الأخير، وأنهم لم يكونوا سوى أدوات طيعة استخدمتها الدولة الغاشمة لتنفيذ أغراضها دون أن يكون لهم حق المشاركة في القرار، أو النقاش أو التفاهم حتى حول أسلوب هذه المعركة المذبحة أو شكلها أو ادارتها.

لقد أمليت عليهم خطواتها التفصيلية إلى حد رأينا فيه عبيد الله بن زياد، أرسل وهو في قصره يأمر ابن سعد بأن يوطىء صدر الحسين وظهره بعد أن يقتل ويذبح مبرراً ذلك بقسم كان قد صدر عنه، وكان عليه أن يبر به على حد زعمه، وقد استجاب ابن سعد طائعاً ذليلاً، مع أنه لم يكن بحاجة إليه بعد أن نفذ الجريمة الأساسية، وهي قتل الحسين عليه السلام، وكان يمكن أن لا يفعل ذلك ويكتفي بقتله عليه السلام، خصوصاً وأن ذلك الفعل كان سيزيد سمعته تلطخاً وسواداً أمام جماهير المسلمين، الذين لا بد وأن يسمعوا بتفاصيل الحادث، وسيستنكرون ذلك الفعل، وهو ما حدث بالفعل، وجعل

الجلادين الثلاثة (يزيد وابن زياد وابن سعد) يرمون وزر جريمتهم على بعضهم أو على آخرين مثل شمر، ويحاولون التنصل منها ومن بعض المواقف المخزية الأخرى التي قام بها كل واحد منهم.

إن أولئك الذين حاولوا أن يظهروا بمظهر القوة والبطولة الموهومة أمام الناس، كانوا يريدون منهم أن ينحنوا لهم دائماً وأن يوافقوهم على آرائهم واطروحاتهم، حتى ولو كانت سخيفة فجة، ويريدون منهم أن يهزوا رؤوسهم دائماً هزة الموافقة والاستحسان.

ولم يدر بخلدهم أن أحداً ما (أضعف منهم)، قد يجرؤ على مواجهتهم أو رد مزاعمهم وأباطيلهم، مثلما يكون الأمر معهم هم، حينما يجدون أنهم لا يملكون أن الجرأة على الوقوف بوجوه أسيادهم، ورد أقوالهم وتفنيدها، وإن بدت هذه الأقوال في نظرهم باطلة وسخيفة.

أصحاب الحسين عليه السلام نموذج للمشاركة الواعية المدركة

لقد أراد الحسين عليه السلام أن تبدو مشاركة أصحابه في المعركة منطلقة من إيمانهم وادراكهم لأهميتها، وذلك ما يوضح للأمة كلها خصوصاً إذا ما علمت أنهم لم يكونوا جميعاً من أقاربه وأهل بيته، وأنهم كانوا من قبائل ومستويات اجتماعية شتى، وأن بعضهم كان محسوباً على الجهة المعادية له حتى وقت قريب، إن القضية لم تكن قضية الحسين خاصة، وأنها كانت قضيتها كلها.

إن مشاركتهم بتلك العزيمة الصادقة وذلك الاندفاع الكبير ومسارعتهم للقاء العدو والموت قبل قائدهم الحسين عليه السلام وبين يديه، وادراكهم لما هم مقدمون عليه ومحاولاتهم المتكررة لنصيحة الجند المستنفرين لقتالهم وارشادهم، ومحاولة ثنيهم عن الاستمرار وراء قيادتهم المنحرفة، من شأنه ابطال المزاعم الأموية بشأن أهداف الثورة وتوجهاتها.

لقد ظلت عزيمتهم الصادقة وحواراتهم التي دلت على وعيهم وفهمهم الدقيق للاسلام، مبعث تأمل لأجيال كثيرة من المسلمين حتى يومنا هذا، وجعلتها تدرك أن المعركة التي خاضوها هي معركة الاسلام ضد أعدائه، لا معركة أطراف متنافسة على السلطان والملك كما زعمت الدعاية الأموية المضللة.

خطاب زهير بن القين بذي حسم

ألقى زهير بن القين خطابه (بذي حسم) بعيد سماعه خطاب الامام الحسين عليه السلام [(1)] الذي وجهه لأصحابه، وكان زهير ذا ميول عثمانية على حد تعبير أحد جنود ابن سعد، ولم يكن من أصحاب الحسين الأوائل. (ولم يكن شيء أبغض إليه من أن يسايره في منزل)، وقد التحق بالحسين في المراحل الأخيرة من الطريق، كان خطابه يدل على وعي تام بما استهدفه الحسين من ثورته، رغم الفترة الزمنية القصيرة التي قضاها معه، وعلى فهم للمهمة التي يكاد فصلها الأخير أن ينجز في الطف.

كان زهير بن القين يبدون بمظهر المبتهج بموقفه الجديد الى جانب الحسين عليه السلام مع أنه كان يعد من أعدائه في السابق، ورغم كل ما قد يجره هذا الموقف من متاعب قد تنتهي بالموت، الذي بدا نتيجة طبيعية لمسعى الحسين الكبير، للوقوف بوجه الانحراف ومنعه، فإن زهير بدا دائماً بمظهر القيادي البارز الذي يشهر أسلحته كلها في المعركة.

خاطب أصحابه بعيد سماعه خطاب الحسين عليه السلام قائلاً:

(تكلمون أم أتكلم؟ قالوا: لا بل تكلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

قد سمعنا هداك الله يا بن رسول الله مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك، لآثرنا الخروج معك على الاقامة فيها)[(2)].

كان خطاب الحسين عليه السلام لأصحابه يبدو وكأنه مناجاة لهم اختصهم بها دون الأمة، فخطاباته العامة الأخرى، كان معظمها موجهاً لأفراد الجيش المستنفر لقتاله، وكانوا يبدون وكأنهم الوحيدون المؤهلون لفهمه واستيعابه، ولم يكن عليهم أن

---

(١) وقد جاء فيه: (إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدينا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها واستمرت جذاء، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً. فإني لا أرى الموت إلا شهادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً. .) الطبري ٣/ ٣٠٧، وراجع بقية المصادر التي ذكرناها.

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٧، وراجع بقية المصادر التي ذكرناها في هذه الدراسة.

يجيبوه بخطابات مطولة يبدون فيها استعدادهم لنصره ومواساته، فمسيرهم معه إلى نهاية الشوط دليل أكيد على ذلك، غير أنهم لا بد أن يعبروا عن شعورهم تجاهه، ولا بد من كلمة، ترى الأمة كلها من خلالها مدى استعدادهم لنصرة الحسين عليه السلام وهو ينصر الدين.

وكانت كلمة زهير تعبر عن عاطفة الولاء الصادق للاسلام، إذ تشيد بالحسين تلك الاشادة وتعبر عن استعداد أصحابه للموت معه.

فعندما عزم ابن سعد على الهجوم على معسكر الحسين عليه السلام بعد صلاة عصر اليوم التاسع من محرم، أرسل الحسين أخاه العباس في عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر، ليستقبل ابن سعد وجنده ويسألهم عن سبب قدومهم، فأخبر أن أوامر ابن زياد وردت، وفيها يعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمه أو منازلتهم، وعندما عاد العباس عليه السلام بالخبر إلى الحسين عليه السلام بقي أصحابه يخاطبون القوم.

وقد عرض حبيب على زهير أن يكلمهم أولًا إن شاء، إلا أن زهير طلب منه أن يكون هو البادىء.

(فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه عليه السلام وأهل بيته صلى الله عليه وآله، وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالاسحار، والذاكرين الله كثيراً)[1].

وقد حاول حبيب هنا أن يثنيهم عن عزمهم لقتال الحسين عليه السلام وأن يعيدهم إلى الأجواء التي عاش المسلمون في ظلها وهم يرون لرسول الله صلى الله عليه وآله قداسة فرضها الله تعالى، وفرض معها حباً له ولآله عليهم السلام، لا يصح إيمان بدونه، وكان لا بد أن يتذكروا في ذلك الموقف المنزل الرفيع لهم عند الله، وأن يتراجعوا عما أزمعوا الاقدام عليه، أما وقد بدا أنهم مصرون على حربهم، فلا بد أنهم بئس القوم عند الله.

كان حبيب يبدو وكأن حياته شخصياً آخر ما كان يفكر فيه، وقد اندفع محاولًا رد القوم عن الحسين وأصحابه ومنعهم من قتالهم، وكان وصفه إياهم بتلك الصفات التي ذكرها في كلمته القصيرة الواضحة نابعاً عن قناعته ومعرفته بأنهم كذلك بالفعل،

(١) الطبري ٣/ ٣١٤.

ولم يكن في تلك الكلمة القصيرة ما يماثل تلك التبجحات الجاهلية التي ألفها العرب، ولا فخر المرء بنفسه عند النزال، فالمعركة لما تبدأ بعد وحبيب لم يزيد أن عرفهم بتلك النخبة التي كانوا على وشك ارتكاب جريمة قتلها.

وقد انبرى أحد أصحاب ابن سعد (عزرة بن قيس) للرد على حبيب، حاسباً أنه قد يستطيع اسكاته بجوابه، وقد قال له:

(انك لتزكي نفسك ما استطعت)[1].

لم يستطع عزرة أن يقول أن أصحاب الحسين لم يكونوا كذلك بالفعل، ولا بد أن أصحاب ابن سعد استعرضوهم وتذاكروا بشأنهم وثبت لديهم أنهم فعلًا صفوة من المؤمنين، ولم يكن هناك ما يشير إلى أنهم كذلك، وإذ انبرى عزرة متطوعاً للرد على حبيب، فإنه لم يستطع إلا أن يقول ما قاله، وهو يعلم كما علم أصحابه، أن أنصار الحسين عليه السلام كانوا كما وصفهم حبيب فعلًا.

زهير بن القين يتصدى للرد على أحد أصحاب ابن سعد

وهنا تصدى زهير للرد على عزرة، وقد دار بينهما حوار جدير بالتأمل:

(قال له زهير: يا عزرة، إن الله قد زكاها وهداها، فاتق الله يا عزرة، فإني لك من الناصحين. أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية.

قال: يا زهير، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت. إنما كنت عثمانياً.

قال: أفلست تستدل بموقفي هذا أني منهم. أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط، ولا أرسلت إليه رسولًا قط، ولا وعدته نصرتي قط، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام)[2].

كان جواب زهير يدل على أنه اختار موقفه بوعي ـ وانه إنحاز للحسين عليه السلام بعد أن التقى به في الطريق ـ وقد وازن في ذهنه بين موقف الحزب الأموي الذي حشد

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١٤.

كل هذه الجموع لقتال الحسين عليه السلام، وبين موقف الحسين عليه السلام سليل رسول الله صلى الله عليه وآله وممثله الحقيقي، وهو يسعى رغم قلة أعوانه وكثرة عدوه، لمنع الانحراف وإيقافه، فقرر أن يكون إلى جانب الحسين وأن ينصره ويكون من جماعته وفي حزبه على حد تعبيره طالما أن حزبه هو حزب الله. وبدا أن قراره هذا كان نهائياً لا رجعة فيه، وإن كان ثمن ذلك سيكون الموت دونه، وهو ثمن باهظ دون شك، غير أنه يهون دون القضية الكبيرة التي رفعها الحسين عليه السلام، وقرر فيها أن يخترق الحشد الكافر الكثيف الذي نظم صفوفه للقضاء على الاسلام قضاء نهائياً.

كانت حجة زهير واضحة وكان جوابه مقنعاً، فهو لم يكترث بعشرات الآلاف من الجند الذين جمعوا لمواجهة الحسين وأصحابه وقتلهم، وكانت حياة الحسين وحده لها قيمة حقيقية بنظره، فهو ممثل الرسالة وحاملها الأول، وهو العالم الرباني ووريث علم رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو المؤهل الوحيد لقيادة الأمة وانقاذها من الانحراف والضلال، وستكون الأمة باقدامها على التخلي عنه وقتله قد أقدمت على أكبر جريمة بحق الاسلام، وتكون قد فقدت مبرر وجودها وقيامها كأمة اسلامية، تتمسك برسول الله صلى الله عليه وآله حقاً وتواليه، وتوالي أولياءه وتعادي أعداءه، وإلا فإنه أمر غريب أن تقدم الأمة المسلمة على قتل قائدها دون مبرر، اللهم إلا استجابة لأوامر أعداء الاسلام، وهو أمبر بدا أن زهير لا يمكن أنْ يهضمه أو يقره، فهم بذلك يضيعون حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وآله، وهو لا يريد أن يضيع من حقهما شيئاً، ولا يريد إلا أن يرى الاسلام صافياً بالمنظار الذي أراده الله ورسوله صلى الله عليه وآله أن يراه منه.

ولم يكن ذلك آخر كلام وجهه زهير لأفراد جيش ابن سعد، وربما كان يحسب أنهم سيتحولون، بنفس السهولة التي تحول هو بها الى جانب الحسين عليه السلام، وقد كان قبل ذلك عثمانياً، أي أموياً يتبنى فلسفة معاوية ونظرته، وربما حسب أنهم يملكون وعياً وقدرة فائقة على الفهم كوعيه وفهمه هو، ليدركوا بعد استماعهم إلى عبارات أو كلام بسيط واضح ككلامه هو معه أنهم كانوا على خطأ، كما أدرك خطأه بعد استماعه إلى كلام الحسين عليه السلام.

وقد تكلم الحسين عليه السلام معهم أيضاً، وحاول اقناعهم بالتخلي عن دولة الظلم والانحراف، والالتحاق به، وكان ذلك كافياً بنظر زهير ليتحولوا إلى صفه، وإلا فإنهم إذا فعلوا العكس، وظلوا على موقفهم المعادي له، فإنهم بذلك يعلنون عداءهم للاسلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله.

زهير بن القين يخطب في القوم ثانية

لقد برز زهير إليه قبيل زحفهم على الحسين على فرس له ذنوب، شاك في السلاح. فقال:

(يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار. إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن حتى الآن أخوة، وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل. فإذا وقع السيف فانقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة. **إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم** عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمد سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانىء بن عروة وأشباهه)[1].

كان كلام زهير كلام القوي المقتدر المؤمن بهدفه المدافع عنه يبدو محاولة مخلصة لتوفير حياة أعدائه وجهدهم، وكانوا بنظره هم المعرضين للخطر لا هو وأصحابه القلائل الذين وقفوا الى جانب الحسين عليه السلام، ولم يكن في كلامه ما يشير إلى أنه كان يشعر بأدنى خوف منهم، بل أنه كان يخاف عليهم، يخاف أن يخرجوا من ملة الاسلام، فيصبحوا أمة غريبة لا تنتمي إليه ولا تدين به.

وقد دعاهم صراحة إلى نصرة الحسين عليه السلام وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، وكان استعراضه لبعض أفعاله وأفعال أبيه زياد من قبل، وعدم تحرجه من نعته بالطاغية يدل على أنه لم يكن أمامه إلا شبحاً هزيلاً غير جدير أن يخاف منه حتى أضعف الناس، فكيف به، هو الذي حمل قضية الامام الحسين عليه السلام، وتبنى قضية الاسلام الذي أوشك أن يدمر ويبعد عن الحياة.

ولا شك أن موقف كل واحد من أصحاب الحسين عليه السلام كان مشابهاً لموقف زهير، والا لما اندفعوا وراءه ذلك الاندفاع البطولي، وبذلوا انفسهم نفسه.

ولا شك أن من أرتضى الانحياز ليزيد وحزبه، كان يرى في كلام زهير شتيمة له هو شخصياً، وادانة له خاصة، ولم يكن من المتوقع أن يسكت هؤلاء عن كلام زهير

(١) الطبري ٣/ ٣١٩/ ٣٢٠، وتراجع بقية المصادر التي ذكرناها في هذه الدراسة.

وأن لا يردوا عليه، وإذا افتقدوا الرد الموضوعي المنطقي، فلا بد أنهم سيلجأون إلى أسلوب الشتائم والسباب، يحاولن به اسكاته ومنعه من الاستمرار في كلامه، لكي لا يتأثر به من يستمع إليه.

(فسبوه، وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً)[١].

كان جواباً لا يدل على وعي أو فهم، وقد بدا أن قائليه من استسلموا نهائياً، ولم يعودوا يرون أمامهم إلا سلطان يزيد، وقوة يزيد وممثل يزيد، ولم يحاول أحد منهم أن يقنعه كما حاول هو اقناعهم، بالعدول عن موقفه والانضمام إليهم، لأنهم كانوا يتبنون موقفاً عادلاً ونزيهاً وقريباً إلى الاسلام.

وقد توجه إليهم مرة أخرى قائلاً:

(عباد الله، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم)[٢].

كانت المقارنة بين أبناء سيدة نساء العالمين ومن أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً. وبين ابن البغي المشهورة سمية، صاحبة الراية في الجاهلية كفيلة باثارة كل من يشعر بانتماء حقيقي لهذا الدين الحنيف..، فهل من المعقول أن يتخلى الناس عن أبناء فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ويختارون نصر ابن سمية، ويذهبون إلى المدى الذي ينفذون به كل رغباته وفي مقدمتها قتل الحسين وآله وأصحابه؟

كان أمراً مخجلاً حقاً ومثيراً حقاً، ولم يكن بالامكان مواجهته إلا بنبذ الخجل والحياء تماماً، وإظهار الوقاحة الجديرة بابن زياد وحاشيته، مثل شمر الذي رماه بسهم وقال له:

(اسكت، أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك. فقال له زهير: يا بن البوال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين. فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣٢٠.

فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

قال: أفالبموت تخوفني، فوالله للموت معه أحب إلي من الخلد معكم، ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد ﷺ قوماً هراقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم)[١].

أصبح زهير، كما أصبح الحسين عليه السلام صاحب قضية واضحة، وما أرادت يد الانحراف السوداء اخفاءه عنه طيلة حياته، بدا أمامه واضحاً الآن، فالحسين عليه السلام يحمل قضية رسول الله ﷺ نفسها بمواجهة الجاهلية القديمة، التي يلبسها يزيد ثوباً إسلامياً في ظاهره، وقد نسجه معاوية من أباطيله وأضاليله، وترك الناس حيارى في أمره، ولا بل لكل مخلص للاسلام ورسوله ﷺ، أن يحمل هذه القضية وأن يدافع عنها مهما كان الثمن.

وإذا ما كان أمثال ابن زياد، يجدون دائماً أمثال شمر يدافع عنهم بالسباب والقول البذيء الفاحش، ويشهر السيف بوجه أعدائهم، فليس معنى ذلك أنهم على حق، وإلا فلماذا لا يلجأون إلى الحجة القوية الدامغة، يسكتون بها حجج أعدائهم من أمثال زهير، إذا ما كانت لديهم مثل تلك الحجة.؟

جيش ابن زياد يضعون أصابعهم في آذانهم

لم يكن بالامكان توجيه كلام أكثر تأثيراً من كلام زهير، بعد أن استمع الجميع إلى كلام الحسين عليه السلام ومع ذلك تجاهلوه ولم يستجب له سوى نفر محدود منهم.

ومنهم كان يمكن أن يقال لأولئك القوم أكثر مما قاله زهير؟ ومع ذلك فلم يستجب له أحد، وبدا أن الحشد الذي تألف منه جيش ابن زياد، كان فاقد الارادة تماماً، وإذا ما كان قد عزم على شيء، فإنما على البقاء جثة هامدة بين أيدي أعوان السلطة، يقلبونه كيفما يشاؤون ويسيرونه وفق هواهم وأغراضهم.

كان الجميع مصممين على أمر واحد، وهو عدم الاستماع لحجج أصحاب الحسين، تماماً كما كان يفعل المشركون في زمن الجاهلية الأولى إذ يضعون أصابعهم

(١) المصدر السابق.

في آذانهم ويصرخون ويعربدون ويسخرون ويضحكون، لئلا يصل إليهم صوت الرسول الكريم وأصوات أصحابه، وهي تردد آيات الكتاب العزيز، وتدعوهم إلى الله وإلى دينه القويم.

ومقابل ذلك (التصميم) الأجوف على الاستسلام والهزيمة أما ابن زياد وأربابه، بدا تصميم مقابل حقيقي من أصحاب الحسين عليه السلام على عدم الاستسلام، ومواجهة ابن زيادة وجيشه الكثيف الذي أعده لمقاومتهم وقتلهم، رغم أنهم كانوا يستطيعون حتى الليلة الأخيرة، ترك معسكر الحسين عليه السلام والنجاة بأنفسهم، وربما تساهل العدو الذي كان يطلب الحسين خاصة، بذلك، وفسح لهم المجال للهروب. . .، وقد أشار الحسين عليه السلام إلى ذلك وسمح لهم بالذهاب إن رغبوا في ذلك، وربما كان يريد أن يتيح لهم فرصة أخرى يراجعون فيها أنفسهم، ويدققوا في مواقفهم ليتصرفوا على ضوء تقويمهم وفهمهم للأمور، لا على ضوء العاطفة المجردة، أو الحماسة الطارئة أو الولاء العائلي كما زعم البعض. فعلًا فيما بعد مدفوعين بالمزاعم والأباطيل الأموية.

الحسين عليه السلام يتيح لأصحابه حرية اتخاذ قرار المشاركة بالمعركة

كان أعداد الحسين عليه السلام لأصحابه لتقبل ذلك الموقف الدقيق، موقف الموت في عرصة كربلاء يستهدف اتاحة الفرصة لهم لاتخاذ القرار النهائي بالبقاء معه مدافعين عن الاسلام، وهم يعون طبيعة المهمة التي يقومون بها، فهل كانت حقاً تستحق منهم بذل دمائهم وأرواحهم، أم أن الأمر أمر فورة عاطفية ستنتهي بقتلهم.

لا شك أن اللحظات القليلة المتبقية لم تكن لتترك لذي لب لباً، لو أنه لم يكن يحمل قضيتهم الكبيرة لحماية الاسلام، وهو ما تجلى أمامهم بوضوح خارق، أنه أهم من سنوات حياتهم المتبقية.

فبعد ساعات سيقدم الحسين عليه السلام نفسه، ولا شك أنها عزيزة لديه، لكي يحفظ هذا الدين ويسجل موقفاً فريداً بدمه لن تنساه الأمة كلها فيما بعد، وستسارع فئات عديدة منها للحاق بموكبه، وستقدم دماءها مثله لنفس السبب الذي دعاه إلى ذلك.

وها هم الآن أصحابه معه فعلًا، فهل يستطيع أحد منهم تقبل فكرة التخلي عنه وعن هدفه الكبير لحماية الاسلام؟ ذلك ما دلت عليه أجوبتهم الحازمة القاطعة.

العباس عليه السلام أول من أجاب

قال له العباس عليه السلام وقد بدأهم بهذا القول:

(لم نفعل، لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً)(١).

وقال له بنو عقيل:

(فما يقول الناس، يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنو عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك)(٢).

وقال مسلم بن عوسجة:

(أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمة في يدي، ولا أفارقك ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك)(٣).

وقال سعيد بن عبد الله الحنفي:

(والله لا نخليك حتى يعلم الله إنا حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا، ثم أحرق حياً، ثم أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً)(٤).

وقال زهير بن القين:

(والله لوددت أني قتلت، ثم نشرت ثم قتلت، حتى أقتل هكذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك).

(وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قتلنا كنا وفينا، وقضينا ما علينا)(٥).

---

(١) - (٥) الطبري ٣/٣١٦، وتراجع بقية المصادر الأخرى التي ذكرناها في هذه الدارسة.

أصحاب الحسين عليه السلام يتخذون قرار المشاركة في المعركة بكل حرية ووعي

كان قرار أصحاب الحسين عليه السلام واضحاً وقاطعاً، وكان قولهم بعيد اللحظات التي أعدهم فيها الامام لمواجهة الموقف ودراسته وتأمله، يبدو قراراً لا رجعة فيه.

فهم قد فكروا وتدبروا وتأملوا جيداً وبدا أمامهم صواب موقف الامام ونهجه، ولن يعود بوسع أحد أن يقول أنهم سيترددون لحظة واحدة في الدفاع عن الحسين وقضيته والموت دونه، وهذا ما عبرت عنه أجوبتهم التي إن حفلت بالعاطفة والولاء، فهي عاطفة الولاء للإسلام، وممثله الحقيقي الذي كان يشخص أمامهم، وهو الحسين عليه السلام الذي كان يسعى لتقديم نفسه فداء لهذا الاسلام.

هذا ما ظهر أمامهم واضحاً، بل خارق الوضوح، فكيف لم تر الأمة كلها ما رأوه هم؟ وأية غشاوة كبيرة وضعت أمام أعين أبنائها لكي لا يدركوا الهدف الواضح كالشمس من هذه النهضة الكبيرة؟

هل كانت أجوبة أولئك الأصحاب تعبر عن ولاء جنود لقائد مهزوم طالما أحبوه وحاربوا تحت لوائه، أم أنها تعبر عن ولاء أبعد من الولاء الفردي المجرد، أنه الحب الكبير لله ولرسوله صلى الله عليه وآله ولدينه؟

ولو أن الكلمات بقيت وحدها دون فعل حقيقي يعبر عنها، لما كان لها أي وقع، ولما عدنا نرددها ونعجب بها ونتمنى أن نوفق للوقوف موقف أصحابها، لكنها كلمات قرنت بالفعل الجاد الحازم، ومن هنا يبدو سر قوتها ونفاذها وتأثيرها إلى يومنا هذا.

كان إعداد الامام لأصحابه لتقبل أصعب المواقف وأشقها في سبيل الاسلام، يبدو أمراً مدروساً وموضوعاً بعناية، فموقفهم وهم يدعون الآخرين للالتحاق بهم لا يشكل حالة سلبية بل يشكل أمراً إيجابياً، فالدعوة تحتاج إلى من يتبناها ويدافع عنها ويدعو لها بوضوح وهو ما فعلوه بالضبط، وإذ لم يروا أنفسهم قلة، فإن الحسين عليه السلام لم يرهم كذلك، كما أن الرسول صلى الله عليه وآله من قبل لم ير أصحابه القليلين الأوائل كذلك من قبل.

دلالات حرص الحسين عليه السلام على اشتراك أي فرد من الأمة في ثورته

وكان انضمام شخصه فرد إليهم يشكل بنظرهم مكسباً كبيراً لا يستهان به، إذ أن من ينظم إليهم كان يبدو أنه بسبيل تقديم تضحية لا يقدر عليها الآخرون، وهو ما جعل لذلك قيمة كبيرة، إذ أن في ذلك اعلان أن هناك من لا يزال يرى قيمة الاسلام العليا وحسب، ولا يرى أية قيمة لأية مباديء أو تطلعات أخرى، مهما ادعت القرب من الاسلام ويرى أن التضحية في سبيل هذه القيمة هينة مهما بلغت، ومن هنا جاءت دعوة الامام عليه السلام ودعوة أصحابه بعض من التقوا بهم للالتحاق بهم، إذ أن الرقم الفرد ستكون له قيمته الكبيرة نظر الأمة فيما بعد، إذا ما التحق بوعي بالمسيرة المظفرة للمدافعين عن الاسلام من أصحاب الحسين عليه السلام، وأبدى استعداده لتقديم التضحية اللازمة.

روى الطرماح بن عدي أنه:

(دنا من الحسين فقال له: والله إن لأنظر فم ارى معك أحداً، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازمينك لكان كفي بهم، وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم، ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم ترى عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم، فقيل: اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرحون إلى الحسين، فأنشدك الله إن قدرت على ألا تقدم عليهم شبراً إلا فعلت)(١).

فها هو منظر يستعرضه الطرماح بن عدي أمام الحسين عليه السلام، وفيه يبدو موت الحسين المؤكد وأصحابه ان هم قدموا الكوفة، ومع ذلك فإن الحسين لا يستجيب لنصيحة الطرماح ويقرر اكمال مسيرته، رغم أنه عرض عليه أن يدعو مقاتلي قبيلته طيء وهم عشرون ألف طائي يضربون بين يديه بأسيافهم على حد قوله،

ومع ذلك فإن الطرماح عندما ودعه وقال له أنه قد امتار لأهله من الكوفة ميرة، ومعه نفقة لهم وأنه سيأتيهم فيضع ذلك فيهم ثم يعود ليكون من أنصاره، سر الحسين عليه السلام وقال له:

(فإن كنت فاعلًا فعجل رحمك الله)(٢).

وهنا يلتبس الأمر على الطرماح، الذي ذهب إلى أهله، ثم عاد ليلتحق بالحسين عليه السلام فوجد أنه قد قتل، ليقول لنا بعد ذلك:

---

(١) و(٢) الطبري ٣/٣٠٨.

(فعلمت أنه مستوحش إلى الرجال، حتى يسألني التعجيل)[1].

لقد فات الطرماح حقيقة موقف الحسين عليه السلام، فكيف يستوحش إلى الرجال من يقدم على الجموع المعبأة لقتاله؟ أما أكان أحرى به أن يلجأ معه إلى قومه من طيئي يضربون بين يديه بأسيافهم ويتفادى جيوش ابن زياد؟

لم يكن أصحاب الحسين عليه السلام قليلين بنظره، فكل منهم يشكل داعية كبيراً للاسلام، ويشخص أمام الأمة رسولًا من رسله الذين ساروا خلف الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله منذ أن بدأ دعوته وقريش كلها تناجزه وتناصبه العداء، وإذ لم ير الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في علي طفلًا وفي خديجة مجرد امرأة ضعيفة، وفي ياسر وسمية شيخين عاجزين وفي بلال عبداً رقيقاً، بل رأى أنهم سيكونون النواة القوية لأمة الأسلام كلها، كذلك لم ير الحسين عليه السلام في أي شخص من أصحابه امرءاً يمكن الاستغناء عنه، بل رأى أنهم مكملون لركب الرسالة الأول، الذي بدا ضعيفاً بنظر قريش وأعداء الاسلام، ورأى أن أي شخص يلتحق من أصحابه امرءاً يمكن الاستغناء عنه، بل رأى أنهم مكملون لركب الرسالة الأول، الذي بدا ضعيفاً بنظر قريش وأعداء الاسلام، ورأى أن أي شخص يلتحق عن قناعة وفهم بركبه سيكون عنصر قوة إضافية لتلك النواة التي بناها الرسول صلى الله عليه وآله. ومن هنا كان حرصه على نصيحة من يستشف أنهم قد يكونون مؤهلين للمسير معه والمساهمة بثورته.

الحر الرياحي يحاجج جيش ابن زياد

وكان حوار الحر مع أصحابه القدامى، بعد أن اختار الوقوف إلى جانب الحسين عليه السلام في أدق مرحلة كانت تشهدها المعركة، أي عندما أحاط جيش ابن زياد معسكر الحسين عليه السلام، يدل على حس الحر المرهف وشعوره بحقيقة المعركة، فلا بد أنه اختار الوقوف إلى جانب المعسكر المنتصر، وهو معسكر الحسين عليه السلام كما بدا واضحاً أمام الحر، فهذه الجماعة القليلة التي جعجع بها، ونفذ أوامر ابن زياد بشأنها، تبدو صلبة متماسكة خلف قائدها الحسين، ولم يكن يبدو أن جلبة الجيش ورنين الأسلحة وبريقها يخيفها أو يؤثر فيها، بل بدت على العكس من ذلك مطمئنة هادئة، وكان يبدو أنَّ ما ستلقاه يلوح لها هدفاً عزيز المنال، وأنها تسعى له باشتياق،

(١) المصدر السابق.

فهذه فئة تنصر الاسلام حقاً ولا تبالي بالقتل والموت.

فأي أمر منعه هو من الالتحاق بها، بل ومعاداتها والوقوف إلى جانب من شنوا الحرب عليها؟ وهل أن هذا الجمع الكثيف الذي يقوده ابن زياد، هو الذي كان إلى جانب الحق؟ لا شك أن هذا أمر لا يصدقه الحر، وعندها كانت الغشاوة ترتفع عن عينيه نهائياً، ليعرف من كانوا إلى جانب الاسلام حقاً، ومن كانوا أعداءه، وعندها اختار جانب الاسلام مع أن عاقبة الموت بدت له وشيكة، وأنه كان قاب قوسين أو أدنى منه.

لقد أخذه مثل العروراء وهي الرجفة الشديدة، على حد وصف أحد شهود العيان، الذي رأه قبل انتقاله إلى معسكر الحسين عليه السلام، وعندما استفسر منه عن سبب ذلك قال:

(إن والله أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام)[1].

وقد اعتذر منه بعد أن جاءه تائباً مما كان منه إلى ربه، ومواسياً له بنفسه حتى يموت بين يديه، وإلا فهل كان غير الموت ينتظره في ذلك الموقف؟

وقد عرض على الحسين أن يقاتل حالّاً.

وإذ علم الحر أنه سيموت لا محالة، وقد أثبت لجيش ابن زياد كله أنه بانحيازه إلى جانب الحسين عليه السلام قد اختار الموقف الصحيح، فإنه رأى أن يتوجه بالخطاب إلى أصحاب الأمس، فلا شك أن كلامه سيكون أبلغ، وقد كان معهم حتى هذه اللحظة، وإن حجته ستكون قوية، بل قاطعة.

لقد حاول أن يجعل أصحابه يعدلون عن موقفهم، وترك قتال الحسين عليه السلام، فوجد أن إرادتهم مقيدة بارادة قائد الجيش عمر بن سعد الذي صرح أمام الحر أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وأنه مقيد بسلطة أعلى من سلطته، وهي قوة ابن زياد الجاثم في الكوفة،

وعندما أيس الحر من إقناعهم، ووجد أنهم كانوا خائفين ومستسلمين، بل ومنسحقين تحت وطأة الخوف الهائل من ممثل يزيد، قال لهم:

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٠.

(يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل والعبر، إذ عوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع ضراً، وحلأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري، الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هم أولاء قد صرعهم العطش. بئسما خلفتم محمداً في ذريته، لأسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه)[1].

كان الحر يرى وقد اغتنم آخر فرصة متاحة ليلتحق بالحسين عليه السلام أن هذه الفرصة توشك أن تفلت من بين أيدي أصحابه القدامى، إن لم يتوبوا وينزعوا عما هم عليه حالاً، وإلا فأي معنى لتوبتهم سيكون فيما بعد، إن هم أصروا على تنفيذ جريمتهم، وقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وإذ يقف هو نفسه وقد تاب في صف أصحاب الحسين عليه السلام، فإن موقفه نفسه سيكون شاهداً على جريمتهم، وسيرهم المتعمد خلق أقطاب الانحراف والكفر، ولن يجدوا أبداً الكلمات الواضحة التي يمكن أن يردوا بها على أقوال الحر وحججه وموقفه، غير أنهم حنقوا عليه، وقد رأوا أنه استطاع التخلص مما لم يستطيعوا هم التخلص منه. (فحلمت عليه رجالة لهم ترميه بالنبل، فأقبل حتى وقف أمام الحسين)[2].

حوارات أصحاب الحسين عليه السلام آفاق واسعة

ولعلنا نستطيع «عند الحديث عن أصحاب الحسين عليه السلام»، أن نستعرض مواقفهم بتفصيل أكثر، لنجد عمق التأثير الذي تركته فيهم أقواله ومواقفه، وكيف أنه أتاح لهم الفرصة للحوار والحديث مع أفراد الجيش المعادي، ليبدو واضحاً أمام الأمة أن أمر انحيازهم لم يكن أمراً عاطفياً بحتاً، وإن غلبت عليه العاطفة والحب الشديد له، إلى حد تقديم أنفسهم بين يديه فداءً له، غير أنهم بذلك كانوا يفدون الاسلام أيضاً

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٢١.

كما يفديه هو، وقد بدت تضحيته بالتالي أكبر من تضحياتهم مهما بلغت، وذلك كان سر ولائهم له، واسراعهم للموت بين يديه.

لقد استمعنا خلال المعركة الى حوارات عديدة بين يزيد بن زياد الكندي والعباس بن أمير المؤمنين عليه السلام، وزهير بن القين وحبيب بن مظاهر والحر وبرير بن خضير وهلال بن نافع الجملي وحنظلة بن أسعد الشبامي وغيرهم، وبين أهل الكوفة ممن استنفروا لقتالهم، وكانت الأحاديث والحوارات متنوعة وفي مواضيع شتى، وقد أفحم من كانت الحجة معه والحق إلى جانبه من كان مبطلاً وضعيفاً ومستسلماً لأسياد السوء والضلال، دون أن يكون على بينة من أمره.

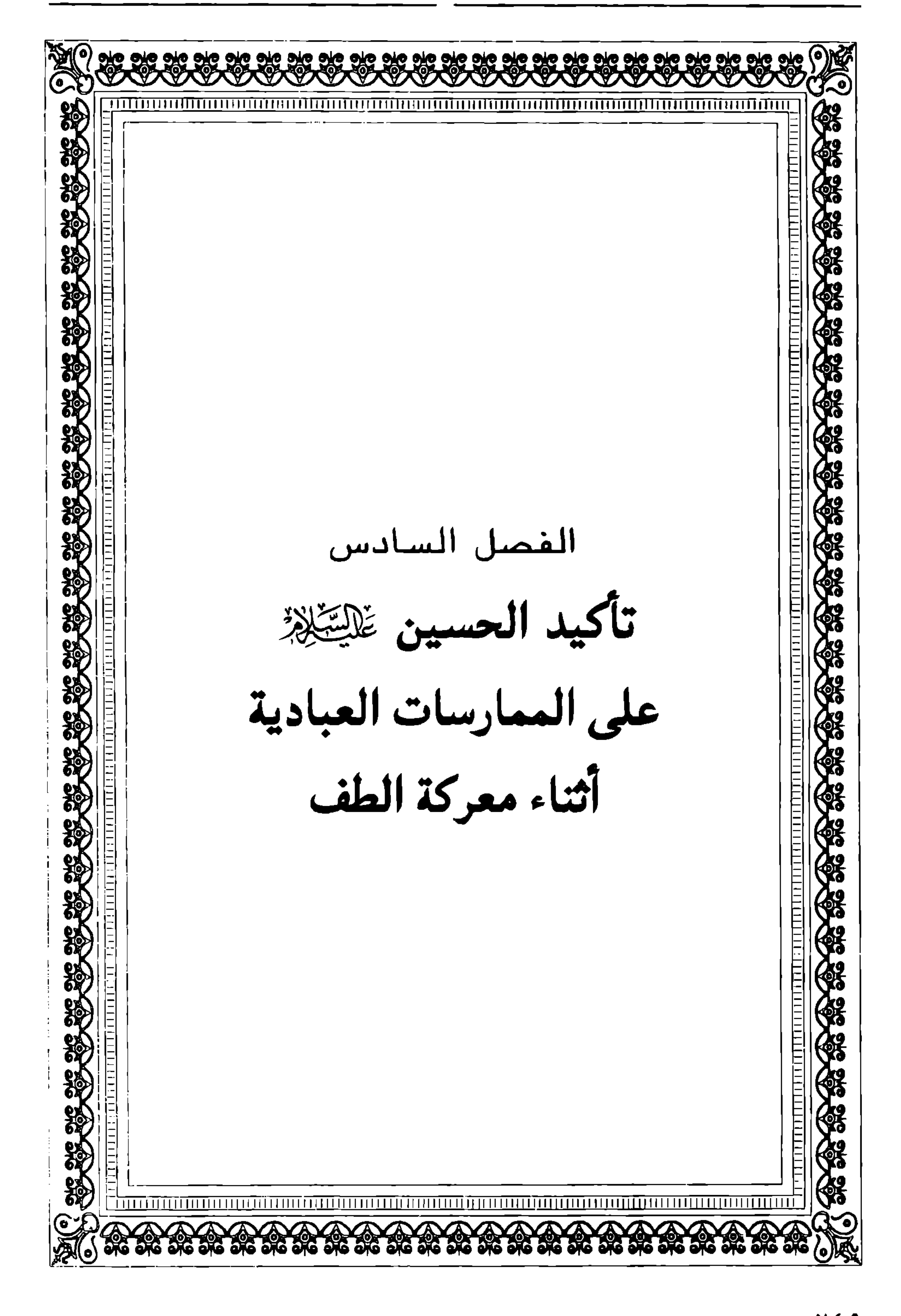
وقد ظهر فيها عجز أعوان ابن زياد عندما لجأوا الى الشتيمة والشماتة، ووجهوا سهامهم وسيوفهم تجاه محاوريهم القلة الأقوياء، ورأينا هدوء هؤلاء واستقرارهم وثباتهم ويقينهم وسعادتهم، فلم تهزهم مناظر القتل والتدمير والجيش المدجج المحتشد لهذه الغاية، ولم ينل منهم الجوع والعطش، ولم يرهبهم الموت الذي كانوا مقبلين عليه، بل كانوا يرون فيه النهاية السعيدة لكفاحهم من أجل الحق والعقيدة الاسلامية، التي حاول تشويهها وتزويرها ومصادرتها سدنة السلطة وخدم العرش الفرعوني الجديد، ولم تزعزع إيمانهم الكثرة الضالة، فحسبهم سعادة أنهم فهموا وأدركوا أبعاد نهضتهم خلف الحسين عليه السلام، ووجدوا في أنفسهم القوة للالتحاق به ونصرته دون بقية أبناء الأمة الآخرين.

إن أفقاً واسعاً يطل علينا من خلال الحوارات والنقاشات والكلمات التي دارت بين الحسين وأصحابه عليه السلام، وبينهم وبين بعضهم الآخر، وبينهم وبين أعدائهم، وقد أفادتنا تلك الحوارات للاطلاع على حقيقة الرجال الذين كان لهم أشرف دور في تارخ المعارك، وعلى نفسياتهم وشخصياتهم وما انطوت عليه نفوسهم من ضعف وهبوط، فكأننا من خلال تلك الحوارات، نراقب المعركة ونحضر في ساحة الأحداث وكأنها تجري أمامنا وتحت أسماعنا وأبصارنا.

لقد أشرك الحسين عليه السلام أصحابه في شؤون المعركة، وجعلهم يأخذون دورهم الإيجابي للدفاع عن موقفهم وإقناع أبناء الأمة الآخرين بالتخلي عن ضعفهم واستسلامهم والانضمام إليهم.

وبذلك أثبت أن هذه المعركة، التي شاركت فيها فئة من أبناء هذه الأمة دون أن تكون لها مصلحة شخصية في ذلك، بل لعلها ستعاني وتتعرض لأشد المواقف صعوبة، ليست معركته خاصة، يخوضها في حرب منافسة مع يزيد، بل معركة الاسلام الذي انحازت إليه أقلية من أبناء الأمة بمواجهة الكفر والانحراف والطغيان، الذي جعل الأغلبية من أبناء الأمة تخضع له، ولا تجد في نفسها القوة والجرأة على مواجهته.

وبعد، أليست كل الدلائل تشير إلى أن المعركة كانت كذلك؟



الفصل السادس

تأكيد الحسين عليه السلام
على الممارسات العبادية
أثناء معركة الطف

دلالات تربوية

تمهيد

أكد الحسين عليه السلام أثناء معركة الطف وقبلها على ابراز القيم الحقيقية للممارسات العبادية وفي مقدمتها الصلاة والدعاء. وهي مسألة تربوية مهمة تستلفت الأنظار، وتدعو من يخوضون غمار الحديث عن هذه الثورة للتأمل والنظر.

فقد جعل الحسين عليه السلام وهو في غمرة انشغاله بالحصار والمعركة أصحابه يفكرون بأداء الصلاة واقامتها خلفة جماعة، أمام أنظار الجيش المناوىء رغم مخاطر الموت والجراحة التي كانوا يتعرضون لها، وقد أراد بذلك لفت الأنظار إلى حقيقة كبيرة: وهي أن الصلاة تعتبر هوية المسلم الأولى، وهي المدخل للاسلام، وإلى أداء بقية شعائره وتعاليمه، إذ لم يجعل الله سبحانه وتعالى سبيلًا إلى قبول عمل الفرد المسلم ما لم تكن الصلاة قد سبقته، وما لم يكن قد أداها والتزم بشروطها وواظب عليها، لقد اعتبرها الله جل وعلا مقدمة لكل أعمال الإنسان الطيبة المتقبلة، وجعلها شرطاً لقبول هذه الأعمال والاثابة عليها[1].

وقد يروح أناس في غمرة الحماس والاعجاب بالموقف البطولي الذي وقفه الحسين وأصحابه عليه السلام في واقعة الطف، يعجبون من التفاته عليه السلام في ذلك الظرف الدقيق، إلى ضرورة أداء هذه الفريضة في وقتها المحدد، وقد يرون أنه ربما يستطيع أن يؤجلها أو يؤخرها أو يهملها[2]، لأنه مشغول بالقتال، إلا أن من يعرف حقائق الأمور، وطبيعة المعركة التي كان يخوضها إلى جانب الاسلام وفي سبيله، يرى في

---

(١) تحدثنا عن الاثار التربوية للصلاة في كتابنا منهاج الاسلام في التربية المطبوع عام ١٩٧٤م بغداد وكتابنا المخطوط منهاج القرآن في التربية ف ٣ خصائص التربية القرآنية الذي كتبته في مخيم رفحاء للاجئين العراقيين.

(٢) كما طلب ذلك احد المقاتلين مع أمير المؤمنين عليه السلام منه في احدى المعارك التي كان يخوضها دفاعاً عن الاسلام.

ذلك أمراً طبيعياً، فلأية غاية قاتل الحسين عليه السلام وأصحابه واسترخصوا دماءهم وحياتهم؟ هل قاتلوا للحصول على مغنم أو مكسب شخصي؟

لا بد أن الأمر لم يكن كذلك، لأنهم لو قاتلوا لهذا السبب لكانوا قد تراجعوا أو استسلموا أو هربوا وهم يرون تفوق عدوهم وسعيه لقتلهم واستئصالهم، ولما كانوا قد ذهبوا إلى حد الاستشهاد، وكان سيحققون المغنم والمكسب الشخصي، لو وضعوا أيديهم بيد يزيد واستسلموا لابن زياد ولساوموا في أقل الأحوال، وإذاً فلا أحد يستطيع أن يدعي ذلك.

غير أنهم قاتلوا من أجل إقامة دعائم الدين وترسيخ اليقين بالله سبحانه وتعالى، والصلاة هي أول دعامة، وهي العمود الأول للدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها.

وقد كانت معركتهم تلك ستغدو مهزلة، وكان موتهم سيبدو عبثاً لو أنهم أهملوا الصلاة ولم يقيموها، فمن أجلها قاتلوا، فكيف يستطيعون تركها ومن يبيح لهم ذلك خصوصاً وأنهم مقبلون على موت محتم بعد لحظات، وحتى تأجيلها سيبدو أمراً غير ممكن أما هذا الموت المحتم.

لقد رأينا تشديد القرآن الكريم على الصلاة وإقامتها والحث عليها واعتبارها مدخلّا لبقية العبادات والأعمال، ورأينا اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله بإقامتها وتعويد المسلمين عليها، وحثهم على التمسك بها كأفضل الأعمال وخيرها.

اهتمام أمير المؤمنين عليه السلام بالصلاة

وهكذا رأينا قبل ذلك اهتمام أمير المؤمنين عليه السلام الكبير بها ودعوته الناس إليها، وتوجيهاته ووصاياه بشأنها، حتى لحظاته الأخيرة، وهو على فراش الموت، لكي يجعلها المؤمن قربه يتقرب لها الى الله تعالى وحده، لا مظهراً من مظاهر النفاق والرياء للتقرب من المسلمين الآخرين، كما أراد معاوية بن يزيد، وكما ذكرنا من قبل وما سوف نتحدث عنه بإيجاز بعد قليل بعون الله.

كان أمير المؤمنين عليه السلام أول من صلى مع رسول الله عليه السلام وعمره لما يتجاوز العاشرة، قبل الناس بسبع سنين[1]. ولقد اغتيل وهو يؤدي صلاته في المحراب.

وقد أوصى ولده الحسن عليه السلام بخصوص الصلاة قبيل وفاته قائلًا:

(أوصيك أي بني بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فإنه لا صلاة إلا بطهور)[2].

وأوصى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر قائلًا:

(صل الصلاة لوقتها الموقت لها، واعلم أن كل شيء من علمك تبع لصلاتك)[3].

وقال في أول خطبة له بعد استخلافه:

---

(١) صحيح ابن ماجه ص ١٢ روى بسنده عن عباد بن عبد الله، ورواه الحاكم في مستدرك الصحيحين ج ١٣ ص ١١ وابن جرير الطبري في تاريخة ٢/ ٥٦، والتقي في كنز العمال ٦/ ٣٩٤ نقلًا عن الحاكم وابن مردوية، واسد الغابة ج ٤ ص ١٨ روى بسنده عن أبي أيوب الأنصاري قال: (قال رسول الله ﷺ: لقد صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين، وذلك أنه لم يصل معي رجل غيره) وذكره المحب الطبري في الرياض النضرة ج ٢ ص ١٦٥ نقلًا عن أبي الحسن الخلعي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ج١ ص ٩٩ روى بسنده عن حبه العربي والهيثمي في مجمعه ج٩ ص ١٠٢، وابن عبد البر في الإستيعاب ج ٢ ص ٤٥٨، وأسد الغابة لابن الأثير ٤/ ١٧، وخصائص النسائي ص ٣، والواحدي في أسباب النزول ص ١٨٢، والإستيعاب ج ٢ ص ٤٥٩، ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١١١ بستده عن ابن عباس، وطبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٣ عن مجاهد قال: (اول من صلى علي عليه السلام وهو ابن عشر سنين، وكنز العمال ج ٦ ص ١٥٦، ولفظه (أول من صلى معي علي عليه السلام، اخرجه الحاكم في تاريخه والديلمي عن ابن عباس، وصحيح الترمذي ج ٢ ص ٣٠٠، عن انس بن مالك، ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١١٢، روى بسنده عن بريده قال: انطلق أبو ذر، وساق الحديث (إلى أن قال) وأوحى إلى رسول الله ﷺ يوم الإثنين وصلى علي يوم الثلاثاء، قال هذا صحيح الإسناد. ولمراجعة المزيد من الصحاح والأسانيد راجع (فضائل الخمسة من الصحاح الستة العلامة السيد مرتضى الفيروزآبادي/ منشورات مؤسسة الأعلمي/ بيروت لبنان ط ٤ ٢. ١٤ ١٩٨٢٥م ص ٢٣٢/ ٢٤٠.

(٢) ابن الأثير ٣/ ٢٥٧.

(٣) نهج البلاغة ٥٤٥.

(الفرائض أدوها إلى الله تعالى، يقودكم إلى الجنة)[1].

وكتب في وصيته:

(الله الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم. والله الله في بيت ربكم، فلا يخلون منكم ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا، الصلاة الصلاة، لا تخافن في الله لومة لائم)[2].

اهتمام معاوية بالصلاة مظهر من مظاهر النفاق

هكذا كان ينظر أمير المؤمنين عليه السلام إلى الصلاة ويوصي بها، وهو أول من صلى بعد رسول الله ﷺ منذ أن كان طفلًا (لم تنجسه الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسه من مدلهمات ثيابها) وقد كان يقينه بالله تاماً ومعرفته به وثيقة، لا كما نظر إليها معاوية، كأمر مظهري لا بد منه للظهور أمام المسلمين بالشكل الذي يرغبون فيه، وما دامت الصلاة هي رغبتهم وما دامت شعائرها معظمة عزيزة عندهم، فإنه أوصى يزيد لكي يؤديها طمعاً في كسب ودهم وثنائهم وتقريبه إلى نفوسهم،

أوصى معاوية يزيد قائلًا:

(وأحضر الصلاة، فإنك إذا فعلت ما أوصيك به، عرف الناس لك حقاً، وعظمت مملكتك، وعظمت في أعين الناس)[3].

وقد ذكرنا حادثة مماثلة أوصاه فيها بالتستر على مباذله خوفاً من الافتضاح بين الناس، ولم يوصه بتركها خوفاً من الله،

وإذ علم يزيد الدوافع الحقيقية لوصايا والده، فإنه لم ير الالتزام بها و(كان فيه إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات وإماتتها في غالب الأوقات)[4].

(وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على

---

(١) الطبري ٥/ ١٥٧، وابن الأثير ٣/ ٨٤.

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٣٤٠.

(٣) البداية والنهاية ٨/ ٢٣٣.

(٤) المصدر السابق ٨/ ٢٣٣.

الشرب. . . ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب)[١].

وقد (حج يزيد في حياة أبيه، فلما بلغ المدينة، جلس على شراب)[٢].

نماذج من صلاة الحسين عليه السلام قبل وبعد المعركة وآثارها التربوية العظيمة

وليس استطرادنا هنا في مجال المقارنة بين الحسين عليه السلام ويزيد، فهذا أمر لا يتم ببساطة، وإلا فهل تمكن المقارنة بين عاشق حقيقي للاسلام وبين كاره له خارج عليه؟

وبين من كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وبين تارك للصلاة؟

لقد ذكر لنا أن الحر بن يزيد أقبل لمحاصرة الحسين عليه السلام ومراقبته ومنعه من الرجوع إن هو رغب في ذلك (فلم يزل موافقاً له حتى حضرت صلاة الظهر، فأمر الحسين الحجاج بن مسروع الجعفي أن يؤذن، فأذن، فلما حضرت الاقامة خرج الحسين في إزار ورداء ونعلين)[٣].

وألقى خطبة قصيرة حث فيها أصحاب الحر على الالتزام بمواثيقهم وعهودهم له، وطلب منهم تحديد موقفهم منه، وعندما سكتوا ولم يتلق جواباً منهم.

(وقالوا للمؤذن: أقم فأقام الصلاة، فقال الحسين عليه السلام للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟ قال: لا بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك، فصلى بهم الحسين،

(فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل، ثم أنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وأقام فاستقدم الحسين فصلى بالقوم ثم سلم)[٤].

وألقى كلمة أخرى ذكر فيها القوم بعهودهم وكتبهم التي أرسلوها إليه وأخرجها لهم ونشرها بين أيديهم.

كانت كلماته بعد صلاته بهم ستعيد إلى أذهانهم ذكرى جده صلى الله عليه وآله وأبيه عليه السلام لو أنهم كانوا يعيشون جواً صحياً ويتنفسون هواء نقياً، لكنهم كانوا يعيشون في ظل

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٨٢.

(٢) ابن الأثير ٣/ ٣٦٥.

(٣) و(٤) الطبري ٣/٣٠٦.

الارهاب والخوف والقلق، وكانت كلماته تصطدم بجدار ذلك الخوف الذي أقاموه لأنفسهم، إذ لم يروا أمامهم سوى قوة يزيد وبطش ابن زياد، وكان الأمر سيان لديهم أن يصلوا خلف الحسين عليه السلام ما دام الحر قد سمح لهم بذلك أو خلف الحر، ممثل السلطة، ما دامت الصلاة أمراً يجب أن يؤدى وحسب، ولا يهم خلف من ومع من.

وكان حرياً بهم أن يستمعوا لكلمات من صلوا خلفه ويتدبروها جيداً، ومع ذلك فإن ارداتهم كانت مرهونة بارادة ممثل السلطة، وأوامره وتعليماته، ولو أنه أمرهم أن لا يصلوا خلف الحسين عليه السلام لفعلوا، ولو أنه أمرهم أن يستمعوا إليه جيداً ويستجيبوا له، وكان هو أول من يبادر إلى ذلك، لكانوا ربما قد استجابوا وتركوا موقفهم المناوىء له، وإذ أن شيئاً من ذلك لم يحصل فإنهم ظلوا مستسلمين لمخاوفهم وأوهامهم وجهلهم، منقادين كالأنعام إذ تسير خلف رعاتها دون وعي أو إرادة.

كانت كلمات الحسين عليه السلام بعيد الصلاة وقبيلها، وفي لحظات لا بد أن يكونوا فيها أقرب ما يكونوا إلى الله ودينه ورسوله صلى الله عليه وآله، مختارة ومنتقاة، فقد ذكرهم بآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله الذين يشخص ممثلهم وبقيتهم وهو الحسين عليه السلام أمامهم، وهو يسعى لتغيير أوضاعهم، وإزالة سبب الانحراف من طريقهم، ويدعوهم لنصرته في مسعاه الكبير هذا.

وكانت لحظات الصلاة خلفه حرية بأن تعيدهم إلى وعيهم وإلى حقيقة الاسلام التي جعلت من حب آل البيت وموالاتهم والسير على طريقهم ضمانة من كل انحراف وزيغ وضياع، وإذ فاتتهم فرصة استيعاب خطبتيه، فقد أتاح لهم فرصة أخرى بعد مرحلة أخرى من الطريق وأسمعهم كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله بخصوص السلطان الجائر، وما ينبغي على المسلمين فعله تجاهه، وبين لهم شكل الدولة التي يعيشون في ظلها، وكيف أن ممارساتها وممارسات أقطاب حكمها الذين (لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله)[1] تجعل منها دولة غير إسلامية بل معادية للاسلام، وإن حملت اسمه وادعت أنها تدين به، كما بين لهم مركز القيادي وفهمه للاسلام وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) الطبري ٣/٣٠٧.

غير أن بقية خطبته عليه السلام دلت على أنه قد أصبح على يقين من تخاذلهم واستسلامهم وتراجعهم، وأنهم لن يكونوا معه لانجاز مهمة التغيير المنشود، ولن يكون معه سوى أصحابه الذين وجه إليهم الخطاب بعد ذلك بقوله:

(ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقا، فإني لا أرى الموت إلا شهادة ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً)[١].

وقد رأى أصحابه ما رأى وأبدوا استعدادهم لنصرته والسير معه حتى النهاية، وحتى الاستشهاد بين يديه.

وعندما عزم أعداؤه على الهجوم عليه بعد الأمر الصادر من ابن زياد عصر اليوم التاسع من محرم، أرسل أخاه العباس عليه السلام لمناورتهم وتأخيرهم قائلًا له:

(ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عند العشية، لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني قد كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار)[٢].

كانت أعز أمنية عند الحسين وأصحابه، لم يكن يهمهم متى قتلوا، غير أنهم أرادوا أن يختموا حياتهم بلقاء مع الله يصلون ويتلون القرآن ويدعون ويستغفرون، وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أحبه الحسين عليه السلام طيلة حياته.

وعندما وجد ابن سعد أنه يستطيع تأخير القتال حتى اليوم التالي، وافق على ذلك.

(فلما أمسى حسين وأصحابه قاموا الليل كله يصلون ويستغفرون، ويدعون ويتضرعون، وإن حسيناً ليقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ . .)[٣].

وقد رد أحد السكيرين العابثين من أصحاب ابن سعد من الذين كانوا يراقبون مخيم الامام بقوله:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٥.

(٣) الطبري ٣/ ٣١٧.

(نحن ورب الكعبة الطيبون، ميزنا منكم)[1].

وقد تعرف عليه بربر بن خضير وأراد ارشاده ودعوته الى التوبة وقد جرى بينهما الجوار التالي:

(قال له برير بن خضير: يا فاسق أنت يجعلك الله في الطيبين؟

فقال له: من أنت؟

قال: انا بربر بن خضير.

قال: أنا لله، عز علي، هلكت والله يا برير.

قال: يا أبا حرب، هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام؟ فوالله إنا لنحن الطيبون، ولكنكم لأنتم الخبيثون.

قال: وأنا على ذلك من الشاهدين.

قال: ويحك، أفلا ينفعك معرفتك.

قال: فمن ينادم يزيد بن عذرة العنزي، ها هو ذا معي.

قال: قبح الله رأيك على كل حال، أنت سفيه، ثم انصرف عنا)[2].

ترى ما هي دوافع أبي حرب السبيعي وهو اسم هذا الماجن من قتال الحسين عليه السلام، مع أنه يعرف حقيقة المعسكر الذي ينتمي إليه، والمعسكر الذي يحاربه؟ هل كان وقوفه مع جيش بن زياد إلى جانب يزيد انتصاراً للاسلام؟

هذا ما أجاب عنه أبو حرب نفسه.

وفي صبيحة عاشوراء (عبأ الحسين أصحابه، وصلى به صلاة الغداة)[3].

وعند اشتداد القتال ومصرع عدد من أصحاب الحسين عليه السلام، انبرى أحد أصحابه، أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي فقال له:

(يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء. إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها.

---

(١) و(٢) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣١٧/٣، وابن الأثير ٤١٧/٣.

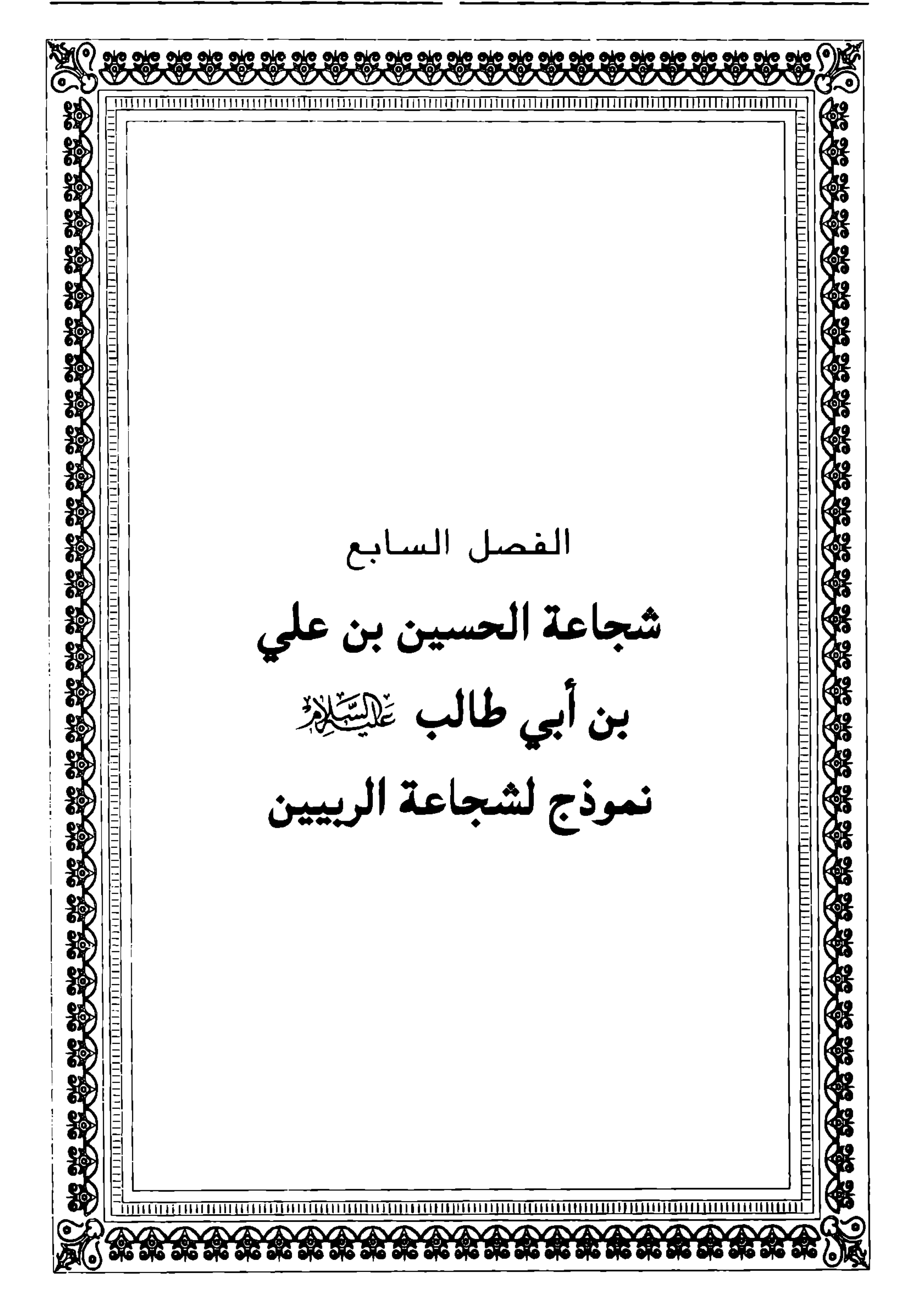
فرفع الحسين رأسه، ثم قال: ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين. نعم هذا أول وقتها، سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي)[1].

ومع ذلك فلم يعدموا شخصاً مثل أبي حرب السبيعي، فقد تصدى لهم الحصين بن تميم بقوله: (إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر: لا تقبل زعمت الصلاة من آل الرسول ﷺ لا تقبل، وتقبل منك يا حمار؟)[2].

(ثم صلوا الظهر، صلى بهم الحسين صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعد الظهر فاشتد قتالهم ووصل إلى الحسين، فاستقدم الحنفي أمامه، فاستهدف لهم يرمونه بالنبل يميناً وشمالاً قائماً بين يديه، فما زال يرمى، حتى سقط)[3].

كان حرصهم على أداء الصلاة في هذا الموقف الصعب يعني انتماءهم انتماءاً حقيقياً للاسلام وحرصهم على التمسك بكل فرائضه وأحكامه، ولم يكونوا يرون أي معنى لجهادهم واستشهادهم إن هم تركوها، لم تكن مظهراً من مظاهر الرياء والخداع التي لجأ إليها غيرهم للتقرب بها من المسلمين، فما كان أبعدهم في ذلك الموقف الذين أوشكوا فيه على ملاقاة الموت عن الرياء والنفاق، وما كان أقربهم من الله وهم ملاقوا وجهه الكريم بعد لحظات.

(١) - (٣) الطبري ٣/٣٢٦/٣٢٨، وابن الأثير ٣/ ٤٢٥/ ٤٢٦. (وقد روى أن الحسين عليه السلام قال لزهير بن القين وسعيد بن عبد الله «تقدما أمامي حتى اصلي الظهر» فتقدما أمامه في نحو من نصف اصحابه حتى صلى بهم صلاة الخوف. وروي أن سعيد بن عبد الله الحنفي. تقدم أمام الحسين عليه السلام فاستهدفوا له يرمونه بالنبل. فكما جاءت السهام نحو الحسين يميناً وشمالاً، قام بين يديه، فما زال يتلقى النبل بنحره وصدره حتى اثخن بالجراح وسقط على الارض وهو يقول: اللهم العنهم لعن عاد وثمود، الله ابلغ نبيك عني السلام، وابلغه ما لقيت من الجراح، فإني اردت بذلك ثوابك في نصرة ذرية نبيك محمد ﷺ ثم التفت إلى الحسين عليه السلام قائلاً: «اوفيت يا ابن رسول الله؟» قال الحسين: نعم انت إمامي في الجنة) الخوارزمي ٢/ ١٧، واللهوف ص ٤٣/ ٤٧، ونهاية الارب ٢٠/ ٤٥١، ومقتل العوالم ٨٨، وذخيرة الدراين للحائري ص ١٧٨.



الفصل السابع

شجاعة الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام نموذج لشجاعة الربيين

شجاعة الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام نموذج لشجاعة الربيين

تمهيد

لم يقف شجاعة الامام عليه السلام في المعركة سوى صبره وتحمله ضروب الشدائد والأذى في لحظات قصار بدت مشحونة ومزدحمة بتلك الضروب وبدا أن تحملها من قبل إنسان عادي، أمر هو أقرب إلى الخيال.

لقد ذهب بعض من تحدثوا عن شجاعته حداً قالوا فيه: إنها فاقت شجاعة والده أمير المؤمنين عليه السلام وهو أشجع العرب دون استثناء، لكن القول قد يصح، إن أحداً ما حتى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه لم يتعرض للموقف الذي تعرض له الحسين عليه السلام في واقعة الطف وقبيلها، فالمقارنة غير واردة في هذا المجال، لأن أمير المؤمنين عليه السلام لو كان قد تعرض لموقفه لكان قد وقف وقفته حتماً.

ولأن وقفة الحسين عليه السلام الفريدة في وجه أعدائه بعيد اللحظات التي قتل فيها أصحابه وأهل بيته وبقي فيها وحيداً، إلا من النسوة والأطفال المرعوبين، متعباً جريحاً عطشاناً، يحيط به أشد الناس قسوة وضراوة، وقد تزعموا جيشاً جرد لقتاله وحربه، أمراً لا يمكن المرور به مرروا عابراً دون التأمل فيه ودراسته، فإن أجيالًا من المسلمن لا تزال تهزها مشاهد تلك الوقفة، وتتأمل في تفاصيلها ودقائقها بانبهار واعجاب جديرين بالحسين عليه السلام حقاً، وهو من أخذ على عاتقه إيقاف الانحراف ومنع دولة الظلم من الاستمرار والبقاء.

لم يجد الخوف والتردد سبيلهما إلى قلب الحسين عليه السلام، وهو يتصدى لانجاز أكبر مهمة في تاريخ المسلمين، ويعرف حجم القوة الكبيرة التي حشدها العدو مقابل أصحابه الذين لا يتجاوزون سبعين رجلًا إلا بقليل، وقد استشهد معه هؤلاء ولم يترددوا في مقاومة عدوهم ومقارعته وحربه، وكانوا على بينة، واضحة من طبيعة

مهمة الامام عليه السلام، ولم ينكل أن ينسحب أحد منهم، ومضوا مستبشرين خلفه إلى نهاية الشوط.

ولنا أن نتصور إمام الأمة، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله الشرعي، ومن وجبت على الأمة طاعته والاقتداء به، منفرداً قد تخلت عنه هذه الأمة وتركته يواجه بأصحابه القلائل دولة الظلم الحريصة على البقاء والاستمرار، وقد تساقط هؤلاء الأصحاب أمام عينيه واحداً بعد الآخر، وبقي هو وحيداً بمواجهة جيشها الذي بدأ يستعرض قوته أمامه وكأنه قد تغلب على جيش كبير مقابل من المجوس أو الروم، وبدأ يستعد لحرق الخيام وسلب النساء والأطفال وترويعهم وأخذهم أسرى ومنعهم من الماء والطعام.

ولنا أن نتصوره وهو يتلقى ضربات السيوف والرماح والسهام وآلاف الجند المتلهفين على سفك دمه وقطع رأسه وسلبه والتمثيل بجثته تقرباً من رموز السلطة وطمعاً في المغانم والمكاسب، ثم يستمر بمواجهة هذا الجيش واشهار سيفه ومقاومته بل والهجوم عليه إن صح التعبير.

شجاعة الحسين عليه السلام هذا الشبل من ذاك الأسد

لقد روى لنا أحد من شاركوا بقتاله وهو من أعدائه أخباراً عن ثباته وشجاعته، قال:

(فشد عليه رجاله ممن عن يمينه وشماله، فحمل على من عن يمينه حتى ابذعروا وعلى من عن شماله حتى ابذعروا، وعليه قميص له من خز وهو معتم، فوالله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب)[1].

وقال آخر:

(سمعته يقول قبل أن يقتل، وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس، الشجاع، يتقي الرمية، ويفترص العورة، ويشد على الخيل، وهو يقول: أعلى قتلي تحاثون؛ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله لو

(١) الطبري ٣/ ٣٣٤، وابن الأثير ٣/ ٤٣١/ ٤٣٢.

قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم)[١].

ولقد شهد له من قبل عمر بن سعد، عدوه اللدود، حينما خاطب شمراً، مبعوث ابن زياد إليه وقد طلب منه إجبار الحسين عليه السلام على الاستسلام ومبايعة يزيد، قائلاً:

(لا يستسلم والله حسين. إن نفساً أبية لبين جنبيه)[٢].

كان تصديه منذ البداية لدولة الظلم ورفضه إياها وامتناعه عن مبايعة يزيد الذي كان يسيطر على زمامها سيطرة تامة، في وقت خلت الساحة من المعارضين والناوئين، ينطوي على شجاعة كبيرة جديرة بالحسين عليه السلام حقاً.

وإذ كان الأمر بنظر المهزومين المستسلمين ينطوي على قدر كبير من المجازفة والتسرع وعدم الحيطة، فإنه بدا أمام الحسين عليه السلام وقد سعى لمهمته الكبيرة في منع الانحراف وإيقافه الحل الوحيد لجعل الأمة تلتفت التفاتة واعية إلى واقعها المزري في ظل الحكم الأموي. ورأى أن ما سيقدمه وهو حياته سيكون ثمناً مناسباً لمثل هذه المهمة الكبيرة، وهو ما فعله وأقدم عليه بكل شجاعة وصبر، غير متردد أو خائف في أية مرحلة من مراحل مسيرته المظفرة، وفي أي موقف من المواقف التي جرت بينه وبين أعدائه ورغم التحذيرات و(النصائح) والتهديدات التي أشارت إلى حتمية قتله بيد أعوان السلطة إن هو استمر في موقفه الرافض للحكم، فقراره الذي اتخذه كان هو القرار الوحيد المناسب.

وقد تمثل قبيل خروجه من المدينة إلى مكة ببيتين من الشعر بدا فيهما تصميمه على رفض الانحراف نهائياً، بل وإعلان الحرب عليه إن أتيحت له الفرصة لذلك.

روي عن واحد من شاهدوه قبيل خروجه من المدينة قوله:

(نظرت إلى الحسين داخلاً مسجد المدينة، وإنه ليمشي وهو معتمد على رجلين، يعتمد على هذا مرة وعلى هذا مرة، وهو يتمثل بقول ابن مفرغ:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٣، وابن الأثير ٣/ ٤١٥.

لا ذعرت السوام في فلق الصـ ـبح مغيراً ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى المهابة ضيماً والمنايا يرصدنني ان أحيدا

فقلت في نفسي: والله ما تمثل بهذين البيتين إلا لشيء يريد، فما مكث إلا يومين حتى بلغني أنه سار إلى مكة)[1].

وقد لزم الطريق العام ولم يأخذ طريق الفرع كما فعل ابن الزبير خوفاً من رجال السلطة، لقد كان يتبنى قضية أراد لها أن تكون معلنة أمام الأمة كلها، لتصدر فيها حكمها، ولو فيما بعد، وتقف الموقف الصحيح منها..، ولم تكن قضيته قابلة للمساومة وتقليب الرأي واعادة النظر، أمام الفساد المستشري في جسم الأمة كلها بدءاً من رأسها المركب لها على غير رغبتها وإرادتها، ولم يكن الخطر المحتمل في أية مرحلة من مراحل ثورته ليهزه أو ينال من عزمه، فمسيرته قد بدأت فعلًا قبل يزيد عندما أشعر معاوية والأمة كلها برفضه له، وثمن المواجهة ربما قد تحدد سلفاً وهو حياته فلم يكن يهمه الوقت الذي سيدفع فيه ذلك الثمن، ما دام ذلك قد تقرر فعلًا، وما دام كفيلًا بتحقيق هدفه الكبير، وهو منع الانحراف ومنع دولة الظلم من التمادي إلى أبعد حد في ظلمها وانحرافها.

لقد حاول الحر منعه من الاستمرار في موقفه الرافض لدولة الظلم ورأسها يزيد، ورأى أنه بذلك يسعى لموت محقق، خصوصاً وأن بوادر الجيش الأموي كانت مستعدة لحربه وقتله، وقد بدت على جواب الامام عليه السلام نبرة تعجب واستغراب من هذا التهديد، فالموت لم يكن أمراً مخيفاً للدرجة التي يتصورها الآخرون، الذين لا يحملون قضيته وتصوراته وفهمه، بل أنه يبدو النتيجة الطبيعية لمسعاه الكبير.

وهل من المعقول أن الحسين عليه السلام لا يبلغ مبلغ إنسان عادي من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وقد استشهد بشعره في هذا لموقف، مع أنه وريث الرسالة وصاحب المسؤولية الأولى لنشرها وحفظها من الانحراف والتزوير؟

قال له:

(أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟

---

(١) الطبري ٣/٢٧١.

وسأقول لك كما قال آخو الأوس لابن عمه حين لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ، فخوفه ابن عمه، وقال له: أين تذهب فإنك مقتول، فقال:

سأمضي، وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وخالف مثبوراً وفارق مجرما
فإن عشت لم أندم، وإن مت لم ألم كفى بك ذلّاً أن تعيش وترغما)[1]

فهل القضية هنا معه، غيرها بالأمس مع جده ﷺ؟

ألم يكن الأمر برمته اليوم وبالأمس يستهدف الدفاع عن الاسلام؟ وإذ لم يخف الرسول ﷺ وأصحابه الموت، ما دام الأمر كذلك، فكيف يخاف هو ويتراجع لمجرد أن يهدد بذلك؟

وكان له موقف آخر مع الحر، عندما أراد احتجاز النفر الأربعة الذين التحقوا به في (عذيب الهجانات) أو ردهم إلى الكوفة بحجة أنهم ليسوا ممن أقبل معه، فقد حاول الحسين عليه السلام منعه من ذلك ورفض بشدة التخلي عنهم، وقال للحر:

(لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد كنت أعطيتني ألا تعرض لي بشيء حتى يأتيك كتاب من ابن زياد.

فقال: أجل لكن لم يأتوا معك.

قال: هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تممت على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك فكف عنهم الحر)[2].

وتبرز مشاهد عديدة نرى فيها الحسين عليه السلام يسارع لنجدة أصحابه وأهل بيته في أشد المواقف وأكثرها هولاً وحرجاً، وبالتأكيد فإن له في نفوس أعدائه هيبة يشعرون معها أن لا طاقة لأي منهم أن يقف منفرداً لمواجهته، ولعلهم لو تقدموا إليه بمبارزات فردية لما استطاعوا التغلب عليه، غير أنهم لجأوا إلى أسلوب الهجوم

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧١. والإرشاد ٢٠٨، والخوارزمي ١/ ١٨٩. وقد ورد فيه قوله وقد عرض عليه أن يحيد عن ذلك الطريق فقال: (لا فارقت هذا الطريق أبداً أو انظر إلى أبيات مكة، ويقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى).

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٧، وابن الأثير ٣/ ٢٨٠، وروضة الواعظين ص١٨٠، والمناقب ٤/ ٩٦، والإرشاد ٢٠٨، والخوارزمي ١ ف١١ وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ١٧١.

(٣) الطبري ٣/ ٣٠٨، ونهاية الأرب ٢٠/ ٤٢٠، وأنساب البلاذري ٣/ ١٧٢.

الجماعي عليه وعلى أصحابه، وكانت الغلبة للكثرة التي استخدمت مختلف الأسلحة حتى الحجارة للقضاء عليهم وقتلهم.

ولعله أمر غريب في تاريخ المعارك أن تقوم الفئة القليلة مثل الحسين وأصحابه عليه السلام بتوجيه الانذارات ودعوة الفئة الكثيرة مثل جيش ابن زياد الذي قد يتفوق عددياً على أصحاب الحسين عليه السلام بألف مرة أو خمسمائة مرة في أكثر التقديرات للتراجع عن مواقفها الخاطئة باسناد دولة الظلم.

كان أصحاب الحسين يشعرون أنهم يتفوقون على عدوهم لأنهم يحملون قضية عادلة جادة يتعلق بها مصير الأمة كلها، ولم يشعر عدوهم بالمقابل أنه يحمل قضية ما وبدا منقاداً لأوامر خاصة من كبرائه وزعمائه الذين لم يكن يهمهم سوى تثبيت مراكزهم وعروشهم على أطلال مركز الخلافة المدمر.

لقد أراد الحسين عليه السلام إشعارهم أن إرادة يزيد أو ابن زياد ليست جديرة بأن تتغلب ويخضع له الناس ما دامت تسير باتجاه تهديم الدين وتحطيم قواعده وأسسه، وأن الخضوع ينبغي أن يكون لله وحده، وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بل الطاعة لمن أطاع الخالق حقاً وسار على نهجه، وإذا ما كان الموت ثمناً لتحدي تلك الإرادة التي تتحدى إرادة الله فإن هذا الثمن لن يبدو باهظاً أما الاستجابة الواعية للارادة الإلهية الحكيمة.

يأبى الله لنا ذلك... وأنوف حمية ونفوس أبية

وهكذا توجه الحسين عليه السلام بخطابه إلى جموع الجيش المحتشد:

(ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بني اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

ألا وقد أعذرت وأنذرت، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد، وكثرة العدو، وخذلان الناصر)[1].

---

(١) تاريخ ابن عساكر الجزء الخاص بريحانة الرسول المستل من التاريخ العام ٣، ص٢١٨، والخوارزمي ٢، ص٧/٨، واللهوف ص٤٢، وبحار الأنوار ٤٥، ص١٠، وجلاء العيون ٢/ ١٧٧، ومقتل الحسين، للسيِّد محمد تقي بحر العلوم ٣٨٠.

وقد اتخذت احتياطات أمنية شديدة في جيش ابن سعد خوفاً من انحياز بعض أفراده للحسين عليه السلام، (واستدعى شمر الفرسان، فصاروا في ظهور الرجالة، وأمر الرماة أن يرموه فرشقوه بالسهام.

وجاء الشمر في جماعة من أصحابه، فحالوا بين الحسين وبين رحله وعياله)[1].

وقد بلغ خوفهم منه أنه حينما غلب على عسكره وركب المسناة يريد الفرات، قال أحد أصحاب ابن سعد:

«ويلكم حولوا بينه وبين الماء لا تتام إليه شيعته»[2].

وقد فعلوا ذلك، إلا أنهم لم ينجحوا بمنعه عن الماء إلا بحيلة، وقد أخبره أحدهم قائلًا:

(أتلتذ بشرب الماء وقد هتكت حرمك، فنفض الماء من يده ولم يشرب وحمل على القوم، فكشفهم وقصد الخيمة، فإذا هي سالمة)[3].

وإذ انشغل بتوصية عياله وأعدادهم لتقبل موته، فإن ابن سعد عاد إلى تحريض جماعته على الهجوم عليه مرة أخرى.

وقد شهدت ساحة المعركة مشهداً غير مشرف من أعدائه، الذين لم يكتفوا بتوجيه سيوفهم ورماحهم وسهامهم إليه، وإنما أخذوا بتوجيه كلامهم الحاقد وغمزهم وشماتتهم المليئة بالشر والتشفي مع أن أحداً لم يطلب إليهم ذلك، وكان ذلك عملًا تطوعياً أراد به أولئك الشامتون المتطرفون إثبات ولائهم وحبهم ليزيد ووقوفهم إلى جانبه.

ومن الملاحظ أن الحسين عليه السلام لم يدع على أولئك الذين وجهوا سيوفهم وحرابهم إليه، فربما كانوا مدفوعين لذلك بدافع خوفهم من السلطة، بينما دعا على

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٩.

(٢) المناقب ٤/ ١١٠، وروضة الواعظين ص١٨٩، وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ٢٠٢. الطبري ٣/ ٣٣٣.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٢.

(٤) البحار ٤٥/ ٥١ ومقتل العوالم ص٩٨ ونفس المهموم ١٨٨ والخصائص ص٤٦ والارشاد ١٢.

أولئك الذين تطوعوا للشماتة به والتعرض له بألسنتهم البذيئة، إذ لم يدعهم أحد لذلك وكانوا يحاولون إيهام الآخرين بأنهم يتبنون موقف الدولة عن قناعة وإيمان، مع أنهم من المتملقين الذين لا يهمهم مع من تميل الريح، ما داموا سيجدون الكلمات اللازمة للتعبير عن ولائهم لكل من يتغلب في المعركة.

لقد تحدثنا عن دعوة الامام الناس إلى نصرته، ولم يكن ذلك بدافع من خوفه من أعدائه، الذين لم يستطيعوا ادعاء ذلك، وإنما كان ذلك بدافع حرصه على أن ينصروا الاسلام، وأن ينصروا الله، فدعوته كانت إلى الله وإلى منهجه ودينه الذي انتهك بشكل سافر وصريح، إنه إذ يدعو الناس إلى نفسه فهو إنما يدعوهم إلى جده ﷺ وإلى الرجوع إلى دينه، ونبذ الانحراف والظلم والشوائب التي ألحقت بهذا الدين، ورفض الاستسلام والوقوع في أحضان أعداء الاسلام المتسترين باسمه وأغطيته وشعاراته.

وقد رأينا أنه كان يرى بعين البصيرة والوعي، بل والعلم اليقين، أنه سيموت قتلًا بأيدي أولئك الذين دعوه إلى نصرتهم وقيادتهم وانقاذهم من الجور والانحراف الأموي المعلن، لكنه كان يرى أنه بثورته ومقتله سيحقق نتائج كبيرة على المدى البعيد فهو سيثير الأمة، وسيحرك كل الأجيال اللاحقة وفي كل أنحاء العالم الاسلامي ليفكروا بشكل جدي بطبيعة الاسلام ومدى علاقته بحياتهم واتصاله بهم، وسيجعلهم يدركون أن فيه، وفيه وحده سيحققون أهدافهم السامية وتطلعاتهم وطموحاتهم المشروعة، وسعادتهم الحقيقية، وإن من ركنوا إليهم واستسلموا لهم وانقادوا وراءهم، كانوا لا يحققون ولا يسعون إلا وراء مصالحهم الخاصة التي تتقاطع تماماً مع مصالح الأمة المسلمة، فعملية تكثير جنده وإضافة أفراد معدودين إليهم لم تكن تميل بمجرى المعركة القادمة، ولم يكن ذلك همه الأول، بل إن دعوته الأساسية كانت تنصب على ضرورة التخلي عن الدولة الأموية، بعد أن كشفت كل أرواقها وظهر انحرافها المعلن أمام الأمة، وقد لمسنا ذلك في معظم خطبه وأحاديثه ونداءاته بكل وضوح وجلاء.

فهو عندما يريد تجريد الدولة الأموية من أعوانها ومريديها وجماهيرها، كان يريد تجريد دولة الظلم والانحراف في كل مكان وزمان من جندها وأتباعها، وكان أي نجاح يحققه الامام عليه السلام مع عدة أفراد في هذا المجال، بل وحتى مع فرد واحد سيجعل القضية أقوى وأوضح في نظر الأمة، رغم أنها قوية وواضحة منذ الأساس،

ولم يؤثر في قوتها أو ينل من وضوحها قلة من كانوا معه، فالحق لا يقاس بالكثرة، وهو أمر أصبح من حقائق الحياة المطلقة.

لقد دعا قبيل وصوله كربلاء عبيد الله بن الحر الجعفي لنصرته والانضمام إليه، وكان عبيد الله قد تجنب الالتقاء بالامام عليه السلام لئلا يدعوه لذلك، قال له الامام:

(إن أهل مصركم هذا كتبوا إلي، إنهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا، وإن عليك ذنوباً كثيرة، فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟ تنصر ابن بنت نبيك وتقاتل معه.

قال ابن الحر: والله، إني لأعلم من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أن أغني عنك، ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة، فإن نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه (الحلقة) فاركبها، فوالله ما طلبت عليها شيئاً قط إلا ألحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلا سبقته، فخذها فهي لك، فاركبها حتى تلحق بمأمنك، وأنا لك بالعيالات حتى أردها إليك.

قال الحسين عليه السلام: «أما إذا رغبت بنفسك عنا، فلا حاجة لنا في فرسك ولا فيك.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1] ولكن فر فلا لنا ولا علينا فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثم لا ينصرنا إلا أكبه الله على وجهه في نار جهنم.

قال ابن الحر: أما هذا فلن يكون أبداً إن شاء الله)[2].

وقد ندم ابن الحر على موقفه هذا فيما بعد.

فهل كان هم الحسين عليه السلام النجاة بنفسه، حتى يقبل عرض ابن الحر وقبول فرسه؟ وهل المسألة أنه كان مطلوباً من قبل السلطة ومطارداً من قبلها؟

أم أنه إذا صح التعبير كان هو الذي يطارد السلطة ويقض مضاجع رجالها ويجلعها في قلق من ثورته المعلنة أمام الأمة ورفضه النهائي لها؟

---

(١) الكهف: ٥١.

(٢) الطبري ٣/٣٠٨، وابن الأثير ٣/ ٢٨٢، وخزانة الأدب للبغدادي ط بولاق ١/ ٢٩٨، والبلاذري في الأنساب ٣/ ١٧٤، والدينوري ٢٤٩، وأمالي الصدوق/م٣٠، والإرشاد ٢٠٩، والفتوح ٥/ ١٣٠.

كانت دعوته ابن الحر لنصرته تعني دعوته لنصرة الاسلام.

وكان من لا يتقدم لنصرته، يخذل الاسلام ويتخلى عنه.

وكان الالتحاق بمن يحاربه يعني الالتحاق بصفوف أعداء الاسلام.

وإذا ما وجد امرؤ مثل ابن الحر في نفسه عجزاً وضعفاً عن نصرة الاسلام، ورأى أنه خائف ومتخاذل ومهزوم فعليه على الأقل أن لا يقف في صف أعداء الاسلام، وعليه أن لا يحاربه بمحاربة حامل لوائه والقائد الشرعي الوحيد للأمة المسلمة.

كان الحسين عليه السلام يريد من الأمة أن تعرف قادتها وأئمتها الحقيقيين، وأن تسير وراءهم، وأن تنبذ كل دعوة مخالفة لدعوتهم، وكل حزب أو فئة تمرق عن الدين وعن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وتشذ عنه، وكان يعدها لاستقبال قادتها الحقيقيين واحتضانهم والسير وراءهم، حتَّى وإن تباعدت الأيام وتم الأمر بعد حين من الدهر.

لم يكن ير أمامه، وهو يعيش لحظاته الأخيرة، وقد تخلت الأمة عنه وعن الإسلام تحت الضغط الأموي، سوى الله، فهو ثقته ورجاؤه وعدته، لقد كان يحتسب كل ما نزل به عند الله، لأنه لم يعمل ما عمله إلا في سبيله ولوجهه وحده، ولم يجد في تلك اللحظات العصيبة الحزينة أحداً يتوجه إليه أو يخاطبه سوى خالقه الحبيب القريب، لقد توجه إليه بينما أصحابه وأهل بيته يقتلون بين يديه، وقد وضع مصحفاً أمامه بمناجاة حارة حميمة:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة. كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت به العدو أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة»[1].

لقد كان مع الله دائما، فكان الله معه دائماً. لم يضعف فؤاده ولم يخش عدوه وقد كان الله ثقته ورجاءه في كل كرب وشدة، اشتكى إليه ضعف الأمة واستسلامها وتخاذلها وانكسارها ووقوعها جثة هامدة بين أيدي أعدائه، واشتكى إليه ما تفعله به، وهو يسعى لانقاذها وتخليصها من بين أيدي هؤلاء الأعداء، ولم ير في من دعوه

(١) ابن الأثير ٣/ ٤١٨.

فائدة، وها هم قد تخلوا عنه وأبوا إلا تسليمه لحاكمهم الظالم أو قتله، وها هم يوشكون على ارتكاب أبشع جريمة في تاريخ الانسانية، وقد عجز عن اقناعهم بالرجوع إليه وإلى نهجه، أرادوا منه النزول على حكم عبيد الله بن زياد. وأية شريعة أو نهج يلتزم به ابن زياد حتى يمكن اعطاء هذه الوعود بدلًا عنه؟

وهل يلتزم بقانون عادل حتى يستطيع أحد ضمان حريته معه؟ أم أن القانون الوحيد الذي التزم به هو قانون الدولة الجائرة التي نبذت الاسلام وأبعدته عن الحياة؟

لقد أعطوا أماناً لمسلم من قبل أعطاه محمد بن الأشعث نيابة عن ابن زياد ولم يلتزم ابن زياد بوعود ابن الأشعث، ولعلهما دبرا مسألة اعطاء هذه الوعود الكاذبة سوية لاستدراج أعدائهما إلى فخاخهما.

وقد أعاد قيس ابن الأشعث وعوده للحسين عليه السلام وقال له:

(أولا تنزل على حكم بني عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه)[1].

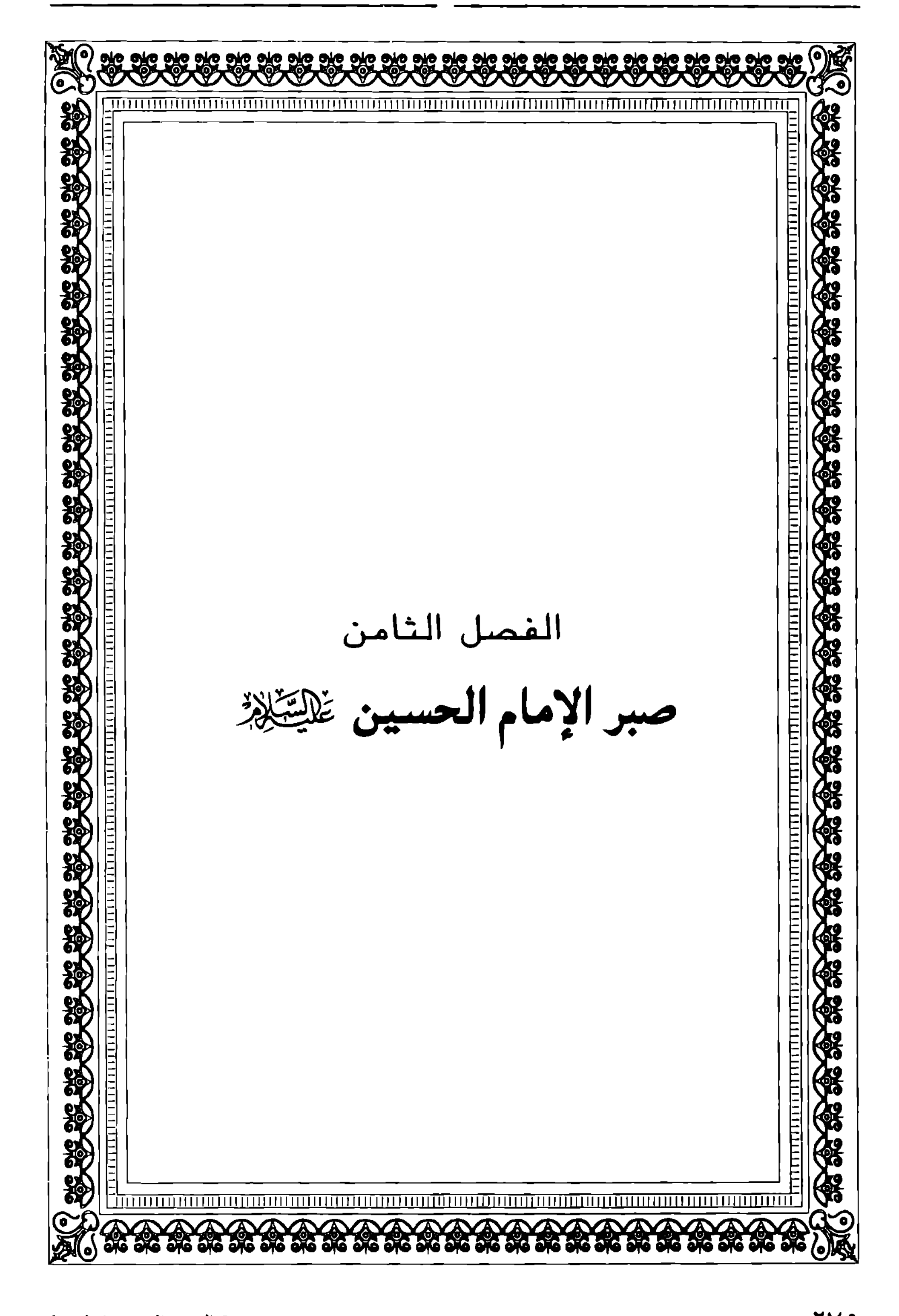
وهو كلام مضلل مليء بالتمويه والمغالطات. وقد أريد منه اشعار أفراد الجيش بأن المعركة هي بين أبناء عمومة واحدة، وبين أهل يحب أحدهم الآخر تماماً كما كان معاوية يروج من قبل وإن الحسين عليه السلام بثورته ورفضه مبايعة يزيد هو الذي يجني على نفسه عاقبة القتل، وأنه لو استسلم فأنه سيضمن سلامته الشخصية على الأقل.

وقد كشف الحسين عليه السلام مغالطة ابن الأشعث هذه بقوله:

(أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد)[2].

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١٩.



الفصل الثامن

صبر الإمام الحسين عليه السلام

صبر الإمام الحسين عليه السلام

الصبر الإيجابي، صبر حسيني علوي والصبر السلبي صبر يزيدي أموي

يقترن الصبر في بعض الأذهان باستسلام والخضوع للآخرين، ذلك الخضوع الذي يقترن بإرادة بشرية ظالمة تحاول تسخير الآخرين لخدمتها واسكات من يحاول التصدي لها أو يرفع أصبعه في وجهها، وقد حاولت دول الظلم على مر العصور تكريس هذا المفهوم واظهاره كحسنة تتمتع بها الرعية المطيعة وكمنفس لهموم أولئك المتسائلين عن سبب الظلم ودوافعه، باعتبار أنه قد نازل لا سبيل إلى دفعه أو تلافيه، وقد وجد هذا المفهوم طريقة في ظل دولة الظلم الأموية المتسترة بلباس الاسلام ليظهر كنظرية اسلامية تشجع على الاستكانة والخضوع والاستسلام للحاكم الظالم متخذة من بعض الأحاديث الكاذبة والتلفيقات الموضوعة والتأويلات المزيفة للقرآن ذريعة للتمركز والانتشار، عززهما تعاقب دول الظلم على أمتنا الاسلامية فيما بعد.

وإذا ما ناقشنا مفهوم الصبر وفق العقلية الاسلامية، فإننا لا نراه يشير الى الخضوع والاستسلام للظلم وتجريد الانسان من الارادة الواعية المتبصرة، ولئن كان صبر المرء على ما ينزل به من أمور ليس سببها أحد غيره قصده بالشر والأذى، ادعى الى الحكمة والصواب، فإن حث الاسلام المسلمين على التصدي لمن يقصدهم بالأذى والشر والعدوان يتنافى مع مفهوم الخضوع للآخرين والصبر على آذاهم دون أن تكون لذلك نتائجه الإيجابية فيما بعد والتي تؤدي إلى استئصال الظلم وردع الظالمين وكشفهم أمام الناس.

بل إن الصبر وفق مفاهيم الاسلام يعني الثبات والتزام منهج الحق وتحمل المشاق في سبيل ذلك، وعلى درب الصبر وإرادة الاختيار المتبصر، استشهد مئات الأنبياء وعذبوا وأوذوا وكان آخرهم نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ومع ذلك فلم يتخلوا عن رسالتهم ومضوا كما أمرهم الله إلى نهاية الشوط دعاة إليه مبشرين ومنذرين.

وكان أحرى بمن حملوا مسؤولية اكمال مشوار القيادة الدقيق لنبي الاسلام صلى الله عليه وآله، وهم آل البيت عليهم السلام وفي مقدمتهم أمير المؤمنين وولداه الحسن

والحسين عليهما السلام أن يتحلوا بميزة الصبر لمواجهة العواصف والشدائد، وهم يرون حقهم في قيادة المسلمين قد أعطي لغيرهم وأبعدوا عن الميدان لتبقى الأمة وحدها بدونهم تواجه قوى الانحراف والعداء للاسلام.

وكانت نتيجة صبرهم ستؤدي إلى كشف أعداء الأمة المتسلطين عليها بالقوة والاكراه والخديعة، وقد أدت إلى ذلك فعلًا، وظهر الحكم الأموي على حقيقته بعد استبداد معاوية بالسلطة وسعيه لاقامة يزيد خليفة من بعده، وهنا لا يشمل الأذى أهل هذا البيت خاصة، ولا يكون الغبن عليهم وحدهم، فالأمة كلها ستتضرر جراء ذلك، حتى الأجيال اللاحقة فيما بعد، وسيكون السكوت على ذلك قبولًا بهذا الغبن والظلم الذي سيلحق بالأمة.

وهو ما يرفضه الاسلام جملة وتفصيلًا، فهو ما جاء لتظل مقدرات المسلمين وحياتهم مرهونة بأمثال يزيد وابن زياد وآل مروان وآل العاص وابن أبي معيط وأشباههم.

والصبر على نضالهم والتصدي لهم والوقوف بوجوههم ومنعهم من التمادي بالظلم والانحراف سيكون هو الموقف الجدير بالأمة المسلمة وقيادتها الحقيقية أن تقفه، وإلا ضاع الاسلام وما عاد الحديث إلا عن بقايا أطلال أمة مسلمة طواها التاريخ واندثرت، ولم يعد لها في ذاكرته إلا أحاديث عابرة وصور مشوهة.

وقد تحدثنا في هذه الدراسة عن مغزى سكوت أمير المؤمنين عليه السلام عن العديد من أشكال الغبن الذي لحقه هو خاصة، وعن مغزى صلح الحسن عليه السلام مع معاوية والذي أدى فيما بعد إلى كشف هذا الأخير، بعد أن انفرد بالسلطة ولم تعد له المبررات القديمة التي تذرع بها لشنّ الحرب المبطنة على الاسلام، رغم تظاهرة المتسم بأقصى غايات المكر بالانحياز وتأثيره على فئات عديدة من أبناء الأمة وفي مقدمتها أهل الشام المخدوعين والمبهورين به.

وإذ لم يجد يزيد ضرورة لكي يأخذ نفسه بما أخذها به والده من قبل، ونزع كل البراقع والأستار عن وجهه وظهر على حقيقته كما كان وكما عرفه أبوه أمام الأمة المسلمة المقهورة المطوعة بالقهر والقوة، فإن التصدي لازالته واعلان الحرب عليه ومقاومته وكشفه سيكون في أولويات من اعتقدوا بالاسلام حقاً، وتبنوه نهجاً للحياة وقانوناً لا يقبل التغيير والحذف.

ومن الطبيعي أن يكون الحسين عليه السلام في مقدمة هؤلاء، إذ من أجدر بفهم الاسلام منه، وهو الوريث الطبيعي لخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وإذا ما تسائل أحد هنا هل يصح منه التصدي لهذه المهمة ويسعى لقيادة أمة مشلولة ومهزومة ومستسلمة وخائفة، أما قوة الانحراف والظلم القوية المتحدة، والتي لن تسمح لأحد بالنيل من امتيازاتها ونفوذها حتى ولو كان هو رسول الله صلى الله عليه وآله؟ لأن ذلك سيؤدي إلى قتله وقتل من ينصره بهذه المهمة التي بدت منذ البداية محفوفة بالمخاطر.

أكان التراجع هو الموقف الصائب الصحيح، لتظل الأمة بعد ذلك مستسلمة للظلم إلى الأبد، أم أن الصبر على المخاطر والقتل هو الموقف الصحيح الجدير بقائد الأمة الاسلامية وخليفتها الشرعي الحقيقي؟

لقد أجاب الحسين عليه السلام عن هذا السؤال، لا بتصريحات وخطب وبيانات مجردة، وإنما بفعل واضح، أراده أن يكون جواباً ماثلًا أمام الأجيال كلها لا الجيل الذي عاصره وحسب.

صحيح أنه سيعاني ويلاقي أهوالًا من عدوه الشرس المتأهب لقتله والقضاء عليه، إلا أن ما سيلقاه من أهوال ومصائب تتضاءل أمامها كل الأهوال والمصائب التي يمكن أن تمر بإنسان، وهي جديرة بردع كل من يتحدى دولة الظلم المستبدة ويقف بوجهها، ولكن، حينما يكون هذا هو الطريق الوحيد للفت نظر الأمة إلى واقعها المتردي في ظل هذه الدولة، كما أنه الطريق الوحيد لكبح جماح الطغاة والجبابرة الذين سيحتلون مراكز القيادة والسلطان بالقوة والاكراه، طالما أن أناساً سينتبهون إلى طريق الحسين عليه السلام، وسيسيرون عليه وينتصرون للاسلام، فإن الصبر على المصائب والأهوال سيكون السبيل الوحيد لاتمام المسيرة، وهو أمر جدير بأن يكون أول من يتحمله الامام الحسين عليه السلام. فالرسالة الاسلامية والأمة الاسلامية كلتاهما في خطر، ولا سبيل إلى اصلاح الحال إلا بفعل ثوري واضح لا مهادنة ولا التواء فيه، يرفض دولة الظلم جملة وتفصيلًا.

لم يدع القرآن الناس للصبر على الظلم والاستكانة لسياط الظالمين وسيوفهم، وإنما دعاهم لمنهجه وطريقه، وتحمل الأذى والمشاق في سبيل دعوة الناس إليه، وأن يصبروا، ولكن لا في زنزاناته أو في بيوتهم حيث يقتادون ويعذبون ويقتلون.

وإنما وهم يواجهون الظلم ويتحدونه ويكشفون الظالمين ويقفون بوجوههم. فدول الظلم تلجأ دائماً للأخذ على الريبة والشك والظن، فمن لا يعلن ولاءه لها فهو عليها، وهي قد تلجأ الى حبس أو قتل من لم يحاولوا المساس بها وبسلطانها على الاطلاق، صحيح أن هؤلاء مظلومون بنظر الآخرين من أمثالهم، غير أنهم لم يفعلوا شيئاً لازالة دولة الظلم، وكانوا ساكتين عن مظالمها وانحرافها، أي أنهم تحملوا جانباً من مسؤولية السكوت عن الظلم، وأوذوا بعد ذلك دون سبب، ولمجرد أن اعتقدت الدولة أو أحد أعوانها أنهم أعداء لها.

ولو كانوا قد قاموا بعمل إيجابي من شأنه اسقاط دولة الظلم هذه، لكانوا قد استحقوا بجدارة لقب الشهيد، ولكان موتهم في سبيل الانتصار لدينهم وشتان ما بين الميتين.

قد يؤخذ الانسان في المرة الأولى فيقتل، وهو لا يدري أنه سيؤخذ حتى ساعة القبض عليه، وقد يعيش حتى تلك الساعة بهدوء وسعادة طالما أن الأذى لم يمسه ولا يتوقع أن يمسه شخصياً، لأنه قد هادن دولة الظلم والكل يعرف ذلك عنه.

أما في الحالة الأخرى، فإنه عندما يواجه دولة الظلم ويعلن رفضه لها، فإنه يعلم أنها سيواجه عواقب رفضه لها واستنكاره أفعالها، وإن الموت سيكون أحد تلك العواقب المحتملة بل المؤكدة، متى ما تيقنت السلطة من عداوته.

إن رفض الظلم وشن الحرب عليه مع احتمال الأذى والموت من الأمور التي لا يقدر على مواجهتها إلا من تفتحت بصائرهم وتيقنوا بالاسلام حقاً ونبذوا كل ما الصق به، مما من شأنه أن يجعل الناس مستسلمين لحكامهم مهما كانت أفعالهم بحجة أنهم أولوا الأمر الذين تجب طاعتهم على الناس كافة.

إن صبره على ما سيلحق به أو يلحق به فعلًا، أمر اختاره بارداته، لأنه قد اختار الاسلام ومنهجه الأصيل ورفض منهج الظلم والعدوان والانحراف وأدرك أن عليه أن يواجه كل ما سيترتب عليه من نتائج لأن دولة الظلم لن تقف مكتوفة الأيدي أمام من ترى أنه ينال منها ومن نفوذها وسلطانها، وستتصدى له بأعنف الأساليب وأشدها شراسة ووحشية، لحماية هذا النفوذ وهذا السلطان الذي يتيح لقادتها وأعوانهم التمتع بحياة مترفة، تختلف عن حياة الآخرين وتتفوق عليها، وهو الأمر الذي قد لا يتاح لهم في ظل الأوضاع الاسلامية الصحيحة.

دولة الظلم تحاول أن توهم الناس أن الاسلام يأمرهم بالصبر على كل أفعالها وممارساتها غير المشروعة، بينما الاسلام يأمرهم بالصبر والثبات في مواجهة هذه الدولة وازالتها، والصبر والثبات في مواجهة كل حالة ظلم وانحراف من الناس والدول.

ولو أننا اطلعنا على الموارد التي أمر فيها القرآن الكريم الناس بالصبر، لما رأينا أنه كان يحث الناس على الاستسلام والطاعة العمياء للكبراء والسادة والحكام المتجبرين الذين لا يحكمون بما أنزل الله، انتظاراً لنصر إلهي لا يد لهم فيه ولا خطوة لهم باتجاهه.

وقد أرسل الله ملائكته تقاتل مع المسلمين مرة واحدة ببدر، حينما كانت القلة المسلمة تواجه أغلبية الشرك، وكان الاسلام يمر بلحظات حاسمة يتعلق بها أمر وجوده وديمومته، وعندما كثر عدد المسلمين وأصبحوا قادرين على مواجهة عدوهم دون امداد من الملائكة، فإنهم أصبحوا ملزمين بتحمل مسؤوليتهم كاملة لمواجهة كل قوى الشرك والانحراف، وأصبحوا ملزمين بالصبر والثبات للتغلب على عدوهم ودحره وطرده، وأصبحت القلة منهم بطاقتهم الإيمانية الكبيرة مؤهلة لمواجهة هذا العدو باستمرار، وإن كان كبيراً وقوياً[1].

كان لا بد للفئة القليلة المؤمنة بالله أن تتغلب على الفئة الكثيرة والكبيرة باذن الله ومشيئته، وكان لا بد أن يتكرر وجود هذه القلة القليلة باستمرار، وفي كل الأجيال لتحمل رسالة الاسلام بوعي ويقين، ولتكون شاهداً على هذه الأمة ومسيرتها في كل الظروف والأحوال ليدرك الناس أن هناك من ينتمي للاسلام حقاً، ولديه الاستعداد للتضحية في سبيله وتقديم أعز ما لديه في سبيل بقائه ووجوده.

إن موارد الصبر التي أشار إليها القرآن الكريم كانت تحث الأمة المسلمة على التضحية في سبيل الاسلام وارساء أحكامه وشريعته ومحاربة الكفر والشرك والانحراف والظلم، ولم تدع المسلمين في أي وقت لتحمل الظلم والاهانة والخروج المعلن عن الاسلام، وتحميله ما ليس فيه وتزوير حقائقه ووقائعه وتاريخه، وترك أعنة

---

(١) وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقول الله جل وعلا ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الأنفال: ٦٥.

الأمور وزمامها بيد أعداء المسلمين الحقيقيين من الذين وردت شهادات مؤكدة بحقهم من القرآن الكريم، ومن رسول الله ﷺ، والذين واجهوا الاسلام منذ البداية أعنف مواجهة قدر له أن يشهدها، وكانت كفيلة بالقضاء عليه لولا مشيئة الله بأن يكون هذا الدين هو الغالب، وهو المسيطر وهو الباقي بعد أن اختفت الأديان الأولى ولم يبق منها إلا صور مشوهة مزورة، أريد حمل الناس على تبنيها والاعتقاد بها رغم مناقضتها الواضحة للفطرة الانسانية السليمة والعقل الانساني الواعي.

كما أن موارد الصبر هذه كانت كفيلة بجعل المسلم يعود إلى صوابه وإلى دينه، إذ ما أدرك مغزاها الحقيقي لا المزور، الذي حاولت دولة الظلم الأموية بثه واشاعته وسارت على نهجها في ذلك دول الظلم المتعاقبة في محاولات منها لتعزيز نفوذها وسلطانها.

معاوية يزور حقيقة الصبر

وقد حاولت هذه الدولة بمساع منظمة دؤوبة من مؤسسها معاوية أن تسكت كل صوت يمكن أن يرتفع بالمعارضة والاحتجاج ضد ممارساتها غير المشروعة، والبعيدة عن الاسلام، فلجأت إلى تزوير الحقائق وتأويل الآيات القرآنية بشكل مفضوح، ووضع الروايات والأحاديث الكاذبة ونسبتها الى الرسول ﷺ، بل والذهاب إلى حد تحدي الواضح منها والمعروف، إذ بدا أن مصلحة الدولة العليا، التي تعني مصلحتهم الشخصية دون شك كانت فوق كل اعتبار أو قانون، حتى ولو كان قانون الاسلام.

بل لعل أقطاب ورموز دولة الظلم الأموية كانوا يتباهون بظلمهم وقسوتهم واستبدادهم معلنين من طرف خفي رفضهم لقيم الاسلام وتشريعاته، وليقطعوا أمل الناس بحكومة اسلامية عادلة تسير فيهم بسيرة رسول الله ﷺ، على اعتبار أنها سيرة (مثالية) لا يمكن أن تتكرر على هذه الأرض ثانية.

وقد اطلعنا على القصة الموضوعة بلا شك من قبل معاوية عمداً والتي سخر فيها من يزيد عندما أخبره أن سيسير بسيرة عمر بن الخطاب إذا ما أصبح خليفة، وقوله له: إنني جهدت أن أسير فيهم بسيرة عثمان فما استطعت، فكيف تستطيع أنت أن تكون مثل عمر؟

لا شك أنه كان بذلك يمهد لبداية عد تنازلي لانتهاك معلن وخروج صريح عن الاسلام، وأنه كان يعد لترويض الأمة لقبول يزيد وأشباهه فيما بعد، وإن عليها أن تسكت و(تصبر) على ممارسات خليفة المسلمين وولي الأمر، وليس عليها أن تحتج عليه لأي سبب من الأسباب، وقد روي أن معاوية قدم المدينة:

(فلقيه أبو قتادة الأنصاري، فقال معاوية: تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار. قال: لم يكن لنا دواب. فقال: فأين النواضح؟ قال: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر. ثم قال أبو قتادة: إن النبي ﷺ قال لنا: إنكم ستترون بعدي أثره، فقال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر، قال: فاصبروا)[١].

ولا يخفى ما في هذا القول من تحد واضح فالأثرة لا بد أن تكون من الظلمة والخارجين عن أحكام الاسلام، ولم ينف معاوية عن نفسه قيامه بذلك، إلا أنه طالب بالسكوت عنه ذاهباً الى معنى لم يرده الرسول ﷺ حتماً.

إن هذا الصبر الأموي يرفضه الاسلام جملة وتفصيلًا، مع أنه طالب المسلمين بالصبر على ضروب المكاره، ولكن لمواجهة أعداء الاسلام من الكفار والمشركين والمنحرفين، الذين هم أشد عليه من كل الأعداء، لأن خطرهم ربما يكون غير مكشوف للعديد من أبناء الأمة المضللين والمغرر بهم والمخدوعين، خصوصاً إذا ما كانت يد الانحراف هي الغالبة والمسيطرة والمتنفذة، وكان المنحرفون على رأس السلطة، وعلى سدة الحكم.

مفهوم الصبر القرآني

فليس الصبر بمفهوم الاسلام حالة سلبية مقترنة بالسكون والاستسلام، وإنما هو فعل إرادي حر يتطلب قوة استثنائية قد لا تكون إلا لذوي الإيمان القوي والعزيمة الراسخة واليقين الثابت بالله عز وجل، فعل يقترن بالعمل الصالح، الذي يقره الاسلام ويريده، لا الذي تقره أعراف المجتمع أو الحكام[٢] الجائرون الفاسقون.

لقد قرن الصبر بالصدق والجهاد في سبيل الله والمرحمة والتقوى والاحسان

---

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي ١٨٨.

(٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ القصص: ٨٠.

والثبات والهدى والفوز بالجنة[1]، وهو الثواب الذي أعده الله لمن يتمسكون به، وهي أمور لا تتاح لأي امرىء بمجرد التمني، كما أنها تخضع لاختبار دقيق من قبل الخالق العليم، وهو اختبار موضوع بعناية فائقة ومحكمة بشكل لا يقبل التفسير والخطأ والجدال ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١].

أترى أن من زوروا التاريخ وضللوا الناس وسرقوا مكتسبات المسلمين وتسللوا إلى مراكز القيادة التي أبعدوا عنها بأمر رسول الله ﷺ، بعد أن ثبت عداءهم للاسلام، قادرين على اجتياز أي اختبار من هذا النمط؟ وما عساهم سيقولون لله إذا ما وقفوا بين يديه في يوم الحساب والجزاء، وهو يوم آت لا ريب فيه؟ لقد تحملوا وزر تضليل وخداع وقهر هذه الأمة على امتداد الأجيال، وحتى يومنا هذا، ولم يتحملوا وزر أنفسهم وحسب.

وأمام كارثة كهذه حلت بالأمة عندما تسلط يزيد وأصبح خليفة بكل وسائل القهر والخديعة الملتوية، كان لا بد من موقف ثابت في صف الاسلام، ولا بد من جهاد المنحرفين وأعداء الاسلام السريين الذين تسللوا الى مواقع الصدارة.

وكانت المعركة هنا أشد من تلك التي خاضها المسلمون الأوائل بقيادة الرسول ﷺ أمام الكفار والمشركين المكشوفين المعروفين المعلنين لكفرهم واشراكهم فقد كانت مواقع الخطر مكشوفة ومعروفة ومراقبة من قبل المسلمين، وكانت الوقاية من ريح الشر ممكنة ما داموا يعرفون مصدر تلك الريح واتجاهاتها، أما هنا فإن جبهة أعداء الاسلام المتحدة قد أخفت أغراضها وأهدافها، ولعبت لعبتها بمهارة وحذق جديرين بشيطان الشر وعبقرية معاوية، الذي تزعم هذه الجبهة ووصل إلى أرفع مستوى قيادة يتيح له تنفيذ مخططاته بيسر وسهولة.

---

(١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ محمد: ٣١. ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ البقرة: ٢٥٠. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ العصر: ٣ ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ آل عمران: ٢٠٠. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف: ٩٠. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ آل عمران: ١٨٦. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ السجدة: ٢٤. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٦. ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ المؤمنون: ١١١.

ولم يكن من الهين كشف مخططات الأعداء السريين للاسلام ما دامت مقدرات الأمة كلها بين أيديهم، وما دام الصوت الوحيد الذي يمكن أن يرتفع ويؤثر ويصل الى كل الأسماع هو صوتهم، وما دامت فئات كبيرة من الأمة مضللة لا تعرف حقيقة أهدافهم، وكان التصدي لهم جديراً بممثل الرسول الحقيقي وخليفته الشرعي، الامام الحسين عليه السلام، إذ لم يكن أحد غيره بقادر على لفت أنظار الأمة الى المخاطر الكبيرة التي تتعرض لها في ظل دولة الظلم والانحراف الأموية، وكان أي دم، غير دمه، سيضيع في غمرة حملة الزيف والتزوير والكذب التي جند لها عشرات الآلاف من وعاظ الدولة المأجورين والمرتزقة الآخرين.

صبر الحسين عليه السلام صبر على قضاء الله

كان الحسين عليه السلام يعلم أن هذه الدولة لن تتنازل بسهولة أمامه وتستجيب لمطالبه العادلة، وإنها ستستنفر كل أعوانها وشيعتها لمقاومته والقضاء عليه، غير أن نتيجة ذلك ستكون في النهاية لفت أنظارها إلى قوى الشر المتسلطة عليها، وتسليحها بقدر من الوعي يجعلها قادرة على اكتشاف أعدائها، وإن تستروا بالاسلام وادعوا الانتماء إليه.

ولم يكن الموت والتشريد والسبي وترويع الأطفال والنساء مما يستسهل لو كان الأمر أمر مهمة أخرى غير هذه المهمة، أما في هذه المهمة الدقيقة والحاسمة، وقد كانت الأمة على مفترق الطريق، أما الانحدار النهائي والسقوط في أحضان الانحراف، وأما العودة الى الوعي ومعرفة مكامن الخطر المحدق بها، فإن الصبر على المخاطر كان هو الأمر الوحيد الممكن.

فمن ذا الذي سيرعى هذه الأمة ويرشدها الى طريق الاسلام الصحيح، فإن الصبر على المخاطر كان هو الأمر الوحيد الممكن.

فمن ذا الذي سيرعى هذه الأمة ويرشدها إلى طريق الاسلام الصحيح، إذا ما تخلى الامام الحسين عليه السلام عنها، وإذا ما سار في مهمته لكشف الانحراف وتعريته، وكانت نتيجة ذلك تعرضه للموت ولكل ضروب الأذى، فكيف سيواجه ذلك، إن لم يكن بالصبر عليه وتحمله، ذلك الصبر الذي كان جديراً بحملة الرسالة الإلهية على مر التاريخ، والذي أصبح موضع تقدير وتأمل من قبل كل المسلمين إلى يومنا هذا.

لم يكن صبره عليه السلام صبر المستسلم للسلطة الطاغية الخاضع لها، بل صبر الخاضع للقضاء الإلهي المؤمن به، فإذ أنه ملزم بتحدي الانحراف، فلا بد له من تحمل نتائج تحديه.

وإذ أن الأمة كلها مستسلمة وخائفة ومضللة، وليس له يد في ذلك، فإن واجب توعيتها وتبصيرها بواقعها بدا أمراً لا بد من القيام به، وبدا له أنه المسؤول الأول عن ذلك، بحكم موقعه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن المسلمين.

أن يتحدى السلطة وينبه الأمة إلى خطرها يعني موته الأكيد.

وأن يسكت ربما ضمن سلامته الشخصية مقابل تعريض أجيال الأمة كلها للخطر والموت الأكيد.

فهل كان السكوت في تلك الحال ممكناً؟

أجاب الحسين عليه السلام عن ذلك في كل المواقف التي وقفها عبر مسيرته الملحمية من المدينة الى مكة ثم إلى كربلاء، وحتى قبل ذلك، إجابة حاسمة واضحة: وهكذا قام خطيباً في الناس بمكة، بعد أن صلى بين الركن والمقام ركعتين: فقال:

(الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله.

خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه.

كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خط بالقلم.

رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين.

لن تشذ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقر بهم عينه، وينجز لهم وعده. ألا ومن كان فينا باذلًا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فيرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى)[١].

(١) كشف الغمة للأربلي ٢/ ٢٤١، واللهوف ٢٥ وراجع المصادر الأخرى التي ذكرناها في الدراسة.

ليس كلام الحسين عليه السلام هذا كلام من كان ينافس في سلطان أو يسعى لمكسب شخصي، كان يسير إلى الموت ويعلم أن هذا هو الأمر الوحيد الذي يحتمل أن يواجهه ومع ذلك، فطالما كان في موته حياة الأمة، وبقاء الاسلام، فإن الموت بدا نتيجة سعيدة لمسعى موفق ناجح.

لقد قدر له أن يعيش بمواجهة الانحراف، ولا بد له من التصدي له، ولا محيص عن ذلك وعن مواجهة الموت بعد ذلك، طالما أنه يحقق رضا الله (جل وعلا شأنه). أليس هذا هو طريق رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ومن أولى برسول الله صلى الله عليه وآله من لحمته ودمه وأهل بيته؟

وقال لابن عباس قبيل خروجه من مكة:

(إن القوم لن يتركوني، وإنهم يطلبونني أينما كنت حتى أبايعهم كرهاً أو يقتلوني، والله لو كنت في ثقب هامة من هوام الأرض لاستخرجوني منها وقتلوني. والله أنهم ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في يوم السبت، وأنا ماضٍ في أمر رسول الله صلى الله عليه وآله حيث أمرني، وإنا لله وإنا إليه راجعون)[1].

ولا يبدو هذا الكلام امرىء يخاف الموت إذ لو كان يخافه حقيقة لبايع وأنهى المسألة كلها وضمن سلامته الشخصية وأمنه وراحته لبقية سني عمره، غير أنه سيكون سبباً لكي تفقد الأمة والى الأبد سلامتها وأمنها وسعادتها، وهي أمور كانت مرهونة بموقف الحسين عليه السلام في ذلك الظرف الدقيق.

إن السلطة ستبذل كل جهدها وستستنفر كل أعوانها لمحاصرته والقضاء عليه طالما أنه بقي على موقفه الرافض ليزيد، أما هو فلا يجد سبيلاً إلا هذا الموقف والمضي فيه الى النهاية، فهذا أمر الاسلام، وهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله ومسؤوليته التي حملها آل بيته من بعده، ومن أجدر من الحسين عليه السلام بتنفيذ هذا الأمر حتى وإن اقتضى الأمر العدوان عليه وقتله، فليس غريباً على دولة الظلم أن تعمد الى قتل أعدائها والقضاء عليهم، كما كانت تفعل دائماً، وربما بذريعة منسبة للدين، كحال

(١) ورد قوله عليه السلام باختلاف يسير في بعض المصادر، الطبري ٣/ ٢٩٦، وابن الأثير ٣/ ٢٧٦، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٦، ومروج الذهب ٣/ ٦٥، وتاريخ الخلفاء ٢٠٧، وترجمة ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله لابن عساكر ٢٤، ونهاية الأرب ٢٠/ ٤٠٨، ومقتل الخوارزمي ١/ ٢١٧.

اليهود تماماً وقد ادعوا الانتساب الى رسالة سماوية، إلا أنهم حرفوها وزوروها وقاموا بعدوانهم وانحرافهم بحجة المحافظة عليها.

وقد تطرقنا الى اشاراته المتعددة ليحيى ابن زكريا عليه السلام.

وورد في كتابه لعبد الله بن جعفر كلام مماثل لقوله لابن عباس وقد جاء فيه:

(إني رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمرت فيها بأمر أنا ماض له، على كان أو لي،

فوالله لو كنت في ثقب هامة من هوام الأرض لاستخرجوني منها حتى يقتلوني. والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في يوم السبت)[1].

وقال للفرزدق الشاعر عندما قال له هذا، وقد سأله عن خبر الناس خلفه:

(قلوب الناس معك، وسيوفهم عليك، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء،

قال عليه السلام: صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحب، فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم يتعد من كان الحق نيته، والتقوى سريرته)[2].

كان استسلامه لله وحده، لم ير غيره ولم يتوجه إلا إليه، وكان يبدو مطمئناً غاية الاطمئنان إلى حكمه وقضائه، فوجود بني أمية على رأس الحكم بلاء حل بالمسلمين، ولا بد من مقاومة هذا البلاء، ولا بد أن يكون هو في مقدمة من يقاوم، سواء استطاع أن يزيله أم لم يستطع، وهما أمران كانا سيان لديه طالما أنه كان يستجيب لواجب مفروض عليه، وأنه ينصر الحق والاسلام، وكان الأمر الأول يستوجب الحمد والشكر، كما أن الأمر الثاني يستوجبهما كذلك، لأنه استطاع التغلب على كل المخاوف البشرية التي يمكن أن تتصاعد في مثل تلك الظروف، ويواجه دولة الانحراف بكل ما استطاعت تحشيده من جند ومن قوة.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٧ ذكر قسماً من هذا الكلام والخوارزمي ١/ ٢١٨، وابن كثير ٨/ ١٦٩ ذكر القسم الأخير منه.

(٢) الطبري ٣/ ٢٩٦، نهاية الأرب للنويري ٢٠/ ٤١٠، وابن الأثير ٣/ ٢٧٦، وابن كثير ٨/ ١٦٦، والصواعق المحرقة لابن حجر ص١١٨، والخوارزمي ١ ف١١، والبلاذري ٣/ ١٦٥.

استسلام الحسين عليه السلام لقضاء الله استسلام فاعل

ولم يكن استسلامه استسلام اليائس من الحياة، والذي قد مل منها لأنها لا تقدم إليه ما اعتاد منها، فقد كانت مصاريعها مفتحة أمامه، وكانت إشارة بسيطة منه كفيلة بجعل يزيد يطير فرحاً وينفذ له كل ما يريد، وبذلك ينهي المسألة كلها، ويعيش حياة وادعة هينة، غير أنه آثر الطريق الآخر، طريق مقاومة الانحراف وإيقافه،

وكان قضاء الله عليه يقابل باستجابة واعية من قبله، فهذا القضاء لا ينزل به وهو جليس داره قد هادن وساوم واستسلم ليزيد حتى يرفضه، ويرى فيه أمراً غير متقبل، لكنه بمقاومته وتحديه سلطة الانحراف، يرى أن ما سيحل به نتيجة طبيعية، إذ أن دولة الظلم لن تتنازل بسهولة أمام مطاليبه، ومن هنا كان توقعه الموت لا يثير في نفسه أدنى خوف، بل ربما كان يثير فيها السعادة، لأنه يحقق به ما خافت الأمة كلها من الإقدام عليه، فالحياة ليست غاية بحد ذاتها إذا ما تخلى المرء عن الإسلام، وقبل ذلك باختياره، وستكون عبئاً ثقيلًا ومثار محاسبة ومسائلة إذا ما قبل العيش في ظل دولة الظلم ومهادنتها ومسالمتها، كما أنها ستكون قيمة كبرى إذا ما انتصر فيها لقيم الحق المتمثلة بالإسلام، وستكون قيمتها بقدرتها على فهمه واستيعابه والوقوف إلى جانبه في الأزمات، مثل تلك الأزمة التي كان يمر بها فعلًا وهو يصادر من قبل بني أمية الذين حاولوا استبداله بدين مزيف من عندهم.

لقد خاطب أخته زينب بقوله:

(كل الذي قضى الله فهو كائن..)[1].

وخاطب أبا هرة الأزدي بقوله:

(لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسنهم الله تعالى ذلًا شاملًا وسيفاً قاطعاً، وليسلطن الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ)[2].

وقال في (الثعلبية) لرجل من أهل الكوفة أخبره أن الناس مجتمعون عليه:

(إن الأمر لله يفعل ما يشاء، وربنا تبارك وتعالى هو كل يوم في شأن، ثم أنشد:

(١) الخوارزمي ١/ ٢٢٥، ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ٩٥، ومقتل ابن نما ص٢٣.
(٢) اللهوف ص٢٩، وأعيان الشيعة ٤/ ١٨٤، وأمالي الصدوق م ٣٠، والخوارزمي ج١ ف١١.

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً فقلة حرص المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرء بالسيف في الله أفضل)[١]

وقال لرجل من بني عكرمة، (عمرو بن لوذان)، وقد حذره ببطن العقبة من المضي إلى الكوفة:

(ليس يخفى على الرأي، ولكن الله لا يغلب على أمره، والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا أذل الأمم)[٢].

ومن المعلوم أن أقواله وتصريحاته هذه، كانت قبل لقائه بالحر بعد خروجه من شراف، ومعنى ذلك أن مسألة الرجوع متعللًا بتخاذل أهل الكوفة وتركهم نصرته، وربما كان ذلك عذراً وجيهاً أمام من قد يوجهون اللوم إليه فيما بعد.

غير أنه كان يريد شيئاً أبعد وأهم من الحفاظ على سنوات عديدة متبقية له من حياته، كان ينشد حياة الإسلام الذي أوشك أن يمسخ بدين آخر، وحياة أمة منقاة ومبرأة من كل دنس وانحراف وتزوير، وقد اختار المضي في هذه المهمة رغم المخاطر التي كانت تلوح له وتبدو كأمر واقع لا بد منه.

لقد قال عليه السلام بعيد سماعه خبر مقتل رسوله إلى الكوفة قيس بن مسهر الصيداوي، وقد امتلأ قلبه حزناً عليه:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٣].

اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلًا، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك)[٤].

---

(١) مناقب ابن شهراشوب ٤/ ٩٥.
(٢) الإرشاد ص ٢٠٦، وأعيان لشيعة للأمين ج٤ ق١ ص١٨٨، ونفس المهموم للقمي ص٩٨ إيران.
(٣) الأحزاب: ٢٣.
(٤) نهاية الأرب للنويري، القاهرة ج٢٠ ص٤٢١.

لماذا اختار هذه الآية الكريمة بالذات في هذا الموقف، مع كل ما فيها من إيجاء، بما سيحل بالمؤمنين الصابرين السائرين على خط الإسلام الصحيح؟

ولماذا دعا بهذا الدعاء، لولا أنه كان مصمماً على إنجاز مهمته والمضي بها حتى النهاية؟

ولعل حواره مع ولده علي الأكبر له دلالته الكبيرة على هذا المعنى، عندما خفق برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول:

«إنا لله وإنا إليه راجعون» «والحمد لله رب العالمين» فعل ذلك مرتين أو ثلاثاً.

(أقبل إليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، يا أبت، جعلت فداك، مم حمدت الله واسترجعت؟

قال: يا بني، إن خفقت برأسي خفقة، فعن لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

قال: يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟

قال: بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت إذاً لا نبالي، نموت محقين.

فقال له: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده)[(١)].

ولا ندري أيهما أعجب هنا، موقف الوالد أم موقف ولده، وهما يدركان أن الموت نازل بهما لا محالة، وبالتأكيد لم يكن الجزع والخوف من الموت هو ما نراه منهما.

لقد علم الحسين عليه السلام أن أنفسهم نعيت إليهم، ولم يملك إلا أن يسترجع ويحمد الله على ذلك، وقد رأى أن ذلك من الأمور التي ينبغي أن يحمد الله عليها حقاً.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٠٩، وابن الأثير ٣/ ٢٨٢، والإرشاد ٢٠٩، وروضة الواعظين ص١٨٠، ونهاية الأرب للنويري ٢٠/ ٤٢٣، وقد روي أن الحسين عليه السلام قد خفق برأسه عصر التاسع من محرم قبيل هجوم ابن سعد عليه، وقد سمعت زينب عليها السلام صيحة العدو فاقتربت من الحسين وسألته عن الأصوات التي أخذت تقترب منهم، فرفع الحسين عليه السلام رأسه وقال: (إني رأيت رسول الله في المنام وهو يقول: إنك صائر إلينا عن قريب) وحاول إسكاتها وتهدئتها وإعدادها لتقبل موته وموت أصحابه ، اللهوف ص٣٨، ونهاية الأرب ٢٠/ ٤٣٢.

وقد استجاب الابن لأبيه استجابة واعية، فاسترجع وحمد الله بدوره، وكان تساؤله، ألسنا على الحق من باب تأكيد الشيء، فقد كان يعلم أنهم على الحق، وطالما أنهم كانوا كذلك وطالما أنهم كانوا ينهضون بأكبر مهمة أتيح لأفراد من المسلمين القيام بها في ذلك الجو العاصف المضطرب، فإن الموت هنا لم يكن أمراً داعياً للقلق والخوف.

لم يقل علي بن الحسين لأبيه، جنبك الله هذه الميتة، أو جنبك الله وإيانا هذه الميتة، بل قال لا أراك الله سوءاً.

لا أراك الله سوءاً في ظل دولة الظلم، وسوء التخاذل والاستسلام والخوف، أما الموت، فطالما أنه كان بسبب قضية عادلة ومن أجلها، فلم يعده علي ابن الحسين ولا أبوه عليهما السلام سوءاً، إنه أمر شاق وثمن باهض، غير أنه يظل في نهاية الأمر ثمن لا بد من دفعه ما داما يتصديان لهذه المهمة الكبيرة، بل الهائلة، وما داما يريدان تغيير الأوضاع تغييراً جذرياً حاسماً، فإن الصبر على الموت هنا من الأمور البديهية المطلوبة، ولم يكن التراجع أو الاستلام مما يقبل المراجعة أو إعادة النظر.

لم يستسلما لعبودية الدنيا، ولم يكن الدين لعقاً على لسانيهما، وها هو البلاء يحل، غير أنه لم يكن بلاء بنظرهما، لذلك فإنهما لم يتراجعا أو يتخاذلا طالما أنه سيحقق أمراً عجزت الأمة كلها عن تحقيقه، وطالما أنه سيلفت نظرها إلى واقعها المزري في ظل دولة الظلم المنحرفة، ويجعلها ترفضه وتقف الموقف الصحيح منه بعد ذلك.

وهكذا خطب في أصحابه عند نزوله كربلاء قائلًا:

(الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون)[1].

وهي حقيقة مؤسفة، جاءت نتيجة سعي حثيث من قبل كل أعداء الأمة لاستدراجها لتلك الحال. هل ترى هنا وصفاً لأمة إسلامية كما أرادها رسول الله صلى الله عليه وآله أم وصفاً لأمة مسلوبة الإرادة لا ترى الدين إلا عبثاً ولغواً، ولا ترى مانعاً من التظاهر به طالما أنه لا (يضرها)، وإذا ما وضعت أمام محك حقيقي، كالذي كانت تواجهه في

---

(١) البحار للمجلسي ج٤٤ ص٣٨٣، ومقتل الحسين للخوارزمي ج١ ف١١.

ظل القيادة الأموية المنحرفة، فإنها سرعان ما تتخلى عنه متذرعة بمختلف الذرائع والحجج.

إن هذه الحقيقة المؤسفة لا بد وأن تكون قد وضعت الإمام الحسين عليه السلام أما تساؤل حقيقي: هل ينبغي السكوت عن هذه الحال، أم يجب تغييرها وعلى الفور لئلا تفلت الفرصة إلى الأبد، ومهما كان الثمن؟

ولعل نهضته ووقوفه تلك الوقفة الباسلة بوجه النظام المتسلط تعطي الإجابة الواضحة عن هذا السؤال.

السكوت عن الانحراف ليس صبراً

كان لا بد من الارتفاع عن تلك الحال وعن دنيا بني أمية والعودة إلى دنيا محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، وكان لا بد من الانتصار على كل ذلك الضعف البشري، ولا بد من تدارك الأمر.

وإلا فهل كانت الحياة في ظل الانحراف الأموي المعلن هي ما يتمناه المرء حتى ولو كان يرى أن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وأن الحق قد استبدل بالباطل، أم أن الأمر غير ذلك

لقد جمع الحسين عليه السلام أصحابه ثانية وخطب فيهم مبيناً الأوضاع التي تمر بها الأمة وما ينبغي على كل فرد فعله إن كان مؤمناً حقاً:

(أما بعد، فإنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، واستمرت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل.

ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً)[1].

هل نرى في خطاب الحسين عليه السلام استسلاماً للواقع الفاسد، وصبراً على النمط الذي ينشده الأمويون وأمثالهم من حكام الظلم والجور، أم أننا نرى أنه

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٣٤٥، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٣٩، واللهوف ص٣٣، وتاريخ ابن عساكر ص٢١٤، ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٢٢ ط٢ وذخار العقبى ١٤٩، والعقد الفريد ٤/ ٣٨٠، والخوارزمي ٢ ص٥، والاتحاف بحب الأشراف للزبيدي ١٠/ ٣٢٠.

يستعرض واقعاً فاسداً لا يمكن الصبر عليه والسكوت عنه، وإن ذلك يتطلب منه صبراً على الشدائد والموت، وإلا فهل كان الموت هنا أمنية يتمناها الحسين عليه السلام، أن يموت على فراشه لكي يتخلص من مشاهد الانحراف والفسوق والظلم، أم أنه موقف إرادي يقدم عليه بكل عزم وتصميم طالما أنه يحقق الهدف المنشود، وينجح بلفت نظر الأمة إلى سوء أوضاعها في ظل حكامها الأمويين، وجعلها تدرك أن ما أقدم عليه هو وأصحابه عليه السلام، هو الموقف الصائب في ظل الأوضاع التي تعرضت فيها للانحراف والظلم والخروج المتعمد عن الإسلام، وهو الموقف الذي ينبغي على كل فرد منها وقوفه.

وفي موقف آخر كان عليه السلام في خباء له، وعنده جون، مولى أبي ذر الغفاري، وهو يعالج سيفه ويصلحه كان يردد:

(يا دهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حي سالك السبيل)

فأعادها مرتين أو ثلاثاً، حتى أفهمتها، فعرفت ما أراد، فخنقتني عبرتي (والحديث هنا للإمام زين العابدين عليه السلام الذي كان عليلًا فلم يشارك في القتال) ولزمت السكون فعلمت أن البلاء قد نزل)[1].

أما زينب فقد بكت لما يوشك أن يقع، فحاول الحسين عليه السلام تهدئتها وبث السكينة في نفسها واعدادها لتقبل قتله على يد الجيش المستنفر لذلك، وكان مما جاء بكلامه لها:

(يا أخية، اتقي الله، وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وإن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده. أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة)[2].

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١٦، وابن الأثير ٣/ ٢٨٦، والإرشاد ص٢١٦، وروضة الواعظين للقتال ١٨٤، وأنساب الأشراف ٣/١٨٦، واللهوف ص٣٤، ونهاية الأرب ٢٠/٤٤٧، مع اختلافات يسيرة في بعض النصوص.

وهذا موقف جدير بالانتباه حقاً، فالحسين عليه السلام لم يكن في أحد سجون الطغاة الأمويين منتظراً قدوم الجلاد لتنفيذ حكم الموت فيه، وإنما كان يعالج سلاحه ويعده لقتال هذا الجلاد، وإذا ما قتل بعد ذلك على يده، فإنه قتل وقد أدى واجبه في الدفاع عن الإسلام.

كان يرى أن جلاديه مسلحون ومستعدون للإقدام على جريمة قتله، وقتل أصحابه، وأن موته محتم وهو يصر على مقاومتهم ورفضهم، وهم يصرون على قتاله وقتله. **وإذا ما كان ثمن إصلاح الأمة واستقامة الاسلام هو قتله، فها هو مستعد للقتل** الذي لن يبدو هيناً بأي حال من الأحوال، كما أنه لن يتعرض وحده لذلك، ولعل حياة أفراد من أهله وأصحابه لن تكون هينة عليه، وسيرى أنها ستقدم للموت وأنهم سيتعرضون للأذى بمرأى منه ومسمع، وهو أمر لن يستطيع امرؤ سواه تحمله بأي حال من الأحوال، إذ ستكون المشاهد المشحونة بالأهوال كفيلة بإثارة الرعب في أشد القلوب وأقواها، أما معه فالأمر لن يكون كذلك، إنه يحزن على أهل بيته وأصحابه، بل أن دموعه لتسيل معبرة عن ذلك الحزن الجارف العميق، غير أنه لم يفكر لحظة بالاستسلام، والمهادنة مع أن نهايته هو بدت قريبة دون شك،

كانت الأبيات التي رددها تعبر تمام التعبير عن حال الدهر التقلب الذي غالباً ما تتحكم في أيامه الطغاة، وإذ أنه هكذا يشهد كل يوم ضحية جديدة يقدمها على طبق فاخر لهؤلاء الطغاة، ضحية منتقاة، لا بد أن تكون هي بعينها لا غيرها، فإن هذا الأمر بدا مألوفاً من الدهر، وإذا كان لا بد من التضحية فليكن، وليضحي وليسلم أمره لله بعد أن يجاهد ويقول كلمته، فإمام كل فرعون لا بد أن ينهض موسى، وأمام يزيد لا بد أن ينهض الحسين، لكي يظل الأمر كذلك إلى الأبد، ليجد الطغاة من يقف بوجوههم ويتحداهم ويدعوهم للعودة إلى الإسلام، فإنه الصراع الدائمي المحتدم إلى أن تمتلىء الأرض قسطاً وعدلاً كما امتلأت ظلماً وجوراً، بظهور قائم آل محمد (عج).

كان للأبيات إيحاؤها القوي وإيقاعها الواضح بأن الموت نازل لا محالة عما قريب، وبعد: فمن هو الجدير أن يجزع من الموت؟ أرجال مثل الرسول صلى الله عليه وآله ، أم من هم على شاكلة معاوية ويزيد؟

لا شك أن من كانوا مثل الحسين عليه السلام سيكونون سعداء وفخورين بالموت

الذي سيكون أجمل نهاية سعيدة، يقطف فيها ثمار سعيه الكبير، ووقفته الفريدة بمواجهة الظلم والانحراف.

فقد وضعوا أمام أصعب اختبار، ونجحوا فيه نجاحاً باهراً. لقد فهمت زينب مغزى رسالته ووعتها جيداً، وهكذا بسطت يديها تحت بدنه المقدس بعد مقتله رافعة طرفها نحو السماء هاتفة:

«اللهم تقبل منا هذا القربان»[1].

وصمدت بقوة غريبة أمام أكبر كارثة يمكن أن تحل بامرأة، قتل أهل بيتها وحماتها في لحظات قصيرة، مع أنهم هم الذين كان ينبغي على الأمة التي قتلتهم واستباحتهم أن تدافع عنهم وتسير وراءهم لكي تصل إلى بر الأمان والنجاة.

ولا شك أن آلام الحسين عليه السلام كانت مما لا يمكن تحمله لو لم يكن هو الحسين خاصة، ولا شك أنها كانت امتداداً لآلام طويلة وكبيرة قد نحسبها نحن أقل هولًا ومرارة مما قاساه في وحدته، وهو يرى تساقط أولاده وأهل بيته وأصحابه أمامه، أما هو فقد كان ينظر إليها بمنظار آخر، منظار صاحب الرسالة وقد سلبت رسالته وزيفت وتخلى الناس عنها، أي يوم عاشه الحسين عليه السلام لم يكن فيه حزن، وأي يوم عاشه لم تنتهك فيه حرمته، وقبلها حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وأبيه علي وأمه فاطمة وأخيه الحسن .

كان يرى تخلي الناس عن رسالة جده صلى الله عليه وآله الحقيقية غير المزيفة، والتي حملها آله مبرأة منقاة من العيوب يجري بوتيرة متسارعة، فكأنهم أوراق الأشجار تتساقط في الخريف، فهل أن خريف الإسلام كان قريباً جداً إلى ذلك الحد، وهل سيشهد الشتاء حيث لا يرى ورقة واحدة خضراء تظل ملتصقة بشجرة النبي وآله؟

حمل الحسين عليه السلام هماً كان جديراً بالأمّة كلها أن تحمله، هماً كبيراً قد تنوء الأمة بحمله لا شخص واحد وحسب.

كان الحزن والألم يتجمع في لحظات قصار، لحظات جديرة أن تهد جبلًا من الصخر الأصم، لا جسماً صغيراً مفعماً بأرق المشاعر والأحاسيس، نابعة عن شعور حقيقي بالانتماء للإنسانية وللأمة الإسلامية التي يراد انتهاكها وانتهاك حرمة قادتها

(١) الكبريت الأحمر، للتستري ٣/ ١٣.

الحقيقين المتمثلين بالرسول ﷺ وآله ، فأي معنى سيظل لهذا الاسم، اسم الأمة الإسلامية، إذا ما استخدمت هي أداة لهذا الانتهاك وأقدمت على ذبح نفسها بنفسها، وعجزت عن مواجهة أعدائها الذي تعلم علم اليقين أنهم أعداؤها؟

لقد كانت هذه الشرائح الاجتماعية الواسعة من أهل الكوفة المتمثلة بالجيش المستنفر لقتاله، تطالب بقدومه حتى الأمس القريب، وتهتف باسمه وترجو أن يتم تغيير أوضاعها المزرية على يديه، فما الذي جعلها تقاتله اليوم وتذهب إلى حد الانتقام البدائي الوحشي الذي لا يتقيد بعرف أو قانون، وتقتل حتى الأطفال الرضع والصغار؟

أكان هذا حصيلة انتمائهم للاسلام وفهمهم له؟

أم أن دائرة البغي والانحراف الأموي نجحت في مسعاها لسلب هويتهم الإسلامية نهائياً وتضييق الحصار عليهم؟

أكان الصبر على هذه الحال المزرية أولى بالحسين؟ وهل يمكن أن يعد هذا صبراً؟ أم أن الصبر على مقاومتها وتغييرها أولى به وأجدر؟

صبراً على الموت بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد اليوم

يقتل ابنه علي الأكبر وبقية أولاده حتى الرضع منهم، (وحتى المريض أرادوا قتله بعد ذلك) ويقتل أبناء أخيه وأبناء عمومته وأولادهم وأصحابه ويجرح جروحاً بليغة وينتظر بعد لحظات قتله والتمثيل بجثته، وأخذ النساء والأطفال أسرى مكبلين بالقيود، بعد أن تحرق خيامهم ويسلب ما عليهم من حلي وحتى بعض الملابس وربما عمدوا معهن إلى أقسى الأساليب التي لم تخطر ببال عربي يعتز بعروبته، ناهيك بمسلم يقيده قانون الاسلام، يرى نفسه وحيداً بمواجهة عشرات الآلاف من الجنود يتلهف عشرات بل مئات منهم (للفوز) برأسه وتقديمه لسيدهم ابن زياد، وكأنه أحد أعداء الإسلام الألداء.

كان يرى أنهم أجدر بالرثاء، وأن حالهم بالتأكيد أسوأ من حاله، هذا إذا كان يفكر أصلًا أن حاله كانت سيئة فعلًا وهو يواجههم.

فقد أقدم على ما أقدم عليه متوقعاً كل ذلك، لأن هدفه كان كبيراً، بل أكبر مما يتحمله المستسلمون الخائفون، وكان يتوقع أن تستنفر الدولة كل قوتها وجنودها وقتله، وستكون محصلة عمله تنبيه الأمة إلى واقعها السيء في ظل الانحراف الأموي

وسقوط رموز هذا الانحراف وجعل دول الظلم فيما بعد تحسب حساباً للأمة التي قد تثور عليها مقتدية به، وسيجني هو شخصياً مع من أقدموا معه على خطوته العظيمة وشاركوا بثورته ثمار ذلك مع جده رسول الله ﷺ في جنان الخلد، وسيفد على ربه الكريم بعد أن فدى دينه بنفسه.

فأي لقاء حافل سيكون في الفردوس عند ذاك، بعد أن يلتقي آل البيت ببقيتهم، الحسين وقد نجح نجاحاً باهراً بمهمته العظيمة، وأية فرصة غامرة سترتسم على وجه رسول الله ﷺ بعد أن يلتقي به لقاءاً دائماً أبدياً، وطالما كان الحزن والأسى يرتسم على وجهه الشريف وتفيض عيناه بالدموع عندما يرى بعين البصيرة والعلم الإلهي اليقيني ما سيلقاه على يد أمته التي ابتعدت عنه وذهبت إلى حد قتل أبنائه وآله والتعدي عليهم.

هل من المعقول أن لا يصمد الحسين ويصبر امامهم هو ساعة قصيرة، ولا يكون سعيداً وهو يقدم على جده وأبيه وأمه تحف بهم أنبياء الله وملائكته الكرام وجميع الشهداء والصديقين، وليس بينه وبينهم سوى تلك الساعة وحسب؟

كان يحث أصحابه وأهل بيته وأبناء عمومته على الصبر والثبات بوجه العدو الذي كان يتفوق عليهم عدداً وعدة، ولطالما كان يصيح بهم عند اشتداد القتال:

(صبراً على الموت يا بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم)[1].

مع أنهم كانوا ثابتين بمواجهة العدو، وطالما الحقوا الضرر به ولو أنهم لجأوا إلى أساليب الغدر التي لجأ إليها العدو لكانت خسائره فادحة حتماً.

حينما ينطلق الصبر من يقين ثابت بالله

كان يقين الحسين عليه السلام بالله يقيناً لم يتزعزع في أي وقت من الأوقات، وكان موقفه عن أعوان الظالم المستسلمين موقفاً حاسماً، وكأنهم لم يكونوا هم الذين يحاصرونه ويحيطون به.

لم يتوجه إلا لله صبيحة اليوم الذي حدثت فيه المواجهة الحاسمة بينه وبين عدوه، فلم ير إلا إياه في ذلك اليوم العصيب، ولم تكن وقفته وصموده وصبره إلا في

---

(١) مقتل الحسين، السيد محمد تقي آل بحر العلوم، دار الزهراء لبنان ط٢، ١٩٨٥ ص٣٥٢، نقلًا عن مقتل الخوارزمي، وأبصار العين، والدر النظيم في مناقب الأئمة ص٢٧١.

سبيله، فهو وحده من يجب الخضوع له والاستسلام لأمره وحكمه. رفع يديه بالدعاء، ودعاؤه جدير بأن يلتفت إليه ويدرس دراسة واعية متبصرة، وكلماته جديرة بأن تردد في كل موقف عصيب يتسلط فيه الظالمون ويتغلبون ويسيطرون على الأمة المستضعفة المهانة الذليلة.

(إلهي أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة)[1].

كانت ثقته بالله كفيلة بجعله يتغلب على كل المصاعب ويواجهها بحزم وقوة وصبر، فلم يكن ينظر للحياة نظر المطمئن إليها، وعلى أنها فترة عابرة، طالت أم قصرت يمكن أن يجتازها امرؤ بنجاح دون زاد حقيقي من التقوى والطاعة المطلقة لله جل وعلا، وكان حتى آخر لحظة قبيل بدء القتال ينقل تصوراته إلى من نصبوا له العداوة والحرب، ويحثهم على العودة إلى صوابهم وإلى أفق الإسلام وإلى الله، ورفض الواقع الذي فرضه بنو أمية بالقوة، بالتعاون مع اتباعهم وأشياعهم وكل الأحزاب والفئات المنتفعة منهم.

قال لهم قبيل توجهه بهذا الدعاء الذي ذكرناه:

(يا عباد الله، اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت لأحد أو بقي عليها أحد، لكانت الأنبياء أحق بالبقاء، وأولى بالرضاء وأرضى بالقضاء، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء، فجديدها بال، ونعيمها مضمحل، وسرورها مكفهر، والمنزل قلعة والدار تلعة، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون)[2].

وإذ أنه لم يتوقع منهم الإستجابة المطلوبة لنصائحه وتوجيهاته في ذلك الظرف الدقيق، فإنه واجههم بذلك، وكان بذلك يلفت نظرهم بشدة إلى حالهم البائسة التي أصبحوا فيها مجرد أدوات صماء بيد السلطة الظالمة قائلًا لهم:

---

(١) الطبري ٢/٣١٨، وابن عساكر الجزء الخاص بريحانة الرسول ﷺ، ص٢١٤، والإرشاد ص٢١٧، وقد ذكر في مصباح الكفعمي ص١٥٨ ط الهند أن النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء يوم بدر.

(٢) ابن عساكر وأحمد ذكي صفوت، جمهرة خطب العرب ج٢ ص٤٣.

(اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حق لكم علي، وحتى أعتذر لكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم علي سبيل، وإن لم تقبلوا مني بعذر ولم تعطوني النصف من أنفسكم، ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[1] [2].

وفي ذلك الموقف العصيب الذي يواجه به بالموت ويتحفز أعداؤه للانقضاض عليه وقتله، يواجههم بخطبة أخرى يحاول فيها إعادتهم للصواب، كان يحدثهم بلغة الإسلام ومنطقة، لا بلغة المترفين وأعداء الإسلام،

قال لهم:

(الحمد لله الذي خلق الدنيا، فجعلها دار فناء وزوال، متفرقة بأهلها حالًا بعد حال، فالمغرور من غرته، والشقي من فتنته، فلا تغرنكم هذه الحياة الدنيا، فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيب طمع من طمع فيها. وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحل بكم نقمته، وجنبكم رحمته، فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد ﷺ، ثم إنكم زحفتم إلى ذريته وعترته، تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين)[3].

كان يرى أنهم الخاسرون الوحيدون في هذه المعركة، بل وفي الحياة كلها، إذ اجتمعوا على حرب الله ورسوله ﷺ، مع أنهم أعلنوا طاعتهم لله وإيمانهم برسوله ﷺ في الظاهر، وكان واقعهم يدل على أنهم من أشد أعداء الإسلام ورسوله إذ كيف يقدمون على حرب عترته وآله، ويزحفون إليهم يريدون قتلهم، مع أنهم كانوا الممثلين الحقيقيين للإسلام، بل إن بقاءه وسلامته رهينان ببقائهم وسلامة خطهم، وأنهم الضمانة الوحيدة لعدم انحراف الأمة عن الإسلام.

---

(١) يونس: ٧١، والأعراف: ١٩٦.
(٢) المصادر السابقة وابن الأثير ٣/ ٢٨٧، والنويري ٢٠/ ٤٤٠.
(٣) الخوارزمي ١/٢٥٣، وبحار الأنوار ٤٥/ ٦٠، ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ١٠٠.

لم يكن قول الحسين عليه السلام هنا، وفي كل موقف، قول المهزوم المحصور المتخاذل، وإنما كان قول القوي الغالب الذي يرى نفسه كذلك طالما أنه كان مع الله،

ولا بد أنه بذلك كان يثير حيرتهم واندهاشهم، فهل حصل هذا الأمر مع أحد غيره؟ اللهم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله عندما واجه قريشاً بأصحابه القلائل.

ولعل لغة الحسين عليه السلام وكلامه لم يفهمه إلا أصحابه، وإلا عدد محدود من أفراد جيش ابن زياد، أثر فيهم فانضموا إليه في النهاية، وأصبحوا من أصحابه وقتلوا بين يديه، فلغة الإسلام لا يفهمها إلا من شرح الله قلبه للإيمان، وإيقاعها لا يؤثر إلا في النفوس التي فهمت مفردات تلك اللغة وعتها بشكل حقيقي.

كيف يقدم من يرى أعداؤه أنه مغلوب مقتول على تقريع هؤلاء الأعداء وتوجيه اللوم إليهم، مع أنهم يرون أن مسألة قتله مرهنة بهم، ويرون أنهم أكثر عدة وعدداً، وأن قتله سيرجح المسألة في النهاية لصالحهم؟

أهو من يملك السلاح الأكثر ويقود آلاف الجند، لكي يتوجه بهذا الخطاب إليهم؟ لا بد أنه كان يرى نفسه قوياً، ولا بد أنهم كانوا يشعرون بذلك، ويشعرون أنه يتفوق عليهم وأنه يملك ما لا يملكون، ولعلهم نفسوا عليه تفوقه ذاك، وانحيازه التام للإسلام، وأرادوا بضروب القسوة التي أبدوها معه ومع عائلته وأصحابه، أن يجعلوه يستسلم لهم ويضعف أمامهم، ويتقدم إليهم طالباً منهم الرحمة والعفو، وهذا ما لم يتح لهم تحقيقه.

فقد وقف الحسين عليه السلام أمامهم قوياً ثابتاً لا يلين ولا يستسلم ولا يساوم، إذ لم ير أحداً جديراً بأن يسلم أمره إليه سوى الله، أما هم فلم يروا أمامهم سوى طغاتهم وفراعنتهم وآلهتهم التي انقادوا لها انقياداً أعمى، وأطاعوها دون الله.

ولا بد أنهم تعجبوا كيف أن امرءاً، أو مجموعة قليلة من الناس، وجدت في نفسها الجرأة لتواجه أصنام البغي وطواغيت الانحراف دون أن تنحني أو تخاف.

ما كان يراه الحسين عليه السلام طبيعياً، كانوا يرونه شاذاً وغريباً، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث ثانية ووقف إلى جانب الحسين يقاتلهم، ولو صارحهم أنه رسول الله، واقتنعوا أنه رسول الله صلى الله عليه وآله حقاً، لما أحجموا في تلك الحال، وقد صدرت إليهم أوامر طواغيتهم وفراعنتهم، عن مقاتلته وقتله، ولوجد لهم أولئك الطواغيت

والفراعنة الحجج التي تبرر إقدامهم على ذلك، كما عمدوا بالفعل بعد أن قتلوا الحسين عليه السلام.

لقد استعرضنا بعض خطبه الأخيرة فيهم وحرصه على إعادتهم للصواب، ومنهج الإسلام الصحيح، وقد بدا واضحاً أن حرصه على ذلك كان يفوق حرصه على تجنب نفسه وأصحاب القتل، وقد بدا من المؤكد أنه لم يكن يعير مسألة قتله إلا القدر الذي يتيح للأمة أن ترى عدالة قضيته ومظلوميته بمواجهة أغلبية للشر متسلطة على مقدرات الأمة وحياتها. اذ بدا إن نهاية حياته ستكون في كربلاء، وأن الطغمة الحاكمة لن تسكت عنه، ولن تتساهل بشأنه، وإنها ستعمد إلى أشد وسائل الإرهاب واقساها معه في خطوة منها لاسكات الأمة إلى الأبد.

أما هو فقد أرادها أن لا تسكت في أي وقت من الأوقات، وأن يكون دمه هو حافزها الدائم للمواجهة والصمود، وأن تعمد إلى ما عمد هو إليه، وجعل الدم يتغلب على السيف ويتفوق عليه في معركة البقاء الأبدية، معركة الإسلام مع أعدائه.

وإذ إن أعداءه لم إليه ولم يستفيدوا من نصحائحه، فإنه توجه إلى الله تعالى بدعاء حار:

﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1].

فهو سيفد عليه عما قريب، وسيجد عنده الراحة الأبدية، لقد آمن بذلك إيماناً يقينياً، ورأى لذلك أن صبره على الموت أمراً لا بد منه، وكان نداؤه لأصحابه عندما وجه أعداؤه إليهم السهام في بداية المعركة:

(قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم)[2].

وكان ذلك أمراً طبيعياً بنظرهم، إذ يحملون قضية الأمة كلها ويواجهون سلطة الغشم والظلم، ولم يبد لأحدهم أن الموت يمكن أن يكون مصيبة، طالما أنهم

(١) ذكرنا الخطبة فيما مضى من هذا الفصل، راجع ابن عساكر، الجزء الخاص بريحانة الرسول (٣) ص٢١٨، والخوارزمي ٢/٨، واللهوف ٤٢، وبحار الأنوار ٤٥/١٠، وجلاء العيون ٢/١٧٧.

(٢) اللهوف ص٤٢، ومقتل العوالم ص٨٤.

سيكونون مع الحسين عليه السلام في جنان الخلد، وقد أقدموا على الموت بنفس الروح والشجاعة التي أقدم بها قائدهم عليه السلام عليه.

وطالما أن الموت لا بد منه، فإنهم أرادوا أن يجعلوا منه وسيلة لحياة الأمة كلها، وإنقاذها من الوحش الأموي، ومن كل وحوش الإنحراف فيما بعد، وكان موتهم له قيمة حقيقية إذ استثمروه استثماراً ناجحاً في أكبر مشروع يمكن أن يحقق على هذه الأرض، وهو: إعادة الأمة إلى الإسلام.

وكان لحوار الحسين القصير مع عمرو بن الحجاج دلالته الكبيرة، ويبد أن ابن الحجاج رأى بوادر تردد من جنده لمقاتلة الحسين وأصحابه، وربما كان انحياز الحر وجماعة آخرين إلى جانب الحسين عليه السلام سيشجع آخرين على القيام بمثل هذه الخطوة، وهو ما لن تحمد عقباه في النهاية بنظر ابن الحجاج الذي حث جند ابن زياد بقوله:

(يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين، وخالف الإمام)[1].

لقد أجابه الإمام بقوله:

(أعلي تحرض الناس؟ أنحن مرقنا وأنتم ثبتم عليه؟ أما والله لتعلمن لو قد قبضت أرواحكم، ومتم على أعمالكم، أينا مرق من الدين، ومن هو أولى بصلي النار)[2].

وهو جواب له دلالته الكبيرة بنظر من يفهم لغة الإسلام ويستجيب لها، فابن الحجاج ميت لا محالة، وإن طال به الأجل، كما أن الحسين وأصحابه سيموتون بعد لحظات.

وإذ استعمل ابن الحجاج المبررات الأموية التي ابتكرها معاوية للحفاظ على عرشه، مثل (لزوم الطاعة) و(الحفاظ على الجماعة)، وإن كان ذلك في ظل سلطان جائر وإمام فاسق، فإن الحسين عليه السلام يساءله: أترى أن هذه المبررات ستصمد حتى النهاية؟ وهل يستطيع اللجوء إليها يوم الحساب حيث لا تخفى على الله خافية، وحيث يشهد لسان ابن الحجاج وكل جارحة منه عليه؟

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٢٤، وابن كثير ٨/ ١٨٢.

هل كان ابن الحجاج يعتقد حقاً أن الحسين عليه السلام وأصحابه مرقوا من الدين؟

وهل أن طاعة الإمام (يزيد) واجبة بنظره حقاً حتى يدعو الناس إليها؟

أسئلة ربما كان ابن الحجاج لا يستطيع الإجابة عنها بصراحة في ذلك الموقف الذي تخاذل فيه أمام أسياده واستسلم لهم، غير أنه لم يستطيع السكوت إذا ما قبضت روحه، وسيلعن الجواب الصحيح، وسيدين نفسه وسيدعو عليها بالويل والثبور، إذ ليس أمامه سوى أن يجيب جواباً صحيحاً.

كان رد الحسين عليه السلام على ابن الحجاج بذلك الشكل له دلالته الكبيرة، فهو قد وضعه ووضع كل من كان يستمع إليه، أمام أمر لا بد أنهم ملاقوه يوماً ما، وعندها لن يكون بإمكانهم الاستنجاد بيزيد أو ابن زياد وأشباههم، وسيكون هؤلاء مشغولين بأنفسهم وبتقديم حساباتهم الشخصية لمن يحاسبوهم ويحاكمونهم، في اليوم الذي تخشع فيه القلوب والأبصار ويعترف الجميع فيه بأن الملك يومئذ لله.

صبر السعداء نصبر على قضائه ويوفينا أجور الصابرين

كانت كلمات الحسين عليه السلام التي كان يرد بها على كلمات الوداع الأخيرة لأصحابه قبيل خوض الجولة النهائية لقتالهم، وقبيل إقدامهم على الموت، تدل على ثقته بالمستقبل السعيد الذي ينتظرهم في الجنة، وإيمانه بعدالة القضية التي كان يخوضها ضد النظام الأموي الفاسد.

قال لسعيد بن عبد الله الحنفي الذي تقدم أمامه عند صلاة الظهر يحميه من سهام العدو، وقد سأله: أوفيت يا ابن رسول الله؟

(نعم أنت أمامي في الجنة)(١).

وقال لأبي ثمامة الصائدي:

(تقدم فإنا لاحقون بك عن ساعة)(٢).

(وكان كل من أراد القتال يأتي إلى الحسين فيودعه، ويقول: السلام عليك يا

(١) الخوارزمي ٢/ ١٧، والمجلسي ٤٥/ ٢١، وابن شهرآشوب ٤/ ١٠٣.

(٢) ابن شهرآشوب، المناقب ٤/ ١٠٣، وأبصار العين للسماوي.

ابن رسول الله، فيجيبه الحسين: وعليك السلام ونحن خلفك، ويقرأ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1] [2].

كان إيحاء الآية الكريمة واضحاً، وكان مشهد الإمام الحسين عليه السلام وهو يسمح لأصحابه بالتقدم إلى ساحة المعركة ويودعهم الوداع الأخير في هذه الدنيا، لكي يلتقوا بعد قليل في ساحة أخرى دائمة النعيم، مشهداً جديراً بإيحاء هذه الآية القوي. وإذ كان لا بد من الموت الذي قرره الله لجميع الناس وكتبه عليهم دون استثناء، فليكن موتاً مستثمراً في تجارة رابحة مع الله عز وجل.

كم كانت تلك اللحظات تحتاج إلى شجاعة فائقة، لم يكن قادراً عليها سوى نمط شبيه بأصحاب الحسين عليه السلام، إذ كيف تتاح فرصة مشاهدة ذلك المشهد الفريد الذي يتسابقون فيه على الموت بين يدي إمامهم وقائدهم، بذلك الحماس الذي لا يرى إلا عند أولئك الذين يرون أمامهم شيئاً حقيقياً جديراً بالتضحية، وإلا عند أولئك الذين يرون أمامهم مكاسب حقيقية لا تزول ولا تفنى، وهل الجنة إلا ذلك المكسب الكبير الذي سعى له أصحاب الحسين وتسابقوا إليه؟

كان المشهد يبدو وكأنه مشهد احتفالي سعيد، وقد أوشكت قافلة الحسين الصغيرة على بلوغ الهدف، وكان من يسير في مقدمة القافلة يشعر أنه أول من سيرتاح، وسيكون في استقبال أصحابه بعد فراق قصير لن يدوم طويلًا.

ولا شك أن ذلك سيكون مبعث سعادة كبيرة لأصحاب الحسين عليه السلام، إذ يتقدمونه جميعاً، ليستقبلوه جميعاً استقبالًا حافلًا، ولا شك أن سعادتهم ستبلغ أقصاها وقد علموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه سيتقدمهم، وسيكون معهم أمير المؤمنين والزهراء والحسن وكل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وستحف بهم الملائكة في ذلك الموكب البهيج الذي لن يضاهيه موكب آخر.

قال له عمرو بن قرظة الأنصاري قبيل استشهاده، وقد (وقف أمام الحسين عليه السلام يقيه من العدو، ويتلقى السهام بصدره ووجهه:

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) الخوارزمي ٢/ ٢٥.

(أوفيت يا ابن رسول الله؟ قال الحسين: نعم أنت أمامي في الجنة، فاقرأ رسول الله عني السلام، وأعلمه أني في الأثر. فقاتل حتى قتل)[1].

لقد تكررت حوارات مماثلة بين الحسين عليه السلام وبين عبد الله وعبد الرحمن الغفاريين، وبين سيف بن الحارث، ومالك بن عبد بن سريع الجابريين، وجون مولى أبي ذر الغفاري، وأنس بن الحرث الكاهلي الشيخ الكبير، وعمرو بن جنادة، الشاب الذي لم يراهق بعد، وحنظلة الشبامي، وغيرهم، وهي حوارات دلت على يقين الجميع بأهمية المهمة التي تصدوا لها وقدموا أنفسهم في سبيلها، وهي مهمة إنقاذ المسلمين من الكابوس الأموي الذي جثم على الصدور، والذي كان يعد العدة للبقاء والنمو على حساب المسلمين.

لقد نجح الحسين عليه السلام في كشف الطبيعة الشرسة للنظام الأموي المتلهف على البقاء والسيطرة، وكانت نداءاته لأفراد الجيش لكي يغيروا مواقفهم وينصروه وينصروا قضيته لا تتضمن ذلك الاستجداء الرخيص للرحمة والعفو، الذي قد نجده عند بعض من يحاصرون ويتعرضون للقتل من قبل عدو قوي متسلح، غير أن الحسين عليه السلام كان متلهفاً على إنقاذ أولئك الذين وضعوا أنفسهم موضع المعادي للإسلام، وكان يعلم أن أغلبهم لم يكونوا مقتنعين بتوجهات دولة الظلم، ولا بتلك المجزرة التي كانت تعدها له ولأصحابه، وأنهم كانوا مجبرين على المشاركة فيها تحت وطأة ضعفهم واستسلامهم وتخاذلهم، وأنهم إذا ما وجدوا الجرأة الكافية للتغلب على ذلك الضعف، كما فعل أصحاب لهم قبل قليل، كالحر وجماعة آخرين، وانحازوا إلى جانبه، فإن الموقف سيتغير لا لصالحه هو وحسب، وإنما لصالحهم هم ولصالح كل المسلمين.

لقد وجه نداءات عاطفية من شأنها أن تثير النفوس الحساسة المتشربة بالإسلام ومثله وقيمه، نداءات يظل صداها يتكرر دائماً، ويعجب من يسمعها كيف أن أولئك القوم الذين سمعوها منه مباشرة لم يستجيبوا لها كما استجاب أصحابهم الذين انضموا إليه رغم علمهم أنهم يواجهون الموت الأكيد لقلتهم.

---

(١) الخوارزمي ٢/ ٢٢، وابن شهرآشوب ٤/ ١٥، واللهوف ص٤٥، وابن الأثير ٣/ ٢٩٠، والبلاذري ٣/ ١٩٢.

وإذا ما صحت الرواية التي ذكرت لنا أنه وقف بعد أن قتل جميع أصحابه وأهل بيته منادياً:

(هل من ذاب عن حرم رسول الله، هل من موحد يخاف الله فينا، هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا)[1].

فإن ذلك يشكف لنا حرص الحسين عليه السلام حتى آخر لحظة من حياته لتغيير موقف الجيش، وإن كان ذلك فيما بعد، وجعله يدرك الخطأ الكبير الذي وقع فيه، وجعل كل فرد فيه يراجع نفسه ويحاسبها على ما ارتكبه في حق آل الرسول صلى الله عليه وآله.

ولم يكنْ قيام الحسين عليه السلام بتعريف نفسه وقضيته وتأكيده على أنه هو من يمثل رسول الله صلى الله عليه وآله حقاً من الأمور الاعتباطية، التي لا يراد منها سو التأثير العاطفي وحسب، لقد أراد شدهم ثانية إلى قضية عادلة يتبناها رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، وأرادهم أن يتخلوا عن الظالم الذي استدرجهم بالقوة وبكل وسائل الإغراء لكي يحاربوه.

إنه مقتول حتماً، ولن يستطيع دفع ذلك عن نفسه ما دام مصراً على عدم المبايعة، وعلى رفض النظام الأموي الذي لا ينتمي للإسلام جملة وتفصيلًا، ومع ذلك فقد أراد التقليل من حدة الغلواء والاندفاع التي سيجد أفراد الجيش المعتدي أنفسهم فيها، لكي لا يتمادوا في اعتدائهم على حرم رسول الله صلى الله عليه وآله.

كان لا يحاول إثارة النخوة المجردة من القيم والدوافع النبيلة، وإنما كان يحاول إثارة مشاعر الإيمان والانتماء للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله، ويوجه خطابه على ذلك الأساس.

عندما كان يحمل طفله الرضيع ويجلسه في حجره ويقبله قبلات الوداع، كان سهم أحد جنود ابن زياد قد جعل هذا الرضيع يسبق أباه إلى الجنة، وإذ كان عليهم أن يقدموا له الماء رحمة به في ذلك الموقف الذي كان يتلظى فيه عطشاً، لأنه طفل صغير جاء به أهله معهم ولم يكن القرار بيده لكي يأتي أو لا يأتي.

لم يكن هناك أحد أبدى استنكاراً لفعلة حرملة بن كاهل الأسدي، بل لعل غالبية من رأى المشهد ابتسم ساخراً وجذلان من رؤيته، فكأن الأمر أمر حفل صيد يتبجح به الصياد بعدد من اصطاد من الطيور والحيوانات الأخرى، ومتى ما علمنا أن

---

(١) الخوارزمي ٢/ ٣٢، واللهوف ص٤٩.

الأمر غير جائز حتى في هذا الحال إلا لغرض الحاجة إلى لحم الضحية فحتى الوحوش لا تقتل إلا لتأكل، ولا يجوز لغرض المتعة أو التسلية، أدركنا أن موقف هؤلاء بقتل هذا الطفل ومجموعة أخرى من الأطفال الآخرين يخرج بهم من حدود الإنسانية نهائياً، ويجعل منهم بنظر الآخرين حتى من أهليهم وذوي قرباهم مجرد مخلوقات قاسية لا تتمتع بأي قدر من الرحمة، ولا يتيح لهم الادعاء بأي شكل أنهم إنما كانوا يدافعون عن قضية عادلة خلف إمام عادل كيزيد، كما ادعوا، وأنهم كانوا يحرصون على وحدة المسلمين وعدم تشتت الأمة الخ.

وإلا فأي وحدة للمسلمين كانوا يحافظون عليها بقتل هذا الطفل؟

إنهم يثبتون بذلك وعبثهم وانسياقهم غير الواعي وراء أسيادهم ويثبتون أنهم لم يكونوا سوى أدوات صماء بيد هؤلاء الأسياد الذين تجردوا من الرحمة والإنسانية، ولم يكونوا إلا أنماطاً جديدة متطورة من الفراعنة والجبابرة الأول.

إن موقفهم مع الأطفال لا بد أن يثير أجيال الأمة كلها لا في زمان وقوع الحدث، وإنما في كل وقت وحتى يومنا هذا، لأنه يثبت أنهم لم يكونوا يخوضون معركة واضحة المعالم والأهداف، وإنما كانوا يقدمون على مجزرة بقرار مبيت مقصود، وإلا فهل كانت نتيجة المعركة ستتغير على المدى الآني، إذا ما بقي هؤلاء الأطفال أحياء سالمين؟ وهل رفع هؤلاء الأطفال سيفاً أو رمحاً، أو رمى أحدهم بسهم حتى يقتلوا تلك القتلة الشنيعة على يد جند متمرسين بالقتال متدربين عليه؟

أما الحسين عليه السلام، فقد تلقى دم ابنه الرضيع بكفه، ورمى به نحو السماء، ثم قال:

(هون ما نزل بي أنه بعين الله، اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل. اللهم إن كنت حبست عنا النصر فاجعله لما هو خير منه وانتقم لنا من الظالمين، واجعل ما حل بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل)[1].

وقد صلى عليه ودفنه مرملًا بدمه.

---

(١) الخوارزمي ٢/ ٣٢، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ١٤٤، والإرشاد، ومثير الأحزان ص٣٦.

كان يرى أن تضحيته كبيرة، وأن عائلته ستلقى آلاماً هائلة بفقده، وفقد العديد من أبنائه وذويه، وأن كل عائلة من عوائل أصحابه ستنكب بفقيدها، وأن هذه الأرواح البشرية التي تزهق ظلماً وعدواناً ليست هينة عند الله، بل عزيزة مكرمة.

ومع ذلك فلم تفقده المصيبة وما يحتمله من مصائب أخرى مقبلة صبره، أو رباطة جأشه، ما دامت بعين الله وفي سبيل تثبيت حكمه وسلطانه، واقتلاع سلطان الظالمين والجبابرة.

إن قتلهم الطفل الرضيع سيبين للناس حقيقتهم، وسيكشف الآثار والبراقع التي أخفوا وراءها أنفسهم، وأنهم لم يكونوا أصحاب قضية حقيقية كقضيته هو.

كان يريد عودة الناس إلى الإسلام، أما هم فقد كانوا يريدونهم أصحاب قضية حقيقية كقضيته هو.

كان يريد عودة الناس إلى الإسلام، أما هم فقد كانوا يريدونهم أن يرتموا في أحضان الشرك والجاهلية.

أي أناس هوؤلاء الذين يقدمون على قتل ابن بنت نبيهم، وإبادة أطفاله وتعذيب عائلته وتشريدها؟ وما هي دوافعهم من وراء كل تلك القسوة المفرطة؟

وهل سيكون لفعلهم هذا أثره على الأمة؟ وهل لن تتساءل عن طبيعة الدوافع الإجرامية فيما بعد؟

وهي إذا ما تخلت الآن عن الحسين، فهل ستلتحق به مواكب عديدة منها فيما بعد؟

هذا ما كان يريده الحسين عليه السلام، كان يريد عودة الأمة إلى الإسلام وبذلك سيتحقق انتصاره، وسينتصر في كل مرة يلتحق فيها موكب جديد بموكبه،

وسيرهق ذلك الظالمين ويقض مضاجعهم.

أما هو، فعلى يقين تام بما ينتظره في الآجل، لأنه أدى واجبه في العاجل أحسن الأداء وأتمه، فليدع ربه أن يتم عليه نعمته ويفرغ عليه صبره ليمضي قوياً حتى آخر لحظة من حياته، يتحدى الظلم والظالمين ويكشف أساليبهم وألاعيبهم للأمة المقهورة المخدوعة.

كان الحسين عليه السلام رابط الجأش وهو يواجه أعداءه، وكان يرى من شواهد

أحوالهم وبعين البصيرة الواعية، أنهم سيعمدون إلى أشد الأساليب قسوة ووحشية معه، وأنهم لن يتورعوا عن سلبه حتى وهو صريع لا يملك دفع أذاهم وشرهم.

(ولما بقي الحسين في ثلاثة رهط أو أربعة، دعا بسراويل محققة يلمع فيها البصر، يماني محقق، فمفرزة ونكثة لكيلا يسلبه، فقال له بعض أصحابه: لو لبست تحته تباناً. قال: ذلك ثوب مذلة ولا ينبغي لي أن ألبسه.

فلما قتل أقبل بحر بن كعب فسلبه أياه فتركه مجرداً)[1].

صبر الحسين عليه السلام في اللحظات الأخيرة من المعركة

كانت لحظاته الأخيرة حافلة بالكفاح والمواجهة، ولا ندري كيف نستطيع تصور مشهد يقوم فيه رجل واحد بمواجهة عشرات الآلاف من أعدائه المتعطشين لدمه، فلا يتخاذل أمامهم ولا يتراجع أو يضعف أو ينكل وإنما يقدم على حربهم وإشهار سيفه بوجوههم بقوة وصلابة منقطعة النظير.

كان يرى أنه مقتول، وإن المشاهد الأخيرة من المواجهة ستسجل بكل دقة، حتى من قبل بعض أفراد ذلك الجيش المعادي، فلتكن إذاً مشاهد جديرة بالبقاء، ولتكن مشاهد جديرة بالإعجاب والخلود، ولتمثل أمام أبناء الأمة دائماً كمشاهد قدوة يطمح كل واحد أن تتاح له فرصة وقوفها ليجد نفسه في موقع الضوء، وفي موقع الإعجاب من قبل الأمة المسلمة كلها، وفي موقع الرضا التام من قبل الله عز وجل.

ونعود إلى شهادة أحد أعدائه الذين بهرهم مشهد بطولته وصموده وصبره، قال عبد الله بن عمار، وهو أحد المشاركين بالحرب ضمن جند ابن زياد:

(فوالله ما رأيت مكسوراً قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب)[2].

لم يستطيعوا قتله إلا بعد أن حملوا عليه من كل جانب، ولكنه مع هول الموقف لم ينس حماية أهله وحرمه من طغامهم وجهالهم، وقد صاح فيهم بعد أن جرح وأصيب إصابات بالغة:

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٣، واللهوف ٥٢، والإرشاد ٢٥٧، وريحانة الرسول ص٢٢١.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٤، والخوارزمي ٢/ ٣٨، والإرشاد ص٢٥٧، والبلاذري ٣/ ٢٠٢.

(ويلكم، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طغامكم وجهالكم)[1].

كان قول الحسين عليه السلام إقراراً لحقيقة ثابتة: فالقوم ليس لهم دين ولا يخافون يوم المعاد، أنهم لا يرون بأساً من وصمهم بذلك، طالما أنهم يعلمون أنهم كانوا كذلك فعلًا، وطالما أن أمراً واحداً كانوا فخورين به فعلًا، وهو انقيادهم وطاعتهم لحكام الانحراف وأبطال الجهالة الأموية المتسلطة.

لم ير الحسين عليه السلام سوى مجال واحد قد يستطيع به منعهم من العدوان على أهله وحرمه، وهو اعطاؤهم الفرصة للتفكير بأحسابهم، إذ لم يكن العرب في أي وقت حتى في جاهليتهم الأولى ليقدموا على الاعتداء على النساء والأطفال وكانت لهم تقاليد عريقة تجعل من ذلك الاعتداء بأي شكل من الأشكال وصمة عار لا تمحى للأبد.

ومع ذلك (مال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها)[2].

وبذلك أثبتوا أيضاً أنهم لا ينتمون إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله، وإن حاولوا الانجراف وراء (الإسلام الأموي) الذي جاء به معاوية، وربى أجيالًا من الناس على تعاليمه وقيمه، وأثبتوا أنهم لا ينتمون إلى قيم العروبة التي نشأت عليها أجيال قبلهم حتى في زمن الجاهلية، والتي كان قسم منها لا يتعارض مع قيم الإسلام وتعاليمه، كما أثبتوا أنهم لا ينتمون إلى القيم الإنسانية التي ترفض العدوان والشر.

وكان علمهم هذا كاف لتعريتهم أمام الأمة كلها، وإظهارهم على حقيقتهم وكشف نواياهم ودوافعهم للتصدي للحسين عليه السلام بذلك الشكل الوحشي المروع، وهي أمور كافية للفت الأنظار إلى مجمل القضية كلها، والتعرف على الخطر الشديد الذي كان يستهدف الأمة، والتي كان الإمام الحسين عليه السلام يريد دفعه عنها، ولو كان ثمن ذلك التضحيات الباهضة التي قدمها في كربلاء.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٣، ونهاية الأرب ٢٠/ ٤٥٨، واللهوف ص٥٠.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٤، واللهوف ص٥٥، ومثير الأحزان ص٤٠، ونهاية الأرب ٢/ ٤٦٠.

كان مشهداً مروعاً حقاً أن تقدم الأمة على قتل إمامها وقائدها الحقيقي، الذي أراد إنقاذها من الظلم والانحراف، ولئن أقدم جيش ابن زياد على تلك الفعلة المشينة تحت وطأة الخوف والجهل، فإن آلام الحسين لم يكن مصدرها الوحيد تعرضه لذلك العدوان الهجمي في تلك اللحظات التي قل فيها الناصر والمعين، بل كان مصدرها الكبير شعوره بتخليها عن رسالتها ودينها، وقبولها الانسياق وراء العجلة الأموية الكاسحة. أحقاً يحدث هذا الأمر بعد مرور نصف قرن فقط من وفاة الرسول ﷺ، ولما تزل أغراضه الشخصية سليمة لم يصبها التلف والاندثار؟ هل ألم تعد الأمة تتذكر نبيها ﷺ، وهل تناست وصاياه ووصايا كتاب الله العزيز بآل بيته وإشادتهما بهم؟

إن أمة تقدم على قتل ابن بنت نبيها، لا تفعل ذلك ما لم تكن قد تخلت عن الإسلام ونبذته نهائياً، أي مصير محزن سوف تلقاه وهي تنساق ذلك الإنسياق الأعمى وراء سلطة الظلم وفراعنة العدوان؟ أترى أن هؤلاء سيتيحون لها فرصة الالتحاق بالركب المحمدي ثانية، أم أنهم سيتمادن في ظلمهم وعدوانهم، وسيرسون قواعد جديدة للحكم والتعامل، يأخذ بها الظالمون والجبابرة على مدى التاريخ؟

هل قدر لرسالة محمد ﷺ أن تقع بيد يزيد، فيتلاعب بها هذا التلاعب المشين؟ وإذا ما كان هذا كله قد حدث في مدى نصف قرن، فكيف سيكون الأمر بعد قرن أو قرنين أو خمسة قرون؟

لا بد أن آلام الحسين عليه السلام وهو يشهد إقدام القوم على حربه وقتاله، ويفكر بما سيحدث للأمة الضعيفة المظلومة المستسلمة، آلام هائلة، ليس بإمكان إنسان عادي تحملها والصبر عليها، غير أنه صبر عليها بذلك الشكل الفريد، لأنه علم أن مشاده كربلاء لن تغيب عن ضمير الأمة أو ذاكرتها، وأنها ستستحضر تلك المشاهد، وسيروعها ما راعه وهو يراها تشذ وتنحرف، وستحاول تصحيح مسيرتها مهما طال الزمن، وستجد العديدين من أبنائها يقفون موقفه، ويلتحقون بركبه، وسيكون هؤلاء قذى بعين الظالم، وعقبة في طريق ظلمه وعدوانه.

كان يحمل على القوم ويحاربهم كما لو أن وراءه جيشاً كبيراً، ولم يكن يهمل نصحهم وإرشادهم، حتى وهو في لحظاته الأخيرة، إنه إذ يحاربهم فإنما يحارب

الظلم والظالمين، وإذ يتوجه إليهم بالنصح فإنه يتوجه به إلى الأمة المسلمة كلها عبر كل أجيالها، وطالما كان يردد قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].

(كان يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية ويفترص العورة، ويشد على الخيل وهو يقول: أعلى قتلي تحاثون. أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله أن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم)[2].

إنهم إذ يقدمون على قتله فكأنما يقدمون على قتل رسول الله ﷺ، كان نداؤه فيه رنة تعجب كبيرة (أعلى قتلي تحاثون؟)، كان هو من ينبغي أن تحافظ الأمة عليه وترعاه، وتحف به لا أن تخذله وتشجع على قتله.

فهو أكرم خلق الله عنده، لأنه بقية آل الله وآل رسوله ﷺ، وسيكون سخط الله كبيراً، إنهم يقتلون أنفسهم إذ يقتلوه، فهو قائدهم وإمامهم الحقيقي وهو من يحرص حقاً عليهم، فكيف حصل أن وصلوا إلى هذه الحال التي استسهلوا فيها ارتكاب جريمتهم؟

هل أصبحوا آلات صماء بيد الظالم يضرب بعضها ببعض؟ وهل أعطوا الإشارة النهائية لهذا الظالم لكي يستبيحهم، ويتلاعب بهم وفق هواه ومشيئته؟

لقد تخلوا عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ، وعن القرآن وعن كل ما من شأنه أن يحفظهم من الظالمين والجبابرة، فأي قانون يحمله هؤلاء الجبابرة غير قانونهم هم؟ وأي قانون هو ذاك؟ أليس هو قانون البطش والإرهاب والعدوان على مقدرات الناس وحقوقهم؟ فليستعدوا (لقانون) الظالم وأهوائه وجموحه ما داموا قد تخلوا عن قانون الإسلام، وليستعدوا للهوان والفرقة وسفك الدماء، ما داموا قد أعطوا ولاءهم للظالم، سلموه قيادهم ومصائرهم، ثم ليستعدوا لعذاب الله وليصمدوا له إن استطاعوا.

---

(١) اللهوف ص٥٠.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٤، والخوارزمي ٢/ ٣٤، ومقتل العوالم ص١٨، ونفس المهموم للقمي ص١٨٩.

صبراً أبا عبد الله

لقد أصيب بجراحات كثيرة، وقد رمي بسهم وقع في جبهته المقدسة، ورمي بحجر في جبهته أيضاً سالت منهما دماء كثيرة على وجهه ولحيته، وإذ هو مشغول بمسح الدماء عن وجهه وعينيه رمي بسهم مسموم وقع على صدره.

كانت الجريمة ترتكب بشكل متعمد، ومع سبق الإصرار، والقتلة مصرون على المضي فيها إلى النهاية، فليتوجه إلى الله الذي لم يتوجه إلا إليه من قبل، وليقدم نفسه ضحية إليه، وفي سبيل دينه الذي ارتضاه، ولم يرتض غيره.

(بسم الله وبالله على ملة رسول الله. إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجلًا ليس على وجه الأرض ابن نبي غيره)[1]، (وضع يديه تحت الجرح، فلما امتلأت دماً رمى به نحو السماء وقال: «هون علي ما نزل بي أنه بعين الله» فلم تسقط من ذلك الدم قطرة إلى الأرض، (ثم وضع يده ثانياً فلما امتلأت لطخ به رأسه ووجهه، وقال: «هكذا أكون حتى ألقى الله وجدي رسول الله وأنا مخضوب بدمي»)[2].

كان القربان يقدم ويتقبل، وابن خير خلق الله يقدم دمه لله، إذ لم ير سواه في تلك اللحظة، كما لم ير سواه في أية لحظة من لحظات حياته من قبل، وقد هانت عليه جراحاته ودمه.

أي مشهد سيشهد رسول الله ﷺ عندما سيقدم عليه الحسين عليه السلام مخضباً بدمه، وأي لون جميل للشهادة ستشهد الجنة، عندما يطل عليها الحسين عليه السلام الحسين عليه السلام، بذلك الدم الأحمر الفاني الذي قدمه عن طيب خاطر.

وأي بريق سيظل لذلك الدم على مر الأجيال، يلوح أمام كل من يعتقد بالإسلام، ويرى أنه ينتهك ويزور ويحرف بأيدي أعدائه؟

لم تكن تلك المشاهد التي شهدتها عرصة كربلاء مما يمكن أن تسقط من الذاكرة بمجرد أن ينتهي الحدث وتنتهي الواقعة، بل أن دم الحسين عليه السلام سيكون

(١) الخوارزمي ٢/ ٥٤، واللهوف ص٥٠، وتهذيب ابن عساكر ٤/ ٣٣٨.
(٢) الخوارزمي ٢/ ٣٤، والبحار ٤٥/ ٥٣.

المؤشر على بداية المواجهة الحقيقية مع دولة الظلم على امتداد التاريخ، مهما كان شكل هذه الدولة، ومهما كانت شعاراتها وأباطيلها.

لم يكن الدم المراق يسقط دون أن تكون كل قطرة منه شاهداً على الجريمة التي عمدت إليها دولة الظلم الأموية، والتي أثبتت فيها بشكل قاطع ابتعادها عن الإسلام ورفضها التام له.

ولم يكن بإمكان أي أحد أن يعرض صورة جميلة للشهيد، كما عرضها الإمام الحسين عليه السلام، صورة الشهيد الوحيد الذي يقف بمواجهة آلاف الأعداء، يرهبهم بعزمه على الوقوف مع الله إلى النهاية، ويرهبهم بصبره وجلده ودمه الزاكي، وقد أعياه نزف الدم، واستغل أعداؤه تلك الفرصة ليوجهوا إليه المزيد من الضربات.

وكان المشهد الأخير مروعاً حقاً، فها هو جريح ظمآن يوشك أن يترك عياله وحرمه بأيدي أعدائه الذين كانوا في كل لحظة يعبرون عن تعطشهم الوحشي لدمه، والذين كانوا يستبيحون حتى قتل الأطفال الرضع لمجرد أنهم كانوا معه، ومن عائلته، وها هو الشمر يأتي مهدداً بإحراق فسطاطه وخيم أهله، وها هم يقصدونه لمزيد من الضربات ومزيد من الدماء.

على أن الأمر الذي كان يبعث على المزيد من الألم، رؤيته طفل أخيه، عبد الله بن الحسن عليه السلام وهو غلام لم يراهق بعد وهو يقتل في حجره.

هال الغلام ما يفعل بعمه، وراعه تصميمهم على قتله، فخرج من عند النساء يشتد نحوه، رغم محاولة عمته زينب حبسه ومنعه من ذلك وصاح:

«لا والله لا أفارق عمي». ووقف إلى جانبه وهو صريع على الأرض، وأراد منع أحد أعوان ابن زياد من ضربه بالسيف قائلًا له: «يا ويلك يا ابن الخبيثة، أتقتل عمي ؟»، فكان أن ضربه هو بالسيف فاتقاها بيده، فأطنها إلى الجلد فإذا هي معلقة.

وقد أخذه الحسين عليه السلام وضمه إلى صدره وقال له: («يا ابن أخي، اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإن الله تعالى يلحقك بآبائك الصالحين»، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه، وهو في حجر عمه الحسين. فرفع الحسين عليه السلام يديه إلى السماء قائلًا: «اللهم ، إن متعتهم إلى حين، ففرقهم فرقاً،

واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترض عنهم الولاة أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا يقاتلوننا»)[1].

كان الحسين عليه السلام واثقاً أنه سيلتقي بابن أخيه بعد لحظات، وأن الفراق لن يكون طويلًا، غير أن ما آلمه هو العدوان غير المبرر عليه، فهذا الغلام لم يرفع سيفاً ولم يأت مقاتلًا، وقد أثاره ما يفعل بعمه، فأراد الوقوف إلى جانبه، ودفع الأذى عنه، وهو موقف لا بد أن يقابل باستحسان حتى من قبل أولئك القتلة، فلن يغير الغلام من اتجاه (المعركة) وسيرها، وقد لا تتاح له فرصة قتل أحد ما دام لا يحمل سلاحاً، وكان بإمكانهم تجنب قتله وتركه لمشاعره وآلامه.

أما وقد فعلوا ما فعلوه، وقد قتلوا الغلام، فإنهم كشفوا حقيقتهم وعبثهم واستهتارهم بكل قيم الإنسانية.

وكان لا بد أن تتردد أقواله لابن أخيه في ذلك الموقف العصيب عبر الأجيال، فلا بد من الصبر في هذا المقام، بل إنه لمقام يستحق الشكر ما دام سيلتحق برسول الله صلى الله عليه وآله وخيرة آله عليهم السلام في جنان الخلد.

وكان دعاؤه تطلعاً واعياً ونظرة مستشرفة نفاذة إلى مستقبل هؤلاء الذين قبلوا أن يرتموا بأحضان الظالم، ويكونوا أدوات لظلمه وبطشه، فلم تكن تجمعهم عقيدة ما، ولم يكونوا يثأروا للإسلام أو يرفعوا سيوفهم في سبيله، وإنما كانوا منساقين لحكامهم الظلمة، لا يرون غيرهم ولا يمتثلون إلا لأوامرهم، وكانت كلمتهم هي القول الفصل وقانونهم هو طاعتهم العمياء.

إن قوتهم مظهرية وحسب، وإن توحدهم لسبب واحد، هو الاستجابة التامة لأسيادهم الذين جندوهم لهذه المهمة القذرة، وحالما تزول الأسباب التي اجتمعوا لأجلها هنا، ويذهبون إلى حال سبيلهم، فإن هؤلاء الأسياد لا بد أن يضعوهم في مواقف يحارب فيها بعضهم بعضاً، ويقتل فيها بعضهم البعض الآخر.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٣، وقد روي أنه قال له: «يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين: برسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب، وحمزة وجعفر والحسن بن علي، صلى الله عليهم أجمعين»، وراجع اللهوف ص٥١، والبحار ٤٥/ ٥٤، ومثير الأحزان ص٣٨، والأنساب للبلاذري ٣/ ٢٠٢، والنويري ٢٠/ ٤٥٩، وقد ورد فيه «اللهم امسك عنهم قطر السماء وامنعهم بركات الأرض...).

وحدتهم، بل وحدة المسلمين، وهو ما تتشدق به دولة الظلم الأموية، وتدعي الدعوة إليه، لا تسر هذه الدولة، وترى فيها خطراً عليها، ولا بد أن يكونوا شيعاً وأحزاباً وفرقاً، وهكذا كانوا بعد ذلك بتخطيط محكم مدروس منها، ومن كل دول الظلم المتعاقبة على حكمهم.

إن تفرقهم لن يتيح لهم الصمود والوقوف بوجه دولة الظلم ونقدها واستنكار أعمالها، وسيكون سبباً لموتهم وذلهم ووقوعهم إلى الأبد في شباكها وتحت سيطرتها.

لقد اجتمعوا مرة واحدة، وطالبوه بالقدوم عليهم وقيادتهم لتخليصهم من الحكم الأموي المنحرف، وحالما كشر لهم أقطاب هذا الحكم وكشفوا عن أنيابهم ووعدوهم ببعض المكاسب البسيطة، قلبوا ظهر المجن للحسين عليه السلام، ولم يكتفوا بالتخلي عنه، وإنما جندوا أنفسهم مع عدوه، وأقبلوا يقاتلونه بحماس من كان يرى فيه خطراً كبيراً عليه، وكأنه كان يستهدفهم بالشر والأذى، لا الدولة الظالمة التي كانت تسخرهم وتسعى إلى إبادتهم والقضاء عليهم، والعودة بهم إلى عصور الظلام والجهل التي أنقذهم الإسلام منها.

ولعل ما كان يؤلم الحسين عليه السلام، أن أولئك الذين كان يسعى إلى إصلاحهم وسعادتهم، هم الذين يسعون الآن إلى قتله وأذاه بطرق شريرة لم تكن مألوفة لدى العرب من قبل على الإطلاق، وكان تفننهم بضروب الوحشية والأذى، التي ربما لم يطالبهم بها حتى الحاكم الظالم، ولم تكن إلا مبادرات شخصية من قبلهم، يريدون بها كسب رضاه ووده، يكشف للحسين عليه السلام مدى الحالة الخطيرة التي انحدروا إليها، وإلا، فهل هذه هي الأمة الإسلامية التي رباها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعدها للوقوف بوجه كل جاهليات الأرض وطواغيت الشرك والضلال؟ وهل هذه هي نتاج كل جهوده وتضحياته، ونتاج جهود وتضحيات مئات الأنبياء على امتداد التاريخ؟

هل هذه أمة الوحي حقاً؟

كلا، بالتأكيد، فليدع الله أن لا تقوم لها قائمة، وأن تعود أمة الإسلام التي رباها وأعدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبوه أمير المؤمنين عليه السلام من قبل، فهذه هي الأمة الجديرة بالبقاء والوجود والامتداد.

لقد صبر الحسين عليه السلام على موقف عابث آخر، من شأنه في نهاية المطاف أن

يكشف طبيعة الذين تصدوا لحربه وقتله، وقد أخجل ذلك الموقف حتى صاحب الجريمة نفسه هانيء بن ثبيت الحضرمي.

فعند مصرع الحسين عليه السلام، كان هانيء أحد شهود الجريمة وأحد المشاركين فيها، روى في زمن خالد بن عبد الله وهو شيخ كبير فقال:

(كنت ممن شهد قتل الحسين. فوالله إني لواقف عاشر عشرة ليس منا رجل إلا على فرس، وقد جالت الخيل وتصعصعت، إذ خرج غلام من آل الحسين، وهو ممسك بعود من تلك الأبنية، عليه إزار وقميص، وهو مذعور، يتلفت يميناً وشمالاً، فكأني أنظر إلى درتين في أذنيه تذبذبان كلما التفت، إذ أقبل إليه رجل يركض، حتى إذا دنا منه مال عن فرسه، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف)[1].

(وذلك الغلام هو محمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب، وكانت أمه تنظر إليه وهي مدهوشة)[2].

لقد كان ذلك الطفل الصغير الذي كانت أمه تزينه بزينة البنات بعد، ولا يزال يلبس قرطين، كانا يتذبذبان على خديه كلما التفت، مذعوراً، وهو قد كان هكذا كما روى لنا صاحب الجريمة نفسه، الذي خجل من جريمته بعد أن عوتب بعد ذلك بسنوات طويلة[3]، وقد خرج لا يدري إلى أين وربما شهد مصرع الحسين عليه السلام، وإقبال القتلة للقضاء عليه نهائياً.

أي ضير عليهم لو تركوه ولم يقتلوه؟

هكذا ستتسائل الأمة كلها فيما بعد، وستصرخ: ما ذنبه، وعلام هذا العبث الذي لا مبرر له؟

إن أقصى ما يمكن أن يفعله القاتل هو محاولة التكتم على جريمته وإخفاء اسمه، لكي لا يدان شخصياً، كما كان الحال مع ابن ثبيت الحضرمي.

غير أنها جريمة ارتكبت في وضح النهار، وكان شاهدها جيش بأكمله، لم يحتج أحد أفراده ولم يستنكر هذه الجريمة، ولعله حسب مرتكبها متطرفاً، أو محباً

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٣٢، وابن كثير ٨/ ١٨٦، ومقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ص٨٧، والخصائص الحسينية للشوشتري ص١٢٩.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٢.

ليزيد، وابن زياد، وقد أراد أن يلحق بعدوهما أقصى ما يستطيع من ضرر، ليكون ذلك عبرة لكل أعدائهما الآخرين.

كان الأمر سيبرر لو أن القتلة قالوا: كنا مأمورين بقتل الحسين، وقد نفذنا الأوامر. فهو عدو الدولة وقد رفع السيف بوجهها.

لكنهم في الأحوال الأخرى التي أقدموا فيها على قتل مجموعة من الأطفال الصغار الأبرياء، كيف سيستطيعون تبرير جرائمهم؟ وما عسى ذلك الجيش كله أن يقول إذا ما سئل كل فرد من أفراده: كيف سمحت بارتكاب هذه المجازر بحق هؤلاء الأطفال؟

هل تلقيتم أوامر بقتلهم؟ وممن كانت تلك الأوامر؟

أم أنكم كنتم تلعبون وتعبثون؟

وكان ذلك سيثير في نهاية المطاف أسئلة جادة حول الدوافع الحقيقية من وراء ارتكاب مجازر الانحراف، واستسلامها واستكانتها أما الهجمة الشرسة التي شنها الحكم الأموي للحفاظ على نفسه وكيانه مهما كان ثمن ذلك، وبغض النظر عن تعاليم الإسلام وقيمه التي ادعى تمسكه بها. لقد كشفت تلك الجرائم ابتعاده التام عن الإسلام، ورفضه له رغم ادعاءاته الكاذبة التي كانت تحاول نفي ذلك، ولفتت نظر الأمة إلى الدوافع الحقيقية لثورة الحسين عليه السلام عليه. فتمادي القتلة وإيغالهم بجرائم لا حاجة إليها مثل قتل الأطفال الصغار، سيكون عامل تساؤل دائمي من قبل الأمة عن طبيعة القضية كلها، وسيكون دافعاً لجعل الناس تلتفت إلى عدالة قضية الحسين عليه السلام وتتبناها فيما بعد حتى وإن طال المدى.

كانت لحظات المواجهة الأخيرة ثقيلة الوطء طويلة حافلة بكل صنوف الآلام والمتاعب التي لا يمكن احتمالها، فكيف حصل أن تواجه الأمة إمامها الحقيقي، وتحيط به مجموعة من أبنائها، وتعتدي عليه بتلك الضراوة المقيتة، كان المشهد أعظم من أن تصفه كلمات محدودة أو يتصوره عقل لم يشهد أو يتوقع أن يشهد مثله.

هل كان الحسين عليه السلام العدو الحقيقي الذي سبب كل الويلات والمتاعب للأمة لتواجهه هذه المجموعة منها تلك المواجهة الشرسة؟

وهل أن العدو الحقيقي الفعلي الذي كان يستحق منها ما لقيه الحسين عليه السلام قد أبعد عن الساحة، أم أنه أصبح هو المسيطر على زمام الأمور والسلطة؟

ومتى علمنا أن أولئك الذين استدعوه لينصروه، لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة الكافية لمواجهة الإرهاب الأموي، فإنهم حاولوا تحسين صورهم بنظر هذا النظام، والظهور بمظهر اخر مغاير للأول تماماً، وكأنهم من أشد المناصرين لدولة الظلم، المندفعين عن عقيدة ووعي لاسنادها والوقوف بوجه أعدائها وأولهم الحسين عليه السلام، الذي قالت لهم عنه أنه من أشد أعدائها، وإذا ما كانوا موالين لها فليتوجهوا لحربه وقتاله، وهكذا عدوا عليه فقتلوه، ليؤكدوا ولاءهم للدولة وخضوعهم لها، وذهبوا في تفننهم بجريمة القتل حداً ربما لم يتوقعه أحد.

(حملوا عليه من كل جانب، فضربت كفه اليسرى ضربة، ضربها زرعة بن شريك التميمي، وضرب على عاتقه وكان قد أعيا، فجعل ينوء برقبته، ويقوم ويكبو على الأرض. فحمل عليه سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح في ترقوته فوقع ثم انتزع الرمح وطعنه في بواني صدره، ثم رماه بسهم وقع في نحره، وطعنه صالح بن وهب المزني بالرمح في خاصرته، وقصد إليه نصر بن حرشة فجعل يضربه بسيفه ورماه الحصين بن تميم في حلقه، فعند ذلك وقع على الأرض مغشياً عليه)[1].

لم يتصور أحد أن وليمة الدم تتحمل كل أولئك القتلة، فقد كان بإمكان واحد منهم وحسب أن يتم الجريمة ويقتل الحسين عليه السلام، غير أنهم أرادوا في لحظات الجنون والعبث تلك، أن يشاركوا كلهم ليثبتوا لقائدهم المتلهف على قتله والتمثيل بجثته، أنهم أهل لتنفيذ أوامره وتلبية رغباته، حتى وإن لم يصرح بها كلها، فقد عرفوا اتجاه تلك الرغبات، وليس عليه أن يتعب نفسه بالتفاصيل، فسيتفننون بها تفنناً يرضيه، وقد فعلوا ذلك بشكل يفوق التصور البشري.

روى أحد الذين حضروا المشهد، قال:

(كنت واقفاً مع أصحاب عمر بن سعد، فخرجت بين الصفين، ووقفت على الحسين، وهو طريح على الأرض وأنه ليجود بنفسه فوالله ما رأيت قتيلاً مضرجاً بدمه

(١) الطبري ٣/ ٣٣٤، والأخبار الطوال للدينوري ص٢٥٥، والخطط المقريزية ٢/ ٨٨٢، ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ١١١، واللهوف ص٥٢، وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ٢٠٣، والإرشاد ص٢٥٧، والخوارزمي ٢/ ٣٥، ونهاية الأرب للنويري ٢٠/ ٤٥٩، ومقتل العوالم ص١١٠، والاتحاف بحب الأشراف ص١١٦.

أحسن منه ولا أنور وجهاً، ولقد شغلني نور وجهه وجمال هيأته عن الفكرة في قتله، فاستسقى في تلك الحال ماء، فسمعت رجلًا يقول له:

والله لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها.

فسمعته يقول: يا ويلك أنا لا أرد الحامية ولا أشرب من حميمها، بل أرد على جدي رسول الله وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشرب من ماء غير آسن، وأشكو إليه ما ارتكبتم مني وفعلتم بي.

فغضبوا جميعهم حتى كأن الله لم يجعل في قلب أحد منهم من الرحمة شيئاً[1].

هل غاب عنهم حديث رسول الله ﷺ بشأنه وشأن أخيه عليه السلام:

«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»؟[2].

كيف يرد الحامية من كان سيداً لشباب أهل الجنة بعهد معهود من الله لرسوله ﷺ؟

وهل غاب عنهم فضله ومقامه وما ورد بحقه، أم أنهم أرادوا تبرير فعلتهم بحقه، فأضافوا إلى جريمة القتل جريمة الكذب والافتراء؟

لا شك أن مظهره في تلك الحال تدل على حاجته للماء، ولا شك أن مطلبه لو فعل ذلك مطلب يسير، ولو أنهم استجابوا له وسقوه لما تغير الحال، غير أننا ربما نسمع عن فعل خير فعلوه، وعن مطلب مشروع استجابوا له، كما يستجاب للمطالب الأخيرة لمن يعرضون على الموت.

ماذا كان دافع ذلك الذي أجابه متشفياً كما فعل آخرون في مواقف أخرى سوى إظهار الميل والانحياز لسلطة الظلم ليحسن حاله في عينيها؟

لماذا غضبوا عندما أعاد لأذهانهم حقيقة أنه سيد شباب أهل الجنة، وأنه سيرد على جده رسول الله ﷺ ويسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويشرب من ماء غير آسن وغير ملطخ بالدماء كالذي يشربونه هم؟

ولماذا غضبوا عندما قال لهم أنه سيشكو إلى جده ﷺ ما ارتكبوه بحقه وما فعلوه به؟

---

(١) اللهوف ص٥٣، ومثير الأحزان ص٣٩.

(٢) تطرقنا في فصل سابق إلى الأحاديث المتواترة الأكيدة الواردة بفضلهما وفضل آل البيت جميعاً عليهم السلام.

لأنهم تيقنوا أنه سيرد على جده حقاً، وسيشكو إليه فعلهم به، فالكوفة بالذات لم تنس كل ما ورد بحقه وفضله في كتاب الله وعن رسوله ﷺ، ولئن غابت عن أذهان أهل الشام المضللين المخدوعين فضائل آل البيت ومنهم الحسين عليه السلام، فما كانت الكوفة لتنسى ذلك، وقد كانت حتى وقت قريب تهتف باسمه وتدعوه لقيادتها على خط جده ﷺ وأبيه عليه السلام.

مناجاة الصابرين

كانت مناجاته الأخيرة مع الله، تنسجم غاية الانسجام مع توجهاته وأفعاله ومواقفه في الطف وقبلها، وفي كل فصول معركته مع الدولة الأموية الظالمة.

لقد كان يتوقع كل ما حل به في الطف، بل أنه أخبر بذلك عن جده ﷺ، وأصبح ذلك أمراً واقعاً لا محالة، ولعله كان يترقب ذلك اليوم الهائل الذي ستتاح له فيه لفت نظر الأمة إلى واقعها المخزي في ظل أعداء الاسلام، ويعد نفسه لتقبل كل ما سيحدث له فيه ما دامت مهمة تغيير الأمة واصلاحها لا تتم إلا به، ولعله في هذه اللحظة الأخيرة التي يتم فيها آخر فصل من صراعه مع دولة الظلم، يشعر براحة عميقة وقد استطاع الثبات ومواصلة المعركة معها، وقد أوشك أن يجني ثمار صبره وتحمله وصموده وتقبله لكل ما سيحل به، رغم أنه لن يكون يسيراً بل هائلاً، لا يصمد له أشد الناس ثباتاً وجلداً.

وهكذ رفع طرفه للسماء قائلاً:

(صبراً على قضائك يا رب لا إله سواك يا غياث المستغيثين)[1].

وعن مصباح المتهجد للطوسي وإقبال ابن طاووس، ومزار البحار، باب زيارته يوم ولادته أنه:

(لما اشتد الحال بالحسين عليه السلام، رفع طرفه نحو السماء وقال: «اللهم متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرحمة صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دعيت، تحيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، تدرك ما طلبت، شكور إذا شكرت، ذكور إذا ذكرت، أدعوك محتاجاً وأرغب إليك فقيراً،

(١) أسرار الشهادة للدربندي: ٤٤٣.

وأفزع إليك خائفاً وأبكي مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً، اللهم احكم بيننا وبين قومنا، فإنهم غرونا وخذلونا، وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد ﷺ الذي اصطفيته بالرسالة، وأئتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين»[١].

كان هذا هو نداء الحسين الأخير، صبراً على قضائك يا رب. لقد صبر ووفى طيلة حياته، ولم يخضع للضغوط والتهديدات سواء من قبل معاوية أو يزيد، ولم يهادن أو يساوم أو يستسلم كما فعل غيره، وبالتأكيد فإن آلام اللحظة الأخيرة لم يكن مصدرها خوفه على حياته، وقد علم أنه سيقدمها جثة هامدة بين يدي يزيد، وقد علم أيضاً أنها لن تنهض من كبوتها وسباتها إلاّ بمزيد من التضحيات والدماء الزكية.

لقد رأى أن موكب الشهادة سيطول، وسيستمر سيل الدماء، وستستمر المواجهة بين الأمة وأعدائها الطغاة الذين تسلطوا على عروشها وتلاعبوا بمقدراتها.

كان صريعاً مضرجاً بدمه، يجود بنفسه، وقد أحاط به أعداؤه، الذين تجردت قلوبهم من الرحمة، وكأنهم لم يكونوا مسلمين، أو لم يكن أحد فيهم مسلماً على حد تعبير زينب ، وحتى في تلك اللحظات لم يتركوه لمصيره الذي سيواجهه بعد قليل، وقد سارع عمر بن سعد بتحريضهم عليه ثانية، وسارع الشمر إثر ذلك بالنزول إليه، كأن ثأراً شخصياً كبيراً بينهما، فضربه برجله، وألقاه على قفاه، وأخذ بلحيته وضربه بالسيف عدة ضربات، ثم حز رأسه ودفعه إلى خولي بن يزيد وأمره أن يحلمه إلى ابن سعد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف، وقد ذكر عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قوله:

(وجد بالحسين عليه السلام حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة)[٢].

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، السيد محمد تقي بحر العلوم: ٤٥١.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٤، والبلاذري في الأنساب، وحول قيام الشمر بقتله وحز رأسه الشريف راجع الخوارزمي ٢/ ٣٦، والمجلسي ٤٥/ ٥٦، وقد ورد في الطبري والنويري ٢٠/ ٤٥٩، أنَّ الذي ذبحه واحتز رأسه هو سنان بن أنس بن عمرو النخعي، وقد دفعه إلى خولي بن يزيد، قال الطبري (وجعل سنان بن أنس يدنو أحد من الحسين إلا شد عليه مخافة أن يغلب على رأسه حتى أخذ رأس الحسين فدفعه إلى خولي).

وإثر مقتله قامت هجمة أخرى لسلب ما عليه وما كان يملكه، وقد شارك بعملية السلب هذه قائد جيش ابن زياد، عمر بن سعد الذي أخذ درعه البتراء، وأحد قادته قيس بن الأشعث الكندي، الذي أخذ قطيفته، وكانت من خز وكان يسمى بعد قيس قطيفة، وأخذ جميع بن الخلق الأودي سيف، وأخذ بجدل بن سليم الكلبي خاتمه الشريف، وقد جمدت عليه الدماء فقطع اصبعه مع الخاتم، ولم ينج من عملية السلب حتى الثوب الخلق الذي جعله تحت ثيابه لئلا يسلبه، وسراويله ونعلاه.

(ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها، حتى تغلب عليه فيذهب به منها)[١].

وليت الأمر اقتصر على السلب والنهب، فقد سارع ابن سعد بتلبية أوامر ابن زياد ونادى في أصحابه:

(من ينتدب للحسين يوطئه فرسه، فانتدب عشرة، فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره)[٢].

أي ابتهاج تركه مصرع الحسين عليه السلام في نفوس قاتليه وأعدائه، وأية هجمة مجنونة تعرض لها وهو يجود بنفسه مضرجاً بدمه، وتعرضت لها حرمه وأطفاله. وأي حنق مسعور جعل أولئك القتلة يبدون ذلك القدر الكبير من التشفي والانتقام.

لا شك أن هؤلاء من أمة لا تنتمي لمحمد صلى الله عليه وآله، ولا تدين له بالحب والولاء، أمة قد ماتت وأوشكت على الاندثار، ويجب أن تنهض على أشلائها أمة جديدة، تنتمي لمحمد صلى الله عليه وآله حقاً، أمة إسلامية دستورها القرآن ومنهجها منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسنته، لا منهج معاوية ويزيد ومن سيعقبهما من الظلمة والطواغيت والفراعنة.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٤، واللهوف ص٥٤، والمناقب ٤/ ١١١، والإرشاد ص٢٥٨، والبلاذري ٣/ ٢٠٤، وابن الأثير ٣/ ٢٩٥، والخوارزمي ٢/ ٣٨، والنويري ٢٠/ ٤٥٩، وشرح الشافية لأبي فراس ج٢ ص٢.

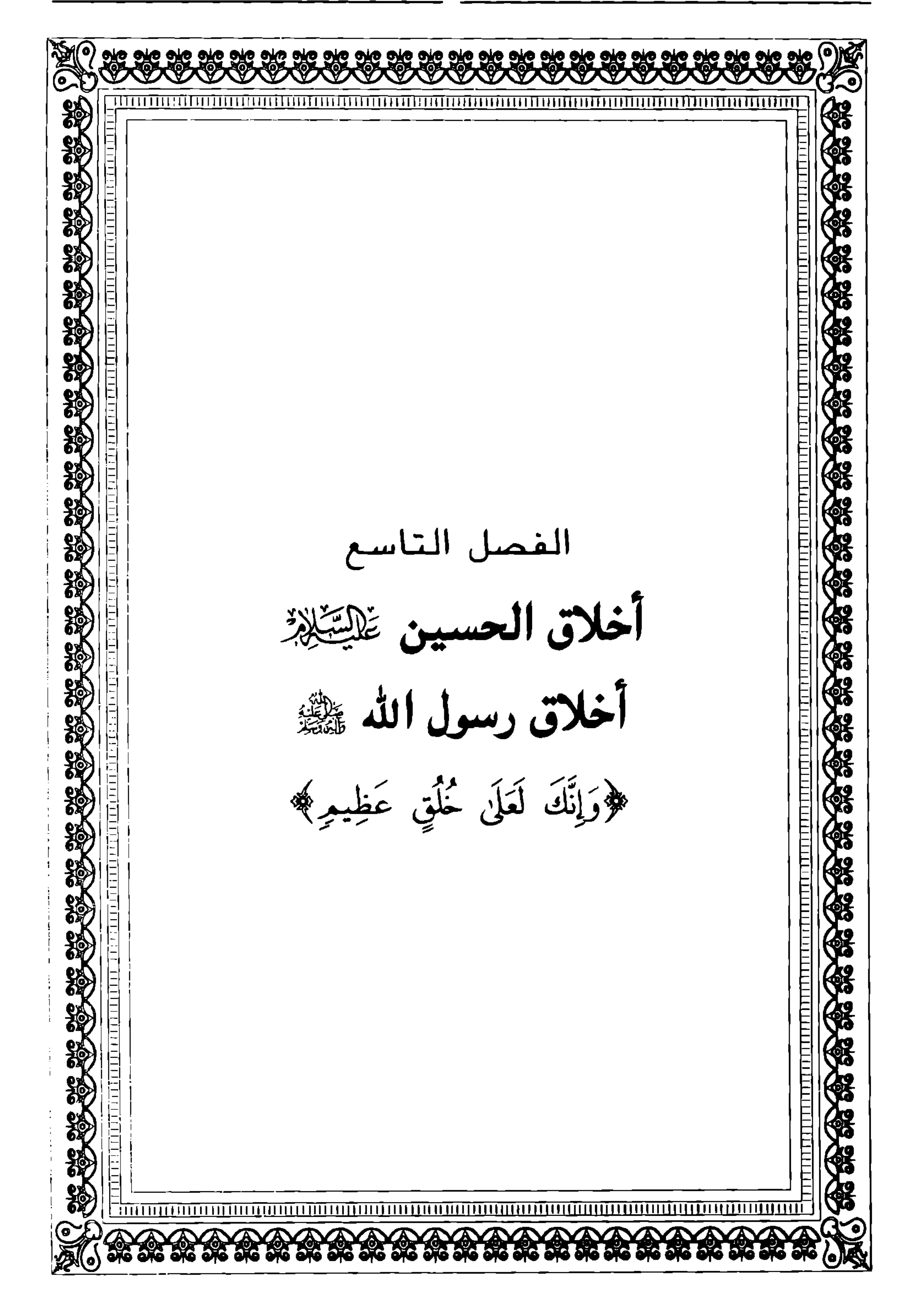
(٢) الطبري ٣/ ٣٣٥، وابن الأثير ٣/ ٢٩٦، والخطط المقريزية ٢/ ٢٨٨، والبداية والنهاية ٨/ ١٨٩، وتاريخ الخميس ٣/ ٣٣٣، وأعلام الورى للطبرسي ص٨٨٨، وروضة الواعظين للقتال ص١٨٦، وأنساب البلاذري ٣/ ٢٠٤، ونهاية الأرب للنويري ٢٠/ ٤٦٣.

ولا شك أن تصرفهم مع الحسين عليه السلام بذلك الشكل المخزي، سيثير انتباهنا على الدوام، ويجعلنا ندرك أنهم لم يقاتلوا من أجل الاسلام ووحدة المسلمين كما زعموا، وأنما كانوا أدوات طيعة بيد يزيد وأعوانه، يضربون بها كل عدو لسلطانهم ودولتهم.

وإن المدافع الوحيد عن الإسلام كان هو الحسين عليه السلام، وقد تصدى بوضوح وثبات بوجه دولة الظلم والانحراف الأموية، وكان دمه المراق على أرض كربلاء شاهداً على عظم تضحيته في سبيل الإسلام، الذي لم يدن أو يعترف إلا به، ولم يكن أمامه غيره في أية مرحلة من مراحل حياته.

وكان صبره على الموت قتلًا دليلًا على اعتزازه بالإسلام، وحرصه على أن تتمسك الأمة كلها به، ولا تفوتها فرصة ذلك، بل الفرصة الوحيدة في هذه الحياة الدنيا، فالحياة ستنتهي على أية حال، وبأي شكل من الأشكال، وعلى كل فرد منها أن يقدم كل ما لديه في سبيل الاسلام،

وقد شهدوا جميعاً كيف أنهِ قدم كل ما لديه، وأعز ما لديه، وكان في مقدمة السباقين لذلك.



الفصل التاسع

أخلاق الحسين عليه السلام

أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

أخلاق الحسين عليه السلام أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

مدخل

كان تعامل الحسين عليه السلام مع آل بيته وأصحابه، وأعدائه أيضاً يعكس أخلاق الإنسان الرسالي الكبير الذي ولد وترعرع في بيت النبوة، ذلك البيت الذي اختصه الله بأمور لم يختص بها بيتاً غيره، لقد أراده الله أن يكون البيت الذي تتطلع إليه الأمة دائماً عبر مسيرتها الطويلة ليكون قدوة دائمة.

ولسنا بحاجة هنا إلى تكرار مّا تحدثنا عنه من قبل بشأن النخبة التي ضمها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله على رأسها وفي مقدمتها، وحسبنا إشادة الله جل وعلا بها وبيانه الواضح في القرآن الكريم.

وإذا أراد الله أن تكون أخلاق هذه الصفوة قدوة دائماً للناس على مر العصور، فإنه جعل في كل جانب من جوانب سلوكها وتصرفاتها مصدر إشعاع ورفد دائمي لأخلاق الإسلام وتربيته التي أرادها أن تستوعب الحياة بكل متغيراتها، وتنسجم معها وتطورها إلى آفاق الإسلام الواسعة، التي جعلته مؤهلًا للبقاء دائماً وقادراً على قيادة البشرية والأخذ بيدها إلى ساحل الأمان والخير والعدل.

فلا عجب إن رأينا ما رأينا من كل فرد من أفراد هذا البيت، فرسول الله صلى الله عليه وآله يتجسم في كل واحد منهم صورة ناطقة للإسلام، ولا عجب أن أصبحت سيرتهم ابتداء من رسول الله صلى الله عليه وآله سنة أوجب الله اتباعها، ولا عجب أن عصمهم الله من الزلل والخلل وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، إذ كيف يكون قدوة دائمية من تجد الأخطاء إليه سبيلًا.

ورغم محاولات الإعلام الأموي المضلل والماكر والقوي والذي كان يديره معاوية، عبقري الشر الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، للتعتيم على فضائل آل البيت

بل وإبرازهم على أنهم ليسوا آل البيت أصلا، وأن آل البيت هم آل أبي سفيان، والذهاب إلى حد سب أمير المؤمنين عليه السلام والخروج عليه، وإظهار الحسين عليه السلام كمتلهف على السلطة، ومنافس غير مؤهل ليزيد، وإنسان ينطلق من عقد الكراهية والبغض والحسد، وصاحب رد فعل سريع غير مدروس وغير صحيح، وقد يذهب بتصرفاته إلى حد التهور، وأنه هو الذي جنى على نفسه في النهاية بالخروج على يزيد والثورة عليه ورفضه، إلى آخر ذلك من التخرصات والأكاذيب والمزاعم، فإن الحسين عليه السلام أثبت بسلوكه الرسالي وأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله التي حملها معه دائماً والتزم بها طيلة حياته وحتى آخر لحظة منها، أنه كان حقاً ممثل الرسالة والوريث الشرعي لرسول الله صلى الله عليه وآله، حتى لكأنه كان الإسلام نفسه بكل قيمه ومبادئه العظيمة الخيرة. . ، حتى لقد اضطر عدوه اللدود نفسه، معاوية، أمام ابنه يزيد وجمع من أعوانه ومريديه عندما طلبوا منه الكتابة إليه للحط منه، أن يعترف بفضائله وقد أجابهم على م وربما بحرقة وألم:

(وما عسيت أن أعيب حسيناً، وما أرى للعيب فيه موضعاً)(١).

على أن معاوية، والدولة الأموية فيما بعد ربما قد عمدت إلى عرض موقف الحسين عليه السلام الصلب من بيعة يزيد على أنه رد فعل غاضب وربما مؤقت منه وذهبت إلى الإدعاء بأنه كان يمتاز بذلك ويمتاز بالاندفاع وفورات الغضب المتكررة التي جعلت معاوية يصرح، ومعاوية غير ممنوع من التصريح، بأنه لا بد أن يذهب إلى العراق ويتعرض للقتل هناك، وقد تخبط ناقلوا الخبر الأمويون وغيرهم من الرواة والمؤرخين فذكروا أنه أوصى يزيداً بالعفو عنه إن فعل ذلك و(خرج عليه)، كما ذكروا أنه أوصاه أن يولي ابن زياد الكوفة إذا ما قصدها الحسين عليه السلام، الخ تلك الروايات والقصص.

وذكروا موقفاً تعرض فيه الحسين عليه السلام ليزيد، وقال لمعاوية عندما قرضه ومدحه، وقال عنه بأنه خير منه:

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١/ ١٨٢، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ١٩٨، ورجال الكشي ص٥٠، ومعادن الحكمة في مكاتيب الأئمة للكاشاني ١/ ٣٤، وبحار الأنوار ٤٤/ ٢١٢؛ وأعيان الشيعة للأمين ٤/ ١١٩، والدرجات الرفيعة/ السيد عليخان ص٣٣٨، وقد أوردنا في فصل سابق الموضع الذي ذكر فيه هذا الفصل ومناسبته.

(هذا هو الافك والزور، يزيد شارب الخمر ومشتري اللهو خير مني)[1].

كما ذكروا قصة زعموا فيها أن الحسين تعرض لقافلة كانت متوجهة من اليمن إلى معاوية بالشام وأنه استولى عليها بدعوى أنها من الأموال العامة للمسلمين، التي استأثر بها معاوية لنفسه وعائلته، وأن معاوية قد سامحه على ذلك وكتب إليه كتاباً هيناً رفيقاً يعلمه فيه أنه كان سيعطيه كل ما طلب دون أن يلجأ إلى ما لجأ إليه.

وكان الغرض من ذلك كما ذكرنا التشهير بالحسين عليه السلام، وعرضه كإنسان منفعل عصبي المزاج يندفع لأدنى تحريض أو أذى، حتى أنهم مقابل ذلك راحوا يعرضون يزيد كإنسان حليم حساس تهمه مصالح المسلمين ولا يريد إلحاق الأذى بأي أحد منهم، وأنه لم يكن ليلجأ إليه لولا موقف الحسين المعادي له، بل أنه لم يلجأ إلى ما لجأ إليه أصلًا وأن الذي قام بجريمة قتل الحسين هو ابن زياد، في كلام معد لتبرئة أنفسهم من تبعات الجريمة الكبيرة التي قام بها يزيد بإعداد وتحريض مسبق من معاوية كما ذكرنا.

وإذ أن الأضواء قد سلطت على الحسين عليه السلام بشكل لم يحدث من قبل، وإذ أن كل تحركاته وأقواله وأفعاله قد رصدت بعيد هلاك معاوية واستخلاف يزيد، فإن تصرفه في تلك الفترة التي ترك فيها المدينة إلى مكة ثم إلى الكوفة تكشف لنا طبيعة أخلاقه المتفردة والتي تنسجم كل الإنسجام مع طبيعة المهمة التي كان ينهض بها.

وتبين لنا أجوبته وردوده على المحذرين والناصحين له بعدم التوجه إلى الكوفة جانباً من تلك الأخلاق العظيمة، فقد كان رفيقاً متسامحاً مع الجميع، ولم يواجه أي فرد منهم بأية كلمة خشنة، رغم علمه بانحياز بعضهم إلى دولة الظلم، ولم يقل لأحد منهم أنك لا تريد نصيحتي، بل تريد الحفاظ على الدولة التي تمدك بالأموال والمكاسب، وقد شكرهم وواجههم بلطف قائلًا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني بأمر أنا ماض له، وأن هذه هي مشيئة الله ولا بد من الاستجابة لها. فقد كان يرى بذهابه للعراق فرصة وحيدة متبقية للحفاظ على الإسلام ولفت نظر الأمة الضعيفة المستسلمة إلى واقعها المزري في ظل الأوضاع الأموية الفاسدة.

---

(١) الإمامة السياسة ابن قتيبة ١/ ١٩٩.

لطف الحسين عليه السلام ورفقه حتى مع أعدائه

كان اللطف والرفق يغلفان الحسم والثبات الذي واجه به الجميع، وهو يعلن إصراره على المضي في مهمته إلى النهاية[1].

وحتى عندما حاول أعوان السلطة منعه من الخروج من مكة بالقوة واتهموه بالخروج عن الجماعة لم يزد عن قوله:

(﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] ومضى في طريقه متوجهاً نحو العراق)[3].

وحتى جوابه لعمرو بن سعيد بن العاص، عدوه اللدود والوالي الأموي على مكة كان متسماً بأبلغ آيات الأدب واللطف والمجاملة رغم ما كان يحمله من العزم والإصرار على الذهاب إلى العراق مهما كلف الأمر.

الحسين عليه السلام يجسد عدالة الإسلام

وتلفت حادثة بسيطة نظر من يدرس أخلاق الحسين عليه السلام الفريدة، وسلوكه القدوة إلى خاصية لم يمتز بها إلا من كانوا على شاكلته، وبالتحديد آل البيت . فقد علمنا أنه رفض بيعة يزيد وأعلن عزمه على مقاومته، وتزعم كل من يعارض حكمه، وسار إلى الكوفة بناء على دعوة أهلها، ولأنها المكان الوحيد الذي يمكن يقف بوجهه، وقد كان في حالة حرب إذاً معه، وكانت تلك الحالة تجيز التعرض له بكل الوسائل المناسبة.

(أقبل حتى مر بالتنعيم، فلقي بها عيراً قد أقبل بها من اليمن، بعث بها بحير بن ريان الحميري إلى يزيد بن معاوية وكان عامله على اليمن وعلى العير الورس والحلل

---

(١) مثال ذلك جوابه لعمر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي وقد حاول منعه من الذهاب إلى الكوفة، قال له: (جزاك الله خيراً. . . فقد علمت أنك مشيت بنصح، وتكلمت بعقل، ومهما يقض من أمر يكن. أخذت برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مشير وأنصح ناصح) الطبري ٥/ ٣٨٢ ط دار المعارف وابن الأثير ٣/ ٢٨٥، والمسعودي ٣/٦٦، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٣٧، وابن عساكر ترجمة ريحانة الرسول ص٢٠٢، ونهاية الأرب ٢٠/٤٠٦، وقد ذكرنا أقواله للمحذرين و(الناصحين) في فصل سابق.

(٢) يونس: ٤١

(٣) الطبري ٣/٢٩٦، وابن الأثير ٣/٢٧٦، وابن كثير ٨/١٦٦، والخوارزمي ١/ ٢٢٠.

ينطلق بها إلى يزيد، فأخذها الحسين، فانطلق بها، ثم قال لأصحاب الإبل: لا أكرهكم، من أحب أن يمضي معنا إلى العراق أوفينا كراءه وأحسنا صحبته، ومن أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكراء على قدر ما قطع من الأرض، فمن فارقه منهم حوسب فأوفى حقه، ومن مضى منهم معه أعطاه كراءه وكساه)[1].

ففي الوقت الذي وجد فيه نفسه مخولًا بالتصرف بالأموال التي بعث بها إلى يزيد وهي أموال المسلمين، وهو قد رفض يزيد باعتباره خليفة لهم، نرى أنه لم يجوز لنفسه صرف أصحاب الإبل المأجورين دون أن يخيرهم بالبقاء معه أو الرحيل ودون أن يدفع لمن يغادره أجرته وحقه، رغم أنهم ربما لم يطالبوه بالأجور، وبالتأكيد فأنه لو أراد الامتناع عن دفعها لما وجدوا في أنفسهم القوة اللازمة لمطالبته أو إجباره على ذلك.

كان يتصرف بعدالة الإسلام التي لا تبيح الأعتداء على أحد مهما كان ضعيفاً، وكان يضرب مثلًا حسناً لكل حاكم بحسن التصرف والعدالة.

فالمعركة هنا ليست بين حاكمين يبيحان لأنفسهما اللجوء إلى نفس الأساليب التي يستعملها كل واحد منهما، وليست معركة قوة وغلبة على الطريقة الهرقلية، وطريقة اللجوء إلى كل الوسائل للفوز والتغلب على الخصم.

فهو هنا يتحدى يزيداً ويستعيد منه ما أوشك أن يأخذه دون وجه حق رغم قوة يزيد غير أنه يرى أن لأصحاب الإبل حقاً يجب أن يعطوه رغم ضعفهم.

مع الفرزدق

وقد روى لنا الفرزدق الشاعر قصة لقائه بالحسين عليه السلام في (الصفاح) بعد خروجه من مكة، وسؤاله إياه عما دعاه للخروج منها وجواب الحسين عن سؤاله،

وقد لفت نظر الفرزدق أمراً ذكره قائلًا:

(قال لي «الحسين»: من أنت ومن أين أقبلت؟

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٦، وابن الأثير ٣/ ٢٧٦، والخوارزمي ١/ ٢٢٠، والنويري ٢/ ٤١٠، والبلاذري ٣/ ١٦٤، وابن كثير ٨/ ١٦٦، وابن طاووس ٢٨، وابن نما ٢١، والسيد بحر العلوم في الرجال ٤/ ٤٨.

قلت: امرؤ من العرب أقبلت من الكوفة. فلا والله ما فتشني عن أكثر من ذلك)[1].

فما دام الفرزدق لم يرغب بإعلان هويته، فإن الحسين عليه السلام لم يشأ إعادة السؤال عليه ثانية، وكان من حقه أن يعرف محدثه، غير أنه لم يفعل ذلك واستمر في حديثه معه وأجاب عن أسئلته بخصوص أشياء من نذور ومناسك.

ولو أن شخصاً آخر غير الحسين عليه السلام، كان في ذلك الموقف، لما اكتفى من محدثه بقوله إنه امرؤ من العرب، فلعل ذلك كان واضحاً في قوله وبيانه، ولكان حذراً ولما أطال الحديث معه، أما الحسين عليه السلام فقد رأى بحسه المرهف وأخلاقه العالية أن محدثه يشعر بالإحراج من كشف هويته فاكتفى بجوابه، وهو ما لا يفعله غيره في ذلك الموقف أو في غيره من المواقف الأخرى المشابهة.

أخلاق الحسين عليه السلام تلفت نظر زهير بن القين

ولعل أخلاقه هي التي لفتت نظر زهير بن القين الذي كان يكره مسايرته في الطريق أو منازلته في منزل واحد، وجعلته يتذكر رواية سلمان عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم»[2].

وجعلته يرى من هم آل محمد، وقد رأى من الحسين عليه السلام مثالاً متميزاً بأخلاقه الرسالية الرفيعة، التي جعلته مستبشراً واثقاً من أهمية المسعى الكبير الذي كان يسعى إليه.

ولم يكن زهير ممن يخدعون بأباطيل القول وزائف الحديث، بل كان إنساناً ناضجاً واعياً يدرك العمل الذي يقوم به والموقف الذي ينبغي أن يقفه، وهكذا وعلى حديث الحسين معه في تلك الفترة القصيرة.

وقد آثر أن ينضم إلى الحسين عليه السلام في الوقت الذي تخلى فيه الآخرون عنه، وفي الوقت الذي بدا فيه أنه كان معرضاً لأشد الأخطار وفي مقدمتها خطر الموت،

---

(١) الطبري ٣/٢٩٦، والنويري ٢٠/ ٤١٠، وابن الأثير ٣/ ٢٧٦، وابن كثير ٨/ ١٦٦، والصواعق المحرقة، ابن حجر ص١١٨.

(٢) الطبري ٣/ ٢٧٨، وروضة الواعظين ٢٧٨، والبلاذري ٣/ ١٦٨، والإرشاد ٢٠٥.

وهذا يدل بلا شك على وعيه الاستثنائي وإدراكه العميق لمهمة الإمام عليه السلام العاجلة، التي لم تكن تحتمل التأجيل أو المساومة أو المماطلة.

الحسين عليه السلام وصدق المعاملة

وتتجلى أخلاقه عليه السلام في صدق المعاملة مع الجميع، حتى مع أولئك الذين لم يكونوا معه، فالأخلاق بنظر الإسلام لا تتمثل بجميل القول وطلاقة الوجه وحسب، وإنما يمتد إلى صدق التعامل، فبذلك وحده يمكن التأثير في الناس وجذبهم إلى جانب الإسلام وجعلهم يلتفتون إليه إلتفاتة واعية، وذلك هو هدف الحسين عليه السلام في كل وقت من أوقات حياته ومسيرته، وذلك هو الذي فعله عندما ورد إليه مقتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد الله بن بقطر، فقد وضع أصحابه وأهل بيته ومن تبعه من الأعراب وغيرهم ممن اعتقدوا أنه سيقدم على بلد قد استقامت له طاعة أهله، أما الوضع الحقيقي، فلم يخف عنهم حقيقة ذلك الوضع وإنما أعطاهم الصورة الصحيحة له، قال لهم:

(قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد الله بن بقطر، وقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف، ليس عليه حرج منا ولا ذمام.

فتفرق الناس عنه تفرقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معهم من المدينة. وإنما فعل ذلك لأنه ظن أنما أتبعه الأعراب، لأنهم ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون علام يقدمون، وقد علم أنهم إذا بين لهم لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه)[1].

وإن الجمع الغفير الذي التحق به سيتراجع، بينما عزم هو على المضي حتى النهاية، وعلم أن الذين سيتبعونه هم الذين حملوا نظرته وأدركوا ضرورة ثورته وضرورة الاستشهاد بين يديه.

وهنا نلفت النظر أن الحسين عليه السلام، وقد علم أنه مقبل على الموت لا محالة، كان بإمكانه الرجوع، إذ لم تكن قوات الحر قد وصلت إليه حتى تلك اللحظة، ومع

(١) الطبري ٣/ ٣٠٣، وابن الأثير ٣/ ٢٧٨، وأعيان الشيعة ٤/ ١٨٧، وتاريخ أبي الفداء ١/ ٣٠١، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٠/ ٣٤٥، والإرشاد ٢١٥، والنويري ٢٠/ ٤١٥، وابن كثير ٨/ ١٦٨، والبلاذري ٣/ ١٦٩.

ذلك فإنه لم يتراجع ولم يتوقع أن يتراجع أي أحد من أصحابه، وهو ما فعلوه تماماً ومضوا معه إلى كربلاء حيث ينتظرهم الجيش الكبير الذي أعده ابن زياد لقتلهم.

أما الجمع الغفير الذي التحق به طمعاً ورجاء للمغانم والفوز فإنه تخلى عنه بعد أن أخبره الإمام الحسين عليه السلام بطبيعة الوضع، وما كان غير الحسين عليه السلام من القادة العاديين من يمكن أن يفعل فعله، وكانوا سيعمدون إلى تجنيد الناس وإغرائهم بكل الوسائل المتاحة لملاقاة العدو، هذا إذا وجدوا في أنفسهم الشجاعة لملاقاته أصلًا، ومن هنا يتجلى لنا صدق التعامل حتى مع أولئك الذين قد يكونون من أعدائه.

موقف الحسين عليه السلام من الحر وأصحابه قمة الأخلاق الإنسانية

على أن خلق الحسين الكريم تجلى بموقفه العظيم مع الحر وأصحابه، وما كان ذلك الموقف ليمر دون أن يلحظ جيداً من قبل الحر نفسه، وبالطبع من قبل جميع أصحابه.

فهؤلاء وهم ألف فارس قدموا لمضايقة الحسين عليه السلام ومحاصرته وتسليمه لابن زياد، وقد وصلوا الحسين عليه السلام عند اشتداد الحر، وكانت حاجتهم وحاجة دوابهم للماء كبيرة، حتى أن حياتهم كانت تعتمد على ذلك، وكانت فرصة سانحة له وقد علم نواياهم أن يمنع عنهم الماء ليسهل له التغلب عليهم والافلات منهم، وما كان أحد ليلومه لو كان قد فعل ذلك، ومع ذلك فإنه لم يكتف بإصدار الأوامر لسقي القوم وترشيف الخيل، بل قام هو بالمساهمة في ذلك بنفسه.

قال علي بن الطعان المحاربي:

(كنت مع الحر بن يزيد، فجئت في آخر من جاء من أصحابه. فلما رأى الحسين ما بي وبفرسي من العطش. قال: أنخ الراوية. والراوية عندي السقاء ثم قال: يا ابن أخ، أنخ الجمل، فأنخته، فقال: اشرب. فجعلت كلما شربت سال الماء من السقاء، فقال الحسين: إخنث السقاء أي أعطفه فجعلت لا أدري كيف أفعل فقام الحسين فخنثه فشربت وسقيت فرسي)[1].

أي أمر دعا الحسين عليه السلام لمعاملة أعدائه ومن جاؤا لمحاصرته وقتله تلك

---

(١) الطبري ٣/ ٣٠٥، وابن الأثير ٣/ ٢٨٠، وروضة الواعظين للقتال ص١٨٠، والمناقب ٤/ ٩٦، والإرشاد ٢٠٨، والخوارزمي ف١ ج١، وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ١٧١.

المعاملة؟ ثم ما الذي دعاه ليأمر فتيانه قبل ليلة من لقاء الحر أن يستقوا من الماء ويكثروا، ولم يكن ليفعل ذلك من قبل؟

أكان فعله مع الحر وأصحابه اتقاء لشرهم، مع أنه لم يكن ليشعر بأدنى بادرة خوف منهم، بل كان في وضع يمكنه من التغلب عليهم؟ لقد أراد الحر حبس أو رد أربعة أشخاص جاؤا من الكوفة للالتحاق بالحسين عليه السلام فصاح به الحسين:

(لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني، وهم بمنزلة من جاء معي، وقد كنت أعطيتني ألا تعرض لي بشي حتى يأتيك كتاب من ابن زياد، فإن بقيت على ما كان بيني وبينك، وإلا ناجزتك، فكف الحر عنهم، فالتحقوا بالحسين وأصحابه)[(١)].

ولعل هذه الأخلاق العالية كانت تبهر الحر وتلفت نظره إلى عدالة قضية الحسين عليه السلام ولعله كان منذ تلك اللحظة بالالتحاق به إذا ما تمادى أعداؤه معه، وأرادوا قتله حقاً.

وحتى مع ابن الحر الجعفي الذي رفض مقابلته واللقاء به، وأعلم رسول إليه بذلك، كان رقيقاً وقد مشى إليه بنفسه وحاول أن يجعله ينضم إليه، ولم يأنف من إجابته عندما سأله عن سواد لحيته: أسواد أم خضاب، وقال له: يا ابن الحر، عجل علي الشيب ربما كان سؤالًا في غير محله، غير أن الإمام ربما رأى أنه قد يخجله إذا لم يجبه وحتى دعوته إياه للإنضمام إليه كانت دعوة رفيقة رقيقة، كما أن جوابه الأخير له، عندما أخبره أنه لا يستطيع الانضمام إليه، رغم اتسامه بالحزم، فإنه كان يتسم بالأدب الشديد، وقد جعل ذلك الموقف ابن الحر يندم على موقفه فيما بعد ويتمنى لو أنه قد التحق به عندما دعاه لذلك.

الحسين عليه السلام يفيض رقة وعذوبة

وتكشف حواراته العديدة مع ابنه علي الأكبر وأخيه العباس وأخته زينب وبقية أصحابه وأهل بيته رقة أخلاقه وطيب شمائله، بل أنه كان يفيض رقة وعذوبة عند حديثه معهم، وكان حبه إياهم حباً في الله تعالى.

---

(١) المصدر السابق.

وحتى مع أعدائه لم تكن أي نبرة للكراهية تلوح في نبرات صوته أو ثنايا حديثه، ولعل الأسف على أولئك الذين جعلوا أنفسهم في موضع أعدائه هو ما كان يشعر به حقاً. فهو كان يتبنى قضية الدفاع عن الإسلام وعن الأمة الإسلامية المظلومة المضللة، بما فيها أولئك المخدوعين السائرين في ركابها، وكان يرى أنهم يسعون لمصيرهم البائس دون أية محاولة جادة لتخطيه أو تجاوزه، وذلك ما كان يحزنه.

فهو لا يسعى إلى كسب شخصي أو يخوض غمار معركة ستعود عليه بنفع دنيوي، وإنما كان الأمر عكس ذلك تماماً، وأولئك الذين تقدموا لحربه وقتاله ربما فهموا المسألة فهماً خاطئاً، وربما ضللت غالبيتهم وسيقت بالقوة لمقاتلته.

فلم يكن هو المستهدف شخصياً بقدر ما كانت الأمة كلها مستهدفة بظلم النظام المنحرف، وبقدر ما كان الإسلام نفسه مستهدفاً، ولو أن رسول الله ﷺ تصدى ليزيد أو معاوية لما لقي إلا الذي يلقاه هو الآن.

أي أسى يثيره في نفسه موقف هذه الأمة المتخاذلة المهزومة، وأي حزن يثيره مصير أولئك البائسين وهم يرفضون فكرة الانضمام إليه والتخلي عن قتاله رغم دعوته الواضحة لهم، وبياناته وخطبه التي أوضح فيها سبب ثورته على النظام المنحرف.

لقد جرت مواقف عديدة سالت فيها دموع الحسين عليه السلام، وتفجر فيها قلبه بالحزن، لقد بكى أصحابه الذين سبقوه للموت، وبكى عند كل مشهد تعرض فيه أحدهم للقتل والأذى، وبكى عند كل موقف شعر أن شخصاً منهم كان مكروباً أو حزيناً.

ففي (زرود) عندما ورده نبأ مقتل ابن عمه مسلم، استدعى ابنته الصغيرة التي لم تبلغ الحلم بعد وجعل يلاطفها، ولعله لم يرد أن تفاجأ بخبر مقتل أبيها فأراد أن يبلغه إياها برفق، وقد شعرت الطفلة أنه كان يعاملها دون الصغار برقة استثنائية وعندما تساءلت:

(يا عم أراك تعطف علي عطفك على الأيتام، أفأصيب أبي مسلم؟

وهنا تفجرت الدموع من عيني الإمام) وأجابها:

يا بنية لا تحزني، فلئن أصيب أبوك فأنا أبوك وبناتي أخواتك)[1].

---

(١) مقتل الحسين للسيد محمد تقي بحر العلوم، ص٢٤٨، نقلاً عن أسرار الشهادة للدربندي.

لقد عظم عليه المصاب، واشتد به الحزن، ولم يرد لعواطفه النبيلة إلا أن تظهر أمام تلك الطفلة المفجوعة.

كان الحزن النبيل لمصائب الآخرين يغلف سلوكه ويطبع تصرفاته.

وبقدر ما كانت آلام طفلة مفجوعة تفجر الأسى في قلبه، والدموع في عينيه، فإنه كان يقف كالحديد الصلد بمواجهة أعدائه، لا تبهره كثرتهم ولا يخيفه سلاحهم ولا تهديدهم إياه بالقتل، وكان يرمقهم بثبات ويحاورهم بثقة من يعلم أنه على حق وأنهم على باطل.

كانت كلماته لأخته زينب، عندما أخبرها بأنه رأى جده رسول الله ﷺ في المنام وأخبره أنه صائر إليه عما قريب، وعندما لطمت وجهها ونادت: يا ويلتاه، تفصح عن حبه لها ورغبته أن يجنبها أمثال هذا الموقف في المستقبل ويعدها لتقبل موته، والإفادة من المسألة كلها لصالح الإسلام.

قال لها:

(ليس لك الويل يا أخية، اسكتي رحمك الله لا تشمتي بنا القوم، فسكتت)[1].

لم يزجرها ولم يكلمها بعصبية، كما هو متوقع من غيره الذين قد يكونون بذلك الموقف، وإنما حاول تهوين المصيبة عليها، وقد رأى كيف سيكون حالها بعده وبعد مقتل آل بيته وأصحابه، وهي مصيبة هائلة أنى لنساء محزونات ثكلات أن يتحملنها.

وقد تكرر هذا الموقف عدة مرات، فكان هو الذي يهون عليها مصيبة قتله، ولعل منظرها ومنظر عياله بعد قتله كان أشد مصيبة عليه من قتله، وكان يحزنه ما سيحل بهم بعده وهم يواجهون طغمة مجنونة، أذهب برشدها منظر الدم الذي سيريقه بعد قليل، وقال لها:

(يا أخية إني أقسم عليك، فأبري قسمي، لا تشقي علي جيباً، ولا تخمشي علي وجهاً، ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت). الطبري ٣/ ٣١٦.

كان يريد إعدادها لتقبل المصيبة، فلا يكون وقع المفاجأة عليها قوياً، وكان يريدها أن تستعد لاحتضان النسوة المفجوعات والأطفال المذعورين، وتخفيف وطأة

(١) الطبري ٣/ ٣١٤، واللهوف ص٣٨، ودار السلام للميرزا النوري ١/ ٧٥، ونهاية الأرب ٢٠/ ٤٣٢.

المصيبة عليهم ورعايتهم في رحلة العودة الطويلة إلى الحجاز، وهم يواجهون الجزارين والقتلة، وقد فعلت زينب ذلك فكانت هي التي تسلي المحزونين والمكروبين منهم.

الحسين عليه السلام يمتدح أصحابه وأهل بيته بما هم أهله

كانت العاطفة الإنسانية تبدو في كل موقف وقفه الحسين عليه السلام وفي كل لقاء له مع أصحابه، قال لهم قبل عاشوراء بليلة واحدة:

(أثني على الله تعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة. فاجعلنا لك من الشاكرين.

أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً.

ألا وأني لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وأني قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حل، ليس عليكم مني حرج ولا ذمام.

وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سواد هذا الليل، وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يريدون غيري، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري)[1].

لم يقل فيهم إلا ما كان يراه حقاً، وكان ما يراه حقاً فعلًا، فأصحابه خير الأصحاب وأهل بيته أبر وأوصل أهل بيت.

كان يعدهم لتقبل موته بعد أن يتقن حرصهم على البقاء معه والشهادة بين يديه، وكان يدرك أن أمر موته سيكون صعباً عليهم، وأن حزناً عميقاً سيخيم عليهم إذا ما تيقنوا من بذلك، وقد استسهلوا بذلك أرواحهم دونه.

ولم تكن كلماتهم التي ردوا بها عليه، مجرد كلمات تقال في معرض التقريض

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٥، واللهوف ٣٨، وروضة الواعظين للفتال ١٨٣، وابن الأثير ٣/ ٢٨٥، والإرشاد ٢١٠، وأمالي الصدوق م٣٠، والخوارزمي ج١ ف١١، والإرشاد ٢١٠، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٤١، والبحار ٤٤/ ٤٩٢، والمناقب ٤/ ٩٩، والإيفاد ٦٣، وأنساب الأشراف ٣/ ١٨٥، والنويري ٢٠/ ٤٣٥.

والمجاملة، وإنما كانت قطعاً من أكبادهم وقلوبهم عرضوها أمامه وعبروا بها عن الولاء الصادق له ولقضيته العادلة لنصرة الإسلام.

ولعلنا سنتحدث بإسهاب عند استعراض فصل (أنصار الحسين) في كتاب قادم إن شاء الله.

ونكتفي هنا بإيراد كلام أخيه العباس عليه السلام الذي رد به على كلامه:

(ولم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً)[1].

ولم يرهم الله ذلك أبداً، فقد استشهدوا قبله وقدموا أرواحهم رخيصة دونه.

حزن الحسين عليه السلام النبيل على مقتل أصحابه

كان حزن الحسين على مقتل أصحابه كبيراً، ولعل الشيء الوحيد الذي يخفف من ذلك الحزن هو يقينه أنه سيكون في الأثر وسيلحق بهم عما قليل.

ولعل الحزن النبيل الذي استدر الدموع من عينيه عند مصرع أخيه العباس كان أشد وقعاً من أي حزن آخر ألم به، ولعله يستعرض في ذهنه صورة الأم التي رعته بعد وفاة أمه الزهراء ، أكثر من رعايتها لأولادها الذين يستشهدون الآن بين يديه، ويقدمون أنفسهم فداء له وللإسلام، والتي ستحزن لفقدهم جميعاً، وستبكي عليه ربما أكثر من بكائها على أولادها.

لقد انحنى عليه بعيد قتله وجعل يقبل موضع السيوف من وجهه ونحره وصدره وهو يبكي، فقد كانت مصيبته به فادحة، إذ كان يعول عليه كثيراً في كشف الأعداء وردهم عند اشتداد القتال وكان آخر من قتل من أهل بيته، ولأنه كان قبل كل شيء من خيار أكابر علماء أمة محمد المخلصين، كان أمره مع جميع أصحابه واحداً، كان يبكي عليهم ويمسح التراب والدم عن وجوههم ويحتسبهم إلى الله وقد استشهدوا في سبيله، فكأن كل واحد منهم في مقام ابنه علي الأكبر، الذي ألبسه لامة الحرب بيده وأركبه فرسه وقدمه لمقاتلة أعداء الله وأعداء الإسلام، والذي استشهد بعد قتال شديد معهم.

وكان بكاء النساء على أهل بيتهن مبعث حزن كبير للحسين، إذ أصبح ينظر إليهن منذ الآن وقد أصبحن وحيدات بمواجهة جيش ضار لا يتحرج من ارتكاب أشد

---

(١) المصدر السابق.

الآثام والجرائم، ويراهن وقد عدن إلى بيوتهن بعد سفر مضن يتعرضن فيه لأشد المشاق والمتاعب، ويناجين حيطان أو حجار تلك البيوت التي لن تشهد أربابها وعمارها ثانية. مشهد النساء الثكالى المحزونات المكروبات بدأ يلوح أمامه قوياً كلما سقط فرد من أهل بيته وأصحابه، ومع أنه لم ينل من عزمه على مواجهة الأعداء والمضي حتى النهاية والاستشهاد في سبيل الإسلام، إلا أنه كان يسبب له حزناً عميقاً يستدر الدموع من عينيه ويجعله يهتف أحياناً بأسماء من فقدهم، ويناجي تلك الأسماء الحبيبة، وينذر القتلة بما سيلقونه جراء اقترافهم تلك الجرائم المنكرة.

ولعل القاسم بن الحسن عليه السلام، وهو غلام لم يبلغ الحلم، هو الوحيد الذي تقدم إليه الحسين عليه السلام واعتنقه وأخذا يبكيان معاً عندما سمح له بالذهاب إلى الميدان للقتال، ولعله كان يرى فيه صورة أخيه الحسن عليه السلام، الذي قتل ظلماً وغدراً على يدي معاوية بعد أن دس له السم، وبعد أن تآمر على نزع الخلافة عنه وصرفها عن آل البيت نهائياً.

ها هو ابنه يتقدم للدفاع عن عمه وعن الإسلام كما دافع هو من قبل عن أخيه، ووقف إلى جانبه في مواقفه التي دافع فيها عن الإسلام، وقد (احتمله على صدره، فجاء به إلى الخيمة وألقاه مع ولده علي والقتلى من أهل بيته)[1].

لقد ناجاه وهو يجود بنفسه ويفحص برجليه:

(يعز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا يعينك، أو يعينك فلا يغني عنك، بعداً لقوم قتلوك، هذا يوم كثر واتره وقل ناصره)[2].

الأدب وروح المسؤولية في خطابات الحسين عليه السلام لجيش ابن زياد

كان خطابه لجيش ابن زياد، شأنه شأنه خطابه لأصحاب الحر، يتسم بأعلى قدر من الأدب وروح المسؤولية:

(حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على النبي محمد، وعلى الملائكة والأنبياء، فذكر من ذلك ما لا يحصى ذكره، ولم يسمع قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه)[3].

---

(١) و(٢) الخوارزمي ٢/ ٢٨، واللهوف ٤٨، والإرشاد ٢٥٤، وأبصار العين للسماوي ص٣٧، وابن كثير ٨/ ١٨٦، والنويري ٢٠/ ٤٥٦.

(٣) الطبري ٣/ ٣١٣، وابن الأثير ٣/ ٢٨٧، والإرشاد ٢٤٧، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٤٤.

لم يكن يستعرض بيانه وبلاغته أمامهم لمجرد الرغبة في ذلك، وكان له لو أراد مجرد ذلك في وضعه ذاك شغلًا شاغلًا عن الخطابة والبيان، فهو قد استعد للموت، وأدرك أنه ملاقيه بعد لحظات، وأن هؤلاء الذين تجمعوا لحربه وقتاله قد لا يعون كلامه، غير أنهم قد يتدبرون ذلك الكلام فيما بعد ويعونه.

وقد أراد بخطبته التي بدأها بحمد الله والثناء عليه، وذكر الله بما هو أهله، أن يريهم بطريقة مؤدبة رفيقة أن الله هو حقاً من ينبغي التوجه إليه بالحمد والثناء لا الطواغيت التي كانت تسخرهم وتسيرهم على هواها وكيفما شاءت.

كان يريد إعادتهم إلى واقع الإسلام وحياة الإسلام التي ترفض العبودية لغير الله، ولم يكن يريد تخليص نفسه منهم بقدر ما كان يريد تخليصهم هم من أعدائهم، الذين تسللوا إلى مركز القيادة والحكم، فهم الذين كانوا بحاجة شديدة إليه في تلك اللحظات الحرجة التي أوشكوا فيها على ارتكاب جريمتهم بحق الإسلام وبحق جميع المسلمين، ولم يكن هو بحاجة شديدة إليهم لكي يخلصوه من الموت الذي استعد له منذ وقت طويل، وأكمل استعداداته له قبل أن يواجههم هذه المواجهة الأخيرة، ويطلب منهم نبذ الظالمين والتخلص منهم والعودة إلى الإسلام.

كان الحسين عليه السلام في كل خطبه وبياناته وكتبه يشير إلى ذلك الذي ينبغي أن تتوجه إليه القلوب والأبصار وهو الله جل وعلا ليخلصها من مشهد الطواغيت والفراعنة الذين بدأوا يتسلقون ثانية على أكتاف الناس، ويتسلطون عليهم ويتلاعبون بمصائرهم ومقدراتهم،

وكان حرياً بمن استمعوا إليه أن يعوا كلماته ويفهموها على وجهها الصحيح، لا أن يستمعوا لوجيب قلوبهم الضعيفة المستسلمة وأعوان الطواغيت الذين انتشروا بينهم وحرضوهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله، وقائدهم الحقيقي وأشد الناس محبة لهم وحرصاً عليهم وعلى مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وذريتهم فيما بعد.

لم يتقدم إليهم الحسين عليه السلام ملوحاً بالعصا والمال يبذله لهم بغير حساب إن هو تسلم السلطة، وإنما تقدم إليهم بالإسلام، كثروة دائمية لا تنضب ولا تستهلك.

وإذا لم يفهم أولئك خطاب الحسين عليه السلام ولم يجدوا في أنفسهم الجرأة على استيعابه، فإن أجيالًا أخرى لا بد أن تفهم ذلك الخطاب وأن تعي كل كلمة منه، وتواصل بناء على ذلك مسيرته التي بدأها في كربلاء ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

الحزم والثبات الحسيني المغلف بأدب الاسلام

كان حزنه وثباته وإصراره مغلفاً بأدب الإسلام، وكان ملتزماً بحدوده وقواعده حتى مع أشد الناس عداوة وإيذاء له.

قال له قيس بن الأشعث، الذي غدر أخوه بمسلم بعد أن أعطاه الأمان ثم لم يف له به، وآل الأشعث ذوو عداوة معروفة لآل البيت :

(أولا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروك إلا ما تحب، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال له الحسين:

أنت أخو أخيك. أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟

لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد. عباد الله ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

ثم أناخ راحلته. وأمر عقبة بن سمعان فعقلها)[1].

فقد كان مصمماً على التصدي لهم والوقوف بوجههم، أناخ راحلته وأمر عقبة بن سمعان فعقلها. قرر أن يثبت إلى النهاية. والنهاية أمام عددهم الكبير بدت واضحة، فذلك ما بشر به وذلك ما أعد له نفسه طيلة حياته.

كان مطلبهم الأخير منه، وبعد كل حججه وأقواله، الاستسلام.

وكان رده قاطعاً أثبته بأن أمر بعقل الجمل.

أما مع ابن الأشعث، فلم يهدد أو يتوعد أو يشتم شأن من أيقن بالخسارة أو الهلاك ويريد أن يعوض عن ذلك بجعجعة من القول أو عاصفة من التهديد، وإنما ذكره بموقف لآل الأشعث غادر، يتكرر الآن معه، وبحيلة لن يفوته إدراكها، وكان حرياً بابن الأشعث أن يخجل ويطأطىء رأسه، غير أنه في ظل الطواغيت الأمويين

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٩، والنويري ٢٠/ ٤٤٢، وابن الأثير ٧/ ٢٨٨، والخوارزمي ١/ ٢٥٧، والإرشاد ٢٤٨، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٤٦، والبلاذري ٣/ ١٨٨.

الذين أشبعوا حتى أتباعهم ومستخدميهم ضروب الإهانات والشتائم، لم ير في كلمة الحسين عليه السلام إهانة له، وذهب بعد ذلك إلى حد سلب قطيفته فأصبح يلقب في الكوفة بقيس قطيفة، كل ذلك ولا يأنف، ويحسب نفسه من أشراف المسلمين وكبارهم طالما كان في خدمة الدولة الظالمة.

سبب دعاء الحسين عليه السلام على ابن حوزة

ومع ابن حوزة، لم يفعل سوى أن دعا عليه، فاستجاب الله دعاءه في الحال، كان ابن حوزة ضمن جيش ابن زياد الذي يقوده ابن سعد، ولعله كان جندياً عادياً بسيطاً مغموراً، وقد أراد إظهار ولاءه للظالم بموقف يتميز به عن الآخرين، مع أن أحداً لم يطلب منه ذلك.

تقدم نحو معسكر الحسين عليه السلام صائحاً:

(أفيكم حسين؟ فلم يجبه أحد. فأعاد القول ثانياً وثالثاً.

فقال له بعض أصحاب الحسين: هذا الحسين، فما تريد منه؟

فقال: يا حسين أبشر بالنار.

فقال الحسين: كذبت، بل أقدم على رب غفور كريم مطاع شفيع، فمن أنت؟

قال: أنا ابن حوزة.

فرفع الحسين يديه نحو السماء، حتى بان بياض أبطيهما، وقال: اللهم حزه إلى النار، فغضب ابن حوزة، وأقحم الفرس في نهر بينهما، فتعلقت قدمه بالركاب، وجالت به الفرس، فسقط عنها، فانقطعت ساقه وفخذه، وبقي جانبه الآخر معلقاً بالركاب، يضرب به الفرس كل حجر وشجر، وألقته في النار المشتعلة في الخندق فاحترق بها حتى مات)[1].

ويلفت هذا الحوار نظرنا إلى أمرين:

أولهما: إن ابن حوزة أصر على سؤاله عن الحسين عليه السلام ولم يتراجع رغم

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٢، وابن شهرآشوب ٤/ ٥٦، وذخائر العقبى الطبري ص١٤٤، والبلاذري ٣/ ١٩١، وكفاية الطالب للكنجي ٢٨٧، وابن الأثير ٣/ ٢٨٩، وينابيع المودة للقندوزي: باب ٦١ مع اختلاف يسير في النص.